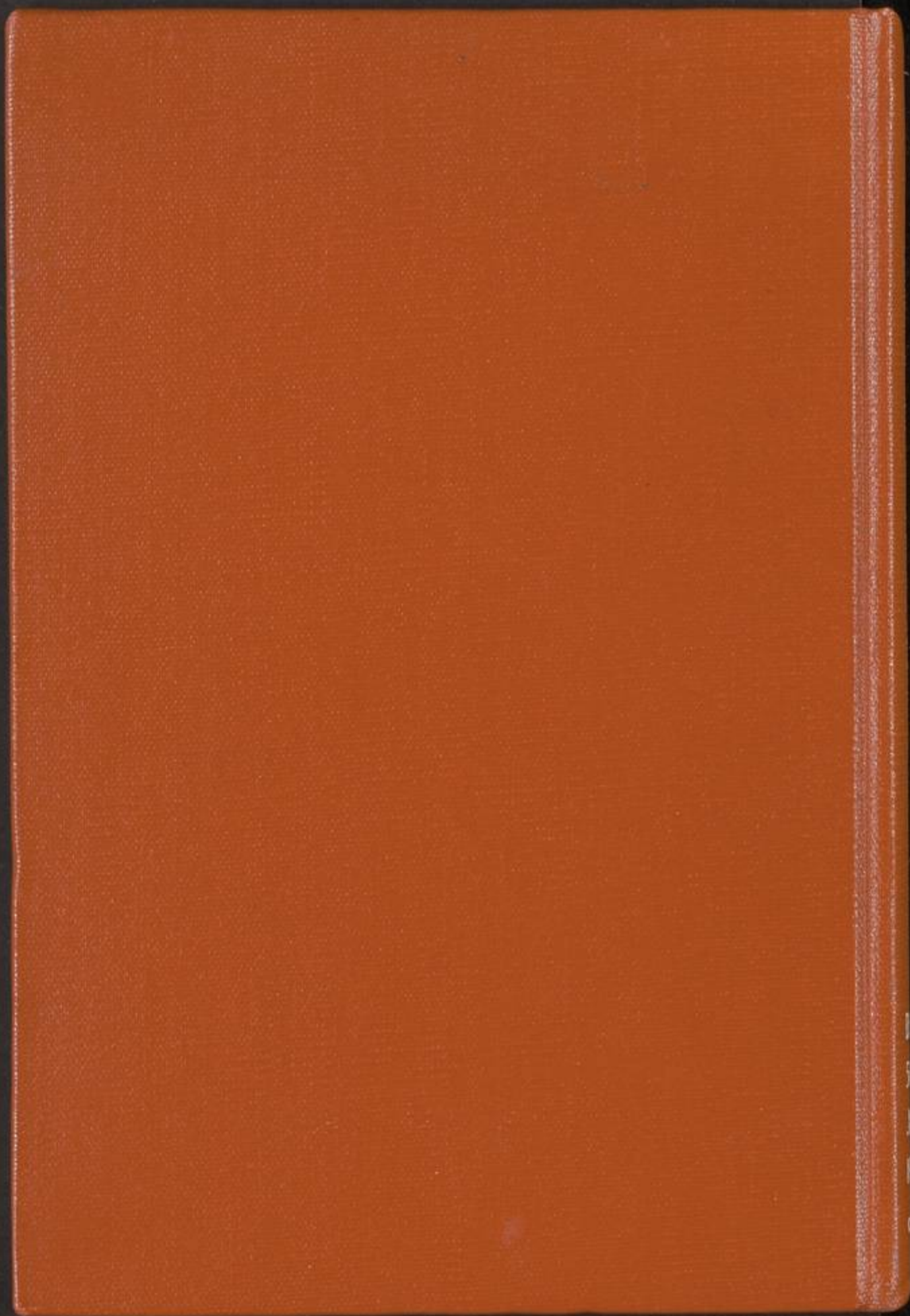






**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**



7





224

11

317

جامعة الدول العربية

الإدارة الثقافية

المستشار العام
مدير إدارة الشؤون العربية
محميات الإدارة الثقافية

MU^oTAMAR AL-ĀTHĀR FĪ BILĀD AL-ʿARABĪY

مؤتمرات الأثر في البلاد العربية

(المنعقد في دمشق، صيف ١٩٤٧)



مطبعة جامعة فؤاد الأول
القاهرة - ١٩٤٨

DS

56

.M 86

1947

C.1

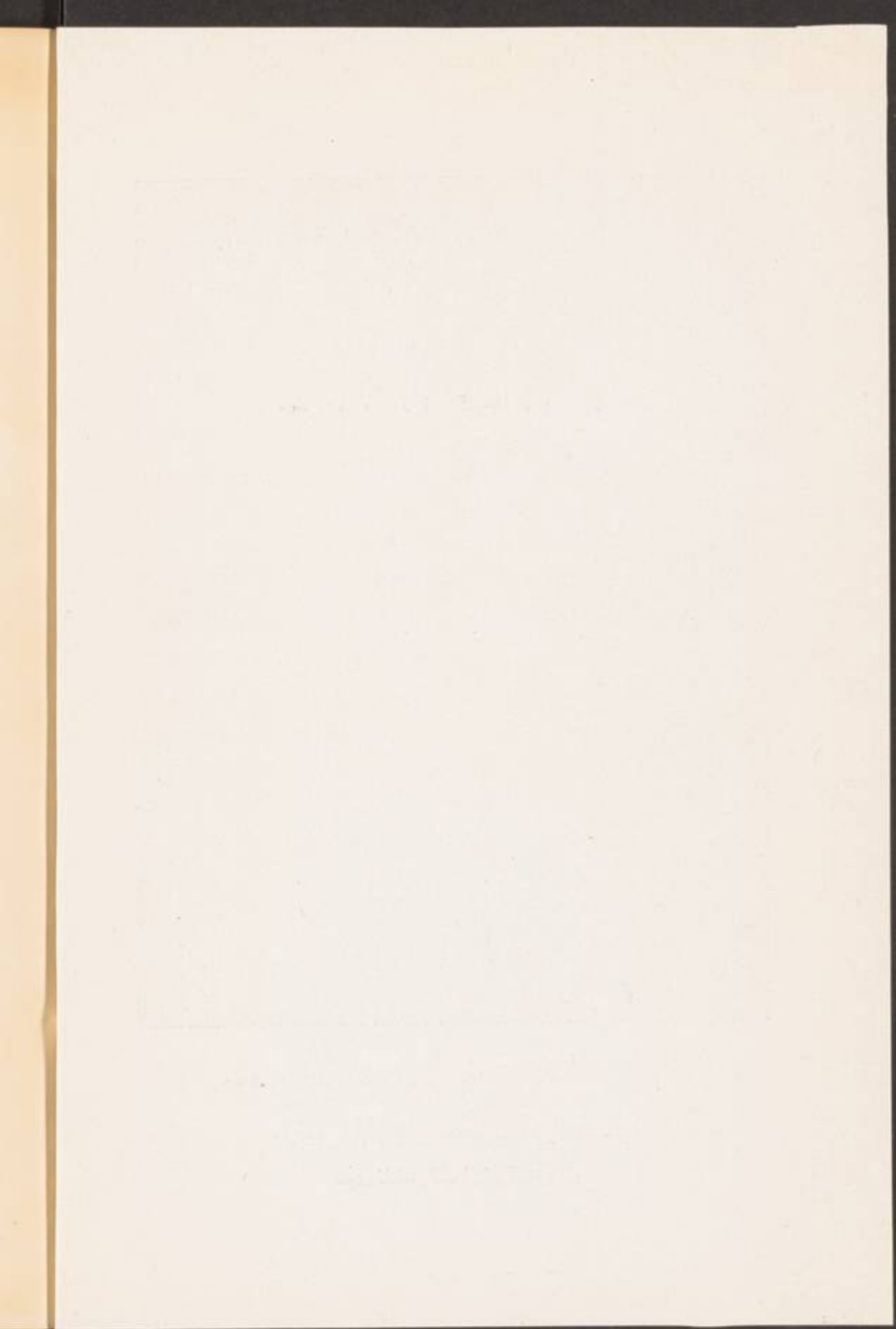
AUG 4 1983



حضرة صاحب الفخامة شكرى القوتلى بك

رئيس الجمهورية السورية المعظم

الذى تفضل فشمّل المؤتمر برعايته



تصدير

بقلم حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك

من دواعي غبطتي أن أقدم للقراء خلاصة أعمال "مؤتمر الآثار في البلاد العربية" بعد أن قدمت لهم أعمال المؤتمر الثقافي للغة العربية ، وقد عقد هذان المؤتمران في صيف واحد سنة ١٩٤٧ ، أحدهما وهو المؤتمر الثقافي في بيت مرى ببلبنان ، وثانيهما وهو مؤتمر الآثار في دمشق . ومما يزيدني اغتباطاً نجاح هذين المؤتمرين ووضعهما الحجر الأساس في بناء التعاون بين الأقطار العربية ، وهو ما أرجو أن يتم بنيانه حتى يثمر ثمرته المرجوة إن شاء الله .

وكان من أبهج المناظر التي شاهدناها في مؤتمر الآثار أن نرى عدداً كبيراً من المختصين في الآثار على اختلاف ألوانها من أبناء العرب يعرضون نتائج بحوثهم ويرسمون الخطط للبحث عن الآثار وصيانتها . وقد كان هذا العمل لعهد قريب ، وقفاً على الأجانب ، فهم الذين يأتون ديارنا يبحثون عن آثار أجدادنا ونحن عالة عليهم ننظر نتيجة أبحاثهم وليس في استطاعتنا مشاركتهم . فاذا رأينا اليوم من بين أبناء البلاد من حذقوا دراسة الآثار وأخذوا عبء البحث عنها واستكشافها والعمل على صيانتها حمدنا ذلك كل الحمد واغبطنا كل الاغتباط .

وللعناية بآثارنا فوائد لا تحصى فهي سجل الحضارتنا تدل على ما وصل إليه أسلافنا في العلوم والفنون في العصور المختلفة من رقي ومدنية ، ودلالاتها على ذلك باقية على الزمان . فقد تضيع الأوراق المحفوظة والكتب الموروثة ، وقد يخطئ التاريخ فينسب عملاً لآخر ويحدد للعمل زمناً غير الزمن الذي حدث فيه ، وقد يهمل التاريخ عادات وتقاليد للأمم فتصحح ذلك كله الآثار بما سجلت ودونت على مخلفات لا يقوى على محوها الزمان ، ولا سيما أن الآثار هي الذروة التي بلغها العلم والفن في عصرها ، فأبنية الشعوب وآثارها وأنواع فنونها يزول أكثرها مع الزمن ، وإنما يبقى ما احتشد له

الملوك والطبقة الارستقراطية وأودعوه من عصارة العلوم والفنون في عصرهم وحشدوا لها مهرة الصنائع والمهندسين والعلماء ليحفظوا فيها مبلغ جهدهم ويحيطوها بأنواع العظمة التي تصد الزمن عن العبث بها . فدراسة الآثار دراسة حضارة ، ودراسة تاريخ ، ودراسة علم وفن .

وقد اختص كل قطر من الأقطار العربية بنوع من الآثار يتفق وتاريخه ومدنيته وحضارته وتقاليده شعوبه ، مما قد لا يكون له نظير في الأقطار الأخرى . فدراسة آثار كل قطر على حدتها تنفع من ناحية ، ولكنها دراسة جزئية يكملها ما عند الأقطار الأخرى . لهذا كان تعاون الأثريين في الأقطار المختلفة مما يسد هذا النقص ويحقق هذا الكمال بتبادل الأبحاث والنشرات والصور .

ثم هذه الآثار مصدر لنوع من الثقافة لا غنى عنه للناشئة والمتعلمين ، إذ هو يبعث فيهم الاعتزاز بماضيهم والفخر بأجدادهم ، لينبؤوا على اعتزازهم بالقديم اعتزازاً بالحاضر والمستقبل .

إذن كان لابد من التعاون بين رجال الآثار في الأقطار العربية المختلفة كي ينتفع كل من آثار كل ، وكيف يستفاد من الآثار في ثقافة الناشئين والمتعلمين ، وكيف يستنون القوانين المتحدة لترميم الآثار وصيانتها من أحداث الزمان وحفظها من أيدي الخاطفين ونحو ذلك من ضروب المعونة التي لابد منها لتحقيق الغرض المنشود . وهذا ما دعا الإدارة الثقافية للجامعة العربية الى عقد هذا المؤتمر الأول الذي يعد خطوة أولى يتلوها عقد مؤتمرات أخرى لتحقيق المنافع المتبادلة .

ونتهز هذه الفرصة لشكر سوريا حكومة وشعباً ، وعلى رأسها نخامة رئيس الجمهورية شكرى بك القوتلى على ما بذلوا من معونة صادقة لإنجاح هذا المؤتمر والوصول به الى غايته .

كما أشكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن على ما قام به من جهد كبير في إعداد المؤتمر وتنظيم أعماله والقيام على إخراج هذا السفر القيم في هذا الشكل الأنيق .
فلهم جميعاً منا أطيب الثناء والله يتولى لهم أحسن الجزاء .

عقد المؤتمر بقصر العظم في دمشق

تحت رعاية

حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية

وقد تفضل نخامة الرئيس بتشريف جاسة الافتتاح

رياسة الجلسات

رأس جلسة افتتاح المؤتمر وجلسة الاختتام :

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف السورية .

تناوب رياسة الاجتماعات العامة :

المندوبون الأول في وفود سورية ، فالعراق ، فالمملكة العربية السعودية ، فلبنان ،
فمصر ، فاليمن .

مثل الجامعة العربية في المؤتمر :

الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك ، الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك ،
الأستاذ سعيد فهم بك .

المكتب الفني للمؤتمر

الأمير جعفر الحسني رئيساً

الأستاذ سعيد فهم بك وكيل الإدارة الثقافية بالجامعة العربية

الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن السكرتير العام للمؤتمر

الأستاذ علي جمال الدين حسنين . . السكرتير العام المساعد

جلال زريق بك

الدكتور سليم عادل

السيد عبد العزيز عثمان

أعضاء

اللجنة الإدارية السورية

جلال زريق بك

السيد مطيع المراتب

السيد نظمي خير

السيد صلاح الدين المنجد

مندوبو الدول

سورية :

الأمير جعفر الحسنى

السيد سليم عادل عبد الحق . . . محافظ متحف دمشق

السيد عبد العزيز عثمان . . . محافظ متحف حلب

العراق :

السيد طه باقر . . . أمين المتحف العراقي

السيد فؤاد سفر . . . الملاحظ الفني في مديرية الآثار القديمة العامة

السيد بشير يوسف فرنسيس . . . مفتش الآثار القديمة

المملكة العربية السعودية :

الأستاذ عبد الرحمن البسام

الأستاذ السيد محمد شطا

لبنان :

الأمير موريس شهاب . . . مدير مصلحة الآثار .

مصر :

الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن . . . أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول

الأستاذ عبد الهادى حمادة . . . مدير قسم التفتيش بمصلحة الآثار المصرية

الدكتور عبد المنعم يوسف أبو بكر . . . الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الدكتور أحمد بدوى . . . الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الدكتور أبو النجاة عبد الله . . . وكيل قسم الهندسة والحفائر بمصلحة الآثار المصرية

الدكتور محمد مصطفى أمين دار الآثار العربية بالقاهرة
الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق أمين متحف كلية الآداب بجامعة فاروق الأول
الأستاذ عبد السلام محمد حسين المهندس بمصلحة الآثار المصرية

اليمن :

الأستاذ أحمد فخري الأمين بالمتحف المصري بالقاهرة

مندوب حكومة فلسطين :

السيد نعيم مخولة مفتش بدائرة الآثار القديمة في حكومة فلسطين

مندوب جامعة الدول العربية :

الأستاذ حسن عبد الوهاب . . مفتش الآثار العربية بالقاهرة

مندوب الهيئة العربية العليا في فلسطين :

الأستاذ محمد عزة دروزة

مندوبو الهيئات العلمية

جمعية الآثار الإسلامية :

الأستاذ على جمال الدين حسنين . عضو الجمعية وكبير مهندسي الآثار في الحكومة السورية.

جمعية الآثار القبطية :

الأستاذ شارل بشتلي سكرتير عام الجمعية

اتحاد مدرسة الثقافة الأثرية بالقاهرة :

الأستاذ محمد عباس بدر { المهندس بإدارة حفظ الآثار العربية بالقاهرة والمدرس
المتدرب بالمدرسة العليا للثقافة الأثرية

الأستاذ محمد حسن عبدالرحمن

الأستاذ عبد المهيم جعفر

الأستاذ عبد السلام محمد عمر

الأستاذ محمد السيد العجيزي

الأعضاء

الأستاذ يوسف نصر الله (لبنان) { الأستاذ التاريخ في الاكاديمية الكبرى للفرس
البوليين — حريصا (كسروان)

الأب جان ستاركى { عضو المجمع الفرنسي للآثار في بيروت
M. l'abbé Jean Starcky

الأستاذ أرنست ويل { عضو المجمع الفرنسي للآثار في بيروت
M. Ernest Will

السيد خالد معاذ سورية

السيد علاء الدين الخاني »

السيد رشاد قصيباتي »

الأستاذ أحمد إبراهيم كامل مصر

الدكتور محمد حيدر بك لبنان

السيد بسام كرد علي سورية

الدكتور يوسف عرفتجي »

الأستاذ وهي الحريري »

مؤتمر الأقطار في الدولة العربية

تحت رئاسة

التمهيد لعقد المؤتمر

Hirschbach 1832

مؤتمر الآثار في البلاد العربية

غايته ووسائله

١ — رأت اللجنة الثقافية للجامعة العربية أن يعقد مؤتمر يلتقي فيه المعنيون بشئون الآثار في البلاد العربية ، ويسمى : « مؤتمر الآثار في البلاد العربية » .

٢ — وهدف هذا المؤتمر تبادل الآراء العلمية والفنية والعملية التي تكفل الوصول إلى المحافظة على تراث الشرق العربي ، ووضعها في الإطار اللائق به ، وإلى العناية بنشر الثقافة الأثرية ، وتقوية الصلات بين البلاد العربية ، وتذليل العقبات في سبيل تحقيق التعاون بينها في الكشف عن الآثار ، وحفظها ودراستها .

٣ — تشمل أعمال المؤتمر :

(أ) إلقاء محاضرات علمية وفنية ، لتعريف أم الشرق العربي بعضها بآراء بعض في المسائل الأثرية والتاريخية .

(ب) دراسة الوسائل التي تكفل تحقيق أغراض المؤتمر ، وتأليف لجان من أعضائه لهذا الغرض ، ورفع نتائج تلك الدراسة إلى حكومات الدول العربية .

٤ — يتفرع المؤتمر إلى اللجان الثلاث الآتية :

(أ) لجنة قواين المحافظة على الآثار ، وتنظر في صيانة الآثار ، والمحافظة عليها ، وفي أعمال التنقيب عنها ، وفي تجارة العاديات ، وفي تبادل الآثار .

(ب) لجنة نشر الثقافة الأثرية ، وتنظر في تبادل الأساندة والاختصاصيين ، وفي تبادل المطبوعات والصور ، ودراسة الوسائل المختلفة التي تحقق الأغراض التي ينشدها المؤتمر .

(ج) لجنة المصطلحات الفنية ، وتظر في وضع هذه المصطلحات ، وفي توحيدها

وتظيمها ، لتسهيل الكتابة باللغة العربية في الفنون والآثار .

ويكون لكل لجنة رئيس وسكرتير ينتخبهما الأعضاء في أول اجتماع .

٥ — يشترك في هذا المؤتمر مندوبون رسميون تنتخبهم حكومات الدول العربية وجامعاتها ومعاهدها وهيئاتها العلمية ، كما يباح الاشتراك للأفراد المتخصصين في الدراسات الأثرية والتاريخية والفنية المتصلة بالبحوث التي يضطلع بها المؤتمر ، على أن يكون البت في قبول طلبات الأفراد للمكتب الدائم للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، فلهذا المكتب وحده أن يقر طلبات الاشتراك أو يرفضها دون إبداء الأسباب .

٦ — تقوم بالأعمال التمهيدية للمؤتمر لجنة يعينها المكتب الدائم للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، كما ينتخب هذا المكتب أحد الاختصاصيين ليكون سكرتيراً عاماً للمؤتمر .

٧ — يباح للمشاركين في المؤتمر أن يلقوا بحوثاً في آثار الشرق العربي وفنونه ، بشرط أن تقرها اللجنة التحضيرية ، وعلى ألا يستغرق إلقاء البحث أكثر من خمس وعشرين دقيقة . ويجوز أن يمد هذا الوقت إذا كان البحث يتضمن عرض صور بالفانوس السحري ، أو إذا دعت الضرورة القصوى لذلك .

٨ — تطبع الأبحاث التي تلقى في المؤتمر في كتاب ، يضم أيضاً ما يتخذها الأعضاء من قرارات .

٩ — يشترك جميع الأعضاء بالتصويت في اجتماعات اللجان وجلسات المؤتمر . وتصدر القرارات بالأغلبية المطلقة . ويرجح الأصوات — إذا تساوت — صوت رئيس الاجتماع .

١٠ — يقوم المؤتمر بتنظيم معرض للصور والمخطوطات والأثرية ، ويسمح للأفراد والهيئات بالمعرض .

تقرير للجنة الثقافية بالجامعة العربية في توثيق الروابط بين الدول العربية من الناحية الأثرية

عرض مجمل لقيام الحضارات في انشراق العربي :

آثار الحضارة الإسلامية منتشرة في بلاد عدة . ولكل بلد طرازه وأشكاله الخاصة . وقد يزخر أحد الأقطار بثروة كبيرة من عصر خاص من العصور . على حين تنقصه بعض مخلفات الحضارة من عهود أخرى . ومن هنا كان التعاون الثقافي من الناحية الأثرية ضرورة لا غنى عنها . فالقنن الإسلامي الأموية لا يمكن أن تدرس دراسة صحيحة إلا في فلسطين وسورية وشرق الأردن وشمال إفريقية وأسبانيا . وقنن بني العباس إنما تدرس في العراق ومصر وشمال إفريقية ، فهي موفورة في هذه الأقاليم على قلتها في سورية وفلسطين . وكذلك تدرس قنن الفاطميين في مصر وشمال إفريقية . وقنن العصر الأندلسي في أسبانيا وشمال إفريقية . وقنن السلاجقة والأتابكة وبني أيوب في سورية وفلسطين والعراق والأناضول . وقنن المماليك في مصر وسورية وفلسطين ولبنان والحجاز . فطرز الحضارة الإسلامية — كما ترى — موزعة في الأقطار التي أظلتها راية الإسلام ، ولذلك أصبحت معرفتها تقتضى هيئة وسائل التيسير على طلاب الآثار والتاريخ والمثقفين بألوان الثقافة التاريخية والأدبية .

ومن الواجب أن يتعاون أهل تلك الأقطار العربية على النظر في ذلك التراث ، لأنهم أولى الناس بالنظر فيه ، وأجدد رمح باحياء تاريخهم القديم على أسس من العلم الصحيح . والأم لا تستطيع أن تنهض نهضة صحيحة إلا إذا فهمت ماضيها أحسن الفهم ، واتخذت منه في حاضرها قطرة إلى المستقبل . فإذا لم يصيبوا من ذلك كل ما يتقنون فلسوف

يكفيهم من دراسة الماضي ما يجدون فيه من غذاء روحي تمتع . ففي ماضي الشرق العربي غذاء للروح ، وعزاء للنفس ، فيه قامت الحضارات الأولى ، وفيه هبطت أديان السماء ، ومنه نهلت أمم الغرب ، فأخذت عنه حروف الهجاء ، وأصول الكتابة ، ونقلت عنه كثيراً من الفنون والصناعات . وأرض هذا الشرق القريب كانت الجمر الذي انتقلت عليه ألوان الثقافات العامة والروحية في القرون الوسطى . فحركة إحياء العلوم في الغرب لم تكن غير إحدى ثمرات اتصاله بالشرق من طريق الفتوح الإسلامية وحروب الصليب . هنالك انتقلت علوم المسلمين ومعارفهم من طريق الاختلاط في ميادين السياسة والتجارة وغيرها . فشروع توثيق الصلات والروابط بين دول الشرق العربية خير ما يعين أبناءها على فهم تاريخهم على ضوء ذلك التراث الخالد ، وكفيل بتوحيد ألوان الثقافات بين تلك البلاد في هذا العصر الذي سهلت فيه سبل الانتقال بين أقطار الشرق .

ولا بد لأهل كل قطر من تكوين فكرة صحيحة عن تاريخ وحضارات من جاورهم من الأقطار الشقيقة الأخرى من طريق تبادل الزيارات الثقافية ، وتبادل التمتع والمطبوعات ، وتنظيم عقد المؤتمرات الدورية وجميع الوسائل الممكنة التي نعرضها .

القوانين الأثرية في البلاد العربية :

بعد أن أصبحت الدول العربية كتلة قوية متراسة ، يتعاون أعضاؤها على خير الشرق العربي والنهوض به ، توالى الجهود في سبيل زيادة التعارف وتنمية العلاقات بين تلك الأمم في شتى النواحي السياسية والثقافية ، وفي تقريب وجهات النظر ، وإزالة عناصر الخلاف . ومن أجل هذا اتجهت آراء المفكرين من رجال الأقطار العربية إلى فكرة توحيد بعض القوانين في تلك البلاد .

وقوانين الآثار في البلاد العربية من تلك القوانين التي يجب بحثها ، والعمل على توحيدها أو تقريبها . فالشرق العربي كله هو مهد الحضارات الإنسانية الأولى ، وتعد آثاره سجلاً خالداً لتاريخ الإنسانية ، كما ترجع العلاقات بين أقطاره إلى أقدم عصور الإنسانية وأبعدها .

وقد بحثت اللجنة هل يلزم للوصول إلى الغرض المنشود ، أن يكون هناك قانون موحد للآثار في جميع الدول العربية ؟ وبعد الدراسة وتبادل وجهات النظر بين الأعضاء ، تبين لهم أن هناك من التفاوت بين تلك الدول من حيث الثقافة الأثرية ووفرة الزاء الذي يساعد على الاهتمام بالآثار اهتماماً مثيراً ، ومن الاختلاف من حيث طبيعة المناطق الأثرية ووسائل حراستها وصيانتها وأنواع الآثار في كل قطر — ما يجعل أمر توحيد القانون في تلك الأقطار صعباً . من أجل ذلك فضلت اللجنة أن يبقى لسكل دولة قانونها الخاص . على أن تكون هناك أسس مشتركة تتضمنها تلك القوانين جميعاً .

ولما كانت الأغراض التي يهدف إليها مشروع توحيد القوانين الأثرية أو التقريب بينها في البلاد العربية لا تخرج عن نطاق المحافظة على آثارها من جميع الوجوه ، والتآزر فيما بينها للضرب على أيدي العابثين بالآثار والمستهينين بها ، وتنظيم أعمال الحفر ووضع القيود لمنع تسرب الآثار إلى خارج البلاد بطرق غير مشروعة ، والحد من مطامع الدول الأجنبية في آثار الدول العربية ، وزجر التجار المتلاعبين ، وتضييق الخناق عليهم ، وتبادل الآثار بين الدول العربية تسكيلاً لمجموعاتها وإظهارها لعظمة الدول الشقيقة — فقد رأت اللجنة أن تعنى بالأمور الأساسية الموصلة لهذه الأغراض ، تاركة لسكل دولة من الدول العربية اتخاذ أساليبها الخاصة في معالجة الأمور التفصيلية والإجراءات الإدارية حسبها يلائم أحوالها الخاصة .

وتنحصر الأمور الأساسية التي يجب أن يشملها قانون كل دولة فيما يأتي :

(أولاً) المحافظة على الآثار من العبث والتشويه والهدم والسرقة والتخريب ، ووضع العقوبات الرادعة لمن يقرّف ذلك .

وبالرغم من أنه يظهر أول وهلة أن هذا التشريع من أخص شؤون الدولة الداخلية ، فإن اللجنة استحسنت النص عليه في مادة مشتركة في القانون^(١) إذ البلاد العربية أجدر الدول بالتعاون فيما بينها للمحافظة على الآثار . ولا سيما أن الفكرة

(١) (قانون مصر ، المواد ١٦ — ١٩ عقوبات . قانون العراق المادة ٥ عقوبات / ٥٥ ، قانون سورية المادة ١٨) .

التي يأخذ بها العالم المتمدين أجمع هي أن الآثار ليست في الحقيقة ملكاً لدولة من الدول ، لأنها تعد أصول الحضارات البشرية كلها ، وبهم العالم أجمع المحافظة عليها . ولكن ، تحت هذا الستار ، تدخلت بعض الدول الغربية في شؤون الشرق الأثرية بحجة عجزه عن المحافظة على الآثار .

وبدخل تحت هذا التشريع منع الأفراد من تملك الآثار العقارية ، ووضع النصوص التي تخول للحكومات حق نزع ملكية أي أثر عقارى في حوزة الأفراد أو الهيئات وإضافته لأملاك الدولة ، إذ اتضح بالبحث أن الأفراد في بعض الدول العربية يملكون آثاراً عقارية ، وتكون بذلك عرضة للهدم والتشويه ، بالرغم من العقوبات الموضوعة لمنع ذلك .

ويستتبع هذا التشريع أيضاً حق كل دولة من الدول العربية في استرداد أي أثر يكون قد خرج منها بطريق غير مشروع إلى دولة أخرى من دول الجامعة . ولما كان هذا الحق لا يشمل القانون الدولى العام ، فقد وجب النص عليه في القوانين .

(ثانياً) وضع شروط خاصة للبحث عن الآثار ، ومعاقبة من يبحث عن الآثار خلسة^(١) .

وبدخل في هذا الباب تحريم القيام بعمل مجسات أو حفائر أو كسح أثرية للبحث عن آثار في أي بقعة في البلاد ، ولو كانت ملكاً للفاعل ، ما لم يكن بيده رخصة صادرة من السلطات الأثرية .

ويجب النص على شروط منح الرخصة ، بحيث لا تعطى إلا للعلماء المكلفين من الدولة بهذا العمل ، أو للبعثات والهيئات التي توصى بها الجامعات والمتاحف العالمية ، مع توافر الكفاية والمقدرة على التنقيب من الوجهتين العلمية والمالية . وأن تكون محدودة المدة والمكان . وأن تعين السلطات الأثرية أو تدب موظفاً قنياً وطنياً لملازمة الهيئة أو البعثة القائمة بالحفر لمراقبة تنفيذ الشروط الموضوعة لذلك . وأن يكون المرخص له ملزماً بإبقاء الآثار

(١) قانون مصر المادة ١٢ ، وتعريب وزارة الأشغال رقم ٥٢ ، قانون العراق المادة ٤٠ ، قانون سورية المادة ٥٦

العقارية وبقاياها وكذا الآثار المنقولة الضخمة في أماكنها الأصلية أو ردها إليها بعد إتمام الحفر . وأن تكون الآثار الناتجة من أعمال التنقيب كلها ملكاً للدولة . مع جواز نزولها عن جزء من تلك الآثار مكافأة أو هدية للجامعة أو المتحف الذي تقوم البعثة بالعمل لحسابه ، وذلك على شرط أن تكون الآثار التي تنزل عنها من المكررات ، وألا تكون مع ذلك من الآثار النادرة أو التي تدخل ضمن المستندات التاريخية الهامة لحضارة الدولة . أو الآثار الهامة لإحدى دول الجامعة العربية والتي تبدي تلك الدولة رغبة في الحصول عليها . ويجب أن يدخل تحت هذا التشريع نص جديد يعطى لكل دولة من دول الجامعة حق الأولوية في الحصول على الامتياز للتنقيب عن الآثار في أراضي سائر دول الجامعة ضمن الشروط الموضوعية لذلك .

(ثالثاً) وضع قيود خاصة للأنحجار بالآثار ، مع فرض عقوبات قاسية على من يخالف ذلك ^(١) .

فلا يجوز الأنحجار بالآثار إلا بمقتضى رخصة صادرة من السلطات الأثرية ، ويجب أن يكون للتاجر حانوت أو مخزن لحفظ الآثار خاضع لتفتيش السلطات . وأن يكون لديه سجل خاص يقيد به كل ما لديه من الآثار ومصدرها وتصرفاته فيها . ويشترط أن يكون مصدر الآثار المصرح بالأنحجار فيها مصدراً مشروعاً بحسب قانون الدولة . مع حصر المصادر المشروعة في :

١ — الآثار التي تؤول إلى شخص أو هيئة كنصيب شرعي أو مكافأة نتيجة لعنونه أو اكتشافه آثاراً طبقاً لقانون البلاد ، أو نتيجة لحفر مرخص به نال نصيبه أو مكافأة فيه .

٢ — الآثار التي تكون في حيازة فرد أو هيئة كمجموعة شخصية اقتناها قبل صدور هذا القانون ، وقدم بها كشفاً مفصلاً للسلطات الأثرية على حسب التعليمات الخاصة بذلك ، أو تكون مسجلة وفقاً لأحكام قانون بعض الدول العربية .

وتوصى اللجنة بالأخذ في هذا الباب بقانون العراق ، إذ هو أوفى القوانين بالغرض .

(١) ق مصر المادة ٣ تقرير وزاري رقم ٥ ، ق العراق المادة ٢٧ ، ق سورية المادة ٧٤

(رابعاً) وضع قيود خاصة لتصدير الآثار إلى خارج البلاد ، مع فرض عقوبات شديدة جداً على من يخالف ذلك ^(١) .

ومن ذلك : ألا يسمح بالتصدير إلا بموجب تصريح من السلطات المختصة .

وألا تخرج الآثار المصدرة عن أن تكون :

١ — على سبيل تبادل الآثار بين متحف وآخر أو هدية لأحد المتاحف وفقاً لقانون الدولة .

٢ — نصيباً أو مكافأة لإحدى الهيئات أو البعثات العلمية التي تمت على يديها حفريات مرخص بها .

٣ — مستوردة من الخارج ومقدما عنها بيان جمركي بالاستيراد لغرض التصريف ، وأعيد تصديرها لسبب من الأسباب .

٤ — مبيعة من تاجر أو مقنن ، على أن تكون مثبتة في سجلات السلطات الأثرية بمقتضى كشف مقدم عنها من الحائز ، أو تكون مسجلة على حسب قوانين بعض البلاد العربية وقد أجازت تلك البلاد تصديرها .

ومع ذلك يجوز للسلطات المختصة منع تصدير أي أثر إلى خارج البلاد إذا رأت ما يستوجب ذلك من ناحية مصلحة البلاد ، أو إذا لزم هذا الأثر لإحدى دول الجامعة العربية ، وأبدت رغبة في الحصول عليه . وفي هذه الحالة يكون تقدير الثمن لمصلحة صاحبه خاضعاً لقرار لجنة يؤلفها الوزير المختص ، ويكون قرارها نهائياً ، سواء أكان ذلك لصالح الدولة نفسها أم لصالح إحدى دول الجامعة العربية .

(خامساً) تبادل الآثار بين دول الجامعة . ويتقضى هذا أن ينص في قانون كل دولة على جواز ترولها عن بعض ممتلكات من الآثار التي ترى الاستغناء عنها إلى دولة أخرى من دول جامعة الأمم العربية ، نظير آثار يهتمها الحصول عليها من تلك الدولة . وقد بينا فيما بعد سبل ذلك التبادل .

(١) ق معر المادة ١٤ — تقرير وزارى رقم ٥١ ، ق العراق ... لاء ق سورية المواد ٩٧/١٠٧

تبادل المطبوعات :

منذ أكثر من أربعين عاماً ومصلحة الآثار المصرية تبذل جهوداً منظمة في الكشف عن آثار البلاد في مختلف مناطق القطر ومن عصوره الفرعونية المختلفة . وتقوم المصلحة إلى جانب ذلك بكل ما نستطيع من تقديم المعونة الحاصلة إلى جميع البعثات الأوربية والأمريكية التي تعمل في البحث عن الآثار المصرية . وقد أثمرت جهودها العلمي في إخراج كثير من المطبوعات القيمة التي سجلت فيها كل ما تملك من أنواع التحف والوثائق مع تفصيل ما تضمنته تلك التحف من رسوم وكتابات ليطلع عليها كل من أراد من رجال العلم الذين يكتبون في تاريخ مصر وحضارتها . وتقوم المصلحة إلى جانب ذلك بإخراج مجلة علمية سنوية تضمنها آراء العلماء والباحثين ، لتظهر العالم العلمي على ما أنفقت من جهود في خلال العام ، ولتبيح للمشتغلين بالآثار نشر نتائج أبحاثهم بمختلف اللغات ، والمصلحة تبادل متاحف الدنيا وهيئاتها العلمية جميع مطبوعاتها ، ويجري ذلك في طريق عادي معروف يراعى فيه تقدير أثمان المطبوعات المختلفة .

وتقوم دار الآثار العربية بنصيبها العلمي بإخراج مطبوعات أثرية تضمنها دراسة مختلف ما تملك من التحف ، فضلاً عن البحث في شتى ميادين الفنون الإسلامية . كما تقوم جمعية الآثار القبطية بإخراج مجلة سنوية فيها ألوان متنوعة من الدراسات المختلفة للفنون والآثار القبطية .

وكذلك تقوم إدارة حفظ الآثار العربية بطبع كراسة سنوية بأعمالها ، هذا عدا مؤلفات حديثة عن الآثار القبطية والإسلامية .

ولما كنا نعتقد أن متاحف الآثار في مختلف الأقطار الشقيقة ما زالت فتية بالمقارنة بالمتاحف المصرية ، فطبعي أن يكون ثراؤها العلمي أقل بكثير مما تملك مصر .

ويجب أن يجري التعاون العلمي بينها وبين مصر في ناحية تبادل المطبوعات على قواعد جديدة ، يراعى فيها الناحية من ناحية مصر ، بأن يكون نصيب البلاد الشرقية من التخفيض في أثمان ما يعطى لها من المطبوعات أوفر من نصيب بلاد الغرب والبلاد الأمريكية .

تبادل الصور الشمسية :

وبمصلحة الآثار المصرية والعربية أقسام للتصوير الشمسي تقوم بتصوير كل ما تملك من تحف في شتى أوضاعها لتسجيلها ولتسهيل دراستها ، كما تقوم بتصوير الآثار المنبثة في مناطق البلاد المختلفة . ومن الراجح أن مصالح الآثار في الأقطار الشقيقة إنما تفعل مثل ذلك . فمن الخير أن تتبادل مصر مع أمم الشرق تلك المجموعات من الصور مصحوبة بشيء من الشرح المفصل لمحتويات كل صورة .

استخدام السينما :

كذلك نرى من أهم الوسائل في تعريف الجمهور بالآثار أن تعنى الحكومات بأخذ صور مفصلة لمختلف المعالم الأثرية لعرضها في دور السينما الناطقة مع الشرح اللطيف الدقيق المشوق يقوم به رجال الآثار . على أن تكون تلك الأفلام — علاوة على فائدتها العلمية — بمثابة دعاية طيبة للآثار ترغب الناس في زيارة المعالم التاريخية في تلك الأقطار جميعاً .

تبادل الأسانذة الزائرين :

ومن المستحسن أن تتبادل البلاد الشرقية أسانذتها من رجال الآثار والتاريخ في مواسم خاصة من كل عام ، ليم بذلك التعاون الثقافي على أساس علمي جدى ذى طابع رسمى .

الإذاعات اللاسلكية :

كذلك تعنى الحكومات بنشر الثقافات الأثرية التاريخية عن طريق الإذاعة اللاسلكية بالقاء الأحاديث المبسطة عن تواريخ الأقطار الشرقية وآثارها وعقائدها الدينية وعاداتها المختلفة .

الرحلات العلمية :

ويجب أن تعنى الحكومات بتنظيم رحلات علمية في مواسم خاصة من كل عام تتعاون فيما بينها على تسهيل أمورها في السفر والإقامة ، بحيث تكون نفقاتها سهلة ميسورة تمكن

الطالبين من زيارة المعالم التاريخية في جميع أقطار الشرق . وأن تقوم بالإشراف على تلك الرحلات هيئة منظمة من رجال التعليم في مختلف أقطار الشرق العربي ، تضع لها البرامج المنظمة وتقوم بنشر ما تراه ضرورياً من النبذات التاريخية عن مختلف المعالم الأثرية .

المعارض :

ومن وسائل الدعاية للآثار وتعريف الناس بها إقامة المعارض الأثرية في فترات مختلفة في كل قطر من الأقطار العربية . على أن أمر ذلك لن يكون بالشئ اليسير نظراً لما يقتضيه من نقل الآثار وتعريضها لأخطار التلف ، وإنما يستعاض عن ذلك بتسهيل زيارة المتاحف تمهيداً لبرغب الناس في الإقبال عليها . وليست المتاحف في حقيقة الأمر غير معارض دائمة . ولدى وزارة المعارف المصرية في الوقت الحاضر جمهرة فائقة من أصحاب الثقافات الأثرية يمكن أن تتخذ منهم الحكومة في هذا الباب أداة طيبة لمعونة الزائرين .

المؤتمرات :

ولما كان التعاون الثقافي بين مختلف الأقطار العربية يستلزم العناية التامة بأمر الآثار والحفاظ عليها وبحث الوسائل اللازمة للعمل على ذلك ، فالتأخرى أن تقوم دول الجامعة العربية بتنظيم عقد مؤتمرات دورية يلتقي فيها المعنيون بشؤون الآثار لتبادل الآراء العلمية والفنية والإدارية التي تكفل النظر فيما بين تلك الدول من الصلات في هذه الناحية ، وتقوم بتذليل ما يحتمل أن يكون من عقبات في سبيل تحقيق التعاون المنشود على الوجه الأكمل .

تبادل الآثار بين الدول العربية :

ولإتمام الفائدة التي تهدف الجامعة إليها من وراء ذلك التعاون الثقافي العظيم نرى أن تفكر الدول العربية في تبادل الآثار فيما بينها . ولما كانت المجموعات الأثرية التي يمكن أن تكون فكرة صحيحة عن حضارة كل قطر من أقطار الشرق العربي كبيرة لدرجة لا يمكن معها وقوع التبادل ، فلذلك نرى أن يكون تبادل الآثار متجهاً إلى هدف واحد ، وهو أن يكون لدى كل دولة من دول الجامعة مجموعة مختصرة من القطع الفنية

الجميلة بحيث يمكن أن تكون مرآة لحضارة القطر الذي تنتمي إليه . ومعرضاً صغيراً يستلفت أنظار الزائرين ويستهوئ نفوسهم ويدفعهم إلى الرغبة في زيارة تلك الأقطار لمشاهدة آثارها . ومن المستحسن أن تقوم متاحف دول الجامعة بعمل نماذج من خير ما تملك من التحف الفنية ، وأن تبادلها فيما بينها ، وأن يكون تبادل الآثار الأصلية من القطع المتكررة التي يمكن أن تستغنى عنها دور التحف . كما يجب أن تصحب كل قطعة أصلية كانت أو نموذجاً بشرح مفصل عن تاريخها وقيمها الفنية ، مع ذكر أوفى المراجع التي تفيد كل من أراد الدراسة من المشغوفين بالنظر في أصول الحضارات القديمة .

برنامج الموقر

برنامج المؤتمر

السبت } ٢٨ من شوال سنة ١٣٦٦
 } ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحاً : اجتماع الأعضاء في قصر العظم للتعارف وتسلم المطبوعات وترتيب تسجيل الأسماء في القصر الجمهوري .

الساعة ٥ مساءً : حفلة افتتاح المؤتمر :

كلمة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية .

كلمة صاحب المعالي وزير المعارف السورية .

كلمة المندوب الأول في وفد سورية (الأمير جعفر الحسني) .

كلمة المندوب الأول في وفد العراق (السيد طه باقر) .

كلمة المندوب الأول في وفد المملكة العربية السعودية (الأستاذ عبد الرحمن البسام) .

كلمة مندوب لبنان (الأمير مورييس شهاب) .

كلمة المندوب الأول في وفد مصر (الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن) .

كلمة مندوب اليمن (الأستاذ أحمد نفري) .

الساعة ٧ مساءً : اجتماع الأعضاء لانتخاب اللجان الثلاث :

لجنة الثقافة الأثرية ، ولجنة قوانين الآثار ، ولجنة المصطلحات الفنية .

الساعة ٧,٣٠ مساءً : محاضرة الأستاذ عبد الهادي حمادة « القوانين الأثرية في الشرق العربي » .

الساعة ٨,١٥ مساءً : محاضرة الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن « مستقبل الآثار والفنون في الشرق العربي » .

الساعة ٩ مساءً : وليمة عشاء من قبل وزارة المعارف السورية .

الأمم (٢٩ من شوال سنة ١٣٦٦
١٤ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحاً: محاضرة الدكتور عبد المنعم يوسف أبو بكر «علاقة مصر
بأمم الشرق الأدنى في عصور فجر التاريخ» .

الساعة ٣٠, ٩ صباحاً: محاضرة السيد طه باقر «العلاقات بين العراق القديم وبلدان
الشرق الأدنى» .

الساعة ١٥, ١٠ صباحاً: محاضرة الأستاذ عبد السلام محمد حسين «رسالة الأثر» .

الساعة ١١-١٢ ظهراً: اجتماعات اللجان .

الساعة ٣ مساءً: محاضرة السيد فؤاد سفر «التقنيات الأثرية في العراق
وأساليبها» .

الساعة ٣٠, ٣ مساءً: محاضرة الدكتور محمد مصطفى «شرف الأبوانى صانع
الفخار المطلى في القرن الثامن الهجرى» .

الساعة ٥-٧ مساءً: اجتماعات اللجان .

الساعة ٣٠, ٧ مساءً: محاضرة الأمير موريث شهاب «أثر الفينيقيين في حضارة
الشرق» .

الساعة ٩ مساءً: وليمة عشاء من قبل محافظة دمشق الممتازة .

اللاتين (٣٠ من شوال سنة ١٣٦٦
١٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحاً: محاضرة السيد بشير يوسف فرنسيس «مظاهر الفن
في عواصم العراق الإسلامية القديمة على ضوء الاكتشافات
الحديثة» .

الساعة ٩,٣٠ صباحاً : محاضرة الدكتور أبو النجا عبد الله « ترميم الآثار » .
الساعة ١٥, ١٠ صباحاً : محاضرة الأستاذ حسن عبد الوهاب « مميزات العمارة الإسلامية
في القاهرة » .

الساعة ١١-١٢ ظهراً : اجتماعات اللجان .
الساعة ٢,٣٠-٦ مساءً : زيارات أمكنة أثرية : متحف دمشق ، الجامع الأموي ،
تربة صلاح الدين ، تربة نور الدين ، بهارستان نور الدين ،
التكية السليمية والتكية السليمانية ، البهارستان القيصرية ،
قبة الحمراء .

الساعة ٦ مساءً : حفلة شاي في المجمع العلمي العربي .
الساعة ٧,٣٠ مساءً : محاضرة الأمير جعفر الحسني « مظاهر الحضارة الإسلامية
في دمشق وحلب » .

السلطان
(أول ذي القعدة سنة ١٣٦٦
١٦ من سبتمبر سنة ١٩٤٧)

الساعة ٩ صباحاً : محاضرة الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق « طراز
الإسكندرية » .

الساعة ٩,٣٠-١٢ ظهراً : اجتماعات اللجان .
الساعة ٢ بعد الظهر : رحلة إلى بلودان .
الساعة ٩ مساءً : وليمة عشاء رئيس مجلس الوزراء في بلودان .

الربيعاء { ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
١٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحاً : محاضرة السيد سليم عادل « العلاقات بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان » .

الساعة ٩٣٠ صباحاً : محاضرة الأستاذ أحمد نغرى « رحلة إلى مأرب »

الساعة ١٠ صباحاً - ١٢٣٠ بعد الظهر : اجتماعات اللجان .

الساعة ٣ بعد الظهر : السفر إلى حلب .

الخميس { ٣ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

صباحاً وبعد الظهر : زيارة المعالم الأثرية في حلب

الساعة ٣٠ ، ٦ مساءً : محاضرة السيد عبد العزيز عثمان « حفريات تل الحريري أومارى » .

الجمعة { ٤ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
١٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

العودة إلى دمشق ، وزيارة المعرة ، وحماه ، وحصص ، وإمليك .

السبت { ٥ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ - ١٠,٣٠ صباحاً : اجتماعات اللجان .

الساعة ١٠,٣٠ صباحاً : اجتماع أعضاء المؤتمر لعرض التوصيات واتخاذ القرارات —
حفلة الاختتام .

بعد الظهر : جولات حرة .

الساعة ٩ مساءً : وليمة عشاء في قصر رئاسة الجمهورية .

الأحد { ٦ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
٢١ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

صباحاً : جولات حرة ، وزيارة معالم أثرية .

مساءً : السفر إلى القدس .

برنامج

زيارة أعضاء مؤتمر الآثار في البلدان العربية

لمدينة القدس الشريف

٢١ من سبتمبر ١٩٤٧

بعد الظهر : وصول حضرات أعضاء المؤتمر إلى متحف الآثار الفلسطيني في القدس حيث استقبلهم الأستاذ ديمتري برامكي . ثم ذهبوا إلى فنادقهم المختلفة .

٢٢ من سبتمبر ١٩٤٧

الساعة ٨,٣٠ : مغادرة حضرات أعضاء الوفود فنادقهم بالسيارات إلى قلعة القدس عند باب الخليل .

الساعة ٨,٤٥ : سير حضرات أعضاء الوفود من القلعة إلى الحرم الشريف برفقة كل من السادة ديمتري برامكي ونعيم مخولة وسالم الحسيني ونجيب نصار .

الساعة ٩ - ١١ : زيارة الحرم الشريف .

الساعة ١١ - ١١:١٥ : العودة مشياً من الحرم الشريف إلى متحف الآثار الفلسطيني .

الساعة ١١,٣٠ قبل الظهر : زيارة متحف الآثار الفلسطيني .
الى ١ بعد الظهر

الساعة ١ بعد الظهر : عودة حضرات أعضاء الوفود إلى فنادقهم بالسيارات .

الساعة ٣,٣٠ بعد الظهر : مرافقة السادة ديمتري برامكي وسالم الحسيني ونعيم مخولة لحضرات أعضاء الوفود من فنادقهم إلى المتحف .

الساعة ٥-٤ : إلقاء مدير الآثار القديمة كلمة ترحيب بالوفود أعقبها محاضرتان موجزتان في قاعة المحاضرات .

الساعة ٥ : بعد الظهر : حفلة شاي في قناء الدار .

الساعة ٩-١٠ : مساء : إنارة المتحف بالكهرباء احتفاء بالوفود .

٢٣ من سبتمبر ١٩٤٧

الساعة ٨,٣٠ صباحا : مرافقة السادة ديمتري براكى وسالم الحسينى ونعيم مخلوة لحضرات أعضاء الوفود إلى المتحف .

الساعة ٩ صباحا : الذهاب بالسيارات إلى خربة المفجر .

الساعة ١ بعد الظهر : العودة من خربة المفجر .

حفلة الافتتاح

الحمد لله

خطبة فخامة رئيس الجمهورية السورية

أيها السادة :

إن من دلائل يقظة العرب وشعور التضامن القومي السائد بينهم هذه المؤتمرات التي يتوالى عقدها في شتى الأقطار العربية ، فينبأ ترحي ربي لبنان بالمؤتمر الثقافي للجامعة العربية ترحي عاصمة الشام بمؤتمرين عربيين عالميين في أسبوع واحد .

إن دمشق الخالدة ، دمشق الأثرية التي تفخر بإجتماع المؤتمر العربي الأول للآثار فيها ، قد حفظت معالم الحضارات القديمة ، ليس فقط فيما انطوى عليه تراثها من عادات بل فيما نقلته للانسانية من تراث هذه الحضارات . فكان لها الفضل في تخليد حضارات أقوام بادوا وعاشت آثارهم في خلال مدينيات تنالت بعدهم وتعاقبت .

لم تكن رسالة الشام مقتصرة على النقل والحفظ ، بل إنها أنشأت مدينة عربية خالصة عم إشعاعها الشرق وبلغ الغرب :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت بني العباس بغداد

وهكذا جمعت في ثراها وصحائفها آثار العرب والعجم .

رحم الله شاعر العرب في هذا العصر « شوقي » الخالد الذي تملكه الخشوع أمام تراثها فقال :

« هذا الأديم كتاب لا كفاء له »

وإذ كان هذا الترى العزيز بطأه الأجنبي ، بكى عليه ورثى له ، فقال :

« رث الصحائف باق منه عنوان »

وإننا نحمد الله على أنه لم تمض عشرون عاما على قوله هذا حتى تجددت الصحائف وصار العنوان عنوان السكرامة والحياة ، وافتتح سفر جديد للمجد والسودد ، إذ نعمت الأمة

بإستقلال الأوطان ، وأدركت عزة السلطان ، ولم يبق على النوى القديم إلا أن يخرج كنوزه الكامنة .

ما فيه إنب قلبت يوماً صحائفه إلا قرائح من « راد » وأذهان^(١) وستبيح نعمة الحرية والسيادة لهذه القرائح والأذهان أن تفتح عن أئبع الأثمار إن شاء الله وأن تشرق في كل ميدان .

لقد كان لعلماء الغرب فضل كبير لا يجحد في الكشف عن آثارنا ، والعلم في كل فرع لا وطن له ولا حدود ، ولكن أن لأبناء الشرق العربي أن يتعرفوا بأنفسهم تراثهم العظيم ويعرفوه للغرب ، وأن يوغلوا تنقياً في هذا السفر الدقيق عن تاريخ الحضارات التي أنبتتها تربة وطنهم الكبير ، والتي هي موضع الدراسة والتدريس في جامعات العالم . إن مؤتمر كم هذا لأول خطوة مباركة تخطوها البلاد العربية في هذا السبيل ، والفضل في ذلك يعود لجامعة الدول العربية التي هي محط الآمال لتعزيز كلمة العرب واستعادة مجدهم الباذخ .

ففي ظل الجامع الأموى الذى سطع من جوانبه نور الحضارة العربية ، وأسوار دمشق التي امتزجت بتاريخ الأديان المنتشرة في أنحاء الأرض ، وفي أفياء قصر الحير ومنشآت نور الدين وصلاح الدين والملك الظاهر العلمية والإنسانية وآثار غيرهم من الأبطال والمصلحين القائمة في دمشق ، أتمنى لكم مع طيب الإقامة فيض الخواطر والقرائح ، وأفتح باسم الله ثم باسم العلم والعروبة مؤتمر الآثار العربي الأول ، راجياً أن يصيب في أعماله التوفيق والنجاح .

(١) راد ، أى : « رادبوم »

كلمة صاحب المعالي وزير المعارف السورية

سيدي حضرة صاحب الفخامة ، سيداتي ، سادتي :

يشرفني باسم وزارة المعارف السورية أن أتقدم من الجامعة العربية ببالغ الشكر والتقدير على ما تحيط به قضايا الفكر من رعاية واهتمام ، وعلى ما تبذله اللجنة الثقافية فيها من جهود مشمرة ، فلا يام خلت انعقد المؤتمر الثقافي العربي في لبنان . وها إن مؤتمر الآثار يعقد في سورية وقد شهدنا في المؤتمر الثقافي على ربي لبنان راية الفكر الحر ترسم للناشئة العربية خطوط الثقافة الحقة التي تجعل من قياتنا وفتياتنا مواطنين صالحين للوطن العربي الأكبر ، وقوماً جديرين بحمل مشعل الحضارة الذي خلفه تاريخنا الأغر ، فيحسنون حمله ويزيدون في نوره وبهائه .

وسنشهد في مؤتمر الآثار هذا عودة إلى تاريخ هذه الحضارات وإلى الحفايا الدفينة في باطن الأرض التي انبج نور المشعل في رجباتها ، فأضاء الدنيا ، وتماثلته الأجيال ، ونفيق اليوم لتتناوله باليمن ، وقد كنا أول حملته ، ومصدر شعلته .

وإن في إقامة مؤتمر الآثار معنى عميق الدلالة ، ذلك أن الجامعة العربية ، ولما ينقض على ولادتها أعوام ، تبدو للناظر فتية غضة طرية العود من غرس الأمس القريب ، غير أن جذور هذه النبتة المباركة تذهب بعيداً في أعماق الأرض وفي سالف الزمان ، جذورها صلة بين الأقطار العربية الشقيقة ، ما انقطعت في أحقاب التاريخ كلها ، ووشائج ما أغفلت على كر الحدثان برغم الأعاصير شرقها وغربها ، ولغة خالدة خلود الكواكب .

فالجامعة العربية حين تدعو إلى مؤتمر الآثار تروم سقي الجذور لتزداد نبتة الجامعة نمواً .

سادتي أعضاء المؤتمر :

يشرفني أن أرحب بحضراتكم وأن أرجو لكم طيب الإقامة في ربوع سورية .

ويسرني أن أتمنى لكم التوفيق في بلوغ الأهداف ، وهي أهداف إلى جانب طابعها الفني والعلمي الخاص ، تهدف إلى القضية القومية بأوثق الصلات .

نتنظر من المباحث الأثرية أن تقيم أدلة جديدة على الصلات التي ألمعنا إليها ، وعلى أن راية الجامعة العربية ليست من عمل الأمس ، ولاوليدة سياسة طارئة ، وإنما نسجت خيوطها منذ أقدم ما عرف التاريخ .

نتنظر من المباحث الأثرية أن تقيم أدلة جديدة على الحضارات العظمى التي عرفها ربوع العالم العربي ، فلقد انتقص من شأنها غالباً لمرام شتى ، والتبست بمناورات السياسة ، ونشرت المطامع البغيضة وراء التنقيبات الأثرية .

إن هذه الآثار الجائمة في بطن الأرض منذ فجر المدينة تتطلق في مؤتمركم العربي ليعرف العالم شأنها حقاً ، نتنظر من مباحثكم الأثرية أن تقيم أدلة جديدة على أن شأن هذه الحضارات لم يقتصر على بقعة معينة ومكان محدود ، وأن أنوارها ذهبت بعيداً ، وأن لعالمنا شأنًا في تداخل الحضارات العالمية ، ونفخراً في بناء العالم وكتابة التاريخ .

ونتنظر من مؤتمركم أن يجد في تعاون الدول العربية على إخراج الكنوز التي طال أمدها نحت أديم الأرض . إن ما عرف من آثارنا قليل ، وما بقي منه في بلادنا أقل ، وهي تنتظر أيادي عربية لتمد لها أعناقها وترى النور .

وليس ما نتنظر بالكثير على حضراتكم ، وقد جمعتم إلى الكفايات العالمية الإخلاص القومي المتين . حالفكم التوفيق بمنايته تعالى .

سيدي نخامة الرئيس :

أمس الأول اختتم مؤتمر المهندسين العرب الذين اجتمعوا ليرسموا خطوط الإنشاء والعمران والتجديد ، واليوم تتفضل نخامتكم بافتتاح مؤتمر الآثار ورعايته ليجت علمائه في حنايا الأرض وخلفات السلف .

وإن في تعاقب هذين المؤتمرين لدلالة على وعى قومي يجمع بين الاندفاع في الحديث ، والاتفات إلى الماضي ورواؤه . وإن دمشق لتشكر للجامعة العربية اختيارها مركزاً لمؤتمر الآثار العربي ، وهي المدينة الصابرة المؤمنة الخالدة ، دمشق التي تعيش في ظل نخامتكم بأحلامها العذاب وحريراتها الغالية . والسلام .

كلمة الأمير جعفر الحسيني

المندوب الأول في وفد سورية

صاحب الفخامة ، أصحاب الدولة والمعالى ، سيداتي ، سادتي :
هذا يوم أغر أشرفت فيه شمس العروبة بعلامتها وأعلامها . هذا سوق من أسواق
العرب تنادى إليه أساطين الفن والعلم والأدب . يوم ميمون تجلت فيه روح الإخاء
العربي ، يوم تفتحت له الصدور ، وانتعشت منه النفوس . يوم هلل فيه البشر وكبر ، وحي
دعته إليها العروبة فلي نداءها .

فالشكر لجامعنا ، جامعة الدول العربية ، التي شملت عنايتها شؤوننا السياسية ، ونهضتنا
العامة ، ونخص بالثناء والتقدير لجناتها الثقافية ، التي تواصل نشاطها لتوثيق عرى الروابط
الثقافية بين الأقطار الشقيقة العربية ، هذه الروابط التي لها ما بعدها في مستقبل حياة
الأمة العربية ، والتي لا تعاد لها صلات ولا تستقيم بدونها وحدة ولا انسجام بين أبناء
دول الشرق العربية . وما هذا المؤتمر الأثري الذي نخفل بافتتاحه هذه الأمسية ،
إلا أحد وسائلها المبرورة ، ومن نعماتها المشكورة .

فإن شكرنا جامعة الدول العربية والقائمين على شئونها ، فلا يذهلنا ذلك عن أبر
الواجبات علينا ، وأحبها إلينا ، ألا وهي رفع آيات الشكر والحمد إلى أصحاب الجلالة
والفخامة ملوك ورؤساء الدول العربية ورجالات حكوماتهم ، الذين أوجدوا هذه الجامعة ،
خبروها برعايتهم ، وتعهدوها بمهرهم ، فسنوا لها سيرتها ، وأيدوها بروح من عندهم ،
فسارت بوحيمهم ، واهتدت بهديهم ، واستمدت عزيمتها من قوة إيمانهم . فطوبى لمن كان
مثل هؤلاء القادة أسوته ، ومن مناهل حكمتهم مورده ، فهو باذن الله ، بالغ غايته ، ومؤيد
على أكمل وجه رسالته .

ومن بواعث غبطتنا وسرورنا أن تختار اللجنة الثقافية دمشق مقراً لانعقاد أول مؤتمر أترى لدول الجامعة العربية ، فدمشق عاصمة الدولة الأموية ، وأول دولة عربية ، ترحب بضيوفها الكرام ، الأساندة أعضاء المؤتمر والمشاركين به ، أجل الترحيب ، وترجو لهم إقامة طيبة ، وتسنى لهم في مهمتهم النجاح والتوفيق .

وأرادت دمشق أن تختار هذا القصر مضيفاً لكم ، هذا القصر التاريخي الذي بنى على أطلال قصر الخضراء ، قصر الخليفة معاوية ، مؤسس أعظم دولة إسلامية ، ليكون منه رمز لوحدة العرب ، وعزة للعروبة .

ومن أهم دواعي تفاؤنا بنجاح مهمة هذا المؤتمر ، أن يشمله صاحب الفخامة الرئيس الأول المعظم برأيته السامية ، ويخصه بعظيم عطفه وإرشاده السديد ، وهذا أئمن ما يتشرف به المؤتمر وما يظفر به المؤتمر في فاتحة عملهم . إن علم الآثار نشأ يأسادى في الغرب ، ربيب الملوك والعظماء ، ففي كنفهم ترعرع ، وفي ظلهم نما ، من قبل أن تحتضنه الحكومات العصرية ، ويصبح عالماً قائماً بذاته بين العلوم الأساسية . ولم يزل هذا العلم في بلادنا في مهده ، تعوزه الرعاية والعناية . وهذا ما جاد به فخامته . فتق ياسيدى الرئيس بأتنا سنعمل بنصائحك الغالية ، لتحقيق ما تحرص عليه وما تريده من خير لثرائنا ، وصيانة أجدادنا ، وإحكام التعاون بين زملائنا .

إن علم الآثار هو يأسادى حديث بأساليبه ، ولكنه بالحقيقة قديم في فكرته . فهو جزء من التفكير البشرى ، ونهج من مناهج طلب المعرفة والاستنتاج ، وليس كما يذهب البعض ويظنه متعة زائفة أو هوس هواة . فهو علم مقرر له قواعده وأأسه ، فعلى هذه المبادئ العلمية قد اجتمعنا هنا لنؤدى فرضاً وواجباً نحو البحث والمعرفة على أسس العلم الصحيح ، ونحكم الصلة بين ماض حافل بالأجداد وبين حاضر على مقترق الطرق ينشد الاستقرار . فمن الواجب علينا أن نمهد السبيل ، وتعاون مع رجال الثقافة والتربية لإحياء تاريخنا القديم ، فنحبيه الى النشء الجديد ليستنير به ، ويعتز بحضارة السلف معلمى البشر . إن الأمة التى يستهين أبناؤها بماضيهم ، ويزهّدوا فى أخبارها ، لا يؤمن حاضرها من استخفافهم ، ولا تصان كرامتها من استهتارهم ، كما لا تسلم نفوسهم من الهوان ،

إذ لا مناعة لمصيرهم القومية ، ولا عصمة لعزتهم الوطنية . إن حياة الأمة هي سلسلة متصلة ووحدة لا تجزأ ، فمن لا يعتر بماضيها لا يصلح أن يرعى زمام حاضرها ، وهذه هي الشعوبية بعينها .

ومن هو يأسادنى أولى من أبناء البلاد العربية بالعناية بآثارها ، وهي مهد المدنيات ومهبط الوحي ، ومبعث الرسل والديانات ، وهي أغنى بلاد الدنيا آثاراً ، وأعرقها أجداداً ، وحضارتها القديمة أوثق الحضارات نسباً بالمدنية الحاضرة ، ونظمها الاجتماعية ، إن لم تكن أصلاً لها . وكلما زدنا بحثاً وتقياً ، زدنا معرفة ، ودنونا من الحقيقة ، وفتح أمامنا آفاق جديدة تتحفنا بأشياء ممتعة تحل لنا ألغازاً غامضة عن إلهام العقل البشرى المبدع ، وما انطوى عليه هذا الإنسان في أيام فطرته وفجر حضارته ، وليس في الدنيا ما هو أفقن للرب من أن تبحث الحقائق المجهولة التي سكت عنها التاريخ وأغفلها التدوين .

لقد كنا الى الأمس القريب عالة على غيرنا ، ولا سيما في فرع علم الآثار ، نتطفل على موائد الغرب ، فتتغذى من جنى ثمرات جهودهم . وأما اليوم وقد تقلدنا زمام أمورنا ، وتحكمتنا في شؤوننا ، فقد أصبح من العار علينا ألا نتعفف ، وألا نكف عن الاستجداء ، فعلى أن نشر السواعد ، وننزل الى ميدان العمل ، ونساهم مع من كانوا أسانذتنا ، فنشاطهم غناء البحث والتنقيب ، لنسدد بعض ما لم علينا وعلى العلم من حيل . هذه كلمة بريئة أسوقها إلى من يهمهم الأمر ، وهم يعلمون مثلى بأن أكثر البلاد العربية لم تزل بحاجة للتعاون مع الأثريين من علماء الغرب ، وليس هذا اتهاماً بالعجز أو اعترافاً به ، بل هي الحكمة بعينها . إذا أردنا أن نستحث الخطى ونسرع في سبيل التقدم والفلاح ، وصيانة كرامة العلم من نزعة الاحتكار ، فأثار بلادنا هي من أصول الحضارات البشرية ، فلا عجب أن يدعى العالم حمايتها والغيرة على صيانتها . ولذلك لا يصح أن تقتصر الدراسة على دول دون أخرى ، بل يجب أن تبقى مشاعاً بين الأمم . وفي بلادنا ، من نعمه تعالى ، آثار تفوق ما عند بقية الأمم مجتمعة ، وهي كفيّة أن تروى ظمأ الراغبين من علماء الدنيا . فما علينا إلا أن نرحب بالبعثات الأثرية والخبراء منهم ، ماداموا يعملون لغاية علمية تعاونية شريفة ، منزهة عن الشوائب والشبهات السياسية والنزعات التجارية . ولذلك لا تردد بأن نعلن على رؤوس الأشهاد ، بأننا لانرضى

أن تكون آثارنا نهباً للطامعين أو فريسة للعابثين ، مهما عظم سلطانهم ، فنحن أصدقاؤها الأوفياء ، وحراسها الأماناء ، وسوف لا نقبل مساومة على تراثنا . وعلى هذه الأسس ندعو البعثات الأثرية وكل من أراد أن يعمل للعلم وحده ، لا يبتغى من وراء عمله أجراً ولا ربحاً . فهذه هي المؤسسات العلمية التي نرغب بها ، وهذا هو العالم الذي نجه ونحترمه .

إن تاريخ بلاد الشرق الأوسط العربي هو يأسادى سلسلة متحدة الحلقات ، ووحدة متصلة الصفحات . وكلما زدنا بحثاً زدنا يقيناً بأن التعاون بين أجزاء هذا الشرق كان أوثق مما تتصوره اليوم ، فقد أثبتت المكتشفات الأثرية الحديثة أن وحدة هذه البلاد ليست بدعة جديدة ، بل فكرة قديمة . وقد سبق لهذا الشرق أن حقق في فترات متعددة وحدته خلال أربعة آلاف سنة ماضية . وكانت أقطاره تتنادى في الملعات لدفع الأذى ، وتستنصر بعضها بعض كلما تعرض جزء منها لخطر . وكانت تزعم هذه الوحدة نارة مصر وأخرى العراق ، وقصة الزباء ملكة تدمر ليست بعيدة عن الأذهان لما حاولت بجرأتها وجردت سيفها لتحرير مصر والعراق وبلاد الشام من نير استعباد الفرس والروم ، ثم حقق عرب الحجاز ما أخفقت به تدمر ، فشيّدوا من هذه الوحدة صرحهم الشاخ ومجدهم الخالد ، وأسسوا أعظم دولة عرفها التاريخ .

وأي التاريخ يأسادى إلا أن يعيد نفسه ، وما أقرب تعاون العرب اليوم بسيرتهم بالأمس ، بعد أن عقدوا الحناصر على الدفاع عن استقلالهم وتعاهدوا على صيانة كرامتهم المشتركة .

فلا عجب إذن أن يتنادى اليوم ممثلو الدول العربية ورجالاتها العلمية إلى هذا المؤتمر الأثرى ، لبحثوا ما فيه خير تراثهم . وليضعوا أسس التعاون بين مصالح آثار دول الجامعة العربية ، وليسلوكوا نهجاً موحداً يعمل به في المستقبل لصيانة الآثار والعناية بها . وليعالجوا قضية منح امتيازات التنقيب في المناطق الأثرية ، وتسهيل التعاون بين المتاحف ، وتنظيم تجارة العاديات ، والعمل على نشر الثقافة الأثرية وطرق تعميمها .

نرجو المولى أن يوفقنا في مسعانا ، ويسدد خطانا . عاش إخاء الدول العربية وشعوبها . وعاشت جامعاتهم المجاهدة . وعاش قادة العروبة الأبرار ، وحماة الأوفياء .

كلمة السيد طه باقر المندوب الأول في وفد العراق

سبدي نخامة الرئيس المعظم
معالي رئيس المؤتمر
حضرات الأعضاء

باسم العراق ومؤسسة آثاره، وبالنيابة عن إخواني أعضاء الوفد العراقي من بلاد
الرافدين، مهد الحضارات الأولى، إلى وادي بردى المبارك ودمشق الخالدة، وإلى أعضاء
المؤتمر الكرام، أحمل تحيات عاطرات، وتمنيات طيبات.

وبعد، فإن انعقاد مؤتمر اللاآثار لما يدل أبلغ الدلالة على نهضة صحيحة مباركة للشعوب
العربية تقوم على أسس علمية وطيدة. وما عنايتها بتراتها الماضي إلا لتستوحى من ذلك
التراث المجيد البواعث والحوافز، فتعيد لموطن الحضارات وبلاد العروبة مكانتها وعزها
بين شعوب الأرض.

وإنه لما يبعث على الغبطة ويبشر باختر أن تحقق جامعة الدول العربية عقد أول مؤتمر
في تاريخ النهضة العربية الحديثة تبحث فيه شؤون آثار البلاد العربية. وقد كان أمرها
مقتصرًا على الأجانب حتى عهد قريب، بالرغم من أنه نشأت في هذه الربوع، ربوع
الشرق الأدنى، أصول العمران والمعرفة البشرية. وإذا عني علماء الغرب بتراث حضارتنا،
فما أحرانا أن تكون عنايتنا أضعافاً مضاعفة.

ومن هنا يتضح عظم المسؤولية الملقاة على هذا المؤتمر الذي يضم أبناء تلك الحضارات القديمة ، ويتألف من المشتغلين بهذا الحقل من المعرفة .

وأراني في غنى أن أذكر حضرات المؤتمرين بالمسائل التي علينا معالجتها ، كالغاية بالبحوث العلمية والتعاون على تبادل نتائجها والعمل على بثها وإعلاء شأنها وتيسيرها للجمهور ، وكذلك التعاون بين الأقطار العربية لاستظهار بقايا الحضارات فيها ، وتمهيد السبل لتبادل الآثار فيما بينها ، وتبادل المشتغلين والمختصين بها .

وإننا لنرجو وتتمنى مخلصين أن تشكل جهود المؤتمر بالتوفيق والنجاح ، وأن يكون مؤتمرنا هذا غرساً مباركا ، فيحقق الهدف الأعلى للامة العربية .

وكم أتمنى أن تشاهد بغداد عقد مؤتمرنا الثاني ، وأن يصادف يوم انعقاده حفلة افتتاح بناء المتحف العراقي الجديد . والسلام عليكم .

كلمة السيد محمد أحمد شطا باسم وفد المملكة العربية السعودية

يا صاحب الفخامة

ليس في وسعي أن أعبر عن شعور المملكة العربية السعودية نحو هذا البلد العربي بأبلغ من ذلك التعبير الكريم الذي عبر به حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المفدى . وإن شعور جلالته هو شعور أمته . وإذا كان هذا المؤتمر قد أتاح لى الفرصة السعيدة لأنوه بهذا الشعور الملكى الكريم ، وأن أشيد بهذه الحفاوة البالغة التى وجدناها فى هذا البلد العزيز ، فإنه يسرنى جداً أن أحمل إليها من بلد الرسالة والنبوة ، من ذلك البلد الأمين ، من تلك الصحراء التى أنجبت القواد والفائحين — تحية الإعجاب والثناء وتحية التقدير والوفاء . الإعجاب بمجهودكم المباركة فى سبيل الحرية والسلام ، والتقدير لأعمالكم المجيدة فى سبيل التضامن والوئام . وإنها لأهداف كريمة هى أهداف الجامعة العربية ورسالتها ، أهداف الأمة العربية ومهمتها . أهداف كريمة تحرص المملكة العربية السعودية على تحقيقها لأنها تستهدف خير العرب ، وترمى الى مصلحة العرب . وإذا كنا قد اجتمعنا اليوم لنوحد جهودنا فى سبيل المحافظة على ذلك التراث الفنى الرائع فقد صتمت بدمائكم الزكية الطاهرة تراثاً أسمى ، هو تراث الشرف العربى والكرامة العربية . وستقف الأجيال القادمة وقفة خشوع واحترام أمام هذا الأثر المقدس ، ترتل آيات الدعاء وأهازيج الشكر والثناء .

يا صاحب الفخامة

إن فى الآثار لصمتاً دونه بلاغة الخطباء ، وإن فى سكوتها لروعة دونها بيان الفصحاء . إنها لسفر تاريخى تقرأ فيه الأمة صحائف مجدها وآيات عظمها . وإن المملكة العربية

السعودية لا تنظر بعين الإجلال والإكبار الى آثار السلف الصالح فحسب ، بل تجد من واجب الوفاء له والاعتراف به أن تتخذ منه مناراً تهتدى بضياته ، وقبساً تسترشد بسنائه . وعلى هذا المنهج القويم الذى يصل بها الى السعادة والمجد تسير قدما الى الأمام فى ثبات وعزيمة ، وفى قوة وإيمان . وما أحوج العرب اليوم إلى مثل هذا الرشد وذلك الهدى . وتلك آثارهم تنطق بالعظة والذكرى ، إنها :

تهيب بنا ، هذا تراث جدودكم حذار حذار اليوم أن يتقسما
وبلا فقد ضاعت جهود كثيرة وكنتم بلا كهف هناك ولا حى
وبدلتم بعد الكرامة ذلة ودارت كؤوس الدهر صابا وعلقا

أعز الله العرب والإسلام ، وأحيا الأمة السعودية فى يمن وسعادة وفى حرية وسلام .

كلمة الأمير موريس شهاب

مندوب لبنان

يا صاحب الفخامة ، معالي رئيس المؤتمر ، سادتي :
قال الشاعر العربي :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وما أدل من آثارنا على ما للدول الشرقية التي تؤلف منها اليوم دول الجامعة العربية من الماضي المجيد الذي يمكننا بحق أن نفاخر به العالم .

فن أهرام الحيزة ومعابد كرنك وكنوز توت عنخ آمون إلى مدافن أور التي حققت بفناها ودقة تحفها ما كان العقل لا يتصوره إلا قصصاً خرافية ، إلى شرائع حمورابي أجمل مثال لما وصلت إليه حقوق البشر ، إلى قصور الآشوريين ذات النقوش الرائعة ، إلى آثار جيبيل الفينيقية التي عاصرت انبثاق فجر التاريخ وضاحت بدقتها أجمل تحفه ، إلى أعمدة بعلبك ناطحات السحاب ، إلى آثار التوراة والمسيحية والإسلام المنتشرة في فلسطين ، إلى شوارع وأبنية وعمد تدمر وجرش ، إلى قصور الأمويين المنبثة ، وقصور الرشيد الدفينة في الرقة أو شوارع سامرا الواسعة ، إلى جوامع دمشق وقيروان ومراكش وقرطبة وقصور العز في طليطلة وغرناطة ، وآية الفن البنائي الإسلامي في قبور الخلفاء في القاهرة ، إلى مدارس وجوامع سلاطين المماليك في طرابلس وقصور المعنيين والشهابيين في دير القمر وبيت الدين ، إلى آثار المدينة ومكة المكرمة ، إلى سد مأرب وأبنية صنعاء .

سلسلة من الآثار المجيدة تطلق بعظمة حضارة الدول العربية منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا . سلسلة تشهد برسوخنا في الحضارة التي نشأت في أكناف بلادنا ، فتعلم لها العالم . سلسلة تشهد بما وصلت إليه هذه الدول عندما دان العالم للدول العربية من أموية وعباسية . سلسلة تشهد بأن مشعل الحضارة الذي حافظنا عليه وتمسكنا به لم يطفأ يوماً على الرغم

مما هب على البلاد العربية من عواصف . سلسلة تشهد بالدور الهام الذي قام به لبنان في مختلف العصور ، منذ نشأة الدول الشرقية المختلفة ، وعهد السيادة الفينيقية للبحار ، ونشر الأبجدية ، وعهد مدرسة الحقوق البيروتية في دور العظمة الرومانية ، واشترك اللبنانيين في حملات معاوية ، وفي بعث العباسيين للعلوم ، حتى ذلك العهد الإقطاعي ، حيث وجدت اللغة العربية والأدب العربي ملجأً حصيناً في قصور الأمراء الشهابيين ، وسرت منها إلى مصر الناهضة .

إن أهمية آثارنا والدور الذي لعبته بلادنا في مختلف العصور التاريخية حملانا على الإقبال على ترميم أبنيتنا التاريخية في الحقول المتنوعة والعمود المتعاقبة ترميماً جدياً . فدرأنا الخطر عن بعلبك وأصلحنا المعابد والقلاع والكنائس والمساجد في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وعلى قم شقيف أرنون وعند أقدام جبل صنين . وقد أنعمنا القصور اللبنانية للتوحيين في عييه والمغنيين في دير القمر والشهابيين في بيت الدين . وكان رؤساء الجمهورية والوزارات والوزراء ونواب الأمة يشجعونا بعطفهم الدائم على أعمالنا ويتبعونها عن كسب .

وبمنا لتاريخنا أخذ لبنان على عاتقه حفريات جبيل الواسعة منذ سنة ١٩٢٨ فتمكنا من الاحتفاظ التام بآثارنا المكتشفة ، واتسع العمل إلى حقول أخرى ، ومن أهمها صيدا وصور . وقد بنينا للآثار القديمة متحفاً ضخماً في بيروت ، وسنمشي قريباً متحفاً تبنيه في بيت الدين للآثار الإقطاع في العهدين العربي والعثماني .

وجاري لبنان العالم الأثرى بالنشرات العلمية ، فأنشأ نشرة المتحف الوطني السنوية ، وسلسلة لنشر الوثائق الأثرية ونتائج الحفريات ، وسلسلة لنشر وثائق ومخطوطات التاريخ اللبناني . وإني لسعيد وفخور أن أمثل لبنان في هذا المجتمع الذي يضم أثري الدول العربية الناهضة الذين يعملون بحمد وعلم ونشاط في إحياء مآثر بلادهم . وإن لبنان الذي كان دائماً صلة الدول الشرقية بغير بالاشتراك مع إخوانه لانسجام الأعمال والتعاون ، ويسره أن تكون باكورة هذه الأعمال في البلد الشقيق الذي تجمعهنا به الروابط المتينة وفي ظل صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية شكرى بك القوتلي ، وأركان حكومته الذين شجعونا في أعمالنا بتسريتهم متاحفنا وأبنيتنا الأثرية ، وبعهدهم بالأعمال الأثرية إلى اختصاصيين يلد لنا جدياً متابعة التعاون معهم لمجد دول الجامعة العربية والدفاع عن آثارها .

كلمة الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن

المندوب الأول في وفد مصر

سيدي نخامة الرئيس :

بشرفنا نحن المندوبين المصريين أن نرفع إلى نخامتك واجب الشكر على تفضلكم بشمول هذا المؤتمر برعايتكم السامية . والحق أن ما لمسناه من عناية حكومتكم السنية بشئون الآثار في هذه البلاد العريقة في المدنية ، وما تم على يد نخامتك من إنقاذ شتى العماثر الأثرية والمحافظة على التراث الفني القديم ، كل ذلك يشهد بالنهضة الطيبة التي تزعمونها في هذا الميدان من مظاهر الحضارة . وهو الميدان الذي شغلت عنه أئمتنا العربية بكفاحها في سائر الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وإنه لحسنه من حسنات جامعة الدول العربية ، ومآثره من مآثر القائمين على أمرها ، أن عملت على إعداد هذا المؤتمر ، وأن اختارت لعقدته مدينة دمشق التي تمتد تاريخها إلى أقدم العصور ، والتي أتيح لها أن تصبح أول مدينة ازدهرت فيها فنون الإسلام ، ثم حفلت بعد ذلك ببدائع العماثر في عصر الأيوبيين وعصر المماليك من بعدهم .

وإننا نحن المندوبين المصريين يسرنا بوجه خاص أن نجتمع في هذا القطر الشقيق الذي يبلى مندوبه في مجلس الأمن بلاء حسناً في سبيل الدفاع عن العرب والوصول إلى تحقيق العدالة بين الأمم ، والذي تعمل حكومته الرشيدة برعاية نخامتك على تحقيق التعاون الشامل بين العرب .

والله نسأل أن نكون عند حسن ظن فخامتكم ، فنصيب الأهداف التي ترمى إليها
جامعة الدول العربية ، والآمال التي تحيش في صدورنا معشر المشتغلين بالآثار في الشرق
العربي ، فنجتمع أمهرنا ، وتعاون فيما بيننا للحفاظ على التراث الفني في بلادنا ، وإنقاذ
آثارنا وتحفنا من الدمار والضياع ، ثم النهضة بالتأليف في شتى نواحي الفنون والآثار ،
والعمل على أن تصبح لغتنا العربية لغة عالمية تسع كل المصطلحات في هذا الميدان ،
كما وسعت المصطلحات في مختلف ميادين العلم والمعرفة ، حين كان أجدادنا حملة لواء
العلوم في الدنيا .

كلمة الأستاذ أحمد فخري

مندوب اليمن

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سيدي الأجل نخامة الرئيس

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف السورية

حضرات السادة الزملاء

إنه لشرف عظيم أن أقف اليوم بين أيديكم لأتكلّم باسم اليمن شاكرًا لجامعة الدول العربية سعيها المحمود لعقد هذا المؤتمر ، وشاكرًا للحكومة السورية جميل ترحيبها بعقده في دمشق ، وهو البلد الطيب ذو التاريخ القديم والماضي المجيد والحاضر الزاهر .

لقد ارتبطت هذه البلاد الكريمة بجنوبي الجزيرة العربية منذ أقدم العصور ، ولم تقف هذه الصلات عند حد التجارة وتبادل الثقافة وحسب ، ولكنها امتدت إلى ما هو أبعد أثرًا من ذلك . فكثيراً ما هاجرت القبائل اليمنية إلى الشام كلما أصاب بلادهم الجفاف أو تصدع سد مأرب . فكانوا يجدون في هذه البلاد الحصبة المضيفة كل ما تصبو إليه نفوسهم ويعوضهم عن ترك وطنهم . وكثيراً ما نتج عن اتصال ثقافة اليمن بثقافة الشام حضارات ذات شأن مثل حضارة الفسائنة الذين وفدوا إلى سورية من اليمن ، والذين يعتز كل عربي بتاريخهم .

وإني إذ أحمل لسورية العزيزة ولشعبها الأبى الكريم تحية اليمن وتحية عاهله العظيم جلالة الإمام يحيى بن حميد الدين ، فأنا أحمل إلى أبناء غسان تحية صادقة من أبناء عمومته في اليمن . أسأل الله أن يوثق ارتباط البلاد العربية واتحادها . وأن يشمل سورية وأهلها الغر الميامين برعايته وعنايته ، وأن يوفقنا جميعاً لخدمة الوطن العربي ، فهو نعم المولى ونعم النصير . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ملحة القامة الأثرية

لجان المؤقر

لجنة الثقافة الأثرية

الرئيس : الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن

المقرر : السيد طه باقر

الأعضاء : الأمير جعفر الحسني ، الدكتور سليم عادل ، السيد عبد العزيز عثمان ،
السيد فؤاد سفر ، السيد بشير يوسف فرنسيس ، الأستاذ السيد محمد شطا ،
الأمير مورييس شهاب ، الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، الدكتور محمد
مصطفى ، الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق ، الأستاذ أحمد نخري ،
السيد نعيم مخلوة ، الأستاذ حسن عبد الوهاب ، الأستاذ علي جمال الدين
حسين ، السيد خالد معاذ ، الدكتور محمد حيدر ، الأستاذ عبد السلام
محمد حسين ، الأستاذ محمد حسن عبد الرحمن ، الأستاذ علاء الدين الخاني ،
الأستاذ عباس بدر .

لجنة القوانين الأثرية

الرئيس : الأمير جعفر الحسني

المقرر : الأستاذ عبد الهادي حمادة

الأعضاء : السيد عبد العزيز عثمان ، الدكتور سليم عادل ، السيد طه باقر ، السيد
بشير يوسف فرنسيس ، السيد فؤاد سفر ، السيد عبد الرحمن البسام ،
الأمير مورييس شهاب ، الدكتور زكي محمد حسن ، الدكتور محمد
مصطفى ، السيد نعيم مخلوة ، الأستاذ حسن عبد الوهاب ، السيد خالد
معاذ ، الدكتور محمد حيدر ، الدكتور يوسف عرقنتجي ، الأستاذ علي
جمال الدين حسين ، الأستاذ عباس بدر ، الأستاذ بسام كرد علي .

لجنة المصطلحات العلمية

الرئيس : السيد طه باقر

المقرر : الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن

الأعضاء : الأمير جعفر الحسيني ، الدكتور سليم عادل ، السيد عبد العزيز عثمان ،
السيد فؤاد سفر ، السيد بشير يوسف فرنميس ، السيد محمد شطا ،
الدكتور محمد مصطفى ، الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق ، السيد خالد
معاذ ، الأستاذ حسن عبد الوهاب ، الدكتور محمد حيدر ، الأستاذ
عباس بدر ، الأستاذ علي جمال الدين حسنين ، الخوري يوسف نصر الله ،
الأستاذ عبد السلام محمد حسين .

مطالع الحاضرة الإسلامية في دمشق وحلب

في شهر ربيع

البحوث والمحاضرات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
بسم الله الرحمن الرحيم
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

مظاهر الحضارة الإسلامية في دمشق وحلب

للامير جعفر الحسنى

يتعذر علينا تقدير حقيقة الحضارة الإسلامية في دمشق ومبلغها، ما لم نستعرض ولو بلمحة خاطفة الأدوار التي تعاقبت على هذه المدينة منذ أقدم عصور تاريخها . لقد غاب مع طول القدم ذكرى من بنى دمشق ، وقد تضاربت بذلك الروايات ، فمنهم من زعم أن إرم كان ينزل بجوارها ، وأن على جبلها قاسيون قتل قابيل أخاه هابيل . وروى غيرهم أن أول حائط وضع في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران ، وأن فيها دار شداد ابن عاد وأنها هي الربوة ذات قرار ومعين وإرم ذات العماد .

كل ذلك يحملنا أن نسلم مع القائلين بتقادم عهد هذه المدينة مهما بالغوا وقالوا شططا . فقد ورد ذكر دمشق في النصوص المصرية والآشورية ، وتشير كلها إلى مكانة دمشق المرموقة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد من الناحيتين السياسية والاقتصادية . وروى لنا الكتاب المقدس عن أهميتها التي تعدت في القرن الحادى عشر قبل الميلاد نطاق حدودها إلى ميدان الحقل الدولى حتى أصبحت مرهوبة الجانب ولها رأى مطاع في تقرير مصير الشرق الأوسط ولا يستكثر عليها ذلك . فقد كانت عاصمة المملكة الآرامية التي كانت أكبر دولة في بلاد الشام وأقواها . يضاف إلى ذلك نفوذها الدينى الذى كانت تتمتع به بصفتها مدينة مقدسة يحج إليها الشعوب السامية من البلاد المجاورة . ولم تستطع حادثات الدهر أن تقضى على مكانتها أو تنتزع سلطانها برغم الكوارث والحن التي تزلت بها خلال الألفى سنة التى تقدمت الفتح الإسلامى . وقد تعاقب على دمشق العموريون والميتانيون والآراميون والمصريون والآشوريون والبابليون والفرس واليونان والرومان

والبيزنطيون . وترك كل منهم في تاريخها أثره وذكرياته ، وساهم كل من هذه الشعوب على قدره في بناء مجد دمشق وشهرتها . وقد هلك هؤلاء جميعهم ، وذهب ما شيدوه ، ليحل محله ما أسسه العرب وما خلدوه . استولى العرب على دمشق وكيفوا مع الزمن قديمها وفق رغائبهم ومزاجهم وصانوا من قديم معالمها ما تيسر لهم حفظه وما يعود عليهم به نفعه ، ونفذنا خلال ذلك إلى خطط دمشق القديمة وتطورها .

جاء المسلمون فوجدوا دمشق محصورة ضمن سورها الحصين ، ويمتد عمرانها على طرفي شارعها المستقيم المشهور ، وهو عمودها الفقري الذي يخترقها من الشرق إلى الغرب ، وملتفة حول معبدها الكبير . تخلوا فيها واتخذها بنو أمية قاعدة لملكهم ومقراً لخلافهم . وأصاب دمشق من غنائمهم ما أصبحت به عاصمة أعظم دولة عرفها التاريخ ، وتضائل معه كل ما قيل عن ماضى دمشق وعظمتها . فقد امتد في عهدهم عمران المدينة إلى خارج السور ، وبنى معاوية قصر الإمارة بجوار الجامع الأموي الجنوبي وسمى بالخضراء . ولم يزل يطلق هذا الاسم على مصبغته الموجودة في هذه المنطقة . ويطلق أيضاً اسم معاوية على طريق مجاور لها . وقد ذلك العباسيون هذا القصر مع ما هدموه من القصور الأموية وآثار الأمويين ، كما عبثوا بحرمة قبورهم . ونقضوا أسوار المدينة وحصونها وأجرى ابنه يزيد نهراً في سفح قاسيون ، وهو يعرف باسمه (نهر يزيد) حتى يومنا هذا . وهو بحالة سليمة ينتفع به الناس لحاجتهم وزروعهم . وقد استصفي الوليد الكنيسة الكبيرة كلها — كنيسة القديس يوحنا — فهدمها وشيد مكانها جامعاً الخالد وصرحه الشايع الذي سيبقى أبد الدهر من مفاخر ما ابتدعه الإنسان وما يمكن أن يبلغه الإتقان . لا يعرف في العالم معبد طال أجله ودام نفعه وتوارثته أديان مختلفة وأقيمت فيه شعائر دينية متباينة كما اشتهر به جامع دمشق . وقد كان قبل اليوم معبدها الأعظم ثم كنيستها . فهو أبادازينة دمشق وعنوان عظمتها . وقد كان في جميع أدواره من أشرف الأبنية غاية وأروعها مظهراً ، خصه الانسان بكل ما أوتي من قوة الابتكار وبراعة الإبداع . وقد توالى فيه العبادات الوثنية والسماوية بتصاريف اللغات منذ أذن الله أن يرفع هذا البيت ويذكر فيه اسمه حتى يومنا هذا . وما زال يشع منه بأساليب متنوعة نور الفضيلة والدعوة إليها . إن كان اليوم يوعظ فيه من أعلى منابر ، فقد كانوا بالأمس يبشرون في هياكله للغاية المثلى

والارشاد لما فيه خير العباد وفلاحهم . فما برح هذا المبدع منذ فجر التاريخ — أى من نحو ٣٠٠٠ سنة متوالية — يؤدى رسالته السامية ويؤمه المؤمنون مليون دعوة مناديهم ، ويؤدون فيه فرائضهم الدينية بنفوس خاشعة مطمئنة .

وجامع دمشق هو من أكبر مساجد العالم الإسلامى ، بنى على غير مثال معروف ، استوحى واضع تصميمه الأبنية السورية قبل الإسلام وطرازها المؤلف إذ ذاك . فصاغ منها نوع بناء جديد له طابعه الخاص وشخصيته المستقلة ، وقد وفق المهندس والصانع الى حد بعيد فى الجمع بين أسلوب البناء القديم وزخارفه وما تستلزمه شروط الحياة الإسلامية وتعاليمها الدينية ، حتى كاد يلبس على الباحث أصول هذا المزج ويعتبره ابتكاراً لا مزج فيه ولا استعارة ، وهكذا وضعت معه أسس الهندسة العربية التى استراح إليها العرب والمسلمون واتخذوها مثالا يحتذوه . وأصبح هذا الجامع أحد نماذج ما ابتدعه فن الزيارة فى كل زمن وفى كل بلد . ولولم يكن لدمشق سوى هذا المظهر الإسلامى لسفى أن يطغى على كل ماسواه وتنضال أمامه عظمة كل ادعاء . ومع الأسف أصيب هذا الجامع غير مرة بزلزلات صدعت أركانه ومناراته ، وحرقت ست مرات فى عصور مختلفة: أولها حريق سنة ١٠٦٩م والأخير سنة ١٨٩٣م ذهبت بحجاسنه ولم يبق منها إلا التزوير اليسير ، وكان يعاد بناؤه فى كل مرة الى ما كان عليه قبل الكارثة مع تحوير بسيط .

أما بنو العباس فلم يبق الأيام من آثارهم مصنعة يعتد به فى دمشق . مع أن بعض المتقدمين من خلفائهم كالرشيد والمأمون كانوا يختلفون إليها . وقد بنى المتوكل قصراً فى ضاحية دمشق بين داريا والمزة ، وبنى خمارويه قصراً فى الربوة ، ودرست معالم دار الإمارة التى نقلها الفاطميون من المدينة الى سفح قاسيون بجانب دير مران ، ودثر أثر القصر العجيب الذى بناه جعفر بن فلاح القائد الفاطمى فوق نهر يزيد .

ولم تزل الى اليوم الفوارة التى أجراها فخر الدولة حمزة بن الحسن القاضى الفاطمى فى جيرون شرق الجامع الأموى ، وتعرف الحلة الى اليوم باسم (النوفرة) .

وقد امتد عمران المدينة خلال المدة المتقدم ذكرها الى ما وراء السور ، فأُنشئت محلة العقبية ظاهر باب الفراديس ، ومحلة الشاغور ظاهر باب الصغير ، ومحلة قصر حجاج ظاهر باب الجابية ، ومحلة الصاحية فى سفح جبل قاسيون ، ولم تزل جميعها محتفظة بأسمائها القديمة .

ويستخلص مما تقدم أن دمشق قد فقدت في العهد العباسي ما كان لها من عظمة في العهد الأموي ، وهي نتيجة طبيعية بعد أن حول العباسيون مركز الخلافة منها إلى بغداد ، وأصبحت بعد ذلك قضية ولاية بعد أن كانت مقر الخلافة . وبقيت على هذا الحال إلى منتصف القرن الخامس هـ يوم أقبلت من الشرق الدولة السلجوقية التركمانية وقضت على الدولة الفاطمية العربية ، وتملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر . ثم انتقل الحكم بعد موت دقان بن تنش إلى مملوكة طغتكين فأحسن السيرة وحسنت بآيامه دمشق وأعمالها ، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك داخل العاصمة وظاهرها ، وزاد ازدهار دمشق في عهد الدولة النورية التركية والصلاحية الكرديتين جعلتا من دمشق عاصمتهما ، فأعادا إليها حقها المصوب ومركزها المملوك ، وهكذا استعادت في عهدها مكانتها العلمية والدينية والسياسية ، وأصبحت من أهم مراكز الإسلام وأمنها ، بفضل تجديد تحصين المدينة والعناية بسورها وبناء قلعتها العظيمة .

وقلعة دمشق هي أيضاً من أجلى مظاهر الحضارة الإسلامية فيها . فقد حلت محل الحصن الروماني والبيزنطي . ولا نعلم ما كانت عليه هذه القلعة قبل القرن الثالث عشر م . وقد ذكرت المصادر هذه القلعة أول مرة في زمن السلاجقة لما بنى فيها تاج الدولة تنش دار الإمارة عوضاً عن التي حُرقت في فتنة الفاطميين ، وذكرت لنا أيضاً أن ولده شمس الملوك دقاق قد زاد فيها . ولما جاء الملك العادل أعاد النظر في بناء القلعة فوسعها وجعلها على الشكل الذي هي عليه اليوم ، وأصبحت القلعة بعد ذلك سكناً للملوك وأمرائهم ونوابهم ، ثم رُم الملك الظاهر بيبرس ما هدمه التتر من أعاليها وشرقاتها ثم خرب تيمورلنك قسماً من غربيها وشماليها ثم أحمل شأنها إلى أن بلغت الحالة التي هي عليه اليوم . ومع هذا كله فإن ما سلم منها وما تبقى يشهد بعظمة هذه القلعة ويجعلها بحق في طليعة المنشآت الحربية الإسلامية الرائعة التي يجب أن نعتز بها ونحرص على سلامتها وصيانتها .

وعرفت دمشق في العهد الأيوبي ميدانين للفروسية يقصدها الملوك والأمراء والجنود لممارسة الألعاب الفروسية وضروب الرمي . الأول هو الميدان الأخضر وهو غربي دمشق ، ويقوم عليه اليوم الملعب البلدي ويعرف اليوم بالمرج الأخضر . والثاني هو ميدان الحصى الواقع جنوبي المدينة حيث تقوم اليوم المحلة الكبيرة المعروفة بحي الميدان .

وما كاد يستقر الأمر للدولتين النورية والصلاحية حتى شنتا حرباً شعواء على المذاهب الشيعية السائدة وقتئذ في بلاد الشام ، وتغلب مذهب أهل السنة عليها وحل محلها وأصبح مذهب الدولة والرعية . ولذلك أخذنا بإنشاء نوع جديد من معاهد العلوم الدينية خصصت لأهل السنة ، وأكثرنا منها ، وعرفت بالمدارس ودور القرآن ودور الحديث ، وكلها معاهد علمية منظمة يأوى إليها طلاب العلم ويتولى التدريس لهم وتنقيفهم فئة صالحة من المدرسين والقراء والمحدثين والعلماء . وتقوم هذه المدارس بالإتفاق على من يدخل فيها لطلب العلم والاستفادة . وكان لكل من هذه المعاهد أوقاف دارة تؤمن نفقاتها ، وقد اشترك في هذه المبرات الحاكم والمحكوم ، منها ما أنشأه السلطان أو أفراد عائلته أو أمراءه ، ومنها ما أنشأه العتقاء والخصيان والإماء وأهل اليسار من التجار وغيرهم . وكذلك بنى في عهد هاتين الدولتين الخوانق والربط والزوايا والبيارستانات .

بعد أن غزا المغول الشام في عام ١٢٦٠ م وبعد القضاء على الدولة الأيوبية وانتقال الحكم إلى مماليكهم الجراكسة واستقر لهم الملك ، دخلت دمشق في طور آخر من مراحل تاريخها . واكتسبت في عهدهم مظهراً جديداً . سار سلاطين المماليك في أول أمرهم سيرة صالحة ، وعرف منهم ملوك عظام اهتموا بسعادة دمشق وعمرانها ، وفي طليعهم الظاهر بيبرس والمتصور قلاوون وقايتباى وبرسباى ، وعرف منهم ملوك أقصدوا عليها تقدمها بجورهم وسوء تدبيرهم . ولا يسعنا — برغم كل ما يؤخذ على هذا العهد من شوائب — إلا أن نعترف بماله من فضل عظيم على بلاد الشام . وحسبه فخراً جلاء جيوش الصليبيين والقضاء على فلولهم ، ودحرهم التار ، وردهم على أعقابهم خاسرين ، وتحقيق وحدة مصر والشام حتى أصبحا لا ينازعهما سلطان أجنبي ، وأصبحت حوادثهما وطنية محلية يثيرها تنازع الحكم والاستئثار بالملك . واستعادت البلاد في أيامهم اطمئنانها واستأنفت نشاطها التجارى وتوسيع آفقه وازدهرت الصناعات ونمت ثروة البلاد . ونلمس جميل أثر ذلك في وفرة ما تركوه لنا من أبنية لطيفة وعمران حسن . فقد شغف الناس في عهدهم ببناء الجوامع والمساجد وزهدوا في المدارس ، وبنوا الحمامات والخانات والقصور وسبل الماء . ولا يخلو حتى من أحياء دمشق ، ولا سيما المسجد منها في العصور الوسطى ،

من بعض هذه الآثار أو كلها تتحلى بها ، وتلطّف بحمال منظرها ورشاقة مناراتها وحسن انتقاء مواد بنائها مظهر البؤس والفاقة البادى على هذه الأحياء المتواضعة .

وقد عدد لنا النعيمى المتوفى سنة ٩٢٥ هـ فى كتابه (الدارس) نحو ١٥٧ مدرسة ودار قرآن ودار حديث و ٢٦ خانقاه و ٢٣ رباطا و ٢٦ زاوية . وكان فيها أربع مدارس للطب وثلاثة مستشفيات أو بهارستانات . يضاف إلى ذلك عشرات الأبنية الإسلامية التى استجد بناؤها فى العهد العثمانى .

ولم يزل معظم هذه المنشآت الإسلامية عامراً ينتفع به الناس ، وبعضها آية فى الإتقان والإبداع تشهد ببراعة الصانع الشامى وتقننه ، وهى من أجل ما أبقت عليه الأيام من البناء الفائق بهندسته وحسن ذوقه ، ومشاهدتها عملاً للقلب رهبة والنفس غبطة . وقد تقمص فيها تاريخ ناحية مهمة من الحضارة الإسلامية وتطورها فى مختلف الأدوار . ولولا هذه المظاهر المباركة من مدارس وجوامع وقصور وحمامات وغير ذلك لعذرنا القائلين عن دمشق بحالتها الحاضرة بأنها بلدة هيجنة لاشرقية ولاغربية . وهى لذلك أحوج المدن الإسلامية إلى الاحتفاظ بهذا التراث الثمين والعناية به ، ليشهد لها بنبل سيرتها فى العهد الإسلامى واصالة نبئها وطهارة فرعها .

وما قلناه عن دمشق يصح قوله عن حلب ، فهى أيضا من أعرق مدن العالم فى القدم التى بقيت عامرة على اختلاف العصور دون أن يدب فيها الهرم . إن كنا نجهل ما كانت عليه هذه المدينة فى عصور ما قبل التاريخ فأتنا نعلم بوجودها بهذا الاسم منذ فجر التاريخ ، ونعرف بأنه كان لها شأنها منذ القرن العشرين قبل الميلاد . وثبتت الوثائق التاريخية أنها كانت عاصمة ملك منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

ظهر ذكر مدينة حلب فى عالم الوجود وظهرت معه حركة هجرة شعوب آرية واسعة النطاق فى شرق أوربة وحوض البحر الأسود بدلت أوضاع الشرق الجغرافية والسياسية . فانتقلت حلب بسبب ذلك إلى الحيثيين والميتانيين والمصريين والآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان والعرب وما تفرع منهم من الدول الإسلامية . دخل العرب بلاد

الشام وفتح المسلمون حلب الشهباء صلحا . وكانت يومئذ من أمهات المدن الشامية ترهبو بحاضرها وتفخر بماض مجيد . عمرت آلاف السنين وقاست خلالها غناء الأحداث وبؤس الكوارث تناجز بها الأقدار من سلطان إلى سلطان . يحمد ذكرها حيناً ويبعث حيناً آخر ، إلى أن جاءها الإسلام فجعلها باذن الله من المدن الخالدات .

لم يبق الزمن من كل هذا الماضى الطويل سوى الزر اليسير لا تدركه سوى عين خبير بصير . فقد قضى حريقا عام (٩٦٢ م) وعام (١١٦٩ م) على ما تبقى من معالمها القديمة وحل محلها منشآت إسلامية . ولا يحتاج بحث مظاهر الحضارة الإسلامية في حلب إلى دليل . فكل ما يقع عليه البصر في حلب هو عربى ، وكل مظهر للحضارة فيها هو إسلامى . ولا يتطلب إثبات ذلك جهداً عظيماً ، بل عكسه هو الذى يعوزه البرهان ويفتقر للاقتناع . فهى إسلامية بكليتها ، يشهد بذلك سورها وأبوابها وقلاعها ومساجدها ومدارسها وحماماتها وربطها وخواتمها وأسواقها ودورها وبهارستاناتها ، وقليلة هى المدن التى تضارعها فى هذا الشرق أهمية فى مظاهرها الإسلامية ، وتفاخر مثلها بثروتها الأثرية التى تهذى الباحث وتساعده على دراسة تاريخ الرياسة الإسلامية وتتبع تطورها واستقصاء مناهلها . فيجد فيها سلسلة متواصلة من الأبنية المدنية والدينية والعسكرية تمتد من القرن الحادى عشر الميلادى حتى عصرنا هذا ، تمتاز كلها بتنوع أشكالها واختلاف طرازها ، فلكل طائفة منها طابع خاص تظهر فيه فكرة تحرر الصانع الشامى من التقاليد البالية ، وتطلعه للتجديد ، وتتجلى فى أعماله سعة تفننه وقدرته على الإبداع والابتكار . وقد أحصى فى حلب أكثر من ٣٠٠ بناء أثرى إسلامى متفاوتة الأهمية ، ومبعثرة فى جميع أحياء المدينة تمثل مختلف الأدوار التى تعاقبت على حلب ، وترسم تطور البناء فى كل منها .

لم يبق فى حلب أبنية أثرية يرجع عهدها إلى القرون الإسلامية الأولى ، إما لأنها كانت قليلة العدد فى ذلك العصر ، وإما لأن الأيام درستها وأتت عليها النكبات لحريق سنة ٩٦٢ م . لما استولى الروم على حلب واستباحوها . وقد ذكرت لنا بعض المصادر التاريخية أن أول مسجد اختطه المسلمون بعد الفتح كان بجوار بابها الغربى ، ثم بنى بعده فى زمن الوليد الجامع الأموى ، شيد فى وسط المدينة ما بين باب أنطاكية والقلعة ، وقد تطور

مع الزمن بناء هذا الجامع وأصابه تحوير وتعديل أضاعا علينا شكله الأصلي ، ولكن هنالك دلائل وقرائن تحملنا على الاعتقاد بأنه بنى بجملته على غرار الجامع الأموي بدمشق ، ولكنه دونه كلفة ونفقة ، وأقل منه إسرافاً بالتنسيق والزخارف .

ويظن بأن حلب كغيرها من مدن الشام قد أهمل العباسيون أمرها ، وزهدوا في عمرانها ، ولذلك نرى عصرهم في حلب من أجذب العهود عمراناً . وقد جاء في بعض المصادر أنه كان للقائد العباسي صالح بن علي الهاشمي قصر في ضاحية حلب ، وكان لسكنى من ولديه الفضل وعبد الملك قصر داخل المدينة ، وقد درست جميعها وغنت معالمها .

أخذت حلب تستعيد مكانها بعد أن اتخذها سيف الدولة عاصمة للملكة ، فازدهرت في أيامه وطارصيتها ، فقرن اسمها باسم سيف الدولة فشاطرته شهرته ، وشاركته في محنته . أراد أن يجعلها كبغداد حاضرة بني العباس كعبة العلم والأدب ، ولكن الأقدار لم تساعد هذه الدولة العربية الفتية على تحقيق ما أرادت حلب من ازدهار وعمران فقد تكالب عليها الأعداء فانهكت بالحروب والغزوات لتدفع خطر الروم عن البلاد ، لحفظت بذلك بيضة العرب والإسلام . ومع ذلك فقد دم سيف الدولة الجامع الأموي وحصن باب قنسرين ، وبني مشهد الدكة وفيه قبر محسن بن الحسين ، كما بنى لنفسه قصراً عظيماً على ضفة نهر قويق خارج السور من الجهة الغربية ، وأقام بجواره ميداناً لألعاب الفروسية . وقد أتى حريق عام ٩٦٢ م على أكثر هذه الأعمال . وهذا مما حل ولده سعد الدولة أن يتخذ مقره داخل القلعة فتحصن فيها ، وقد حذا حذوه كل من جاء حلب بعده من ملوك وحكام . وهكذا تحولت العناية إلى القلعة ، فأصبحت حاضرة ملكية لها قصورها ومساجدها وأسواقها ومرافقها ، حتى حرم على غير الخاصة دخولها .

ولم يطرأ على حلب تغير يذكر في زمن الفاطميين وبني مرداس وآل سلجوق . لأن البلاد كانت في أيامهم مسرحاً للفتن الداخلية التي أثارها النزوات السياسية والعصية المذهبية ، ولذلك لم يجد العمران في عهدهم مرتعاً خصباً ولا إقبالاً .

انتقل الحكم بعد بني مرداس من أيدي العرب إلى الأعاجم من تركان وأكراد . وكان لهذا التحول أثره في تاريخ الشرق الأوسط ، وقد نجلى أثره في ولاية آل زنكي

ومن تفرع عنهم . فقد حل في بلاد الشام مذهب أهل السنة محل التشيع الذي كان يسود البلاد . ونشأ عن ذلك ظاهرة عمرانية جديدة لا عهد بها من قبل ، وهي بناء المدارس لأهل السنة والجماعة ودور القرآن والخوانق والربط والزوايا والبيمارستانات . وتسابق السلاطين والأمراء في هذا المضمار زلفة إلى الله تعالى . وتساهلوا في تشييد هذه المنشآت والوقف عليها الملوك والعظماء والجمهور من الرجال والنساء .

وكانت فاتحة أعمال السلطان نور الدين أنه رمم ما خربه الزلزال من سور المدينة وجدد بعضه وفتح فيه الباب الصغير ، كما جدد بناء سور القلعة ومساجدها وأجدت فيها ميدان سباق ، وشيد فيها قصره المسمى : « قصر الذهب » وجدد أيضاً بناء الجامع الكبير ووسعه ، وكان قد احترق عام (٥٦٥هـ) ولم ينج منه سوى منارته التي بنيت عام (٤٨٣هـ) وهي من أروع نماذج فن الرياسة الشامية الإسلامية . وأقام حول هذا الجامع أسواقاً جمع في كل منها أرباب الصناعة الواحدة : كالبرازين والصاغة والزجاجين والسراجين وغيرهم من أهل الحرف .

وبنى في حلب نحو ست مدارس وثلاث زوايا للصوفية والفقراء إحداهما للنساء ، واقتدى به أقاربه وأمراؤه من رجال ونساء ، وتسابقوا في بناء المدارس وعينوا لها مدرسين وقراء من نوابغ رجال الدين والعلم والأدب ، ووقفوا عليها أوقافاً غنية تقوم بجميع ما تطلبه نفقاتها . وكانت تضم أكثر هذه المدارس والزوايا قبور مؤسسيها وأقاربهم . ومن أهم مظاهر حضارة ذلك العصر هو الاهتمام في بناء البيمارستانات للعناية بالمرضى والعطف على البؤساء ، ومنها بيمارستان بنى الدقاق وبيمارستان نور الدين وبيمارستان أرغون الكاملى ، رتب فيها كل ما يحتاج إليه من رزق وآلات وعلاج وخدم .

وقد حمل حرص نور الدين على تحرى العدل والإنصاف على إنشاء (دار العدل) لرفع الظلم وإحقاق الحق .

وقد نهضت البلاد في ذلك العهد وحل العمران محل الدمار ، وحقق آل زنكى في خمسين سنة ما عجز عن تحقيقه غيرهم في مئات السنين ، فقد شيّدوا الجديد ورمموا

القديم . وهكذا ظهرت حلب بهذا الطابع الجديد مدينة إسلامية بكل ما في هذه الكلمة من قوة ومعنى .

وقد زادت المظاهر الإسلامية ونمت في العهد الأيوبي ، فقد اقتنى سلاطينه وعظماؤه أثر آل زنكي ، فواصلوا عملهم ونهجوا نهجهم في أساليب الحكم وحب العمران . وقد بلغت حلب في عهدهم درجة من الثروة والرخاء لا عهد لها بها من قبل ، وتتجلى مظاهرها في عظمة الآثار التي خلفوها وما أنجحت حلب في زمنهم من كبار القضاة والعلماء الأعلام . ودخلت المشروعات العمرانية في عهدهم في طور جديد . فبينما كانت في السابق ترتجل ارتجالا نراها عندهم توضع وفق خطط مرسومة ودراسة موزونة محكمة الارتباط ، فشملت تحصين المدينة وخطط أسواقها وتوزيع الماء فيها والعناية بالمرتفعات الصحية ، حتى بلغ عدد حماماتها العامة في منتصف القرن الثالث عشر م ١٩٥ من الحمامات على حسب رواية ابن شداد ، ولم يبق فيها اليوم سوى عدد قليل . وقد بلغت الرياضة الإسلامية في عصرهم ذروة مجدها ، وتجلت عظمتها في أعمالهم في القلعة ، بعد أن جعلوها حاضرة ملوكهم ، فجمعوا فيها منعة الحصون وأبهة القصور . وليست قلعة حلب من أروع ما أنتجته العبقرية الإسلامية فحسب بل هي أبداع وأدهش ما ابتكرته الهندسة العسكرية في عالم القرون الوسطى . وقد بلغ عدد المدارس التي بنيت في العهد الأيوبي نحو ٣٥ مدرسة أهمها مدرسة الفردوس والسكاملة العديمية والأتابكية والظاهرية والصاحبية والشرفية والرواحية والسيقية والهروية والمقدمية والحدادية .

وفي سنة ١٢٥٩ م قصد التتر بلاد الشام واستولوا على حلب ففقدوا بأهلها وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال ، ونقضوا سور المدينة وخرّبوا قلعتها ، وأحرقوا أسواقها وجوامعها . ثم جرت أمور تسليطن على أثرها بيبرس البندقداري وهو من المماليك الجراكسة ، وتلقب بالملك الظاهر ، فاستقرت بلاد الشام في ملكه ، ودخلت حلب في طاعته في عام ١٢٦ م فوجدها خرابا يبابا كما تركها التتر . وبقي أهلها خلال ٥٠ عاما في خوف ووجل من عودة التتر ، إذ لا سور يعصمهم ولا حصن يلجأون إليه ، فهجروا كثيرهم المدينة خوفا من تكرار الفتنة . ولكن كتب لحلب

بعد برهة من الزمن أن تنهض من محنتها ، ولا سيما بعد أن أمنت البلاد خطر الغزوات من الشرق والغرب ، بفضل تحقيق وحدة مصر والشام . وقد استفادت حلب من الوضع السياسى الجديد فائدة كبيرة ، وساعدها على ذلك مركزها الجغرافى المتوسط بين الشرق والغرب والجنوب والشمال . فراجت تجارتها ودرت على سكانها أرباحا طائلة ، فاستعادت الأسواق التجارية نشاطها وازدهرت الصناعات فيها ، وكثرت هجرة الناس إليها من البلاد المجاورة ، فزاد عدد سكانها ، وضافت بهم أحيائها ، فبنا العمران ونشط وامتد إلى ظاهر المدينة . وحل في عهدهم بناء المساجد محل بناء المدارس ، فارتدت بها المدينة حلة جديدة زادت بها جمالا وجلالا بمشهد مناراتها المهيبة وتنوع الزخارف في جبهات مساجدها وجوامعها . وهناك عوامل سياسية واقتصادية كثيرة هيأت لحلب الأسباب لتكون مدينة كبيرة ، وساعدتها على المضي في نهضتها قدما .

ثم جاء العهد العثمانى فمهر حلب بطابعه الخاص ، وأضاف إليه مظهراً جديداً بمساجدها التركية اللطيفة ومناراته الرشيقة وتكاياه الفسيحة . وكثرت في زعمهم الخانات التجارية الفخمة ، وتعددت القصوريات والأسواق الواسعة التى تثير بمظهرها إعجاب الزائر ودهشته .

وقد أفاض كل ذلك على المدينة جوا من مدن القرون الوسطى وحياتها ، وهذا أبرز ما يمتاز به حلب عن شقيقاتها من مدن هذا الشرق ، وستبقى بفضل ما تبقى من هذا الماضى المجيد ، ويربو عدده على ٣٠٠ بناء أثرى ، أصدق شاهد على ما بلغته الحضارة الإسلامية في حلب .

وستكفل لنا هذه الأوابد الأثرية بصمتها البليغ تخليد ذكريات تراث السلف وعظمته خلال أربعة عشر قرناً .

وستبقى هذه المشاهد عنوان مجدنا ، ومدار فخرنا ، ومبعث إعجاب الأجيال المقبلة ، يعزبها الابن البار ، ويصعق لها كل خال .

فرحة الله على السلف الصالح ، وأجزل الله لهم الثواب .

العلاقات بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان

منذ فجر التاريخ حتى العهد الهلنستي

للكرنور سليم عادل عبر الحق

محافظة دار الآثار الوطنية بدمشق

عاش الشرق الأدنى بتماس مباشر مع العالم اليوناني منذ الزمن الذي تألفت فيه أقدم المدنات . وكان لهذا الاتصال أثر كبير في تبادل انعكاس شخصيتهما انعكاساً نال منه كل منهما فائدة جلياً في إتمام معارفه وإشعاعها وجعلها دولية إنسانية تنتقل تعاليمها إلى شعوب كثيرة في العالم . ويعود الفضل في ذلك إلى الطبيعة التي كان لها أكبر الأثر في تقريب الشعوب التي تسكنها . فوادي النيل وفروع الهلال الخصيب وهضبة الأناضول ، مدعوة إلى التعاون الوثيق لما لها من موارد اقتصادية يتم بعضها بعضاً . وهي تتطلع باستمرار إلى البحر المتوسط الذي هو أجمل البحار وأكثرها نفعا . أما بلاد اليونان فهي أقرب البلاد الأوربية إلى الشرق الأدنى ، وتقع وراء مجموعات من الجزر مبعثرة ومتوزعة على خطوط متوازية محدبة كأنها قواعد لجسور غير مرئية . فمن البوسفور والدردنيل حتى السواحل المصرية تمتد بحيرة كبيرة تنقل أمواجها وتياراتها المراكب التي تحمل أفكار وحاصلات كل أمة تسكن هذه الشواطئ إلى الأمم الأخرى ، فتوجد الحياة الدولية التي يعود إليها كل تقدم ورفق .

وقد انتشرت مدينتا مصر وآسية الغربية في بلاد اليونان وطبعتا شعوبها بطابع حياة الشرقين وتفكرهم منذ آلاف الثالث قبل الميلاد ، أي قبل تشكل الشعب الهيليني بنحو عشرين قرناً . وتدلنا أبحاث علماء الآثار والمؤرخين في أواخر القرن الماضي وأوائل قرتنا هذا ، على الرغم من كثير من الغموض ما يزال يلايس نواحي متعددة منها ،

على أن جزيرة كريت التي نشأت فيها أول مدينة إيجية كان يقطعها شعب من التجار والزراع الذين أقاموا روابط سلمية واقتصادية مع الشعوب القاطنة ما وراء البحر على سواحل آسية وإفريقية . فأصابوا من ذلك خيراً عمياً في تحسين زراعتهم وصنائعهم واستكمال ما يحتاج إليه إنتاجهم من مواد ضرورية وما ينقص حياتهم الفكرية من غذاء روحي يتوافر بغزارة عند المصريين القدماء وسكان آسية الغربية . فتهيأت لهم بذلك السبل لإعداد أساس البناء الذي سيثيد إغريق هوميروس وحفداؤهم طبقاته العلوية .

ونحن هنا علم الآثار الفرعونية كيف أن هؤلاء الكريتيين الداخلين في زمرة الهاهونييو (سكان ما وراء البحر كما يسميهم المصريون) كانوا يقصدون مصر بين سنتي (٢٨٩٥ — ٢١٦٠ ق . م) ليبادلوا بمصنوعاتهم مصنوعاتنا وليكونوا قرصانا وبغيروا على شواطئها وبزعمجوا فراعتها حيناً آخر . وظلوا يترددون عليها إلى أن حل زمن الفوضى التي انتشرت بين عهد انحلال إمبراطوريتها القديمة ونشوء إمبراطوريتها المتوسطة . ولم يعودوا إليها من جديد إلا خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد . فأقامت فيها جالية كبيرة منهم ، وجعلت تنشر فأعليتها الاقتصادية . ولا ريب أن المصريين كانوا يقصدون من استخدامهم لهم نشر نفوذهم وإشعاع مدنيّتهم وفرض شبه حماية على الجزر الواقعة وراء البحر . وقد حدث شيء من الفتور في هذه العلاقات أثناء احتلال الهكسوس بين سنتي (١٦٧٥ — ١٥٨٠ ق . م) ولما تولت السلالة الثامنة عشرة مقاليد الأمور في مصر عاد « الكفتي » سكان كفتور (كريت) ليعملوا كما اعتادوا في خدمة المصريين ، وتمثلهم صور قبور القرن الخامس عشر كقبور « سنموت » و « رينخارا » و « مانشير ريسنب » وهم يحملون الهدايا إلى الفراعنة ليسمحوا لهم بالتجارة مع شعبيهم . وكانوا يرغبون خاصة في ابتداء الحضر الخفيفة والزيتون والمعادن الثمينة وأدوات الزينة والعاج والأواني الخزفية والحجرية . وكانوا يستقدمون إلى جزيرتهم بعض الموسيقيين المصريين والسكان العارفين بالرسوم والشعائر الدينية ، ويلتقطون من الفنون المصرية أفكاراً ومواضيع يستهدي بها فنانونهم . ومن ذلك الموضوعان المصريان المعروفان : ورقة البردي وابن آوى الذي يطارد العصفير ، وهما اللذان يشاهدان مصورين على الأواني السكريدية .

وكان الكريتيون يزورون الساحل السوري أيضا لأن الملاحة في ذلك العصر كانت تقضى أن تسير المراكب السواحل وألا تبعد عنها ، ولا يستعرب أنهم كانوا بلغوا مصر عن طريق سورية لأن ترددهم على قبرص الغنية بمعدن النحاس كان مألوفا . وقد أظهرت حفريات جبيل آنية فضية كريتية في أحد القبور الملوكية يرجع عهدها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كما وجدت في الطبقة الثالثة من أطلال رأس شجرة آنية فخارية جدرانها رقيقة وعليها حلزونات وأزهار مرسومة بدهان أبيض على سطح أسمر ، وآنية أخرى حمراء وسوداء مطلية بطلاء لامع ، وهي تشبه الآنية التي وجدت بمقابر اللاهون وأيروس وهراجة ، وكلها كريتية ويرجع تاريخ صنعها إلى القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد . ويدل كل هذا على أن جالية كريتية أقامت في مدن الساحل السوري منذ ذلك الزمن . وكان همها التجارة مع أهلها ونقل خشب لبنان على مراكبها إلى مصر لاحتياج منشآت وصناعات الفراعنة إليها .

وظل الكريتيون يقومون بدور الوسيط هذا خلال القرنين السادس عشر والخامس عشر حتى ثقلت وطأنهم على المصريين وعلى الميسينيين . وهؤلاء هم الآشيون من الهنود الأوربيين الذين احتلوا بلاد اليونان قبل العرق الدوري وبنوا مدينة (ميسين) وأنشأوا المدينة الميسينية وجعلوا ينتشرون شيئا فشيئا في الجزر وعلى شواطئ آسية ويعملون جنباً إلى جنب مع الكريتيين في تجارة البحر المتوسط . ويظن أن الفراعنة هم الذين أغروهم أخيراً بمهاجمة كريت والقضاء على سلطتها البحرية وتهديم عاصمتها (كنوس) والاستيلاء على أسواقها التجارية ، وقد وفدوا بدورهم على مصر وطفقوا يتاجرون مع أهلها خلال حكم السلاطين الثامنة عشرة والناسعة عشرة ، وخلفوا آثاراً متعددة كالأواني الفخارية ذات الركات (Vases à étrier) والأواني البيضاء ذات العروتين في قبور وبيوت (عراة) و (تل العمرنة) وبالقرب من أسوان وفي عدة بقاع أخرى من وادي النيل . واستصفي الميسينيون خاصة قبرص فاستثمروا مواردها . وبدأت حضارتها بالازدهار في عهدهم فسطع نجم حضارتها (أنكومي) وتألفت في مدنها المتعددة مدارس فنية انتشرت تعاليمها في البلاد المجاورة ، وذلك لأنها أصبحت لغناها الطبيعي عطاءها على طريق الساحل السوري الذي يقصده الميسينيون ليلتاعوا ما تأتي به القوافل إلى مرافئه من عاج وطيوب وجياد .

وأعود الآن إلى ذكر مدينة رأس شمرة . فقد دلت حفرياتنا التي قام بها العالمان الفرنسيان كلود شيفر وجورج شينه منذ سنة ١٩٢٩ و التي اضطرا إلى وقفها عند نشوب الحرب العالمية الثانية على مدى اتساع المبادلات التجارية بين السوريين القدماء وبين المسينيين ، ويظهر أن مرفأ رأس شمرة الذي هو « مينا البيضاء » الحالى كان أكبر مما هو عليه الآن ، وأن صخوره السكسية التي تفتت على مدى العصور كانت تحميه من أمواج البحر ، وهناك كانت تقع مدينة (أوغاريت) القديمة مقابل قبرص على ملتقى عدة طرق برية كبرى تنفذ الى الداخل وتسلكها القوافل التي تنقل تجارة « الترانسيت » العالمية . وكان أهالى « أوغاريت » من الساميين ، وكانت توجد بينهم جالية من القبرصيين المسينيين الذين يقيمون في حى المرفأ . وظهر من الأشياء الأثرية التي عثر عليها هناك أن مدينة هذه المنطقة قد تأثرت بحضارات مصر وبلاد الرافدين وآسية الصغرى . يضاف إليها جهود السوريين الإبداعية . وتشبه الى حد بعيد المدينة البحرية السائدة في الجزر والشواطىء المسيينية . ويدل انتشارها الواسع هذا على مبلغ قوتها وحيويتها . فقد اكتشف سنة ١٩٣٧ منزل في (أوغاريت) استعمل في بناء جدرانه دعائم خشبية مستعرضة بين صفوف الأحجار . ويظن أن هذه الطريقة سورية المنشأ وأن المسينيين اقتبسوها واستعملوها في بناء عمارات (ميسين) و(تيرنت) وغيرها . وكذلك فإن قطع الأحجار وتماسك الجدران المشاهدين في بناء حصن عسكري ، في (أوغاريت) هما نفسهما المستعملان في بناء القلعة التي اكتشفها (شليمان) و(دوريفيد) في حصار (ليك) وقال عنها : إنها طرودة الهومرية الرابعة . وفي منازل رأس شمرة وجدت قبور تحت غرف بعضها ، وهي تحوى دهليزا صغيرا منها بدرج يؤدي إلى غرفة الدفن المستطيلة ذات السقف المحدث أو المجزوء . وهذه القبور تختلف قليلا عن القبور المسيينية التي وجدت في بقاع أخرى . ويظن أن مهندسى (أوغاريت) الممارين استوحوا في بنائها التقاليد المحلية السورية في تشييد القبور بدلا من شقها في التراب . وقد وجدت في هذه القبور أدوات وأوان فخارية كانت مستعملة في القرنين الرابع عشر والثالث عشر كالزبادى القبرصية والأباريق المختلفة والكؤوس ذوات القواعد المرتفعة والأواني الفخارية المصنوعة على شكل قرون

والتي تمثل أشكالاً حيوانية، منها السمك ورؤوس الحيات أو المصنوعة من مادة فخارية حمراء مزينة بخارزونات ومختومة بأختام قبل صنعها. وهي تشبه ما أخرج من مثيلاتها في (أنكومي) و (لاماركو) و (سلامين) من قبرص ومن (أباليزوس) في رودس.

ويطول بنا البحث إذا حاولنا أن نعدد كل الأشياء الأثرية المهمة المخرجة من (أوغاريت) والتي نذل على كمال وتقدم صناعاتها المحلية الأخرى البرزية والعاجية والمعدنية. ونكتفي بذكر أمثال «بعل» الصغير المصنوع من البرز والذهب والفضة والألكتروم والحجر، والكأس والصحفة الذهبيتين المزخرفتين بمواضع فنية منشؤها بلاد السكندان والآشوريين وميسين وقبرص. وهذا يعطينا فكرة عن المبادلات التجارية التي كانت تجري بين بلاد الشرق الأدنى والعالم اليوناني في (أوغاريت) وغيرها من المدن السورية، والتي كانت عاملاً أساسياً في نشوء المدينة السورية القديمة، وتشكل الشعوب السورية الجريئة التي بدأ دورها بعد القرن الثاني عشر في تسلم تجارة البحر المتوسط والقيام بدور الوسيط الذي كان يقوم به الكريتيون والميسينيون.

ولا يخفى أن الشرق الأدنى قد تعرض في فائحة العصر الحديدي إلى إغارات أقوام هندية أوربية كان من أثرها أن تهدمت أو ضعفت إمبراطوريات الحيثيين والإيجيين والمصريين. وهذه الغزوات هي نفسها التي ساقطت الفلسطينيين إلى فلسطين والدوريين إلى بلاد اليونان. وهؤلاء الآخرون شعب محارب شديد البأس، أحدث انقلاباً خطيراً في حياة سواحلها وجزرها، وأخضعها وأجبر أهلها على الهجرة، وسكنها، وقضى على المدينة الميسينية الرفيعة ونشر فيها حياة نصف بربرية مدة خمسة قرون قبل أن تنهأ له الأسباب لتأسيس المدينة الإغريقية الهيلينية. وما حوادث حروب طروادة التي تصفها إلياذة هوميروس إلا ذكريات أدبية محفوظة عن إغارة المغيرين الجدد وعن انتهاء سيادة الآشين وفرار سكان اليونان أمام الدوريين.

وأمام هذه الاضطرابات التي حدثت في كل أنحاء العالم القديم توقفت الحياة الدولية وانقطعت العلاقات بين بلاد الشرق الأدنى وبلاد اليونان حيناً من الزمن، حتى انتظمت

من جديد على قواعد جديدة . وكانت المدن الساحلية السورية جبيل وصور وصيدا وسيميرا وغيرها أول مستفيد من ضعف جيرانها الأقوياء ، فأُسست امبراطورية استعمارية بحرية ورثت الكريتيين والميسينيين ، وتعد أول مثل للامبراطوريات البحرية والتجارية التي أسستها في العصور الحديثة دولتنا البورققال وهولندة وأمم أوربة الكبرى . وقد تكاثرت مراكب هذه المدن ، وصارت أول المراكب التجارية في البحر المتوسط ، تنتشر في أرجائه حاملة إلى شواطئه بضائع الفينيقيين وقنونهم وآلهتهم .

ويحدثنا هوميروس كيف كان الفينيقيون يهبطون إلى الشواطئ اليونانية فينصبون خيامهم ويجذبون إليهم السكان البسطاء . ثم يبيعونهم سلعمهم ويرحلون سراً بعد أن يخطفقوا نساءهم وأولادهم . ولا ريب أن حديث هوميروس هذا فيه تحامل كثير على الفينيقيين ، ويدل على ما كان يكنه الإغريق لهم من بغض وحسد . على أنه يدلنا على كيفية قيام المبادلات التجارية الأولى بين الشعبين . وقد قامت مع مرور الزمن مقام المعسكرات المؤقتة ، أسواق دائمة انتظم فيها البيع والشراء .

وكان الاحتكاك شديداً بين الفينيقيين والإغريق في قبرص التي قدر لها أن تكون أداة الاتصال بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان . وقد حل الفينيقيون في مدنها (كيتيون) و (إيداليون) و (تاماسوس) و (لايتوس) و (تاركانا) وملأوها بأسواقهم ومنشآتهم .

وعلى ما يظهر كانت إقامتهم في بعضها دائمة . وتذكر الكتابات التي وجدت هناك ملوكا فينيقيين حكموا في (كيتيون) في زمن متأخر . وقد تزكوا أيضاً في كل جزر البحر المتوسط الشرقية في (رودس) وجزر (السوراد) و (الدوديكانيز) و (السكلاد) و (الجزر اليونانية) وأسسوا فيها أسواقاً تجارية ، وكانوا يدفعون إلى حكامها بعض الضرائب لكي يسمح لهم بالتجارة ، وكانوا يبيعون أهلها الذهب والفضة والأصواف المصبوغة والمحجور والأفاويه والحبوب والتماثيل والأواني الزجاجية والعطور وأدوات الزينة .

ولم تكن التجارة الفينيقية على كثرة العلاقات التي تنشأ عنها سبب الاتصال الوحيد بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان في الألف الأول قبل الميلاد . فهناك أيضاً آسية

الصغرى (أبونيا) التي امتزجت فيها الحضارات الشرقية بالحضارة الإغريقية . وقد كانت هذه البلاد متأثرة قبل مجيء الدوريين إلى بلاد اليونان بمدينة بلاد الرافدين وبعادات البابليين وعلمهم وفنهم ورموزهم ، وذلك خلال أزمانه التاريخ الحيى وكانت مبادلتها معها تتم بواسطة الطرق الطبيعية التي تؤلفها وديان الأنهار . وأشهرها الطريق الذى يتبعه نهر (المياندر) فيمر على (مانيزيا) و (ترالى) ويحتاز المدن الواقعة فى مقاطعات (فريخيا) و (ليكونيا) و (كبادوسيا) حتى يبلغ الفرات . فتروح وتعدو عليها القوافل بين بابل والشواطىء الأسبانية ، محدثة تياراً تجارياً مهماً كان عنصراً مؤثراً فى حياة هذه البلاد الاقتصادية وعاملاً رئيسياً فى إدخال التأثيرات الشرقية إليها وإلى البلاد اليونانية الأوربية .

لهذا نشأت فى هذه الأرض الأيونية التى يقول فيها هيرودوت : « إن لها أجمل سماء وأطيب إقليم » مدينة أيونية هيلينية ذات طابع شرقى ظاهر تختلف دياناتها وفنها وأخلاق أهلها عن ديانات بلاد اليونان الأوربية وعاداتها وفنها وأخلاقها . كما أن سكانها فى الألف الأول قبل الميلاد كانوا من حفدة الآشيين ومنهم اللبسيون والكاريون والدردنائيون وغيرهم الذين ألفوا دولاً صغيرة حكمت على أفواه الأودية النهرية وعلى سواحل بحر إيجه . وبنوا فيها مدناً اشتهرت بجهودها فى إنشاء الحضارة الإغريقية كـ (ميتلين) و (ميرنيا) و (سميرن) و (نياندريا) و (بريين) و (ميلة) التى كان فيها معبد كبير مشهور للالهة (أبولون) و (إيفيز) التى عرفت بمعبدتها المخصص لعبادة الربة (أرتيميز) المؤلفة من شعائر ورسوم شرقية آتت من بلاد الرافدين .

ويتبين من كل ما ذكر أن التأثيرات الشرقية فى الحضارة اليونانية حتى القرن الخامس قبل الميلاد كانت كثيرة وتؤلف عاملاً هاماً فى تقدم هذه الحضارة وتعميل تطورها . ولم يبدأ الإغريق بأداء ما استلقوه إلا بعد هذا العهد الذى شرحت لكم بإيجاز خطوطه العامة . ويظهر تعلم الإغريق عن مدرسة الشرقيين خاصة فى نواح شتى . منها الكتابة فألف باء الإغريقية مأخوذة من ألف باء الفينيقية التى توصلت قبل غيرها إلى تجزئة الكلام إلى أصوات بسيطة ، فتوافر لها عدد من الرموز السهلة الاستعمال والتركيب . ويقول هيرودوت : « إن كادموس الفينيقي باني طيبة اليونانية قد نقل إلى بلاد الإغريق الحروف

التي أوجد أشكالها ونشر استعمالها في المستعمرات اليونانية الغربية . ومما لا ريب فيه أن الإغريق لم يكتبوا كما يقول بعض الباحثين بالحروف التي أخذوها عن الفينيقيين اللغة الفينيقية بل كتبوا لغتهم الخاصة ، على أنه ليس في هذا أيضاً إنقاص من أهمية الفائدة الكبرى التي نالوها من استعمالهم حروف ألف باء في فتح آفاق واسعة لغتهم ولتفكيرهم . أضف إلى ذلك أنهم اقتبسوا عدداً لا بأس به من الكلمات الفينيقية وأنهم فسحوا للتأثرات والمعارف الفينيقية مجالاً واسعاً كما تبينه ملحمة هوميروس : الإلياذة والأوديسة الخالدتان . وكذلك الديانة اليونانية فإنها قد تأثرت إلى حد بعيد بالديانات الشرقية واستعارت منها بعض مفاهيمها وصورها وأسماء آلهتها وكثيراً من الملاحظات الطبيعية والتأملات الفلسفية التي تتطوى عليها عقائدها ورسومها . فأصل الإلهة (كايبر) التي كانت تعبد في (ساموتراس) آساني ، وأسطورة هيراكلدس تشبه أسطورة (جيل-كلمدش) ، وقرون بعض الآلهة اليونانية مأخوذة عن قرون الآلهة المصرية والشرقية ، وصور الجن ذوى الرؤوس الغربية وصور الحيوانات المقدسة الحقيقية أو الخيالية مأخوذة عن صور معروفة كثيرة الشيوع في بلاد الرافدين . وتظهر هذه الاستعارات الدينية خاصة في (أسرار إبلوزيس) وفي ديانة الإلهة (ديونيزوس) المتأثرة بديانة (سابازيوس) إله تراكيافريجيا الذي يدل على فكرة تجدد الطبيعة وانبعاثها ، شأن (أوزيريس) المصرى (وتموز) العراقي و (أدونيس) الفينيقي .

ثم إن تأثير الفنون الشرقية في الفن الإغريقي واضح ولا يمكن نكرانه ، وتقول الأساطير إن (ديدال) اليوناني مبتكر التماثيل قد سافر إلى (منفيس) وتعلم منه عن المصريين وفي الحقيقة تظهر لنا صنعة وأوضاع وحركات التماثيل اليونانية الواقفة والجالسة والراكعة التي نحتت قبل القرن الخامس قبل الميلاد ، مشابهة كل المشابهة لصنعة وأوضاع وحركات التماثيل المصرية ، كما أن طريقة حفر عيونها ووضع الأحجار الكريمة والزمرد والعاج والصدف والألباتر فيها وتزيين جيدها بمقود المعقيق والزمرد والنحاس ، مماثلة للطرق الفنية التي كانت معروفة في بلاد الرافدين . وأخيراً فإن ما يشاهد من إتقان في تبيان دقائق ألبسة التماثيل الإغريقية وأحذيتها ذات الرؤوس المعقوفة وعمرات رؤوسها العالية

المسماة (كالاتوس) وما يحيط بها من شعر جعد وخوذات وحافظات للخدود مأخوذ عن فن الحيتين الذي أبدع كل الإبداع في إتقان كل هذه التفاصيل .

وتعلم الإغريق عن الفينيقيين والسوريين القدماء الصناعات الفنية الدقيقة الزجاجية والعاجية والنحاسية . وأخذوا عنهم أيضا صناعة المراكب البحرية وأصول الملاحة . وفي الواقع بنى حفدة (عوليس) سفنهم الأولى وتعلموا في مدرسة صور وصيدا البحرية مبادئ الملاحة والأسفار، وجعلوا يخذون حذو أهلها في طواف أرجاء البحر المتوسط، ويخذون في بناء مستعمرات وأسواق تجارية شبيهة بمستعمراتهم وأسواقهم، يحدوهم إلى ذلك فكرة الفتح والسيادة وحب الربح والرغبة في الحصول على الغنائم . فطافوا في بادئ الأمر بشواطئ بحر إيجه وتعاطوا التجارة بين مدن آسية الصغرى الأيونية وبين بلاد (الآتيك) الأوربية . ثم مدوا قاعليتهم إلى حوض البحر الأسود فأحاطوه بزئار من مدنها ومن منشآتهم .

وقد توسع الأيونون منهم على شواطئ الأناضول الجنوبية وحلوا في (رودس) وأقاموا في (قبرص) حيث اشتدت المنافسة بينهم وبين خصومهم الفينيقيين اشتداداً عظيماً . وكان لهم فيها مراكز تجاور المراكز الفينيقية التي ذكرتها، وأشهرها (بافوس) و (سالاميس) .

وقصدوا بلاد النيل ودخلوا في خدمة فراعتها كجنود مأجورين منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وصاروا يتدخلون بينهم وبين رعاياهم السوريين وبينهم وبين منافسهم ملوك بلاد الرافدين والأناضول . واستوطن بعضهم المدن المصرية مع الزمن، وصاروا يتاجرون مع أهلها . وقد أسسوا سنة (٦٥٠ ق م) مدينة (نوكراتيس) الصغيرة بالقرب من (سايس) فقدت مركزاً مهماً لاحتكاك الثقافتين المصرية القديمة والإغريقية . وعرفت هذه المدينة بكونها مدينة عابثة لاهية اشتهرت بما كان فيها من المحظيات وبأعلى الورود والأزاهر .

وقد اتسعت المنشآت الإغريقية في مصر وصار لهم حى تجارى خاص بهم في كل مدينة من مدنها الكبرى، يبيعون فيه مصنوعات بلادهم ومنتجاتها كالأواني الفخارية

والزيت والخمر، ويشترى الحاصلات المصرية كالحبوب والألبان وورق البردى والمعادن الثمينة والجلود والعاج ويبيض النعام ويريشه وكل ما ينقص بلادهم الفقيرة. وكان هذا المثل مشجعاً للإغريق الدورين فعبّر بعضهم البحر وهبطوا إلى شواطئ لوبيا وأسسوا فيها مدينة (سيرين) التي صار لها شأن كبير في التجارة مع مصر وبلاد اليونان الأوربية، ثم ولوا وجوههم شطر البحر المتوسط الغربي فخلوا في جنوب إيطاليا. ومن هناك نفذوا إلى (سججيا) وجعلوا ينافسون فيها المنشآت والمستعمرات الفينيقية. ووصلوا إلى شواطئ فرنسا الجنوبية فشيّدوا فيها مدينة (فوسه) ومنها ساروا إلى أسبانيا. ولا يخفى أن الفينيقيين قد سبقوهم إلى هذه الأرجاء وأسسوا فيها مستعمرات زاهرة أشهرها (قرطاجه) التي ازدادت ثروتها الاقتصادية في مدة قليلة من الزمن فجعلت تشيّد إمبراطورية استعمارية كبرى على شواطئ هذا البحر الجنوبية. وكان أن وجد الحصان الإغريقي والفينيقي وجهاً لوجه مرة أخرى في هذا البحر المغلق، وجعلوا يستعدان للصدام المسلح.

وشاعت الظروف التاريخية أن يتخذ هذا النزاع شكلاً خاصاً، إذ أن الفينيقيين لم يكونوا أحراراً في بلادهم السورية الساحلية. فعلى الرغم من قوتهم البحرية التي فرضوا بها احترامهم على أعدائهم فإن استقلالهم السياسي كانت تهدده نزعات أمم الشرق القديم الإمبراطورية، لهذا فأنهم اضطروا لأن يخضعوا على التوالي إلى الآشوريين وإلى البابليين المحدثين. ثم أفضى أمرهم سنة (٥٣٩) إلى الفرس الذين كانوا بحاجة ماسة إلى مراكبتهم وسواحلهم عندما أسسوا إمبراطوريتهم العالمية الكبرى التي امتدت على كل أجزاء الشرق القديم. فارتضى الفينيقيون أن يخدموهم، واستطاعوا بمهارتهم أن يحرزوا عطفهم ومساعدتهم لأساطيلهم التجارية والبحرية. فازدهرت (صور) و(صيدا) من جديد واتسعت أعمالهما وراء البحر، وصار الفينيقيون يزاحمون الإغريق مزاحمة شديدة حتى في عقر ديارهم.

ولما نشب الصراع الفارسي الإغريقي انحاز الفينيقيون كما هو منتظر إلى جانب الفرس، وقد اشترك أسطولهم في القضاء على ثورة المدن الإغريقية الآسيوية التي حاولت أن تتحرر من سلطة (داريوس). وقد غلب هذا الأسطول في الموقعة الأولى التي جرت قرب شواطئ (بامفيلية) ولكنه لم يلبث أن تأثر لهذه الهزيمة بأن أنزل حملة فينيقية إلى جزيرة قبرص التي اشتركت

في الثورة . فاحتلت مدينة (سالاميس) الإغريقية وأخذت حركات عصيانها . ثم سار الأسطول الفينيقي وقد بلغت سفنه عدداً كبيراً بما انضم إليها من مراكب المصريين والقبرصيين والحيثيين فساهم في تضيق الحصار على (ميه) كبرى المدن العاصية في آسية الصغرى حتى سقطت في سنة (٤٩٤ ق م) ففضى نهائياً على الثورة الأيونية . ثم اندلعت نيران الحروب الميدية فكانت أول اصطدام منظم بين الشرق والغرب . واضطر الإغريق أن يلتقوا بأن واحد بأعدائهم كلهم في ميادين القتال . وعندما نظم (كزركس) الحملة الكبرى على بلاد اليونان الأوربية سنة (٤٨٥ ق م) كلف الفينيقيين حفر قناة تصل جبل الآتوس بالقارة الأوربية وإنشاء جسر مزدوج من مراكبهم على مضيق الهلسبونت وقد جمعواهم وحلفاء الفرس أكبر أسطول عرفه العالم القديم مؤلفاً من (١٢٠٧) قطعة بحرية فحرت معركة (سلامين) المشهورة التي ظهر فيها الإغريق على الحلفاء . وقد قاتل الفينيقيون ببسالة ، رائعة وظلوا يحاربون إلى ما بعد ضياع المعركة . ثم سار أسطولهم وجعل يهدد المراكز اليونانية حتى رضى الإغريق أخيراً أن يعقدوا معهم صلحاً مشرفاً صان آسية من غزواتهم .

ولا ريب أن الإغريق خرجوا ظافرين من هذه الحروب فأثقفوا مدينتهم « وأنقذوا أولادهم ومعابدهم وآلهتهم وقبور أجدادهم » كما تقول أناشيدهم العسكرية ، وصارت بلادهم تشعر بأنها نالت استقلالها التام في كل النواحي السياسية والاقتصادية والعقلية . وكان أن تغلغلت فيها العواطف الوطنية وانتشرت في مدنها الحركات الديمقراطية ، فكانت عاملاً كبيراً في تأليف وحدة العالم الإغريقي الأخلاقية وشعوره بشخصيته وإطلاعه على مدى عبقرية وحيويته . ولم تظهر نتائج كل ذلك إلا بعد منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ تقدمت الأفكار الفلسفية اليونانية ، وانتشرت الحركات الأدبية ، ومرت الفن الإغريقي إلى عهده الكلاسيكي فأبدع روائه الخالدة .

وقد أدى كل ذلك إلى نشوء عالم جديد للمدينة في البحر المتوسط ، صفاته الأساسية مستمدة من عبقرية المدينيات الشرقية والمدينة الإغريقية ، بثع أنواره البيضاء على كل الجهات ، ففضى الشرق كما فضى الغرب .

حفريات تل حريري (مايري)

بقلم عيسى العزير عتمان

مافظ المتحف الوطني بحلب

سأدتى :

كم كنت أود لو استطعت أن أحدثكم عن حفريات قامت بها مديرية الآثار السورية بعد أن تسلمها أبناء البلاد الوطنيون . ولكن ظروف انتقال سورية من عهد إلى عهد أخرت قيام التفتيات برغم ما كان يرصد لها من الاعتمادات فى الموازنة .

لهذه الأسباب اخترت أن أحدثكم عن حفريات قام بها أستاذنا فى معهد (اللوثر) وكانت إلى جانب حفريات رأس شجرة أهم حفريات جرت فى سورية قبيل الحرب العالمية الثانية . ولا سيما أن للآثار المستخرجة أثناء هذه الحفريات قيمة علمية كبرى ، وتشغل مكانا مهما بين الآثار الموجودة فى متحف حلب . وعدا ذلك فإنه لم ينشر عنها شئ بعد فى اللغة العربية . وقد اعتمدت فى إعداد هذه المحاضرة على مذكرات دروس معهد (اللوثر) وعلى تقارير بعثة الحفريات وعلى بعض المقالات المنشورة فى مجلة « سيريا » أو فى مجلة علم الآثار الآشورية ، وعلى الكتاب الذى وضعه رئيس البعثة الأستاذ « بارو » تحت عنوان « ماري » وأخيرا على دراستى الخاصة للقطع الأثرية الموجودة فى هذا المتحف .

اسم (مايري) اسم معروف منذ القديم ، فقد وجد على تمثال صغير فى المتحف البريطانى (رقم ١٢١٤٦) وعلى بعض القطع الأثرية للملك السومرى « إيانادو » حيث اجتمعت أسماء مدن مايروكى وكيش واكشاك ، ووجد فى نص للملك «توغولتى نينورتا» الأول

كما ذكر في شريعة حمورابي . ومع أن اللفظ كان يختلف بين قطعة أثرية وأخرى وبين نص ونص فباتى تارة « مايروكي » وأحيانا « ماريكي » وثالثة « شار ماري » ورابعة « مه راكي » فان تحقيقات العالم الفرنسى « تورو دانجان » فى مجلة علم الآثار الآشورية أفضت به إلى الاعتقاد بأن اللفظ الحقيقى هو « ماري » مستنداً بذلك خاصة إلى نص للملك « توغولتى نينورتا » ولعل اللفظ الحقيقى هو معيرى أو محيرى أو اسم مشهور موجود فى سورية وهو « معره » وقد سها عن بال المحققين الحرف الخلقى الذى يصعب النطق به . على أن الأوربيين قد خففوا اللفظ إلى « ماري » حيث نجده الآن فى كتبهم ومؤلفاتهم عند البحث عن هذه المدينة القديمة .

ولكن إذا كان هذا الاسم معروفاً فى النصوص القديمة بأنه اسم مدينة تقع على الفرات ذات مدينة كبرى وأهمية عظمى، فقد كان الموقع الحقيقى لهذه المدينة مجهولاً . وقد ذكره العلماء تارة على الشاطئ الأيمن وتارة على الشاطئ الأيسر من الفرات ، وكان أقربهم إلى تعيين الموقع الحقيقى « البرايت » و « هرزفد » و « دولابورت » . على أن أحداً منهم لم يستطع تحديد الموقع بالضبط، لأن انحراف مجرى الفرات بمرور الزمن نحو الشرق بما يقرب من كيلومترين ونصف ضيع على الباحثين الموقع الحقيقى للمدينة . كما أن بعد التل عن الطريق العام الذى يصل بين دير الزور وأبى كمال بما يقرب من أربعة كيلومترات جعل الموقع بعيداً عن أنظار الباحثين والسائحين ، ولهذا فقد كان من المستحيل العثور عليه لو لم تأت الصدف بكشف السر المغلق الذى انطوت عليه قرية تل حريرى .

ففى يوم من أيام شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٣ بينما كان بعض أفراد من البدو يحفرون فى أحد أطراف تل حريرى لاستخراج حجر ليضعوه شاهداً على قبر أحد موتاهم، إذ عثروا على تمثال ضخيم بدون رأس من الحجر الأبيض ، فأخبروا السلطات الإدارية بذلك ، وهذه عملت حالا على نقل التمثال إلى المتحف الوطنى بحلب . وما إن ذاع خبر الاكتشاف حتى طلبت مديرية المتاحف الوطنية الفرنسية امتيازاً لإجراء الحفريات فأسرعت مديرية الآثار فى سورية التى كانت بيد الفرنسيين بإجابتها إلى طلبها ، وتشكلت بعثة يرأسها الأستاذ « بارو » الذى عرفه إخواننا العراقيون فى « تالو » و « لارسا »

وقبل انتهاء سنة ١٩٣٣ احتلت البعثة مكانها بالقرب من تل حريرى وابتدأت الحفريات في مقطع مستطيل رسم في المكان نفسه الذى وجد فيه التمثال . وقد دامت هذه الحفريات حتى سنة ١٩٣٩ وعثر فيها على مدينة مايرى القديمة بمبانيها ونقوشها وتمائيلها . وسنسعى الآن لإعطاء لمحة عنها :

(١) معبد عشتار

عرف بذلك من الكتابات التى وجدت على بعض التماثيل . وليس غريباً أن تكون إلهة الحب والحرب معبودة في مايرى ، فقد أضاف أحد ملوكها بوزور عشتار اسم الإلهة إلى اسمه ، وتمثاله موجود في متحف استانبول من زمن بعيد .

وقد ظهر بنتيجة التنقيبات أن معبد عشتار في مايرى يشبه في تقسيماته معبدها في مدينة آشور الذى قام بدراسته العالم الأثرى آندره في كتابه (Die archaichen Ishtar-tempel in Assur) فقد عثر في آشور وفي مايرى على معابد بنيت بعضها فوق بعض في أجيال مختلفة مما يدل على قدم تقديس السكان لهذه الإلهة .

أما معابد مايرى فهي :

١ — عثر على بقايا آخر معبد بناه ملوك مايرى في أواخر الألف الثالث ق م . وقد خربه حمورابى وجنوده عند استيلائهم على المدينة ، ولم يبق منه ما يستحق الذكر .

٢ — عثر على المعبد الذى وجد في المستوى (١) وتبلغ مساحته ما يقرب من ٢٢٥ م^٢ ويلاحظ في مخطط المعبد كما في معبد آشور مدخل وممر طويل يحيط به الجدار الخارجى من جهة وغرف صغيرة من جهة أخرى ، وينتهى هذا الممر بفناء واسع . أما الغرف الصغيرة فقد كانت مخصصة لسكنى رجال الدين والخدم وكانت مفصولة فصلاً تاماً عن المنطقة الحرام المؤلفة من قاعتين كبيرتين كانتا مخصصتين للعبادة ، عثر في أولاهما على دكة مرتفعة قليلاً دفن في قاعدتها خمس كؤوس من الطين المشوى كانت ولا شك مقدمة كقرايين الى الإلهة . وقد عثر على الأشياء نفسها في مكان مماثل في معبد عشتار في آشور .

كانت أرض القاعة مصنوعة في الأصل من القراب المطروق ، ثم غطيت بطبقة رقيقة من الجص ، وأقيمت في الوسط منصتان للتقدمة ، دفن في قاعدتهما نذر من سخون فخارية . وعثر في إحدى زوايا القاعة على جرن ييضى مغطى بطبقة من القير كان مخصصاً للماء المقدس .

والقاعة الثانية شبيهة بالأولى ، ومما يجدر الإشارة إليه أن منصتي التقدمة قد صنعنا هنا من الآجر المحشو بأجزاء صغيرة من وريقات ذهبية أو صدفية أو لازوردية أو مربعات من حجر أحمر . وكانت عتبات الغرف المقدسة وأرض فناء المعبد مغطاة بالبلاط المصنوع من اللبن أو من الآجر . ورتبت مجموعة القنوات المعدة لتصريف ماء المطر أو المياه المستعملة بصورة جيدة ، فاستعملت قنوات من الآجر مشدودة إلى بعضها ومغطاة بالقير . ومما يجدر ذكره وجود بئر في الفناء مبنى بالآجر عثر في داخله على كثير من التماثيل المحطمة وقطع الفخار التي رماها فيه الجنود المحتلون بعد استيلائهم على المدينة ، كما وجد في هذا الفناء جرن ماء ومنصة تقدمية ومكان لحرق الضحايا ، مما يدل على أن هذا الفناء كان مستعملاً للحفلات الدينية .

ويقع المعبد في أحد أطراف المدينة إذ تحيط به أسوار متينة بخذاء القسم الخارجي منها وجدران من الجهة الملاصقة لها . وقد عثر على مخرج متصل بواسطة درج بأحد أفتية المعبد ، ويظن أن قاعة العبادة الثانية كانت مخصصة للسائحين الذين يأتون من خارج المدينة . ولقد دلت الكتابات والتماثيل التي عثر عليها أن عهد هذا المعبد يرجع إلى ما قبل عصر سرجون الأكادى ، وقد خرب من قبل « آيانادو » ملك لجيش حوالى ٢٩٠٠ ق م .

٣ — حل المعبد السابق مكان معبد أقدم عثر عليه عند الحفر في مستوى أعرق ، وهو يشبه تماماً ، غير أنه لم يعثر فيه إلا على قاعة واحدة للعبادة . ومن دراسة اللقى المكتشفة فيه (تماثيل من اللازورد أو الحجر تمثل حيوانات مضطجعة ، رؤوس أصنام صغيرة لرجال حليق اللحية والرأس ، قطع من الفخار) يمكن أن نرجع هذا المعبد إلى حوالى ٣٠٠٠ ق م .

٤ — تعمق المنقبون في منطقة المعبد فعثروا على مستوى ثالث وعلى معبد بالخطوط السابق نفسه ، غير أنه كان يوجد رواق بخمسة أعمدة من اللبن عثر على قواعدها ، ويمكن أن يرجع تاريخ هذا المعبد الى ٣١٠٠ ق . م .

٥ — وفي المستوى الرابع عثر على معبد صغير بالخطوط نفسه أيضاً يبعد قليلاً عن موقع المعابد السابقة ، ويرجع هذا المعبد إلى ٣٢٠٠ ق . م أي إلى أوائل عهد فجر السلالات . وأود هنا أن أشير إلى أن عادة دفن آنية الفخار في عتبة باب قاعة العبادة حيث تبدأ المنطقة المقدسة وتحت منصات التقدمة هي نوع من الشعائر الدينية وجد في جميع هذه المعابد على اختلافها .

اللقى في معبد عشتار :

كانت اللقى في هذا المعبد كثيرة ، وكان يعثر على كثير منها ملقى على بلاط الغرف أو الأبنية ، وأحياناً متراكماً بعضها فوق بعض حيث كان يضعها الكهنة ، وتارة مدفونة تبعاً لإحدى الشعائر الدينية ، أو ملقاة في بئر أو حفرة عميقة ، وكان القسم الأكبر من التماثيل المكتشفة مصنوعة من حجر رخامي غير تام (ألبازر) أو من حجر كلسي عادي . ويظهر في بعض التماثيل أثر الفن الواقعي . وأكثر القطع تمثل أشخاصاً في وضعية العبادة والصلاة . ولقد وجدت كتابات على الكتف العارية لبعض التماثيل .

وأهم القطع المكتشفة :

١ — تمثال الإله شاماش : أول تمثال عثر عليه البدو ، وكان سبباً في حفريات مايري ، وتراه يظهر مطلاً من وراء الجبال العالية المرسومة على بطن التمثال بشكل أنصاف دوائر بعضها فوق بعض ، وتوجد كتابة إسفينية تحتها يذكر اسم الإله واسم المعبد الذي قدم إليه .

٢ — تمثال إيدي ناروم : وقد كتب على كتفه العارية : « إيدي ناروم إلى الإلهة عشتار ... قدم » ولم يبق من هذا التمثال سوى القسم الأعلى ، ووجه التمثال سالم بصورة خاصة مما هو نادر الوجود في مايري ، ويظهر فيه طابع الفن الواقعي . وهو مصنوع من حجر صواني صلب .

٣ — تمثال إني إيل : وهو تمثال رجل ملتج جالس على مقعد مستدير ، حلق الرأس ، وقد كتب على ظهره مقدمة التمثال إلى الإلهة عشتار .

٤ — تمثال لمحى مايرى : وهو تمثال صغير مصنوع من حجر رخامى غير تام ، وهو الذى كشف عن اسم المدينة إذ كتب على كتفه العارية : « لمحى مايرى ملك مايرى كبير أمراء الإله إليل ، مثاله إلى الإلهة عشتار قدم » ويرى لابساً ثوباً من جلد الحيوان « الكوناكس » وقد وضع إحدى يديه على الأخرى بوضعية الصلاة متقدماً إلى الأمام . أما شعره الكث فربما كان مستعاراً ، وهو يشبه إلى حد كبير الشعر المستعار الموجود على خوذة « مسكا لمدوج » التى وجدت فى مقابر أور .

٥ — تمثال امرأة : يظن أنها الإلهة عشتار لابسة قبعة خاصة « بولوس » .

٦ — العاشقان : مما يؤسف له أنه لم يعثر على رأس هذين التمثالين الجالسين على مقعد واحد ، ويظهر الرجل عارى الصدر لابساً ثوباً من جلد الحيوان يمسك بيده اليسرى القبضة اليمنى لامرأة جالسة بالقرب منه وهو يضمها إلى صدره . أما المرأة فهى ممثلة عارية الكتف والذراع اليسرى وتظهر مستسلمة منقادة لإرادة الرجل . وليس غريباً أن تظهر مثل هذه القطعة فى معبد للإلهة عشتار إلهة الحب . وقد وجد فرانكفورت فى تل أسمر قطعة مماثلة فى السنة نفسها . وهذا المشهد يعطينا صورة واضحة عن الفن الواقعى فى ذلك العصر ، ويدل على الملاحظة الدقيقة التى وصل إليها النحاتون فى مايرى القديمة فى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

٧ — مشهد انتصار : وجدت أجزاءه مبعثرة ، وهى مصنوعة من الصدف ، والمشهد يمثل الملك وعائلته فى استقبال حاجبه الذى يقدم إليه أسرى عراة . ويرى أحدهم وهو يركع أمامه ، ويقف الآخرون بين صفين من الجنود بكل خضوع موثقين بالحبال . وهو يشبه مشهداً مماثلاً وجد على « راية أور » ولا شك أنهما من العصر نفسه .

٨ — تماثيل متنوعة : من الصدف أو اللازورد أو الألبار .

٩ — إناءان من حجر زيتى (Stéaélite) يشاهد على أحدهما صراع بين أسد وثيaban ، وعلى الآخر حيات ملتف بعضها حول بعض .

١٠ — أختام أسطوانية ودمى وأصنام نذر وآنية من فخار كثيرة العدد ، وترجع جميع الآثار الموجودة في المعبد الى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

(٢) قصر مايرى

يتطلب التنقيب العلمى أن تقوم البعثة بعمل محسبات فى نواح مختلفة من التل أو المنطقة التى تنقب فيها لكي تحصل على فكرة كاملة عما يمكن أن يضمه الموقع الأثرى من مخلفات العصور الماضية . ولهذا السبب قامت بعثة التنقيب التى تحفر فى مايرى بعمل محسبات منذ الموسم الأول ، واكتشفت مواقع بعض المقابر الآشورية . وفى الموسم الثانى قامت أيضا بعمل محسبات فتوصلت الى اكتشاف موقع القصر الملكى ، فابتدأ فيه الحفر فى الوقت عينه الذى كان فيه يحفر فى المعبد ، ولم ينقطع العمل فى هذين المركزين فى جميع مواسم الحفر التى قامت بها البعثة ، بل أضيف إليهما مركز ثالث فيما بعد .

كان اكتشاف القصر الملكى من المصادفات السعيدة التى رافقت البعثة ، فقد اكتشف فيه حتى اليوم مايزيد عن ثلاثمائة غرفة وممر وفناء . وبما يزيد فى قيمة هذا القصر بقاء جدرانها سالمة بارتفاعاتها فى وسط القصر ومؤكدة بفعل الزمن فى الأطراف والمنحدرات ، وقد عثر على جدران يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من خمسة أمتار مما لم يوجد له نظير قط فى أية بقعة من بقاع آسية الغربية يرجع تاريخها إلى مثل هذا العهد أى إلى الألف الثالث ق . م . ولهذا فإن لقصر مايرى أهمية كبرى بما يقدم إلينا من معلومات عن فن البناء فى الشرق القديم ، إذ أن ذلك سيفسح لنا المجال واسعا لدراسة طريقة توير الغرف نهائياً وقضية عدم وجود النوافذ وارتفاعات الأبواب ، والطريقة المتبعة قديماً فى صنع السقف وعلو البناء وشكل المخطط والنسب العامة التى تسيطر على فكرة المعمار فى هندسة البناء . جميع هذه المسائل الهامة كانت لا تعدو من قبل حد الفرضيات ، فجاء قصر مايرى بسلامة بعض أجزاء بنيانه يقدم لنا حلولاً لها هى أقرب إلى الصحة من غيرها .

لاشك فى أن القصر لم يبن دفعة واحدة ، بل شيد على مراحل كلما دعت الحاجة إلى إضافة أجنحة جديدة . وكان الأصل المتبع فى وضع المخطط يسهل عليهم تلك الإضافات . ذلك أنه كان يدور حول فكرة بسيطة ، وهى بناء غرف متصل بعضها ببعض حول

أفنية واسعة . ولقد كانت هذه القاعدة متبعة لتضمن دخول نور الشمس إلى داخل الغرف ، فقد ثبت أنه لم تكن توجد نوافذ لغرف القصر برغم الفرضية القائلة بوجود نوافذ صغيرة علوية في بعضها بالقرب من السقف . وسبب عدم وجود النوافذ هو شدة الحر خاصة في أيام الصيف . أما الأبواب فكانت مرتفعة ، ويبلغ ارتفاع بعضها ما يزيد عن خمسة أمتار ، وذلك لكي تسمح بدخول نور الشمس إلى الغرف .

وكانت مواد البناء المستعملة هي اللبن لبناء الجدران التي تطل على تلك طبقة من الطين المخلوط بالتبن ، وكان يستعمل الآجر والحجر لبناء الأسس ، كما كان يطلي القسم الأسفل من الجدران بالقيمر وتغطي أرض الغرف ببلاط من الآجر أو بطبقة من الجص ، وأحياناً يكتفى بالتراب المطروق . وكانت أبواب الغرف تصنع من الخشب ومن مصراع واحد في أغلب الأحيان ، وبلى الباب عتبة كانت تعتبر مقدسة وتدفن فيها القرايين . وكانت طريقهم في سقف الغرف هي أن توضع الدعامات من جذوع الشجر الضخمة ، ثم تمد فوقها أغصان شجر مضافورة بصور تقاطعها عمودياً ، ثم يوضع فوقها طبقة من اللبن ويصب فوق ذلك طبقة من الجص مائلة قليلاً لتسهيل جريان مياه المطر نحو قنوات خاصة . وكانت تصنع هذه القنوات وقنوات توزيع الماء وتصريف المياه القذرة من الآجر وتطل بالقيمر .

ومما يدهش حقاً أن جميع وسائل الرفاهية كانت موجودة في هذا القصر ، ولم تنقصه الحمامات من الطراز الحديث مع مناطس بقيت سالمة حتى اليوم ، ولا المطبخ وأدواته وأفرانه وغرف المؤونة والمخازن والمستودعات ، ولا الغرف الخاصة بالإدارة وتسيير أمور الدولة ، ولا الغرف الخاصة بنساء القصر وحياة الملك الخاصة والتي يقدر أنها كانت في القسم الشمالي منه حيث وجدت غرف معني بها غاية العناية ومنقوشة بأفاريز وأشكال هندسية على شكل (٨) معكوسة ، وكان يوجد في وسط القصر فناء واسع قدر أن جدرانه كانت ترتفع إلى ما يقرب من تسعة أمتار إذ أن ما بقي منها يزيد ارتفاعه عن خمسة أمتار . وكانت أرض الفناء مصنوعة من التراب المطروق المسائل من الأطراف إلى قناة في الوسط تستعمل لتصريف مياه المطر . وتشير بعض الدلائل إلى وجود طبقة فوق غرفتين من غرف القصر . ولكن من الثابت أن بقية أجزاء القصر كانت مؤلفة من طبقة أرضية فقط .

وعثر على مركز يظن أنه كان مركز الحياة الدينية حيث أقيم فيه معبد خاص. ووجدت قاعة واسعة فيها مصطبة مرتفعة منقوشة بما يشبه المرمر السكاذب ويظن أنها كانت قاعة العرش. وقد عثر على غرفة واسعة وجد فيها عدة صفوف من المقاعد المصنوعة من اللبن بينها ممرات ضيقة، وكان التفسير الوحيد لهذه الغرفة هو وجود مدرسة في القصر لتعليم الأطفال قواعد الكتابة والحساب والمسائل الدينية. ولا سيما أنه عثر على لوحات من الفخار وأدوات يظن أنها كانت تستعمل في الكتابة. ويمكننا القول بأن هذه المدرسة هي أقدم مدرسة يعثر عليها المنقبون.

واكتشفت مصانع في القصر بشكل مستطيل وفيها دكات ملتصقة بالجدران حفرت فيها حفر متقاربة للموقد. وقد عثر حين اكتشافها على كمية كبرى من الفحم الحشبي الذي بقي قابلاً للاستعمال حتى اليوم. كما وجدت في هذا المكان قطع كثيرة من الفخار المشوى ولوحات فخارية مكتوبة قرأها العالم البلجيكي «دوسان» ووجد فيها ذكراً لكيفية صنع المعادن، مما يدل على أن جميع أدوات القصر المنزلية من معدنية أو فخارية كانت تصنع في هذا المكان.

وظهر أن القسم الشرقي من القصر كان معداً للضيافة والمراسلات والسجلات، إذ عثر فيه على عدد كبير من الرسائل الدبلوماسية التي كان يتلقاها آخر ملوك مايري «زمريليم». وتبين أن الجناح المخصص لحياة الملك الخاصة متصل بقاعة الاستقبال رأساً بواسطة ممرات ومنعطقات خاصة لا صلة لها بأقسام القصر الأخرى. وكان للملك وعائلته معبد خاص بنى أحسن البناء وزين ببعض النقوش الهندسية.

وكشفت تقييات عام ١٩٣٧ عن مدخل القصر الملوكي من الجهة الشمالية، وهو كما يلي: مرتفع بميل بسيط، وبليه باب عرضه ستة أمتار يحيط به برجان من كل جانب. وبضيق المدخل عند الباب الثاني الذي كان يغلق بمصراعين إذ عثر على حجرين من «الديوريت» كان الباب يدور عليهما، وقد شوهد على أحدهما خطوط مستقيمة بدئت الكتابة عليها حيث يقرأ «أنيم داجان ملك...» وعثر بالقرب من هذين الحجرين

على بقايا عظام حيوانات مدفونة لا شك أنها نحتت عند بناء الباب ودفنت عظامها في هذا المكان — وبلى ذلك باب آخر يوصل إلى فناء أول على شكل شبه منحرف ، ويوجد باب رابع في أحد أطرافه يفضى إلى رواق مستطيل ، وهذا الرواق إلى الفناء (١٣١) وهو أكبر فناء وجد في القصر ، ويتصل هذا الفناء بقاعة الاستقبال التي يصعد إليها بعدة درجات مستديرة .

وبالاختصار يكون مدخل القصر الملكي المعد ليهيئ أنظار الزائرين مؤلفاً من باين كبيرين فمرن بينهما فناء أول فرواق ذي منعطفات ففناء واسع فدرج مستدير موصل إلى غرفة الاستقبال ، وهذا المدخل شبيه بمدخل القصور الحيثية ، ويثبت نقل الحيثيين لأصول بناء مداخل قصورهم عن شعوب ما بين النهرين .

اللقى التي عثر عليها في القصر :

١ — تمثال إلهة الماء المتفجر : وهو تمثال امرأة مصنوع من حجر رخامي غير تام (ألبتر) بحجم يعادل ثلاثة أرباع الحجم الطبيعي وتظهر دقة الفن السومري البابلي وروعته في الوجه وخاصة في الابتسامة الرمزية التي ترسم على شفتي الإلهة الصغيرتين حتى لكانها ابتسامة الجوكندا ، وكذلك في الذقن الصغيرة وفي زى الشعر المتدلى على الكتفين والذي لا يقل جمالا في تصفيفه عن أزياء عصرنا الحديث . وقد حفر مكان العينين لوضع عيني صناعتين . ويحلى جيد الإلهة ستة عقود من الجواهر ومعصمها ستة أساور وتظهر عارية الذراعين تحمل بكلتا يديها إناء كان يتفجر منه الماء أثناء الحفلات الدينية إذ أنه متصل بقناة ممتدة الى داخل التمثال . وترتدى الإلهة ثوبا طويلا يصل إلى قدميها اللتين تظهر أطرافهما ، وقد رسمت على الثوب خطوط متقاطعة بشكل مربعات فوق صدرها الناهد وتموجة ترمز إلى الماء في الجزء الذي يبدأ من خصرها الضيق حتى قدميها ، وتشاهد على هذه الخطوط المتموجة سمكات كأنها تسبح في الماء ، وتحمل الإلهة على جبهتها زوجا واحدا من القرون يدل على مكانتها الدنيا بين الآلهة .

٢ — تمثال إيشتوب إيلوم : تمثال للأمير من أمراء مايرى مصنوع من حجر الديوريت الصلب ، وقد كتب على كتفه العارية : إيشتوب إيلوم (الإله أبقاه حياً) شاكاناك (أمير) مايرى . ويظهر الأمير بلحية طويلة لابساً القبعة التي كان يلبسها الأمراء السومريون الملقبون « بجوديا » و تراها واقفاً في وضعية تدل على الخشوع والاحترام ، إذ يضع إحدى يديه فوق الأخرى كأنه يصلى .

٣ — رأس محارب : وهو مصنوع من الرخام ومن فن بابلي واقعي ، ويشاهد رأسه ملفوفاً بما يشبه الخوذة ، وقد يكون منقولاً من مكان بعيد كغنيمة حربية .

٤ — قوالب الحلوى : وهي قوالب من الفخار يظن أنها كانت تستعمل لصب الحلوى ، وقد حفر فيها مشاهد جميلة دقيقة فيها تصوير واقعي ، ولا سيما في مشهد صيد الوعل وصور الحيوانات والطيور ، وفي مشهد حيوانين حول الشجرة المقدسة ، وفي قالب لامرأة عارية تعصر ثديها وتلبس فوق رأسها العمامة الهندية . وهناك قوالب أخرى بأشكال هندسية مختلفة .

٥ — عقد من الذهب واللازورد وقطع ذهبية أخرى .

٦ — النقوش الجدارية (وسياًنى الكلام عليها) .

٧ — تمثال إيدى إيلوم ، وهو تمثال صغير بدون رأس .

٨ — تمثال « لاسجان » مقدم إلى الإلهة أنونيت .

٩ — عشرون ألف رقيم من الفخار مكتوبة ، وتقسم إلى قسمين ، أحدهما وثائق اقتصادية ، والآخر مراسلات دبلوماسية .

١٠ — قطع مختلفة شتى : تماثيل وأختام وأجزاء تماثيل وحجر يدور عليه الباب وأحجار وقطع ذهبية لمعقود وغير ذلك .

النقوش الجدارية :

برغم الزمن المتطاوّل وما أصاب مدينة مايرى من تهديم وتخريب حفظ لنا قصر مايرى في بعض قاعاته وأفنيته نقوشاً كانت تزين بعض الجدران . وهذه النقوش تعد من أتمن اللقى النادرة المثال ، وخاصة في مثل ذلك العصر الذي كانت المدينة السومرية البابلية تشع فيه ضياؤها على أديم هذا الشرق . ولقد وجد أكثر هذه النقوش بحالة أجزاء مبعثرة جمعت بكل عناية ودقة ، وساعد على إنقاذها وجود العالم الأميركي « بيرسون » الذي رم الكنيس اليهودى في دورا ، فاشتغل في تثبيتها على حين كان بعض أفراد البعثة ينقلون عنها صوراً ملونة .

ولا يتسع المجال لذكر جميع القطع التى عثر عليها ، فلنكتف إذن بذكر أهمها :

١ — نور يساق الى التضحية : هذه القطعة هى الوحيدة التى يحتفظ بها المتحف الوطنى بحلب وتمثل ثوراً مزيناً بحلية ذهبية أو فضية فى أعلى قرنيه . ونجم بينهما فوق جبهته . وقد رسم الثور رسماً جانبياً سوى جبهته فهى تظهر وكأنها مرسومة من الأمام ، ويقود الثور رجل ملتصق له شاربان عربضان ، وهو يلبس قبعة تشبه قبعات العمال ، ويلبس ثوباً مشدوداً الى وسطه بنطاق مزدوج ، وقد رسم رأس الرجل رسماً جانبياً ورسم جسمه متجها الى اليسار فى وضع بعيد عن الاتزان ، ويرى واضحاً يده فوق رأس الثور لتهدئته .

٢ — مشهد تضحية : وهو تابع للمشهد السابق ، ويزيد عليه بوجود « أمر التضحية » وشخص ثالث عظيم يشغل القسم الأعلى والأسفل من المشهد ، ويظن أنه الملك ، وهو يلبس ثياباً فخمة مزخرفة .

٣ — مشهد تقليد الملك : وهو يشبه لوحاً كبيراً ، إذ يحيط بمشهد تقليد الملك إطار من صور أشجار وحيوانات وآلهة وقاطنى القمر مرسومة بصورة متناظرة ، ويحيط بجميع هذا إطار ثان من أشكال حلزونية وثالث من أشكال هندسية .

أما المشهد الأوسط فهو ينقسم إلى قسمين : علوى ، وسفلى ، تفصل بينهما خطوط مستقيمة :

(أ) القسم العلوى : يشاهد الملك وهو يتلقى من يد الإلهة عشتار الخاتم وعصا القيادة بحضور إلهين آخرين إلى جانب عشتار وإلهة إلى جانب الملك ترفع كفيها لحمايته ورعايته والدعاء له . ويرغم اغبرار لون الصور بمرور الزمن فإنه من السهل تمييز محيط الرسوم الذى خط بريشة حادة الرأس ويبد واثقة من فنها وبراعتها .

والجدير بالوصف هو صورة الإلهة عشتار الممثلة هنا كألهة للحرب تحمل أسلحتها وتضع رجلها اليمنى فوق ظهر لبؤة مضطجعة فأغرة فاها ورافعة ذيلها . وتمتد الإلهة يدها اليمنى لتقدم للملك الخاتم وعصا القيادة وتمسك يدها اليسرى حربة طويلة . ولكن إلهة الحرب لم تنس أنها إلهة الحب أيضاً فلم تهمل زينتها ، فهي تحلى جيدها بأربعة عقود من الجواهر ومعصمها بالأساور ، وتلبس ثوباً بديع الصنع بأكمام قصيرة وصدر مفتوح وخصر ضيق . ومع أن ثوبها يصل إلى أقدامها فإن مد رجلها اليمنى قليلاً إلى الأمام لوضعها فوق ظهر البؤة ترك الثوب ينفرج قليلاً فتبدو ساقها حتى نصف فخذاها ، وقد ذهب التشويه بجزء من ناحيتها ، ولم يبق منه سوى ثلاثة أزواج من القرون . وفى الحق أن رشاقة جسم الإلهة وجمال ملابسها يجعل من هذه القطعة آية من آيات الفن القديم نادرة المثال .

(ب) القسم السفلى — تشاهد هنا إلهة الماء المتفجر وقد صورت صورتين متناظرتين ، وترى حاملة إناء يخرج منه أربعة تيارات من الماء ، اثنان باتجاهها يمر أحدهما فوق رأسها ثم يسقط وراءها ويسقط الآخر من الأمام عند قدميها . أما الآخران فيجريان بالاتجاه المعاكس بعيداً عنها ، ويتصلان بالتيارين الآخرين الآتين من الإلهة المقابلة . وتشاهد على طول مجرى التيارات سمكات تسبح فى الماء ، ويخرج من كل إناء غصن من النبات ، مما يدل على أن هذه الإلهة هى إلهة الماء والخصب ، وملابسها تشبه ملابس الغمائل الذى تكلمنا عنه آنفاً .

٤ — مشاهد متعددة : عثر على بعضها منهاراً على الأرض ، وأنقذت بكل صعوبة . منها مشهد مقدمة ومشهد تضحية ومشهد صيادى السمك وقطعة تمثل جندياً منحنيًا بالسهم وقطعة تمثل حارس باب السماء . . . الخ .

وأهم خصائص هذه النقوش الجدارية هي أنه برغم قلة عدد الألوان المستعملة استطاع المصور أن يستعمل كل لون على درجات مختلفة من الشدة ، فأضفى على هذه النقوش رونقاً وحياة تشهد له بالإبداع والمهارة . وقد وضعت الألوان على أرضية من الجص ، وأكثر الألوان استعمالاً هو الأحمر والأسود ، أما الأبيض فقد ترك مكانه بدون تلوين . الزقورة والمعابد الأخرى :

في ربيع سنة ١٩٣٧ بدأت البعثة بالتنقيب في أعلى نقطة موجودة في التل ، وكان من المقرر أن يعثر فيها على زقورة . وقد تحقق الظن منذ بدء العملية ، وكان من الضروري قبل كل شيء إزالة جميع ما كان حولها وما أقيم من أبنية ، وهذا ما جر المنقبين إلى التعمق في الحفر ، وإلى اكتشاف عدة طبقات من الأبنية بعضها فوق بعض نذكرها باختصار :

- ١ — مقابر من العهد الساساني .
- ٢ — مقابر من العصر الآشوري ، وقد وجدت متجمعة فوق المنحدر الشمالي للزقورة .
- ٣ — آثار مدرسة لأقوام سكنت ما يرى بعد خرابها ، ووجدت بين هذه الآثار لوحات مكتوب إحداها باسم إيشارليم ملك هانا .
- ٤ — مستوى يرجع إلى عهد ملوك مايرى قبل زمر يليم ، أي إلى الأسرة السومرية — البابلية .

٥ — مستوى عثر فيه على بقايا عمرانية يظن أنها ترجع إلى ملوك أسرة أور الثالثة ، وكان ملوك مايرى « إيدى ايلوم » و « بوزور عشتار » و « تورا داجان » آخر من يمثل هذا العهد ، وقد استقلوا استقلالاً محلياً وقطعوا علاقاتهم مع أور . ولقد استدل الأستاذ « دوسان » على النفوذ الذي كانت تتمتع به أسرة أور في مايرى من اللوحات المكتوبة

بكتابة أسفينية مشابهة للكتابات التي تركتها أسرة أور . كما عثر على لوح يذكر اسم ثلاثة معابد كانت مشهورة عند أسرة أور الثالثة ، وهي معبد نين إجال ونيبور ساج وداجان .

٦ — مستوى سابع عثر فيه على بقايا عمرانية من عصر ما قبل سرجون .

٧ — بقايا منحوتة تؤيد امتداد سلسلة أور الدينية إلى مايرى .

أما الزقورة فقد ظهر أنها بنيت على سطح مرتفع من اللبن وقد اشكل قسم كبير من أجزائها المرتفعة وسويت منحدراتها بمرور الزمن ، وتبين أنه حفر في القسم الجنوبي منها لإقامة معبد بقى محفوظا بصورة جيدة ، ولم يعثر إلا على باب واحد ضيق له وعلى غرفتين في الداخل ، مما يدل على أن هاتين الغرفتين كانتا تظلمان في ظلام دامس ، وقد يكون هذا المعبد معبداً للأسرار ، ومما يؤيد هذا الظن أنه أقيم على بابه حارسان مخيفان وهما أسدان من البرنز فاغرا الفم يسددان نظرا شديداً يترك في النفس أثراً بالغا . ولم يكن يظهر من هذين الأسدين سوى رأسيهما ، أما ما بقى فقد كان داخلا ضمن البناء . وتقع أمام هذا المعبد ساحة الزقورة الواسعة ، وقد شوهدت فيها ترميمات متعددة لمنصات التقدمة ، وعثر في هذه البقعة على نحو سبعين عينا مشابهة لأعين أسدي البرنز ، مما يدل على أن الزقورة كانت تحمية بحرس مؤلف من عدد كبير من الأسود مصنوعة من البرنز أو الخشب ، وقد تلفت أو نهبت على أثر خراب المدينة . وعثر في الجهة الشرقية على قواعد حجرية لأعمدة اللبن أو الخشب لم يبق منها أى أثر .

وكان اللبن يستعمل في بناء الزقورة ، ويوضع ضمنه جذوع شجر لتقويته ، وقد تلف الخشب مع الزمن فظهر مكانه فارغا ، وقد استعملت هذه الطريقة في بناء قصر سليمان في القدس ، كما استعملت في العصور السكريدية . ويرجح أن أصلها يرجع إلى بلاد ما بين النهرين لحاجة السكان إلى تقوية المباني القليلة المقاومة التي كانت تصنع من اللبن . وظهر أن المعبد ذا الأسدين كان محاطاً بمعابد أخرى لم يبق منها شئ يذكر ، وقد بنيت هذه المعابد فوق معابد أخرى من مدرسة ربما كانت المعابد التي ذكرها أحد اللوحات والتي تكلمنا

عنها سابقاً (مستوى ٦) . وقد أُغِيرَ على هذه المعابد ورفع قسم كبير من آثارها ، وظهر أن مخططات هذه المعابد متناسقة ، ووجد في أسسها أحجار وقطع برنز تذكارية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن قطع البرنز التذكارية وجدت ضمن بلاطة مربعة غطيت ببلاطة أخرى وخبئت عن الأنظار . وكانت هذه القطع التذكارية مثقوبة وفيها مسار يضمنها إلى البلاطة ، وربما كان هذا الوضع الديني يدل على تخليد ذكرى ارتباط المتعبد بالمعبود بواسطة المعبد الذي بناه . وقد قرئ على إحدى هذه القطع : « نيو أرمير أمير مايرى إلى نينورساج ، معبداً بنى » وقد بنيت هذه المعابد فوق معابد أقدم منها في المستوى الثالث ، وهذه نفسها بنيت فوق معابد أقدم منها أيضاً . ويمكننا أن نقول بأن جميع هذه المعابد كان يعاد بناؤها من جديد كلما تهدمت وأصبحت غير صالحة للاستعمال . ولذا يمكننا أن نقرض أن المعبد الذي وجد تحت معبد نينورساج يحمل الاسم نفسه أيضاً وهكذا ... لأن العادة القديمة كانت تقضى بإقامة المعبد الجديد فوق القديم تماماً ، وعدم مس أرض المعبد التي يجب أن تبقى مقدسة . ويمكن إرجاع عهد معابد المستوى الرابع إلى ما قبل عهد سرجون أى ٢٩٠٠ ق . م ومعابد المستوى الثالث إلى عهد أسرة سرجون (٢٧٥٠ ق . م) ومعابد المستوى الثانى حيث وجدت في الأسس الأحجار وقطع البرنز التذكارية إلى أسرة أور الثالثة ٢٣٥٠ ق . م .

اللقى في منطقة الزقورة والمعابد :

- ١ — أسدا البرز ، وقد شاهدتم أحدهما في المتحف .
 - ٢ — عيون لأسود لم يعثر عليها .
 - ٣ — عدة تماثيل لحامل الخروف ، ويظهر فيها عادة حامل الخروف لابساً ثوباً مشابهاً لجلد الخروف الذي يحمله ليقدمه إلى التضحية . والثوب يغطى جسمه إلى أعلى الرقبة .
 - ٤ — أحجار وقطع برنز تذكارية .
- ويرجع عهد ما ذكر إلى أسرة أور الثالثة (٢٣٥٠ ق . م) .

٥ — تمثال لشخص ملتح عارى الصدر جالس على مقعد مستدير ، ولم يعثر على رأس هذا التمثال .

٦ — رأس امرأة تحمل قبعة خاصة (پولوس) .

٧ — قطعة من الصدف تمثل حامل الحروف .

٨ — قطع صدفية متعددة منها أربعة رؤوس جانبية .

وهذه القطع من عصر الأسر السرجونية (٢٧٥٠ ق . م) .

٩ — نقوش جدارية ملونة بالأسود والأحمر لأشخاص أخذت صور سريعة لهم ، وزاعم واقفين على حيواناتهم الخاصة ، وجميعهم يلوحون بأيديهم كأنما يرقصون .

ويمكن إرجاع عهد هذه النقوش إلى مطلع الألف الثالث ق . م .

هذه خلاصة وافية عن حفريات مايرى ، ولقد اضطررنا إلى إهمال كثير من التفاصيل التي لم نجد مجالاً لذكرها . وقبل أن نختم كلمتنا نود أن نذكر قائمة كاملة بأسماء ملوك مايرى الذين عرفوا حتى الآن بما قرئ من اللوحات الكتابية ، وهم أربعة عشر : « إيزى داجان — تورا داجان — بوزور عشثار — إيدى إيلوم عشثار — إيشما داجان — إيشتوب إيلوم — نيوار مير — اجيش ييلجى — ياخنليم — يهدونليم — يشما حدد — زمريليم — انيم داجان » .

وقد حكم جميع هؤلاء الملوك في العصر الذى كان فيه قصر مايرى عامراً ، أى بين سنة ٢٣٥٠ وسنة ١٩٧٥ قبل الميلاد .

وأختم كلمتى بأنه برغم التنقيبات العلمية التى دامت ست سنوات ، فإنه لم يكتشف من هذه المدينة سوى سدسها ، وقد يستغرق العمل لاكتشافها بأجمعها مدة تزيد عن ربع قرن . فالى المؤتمر الأول للآثار فى البلاد العربية أقدم نتائج المرحلة الأولى من الحفريات التى قامت بها البعثة الفرنسية ، لعل فيها ما يثير همم الحكومات والمؤرخين والأثريين من العرب لإتمام هذه التنقيبات التى قد تكشف عن أسرار مدفونة على غاية كبرى من الأهمية .

العلاقات بين العراق القديم

وبلدان الشرق الأدنى

لـمؤسّس طه باقر

حضرات الأعضاء

إنني بموقفي أمام حفلكم الكريم أحق الخطباء الذين اعتادوا طلب الصفح والمعذرة سلفاً، ذلك لأنني أحدث صفوة من أهل الفضل والعلم في موضوع على جانب كبير من التعقيد بسبب طول العهود التاريخية واتساع الرقعة الزمانية والمكانية في حضارات الشرق الأدنى، وتعدد الأوجه في الصلات التي تكونت بين حضاراته في العهود التاريخية المختلفة.

ولعل من باب استباق النتائج أن أقول أن الباحث في العلاقات التاريخية بين أقطار الشرق الأدنى ولاسيما الأقطار العربية يخلص إلى نتيجة خطيرة هي: أن أبرز ظاهرة تاريخية في حياة هذه الأقطار اتساع العلاقات فيما بينها واستمرار تلك العلاقات منذ أزمان واطلة في القدم. وأنها كثيراً ما قاربت الوحدة في الحضارة في جميع الشرق الأدنى بوجه عام. وقد تحقق هذا الاتجاه التاريخي إلى الوحدة في العهد العربي الإسلامي. وإن أسباب وثوق تلك العلاقات أعمق من أسباب القرب الجغرافي، وتمتد جذورها إلى فجر التاريخ عندما نشأت في هذه البقاع حضارات الإنسان الأصلية الأولى.

ويحسن بنا قبل البدء بذكر أوجه تلك العلاقات أن نذكر في سياق هذه المقدمة مسألة خطيرة تنصل ببحثنا، وهي مسألة نشوء الحضارات البشرية الأولى والمنهد الذي نشأت فيه، حيث اختلفت في ذلك آراء الباحثين حتى يومنا هذا. فطائفة من الباحثين ذهبوا إلى أنه لم تنشأ في تاريخ الإنسان منذ وجد على هذه الأرض إلا حضارة واحدة

أصلية منها تفرعت واشتقت حضارات البشر الأخرى . وإن هذه الحضارة الأولى نشأت في وادي النيل على ما يقول به جماعة من الباحثين ^(١) أو في العراق على قول فريق آخر منهم ، ولأن طبيعة كلتي لا تسمح لى بأن أسهب بالقول ، فأنى أقتصر هنا على ذكر الرأى المعتدل الذى عليه كثير من المؤرخين والباحثين . وهو أنه لم يقتصر تاريخ الجنس البشرى على نشوء حضارة أصلية واحدة ، بل نشأت في مطاوى التاريخ عدة حضارات (ست حضارات على أكثر تقدير) . وهى أصلية غير مشتقة من حضارات سابقة لها ^(٢) وأن اثنتين من هذه الحضارات الأصلية بلغ أمر اتصالهما وقدمهما وتأثيرهما في جميع الحضارات حد الإجماع عند الباحثين ، ونعنى بهما الحضارة السمرية في العراق والحضارة المصرية في وادي النيل . أما وجه الأصالة في كل من هاتين الحضارتين فهو أن كلا منهما نشأت من طور بدائى في العصر الحجري المتأخر في موطنها الأصلي ، ونمت وتطورت إلى ما نسميه تطور الحضارة الناضج ، ولم تشتق من حضارة سابقة لها .

والآن فلنبداً بعرض الصلات التاريخية بين العراق وبلدان الشرق الأدنى ولعل أحسن سبيل للمرض أن تتبعهما بحسب العهود التاريخية ، متخذين العهود المعروفة في تاريخ العراق وما يضارعها من التاريخ المصرى ^(٣) أساساً لذلك العرض .

فأول ما نبدأ به الطور المعروف « بالحجرى — المعدنى » (Chalcolithie) الذى يعد أول مرحلة في حضارات الشرق الأدنى انتقل إليها الإنسان من العصر الحجري المتأخر ، وكان في بداية معرفته بالمعادن ، ولم يهتد بعد إلى طريقة للتدوين . لقد دام هذا الطور بوجه التقريب منذ الألف السادس حتى الألف الرابع ق . م . وإذا أعوزتنا السجلات المكتوبة لمعرفة العلاقات بين أقطار الشرق الأدنى في هذا العهد فإن التنقيبات في مواقع قديمة فيه قد أظهرت حديثاً وجود علاقات حضارية بين الشرق حتى في هذه العصور الواغلة في القدم . فقد كشفت البحوث الحديثة في سورية (في العمق والجديدة ورأس شمرة وأريحا وغيرها) وفي العراق وفي مصر عن أطوار حضارية متشابهة في جميع الشرق الأدنى ، أبرز ما يمتاز به نوع جميل من أواني الفخار الزاهى المنقوش . وقد بدأت هذه الصناعة

ملاحظة : الكلمات التى عليها أرقام معلق عليها في آخر البحث .

في أواخر العصر الحجري المتأخر ، وعمت في الشرق الأدنى حتى بداية العصر التاريخي في أواخر الألف الرابع ق . م . وكان هذا الطور على ما يرجح المرحلة المشتركة التي بدأت منها حضارات الشرق الأصلية ، ثم سارت كل منها بالطريق الخاص بها في العصور التاريخية . وفي نهاية هذا الطور تهيأت الأسباب لنشوء الحضارة الراقية في الشرق الأدنى فنشأت حضارتان أصليتان في العراق وفي مصر ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . وقد كشف البحث الحديث في الموازنة بين حضارات الشرق الأدنى عن وجود صلات حضارية قوية بين العراق ومصر في المراحل الأولى من نشوء الحضارة الناجمة فيهما : فقد وجدت آثار يمنية من حضارة السمرين الأولى في الحضارة المصرية في أواخر عصور ما قبل السلالات المصرية وبداية عهد السلالات (Proto- Dynastic) وتتضمن هذه الآثار نواحي مهمة وهي :

(١) آثار مادية .

(٢) صناعات واختراعات .

(٣) أساليب وأطرزة فنية .

وهي كلها خاصة بحضارة السمرين ، واستمرت فيها ، ولكنها غريبة عن الحضارة المصرية ، انحصر وجودها فيها زمنياً محدوداً ثم انقطعت . وهذه اعتبارات مهمة لا تدع مجالاً للشك في أصلها السمرى ^(١) . وإذا معنى الوقت من الإسهاب في هذه الصلات فأننى أكتفى بالإشارة الى أن أولى هذه التأثيرات بدأت في حدود منتصف الألف الرابع ق . م في نهاية طور نقادة الثالث ^(٢) في مصر وعهد الورهاء في العراق ، ومنها الآثار التي وجدت في جيل « العرق » وفي مقبرة « هيراكونبوليس » ويرجع عهدها الى أواخر ما قبل السلالات ^(٣) . واستمرت هذه التأثيرات في عهد بداية السلالات المصرية الأولى ، وأبرزها رؤوس الدبابيس الحجرية وأواني الحجر المزينة بالنحت البارز ، وبعض الأطرزة في العمارة خاصة بالأبنية السمرية لوحظت في المقابر الملكية المصرية وفي المصاطب القديمة وفي تخطيط اللحد الملكية الأولى ، ولا سيما لحد « منا » وخلفائه وكذلك استعمال الختم الأسطوانية الخاصة بحضارة العراق ^(٤) .

وأول ما تشير إليه هذه الأشياء وجود العلاقات التجارية والثقافية بين مصر والعراق بوجه خاص وبين أقطار الشرق الأدنى بوجه عام ، وذلك منذ فجر التاريخ . وقد ذهب كثير من ثقات الباحثين في أصول الحضارة إلى استنتاج أمور مهمة تتعلق بأصول الحضارة المصرية في أطوارها الأولى واقتباسها الحوافز من الحضارة السمرية كفكرة الكتابة مما أشار إليه العلماء حديثاً^(٧) . وبما أننا لسنا هنا في معرض أصل الحضارة ، ولسنا كذلك من الجازمين في الوقت الحاضر باشتقاق أصول الحضارة المصرية من الحضارة السمرية ، فأتنا نقصر القول هنا على إبداء رأى متحفظ يشاركنا فيه بعض الثقات ، وهو حصول الحضارة المصرية في أول أطوارها على حوافز من الحضارة السمرية^(٧) وأنها أخذت فيما بعد منذ عصر المملكة المصرية القديمة تنمو مستقلة وتتصف بطابعها الخاص . ومن الأمارات القوية على وجود الاتصال التجاري والثقافي بين العراق وأقطار الشرق الأدنى في هذه العهود السحيقة استعمال الحضارة السمرية الأولى بعض الأحجار والمعادن وغيرها من الأشياء التي لا توجد في العراق . وكان الجزء الشرقي الجنوبي من جزيرة العرب من أقدم المصادر التي جلب منها السمريون النحاس . فقد كانت كذلك في العهود التاريخية القديمة ، حيث ورد ذلك في أخبار « نرام — سن » الأكدي و « جودية » واتصالها « بمجان » و « ملو خا »^(١٣) .

العلاقات بين مملكة (سمر وأكد) :

وإذا انتقلنا من عهود بداية الحضارة إلى العصور التاريخية كثرت مصادر معرفتنا بسير العلاقات بين العراق وأقطار الشرق الأدنى . وذلك منذ عهد المملكة المصرية القديمة ومملكة « سمر وأكد » في بداية الألف الثالث قبل المسيح حتى الألف الثاني . فتشير الأخبار المدونة إلى اتساع العلاقات وبضمنها الصلات السياسية إثر الفتوح والغزوات . وكانت بلاد الشام واسطة الاتصال السياسي والثقافي بين العراق ومصر والأقطار الأخرى في آسية الغربية^(١٨) .

فتعلمنا الروايات التاريخية أن الملوك السمرين القدامى مما قبل سرجون الأكدي قد مدوا فتوحهم إلى الأناضول عبر سورية . ومن بين هؤلاء الملك السمرى لوكال زا كيزى ^(٩) . وقد تأسست حلة بهيئة مستعمرة سمرية في كبدوكية لاستخراج المعادن قبيل العهد الأكدي ^(١٠) .

واتسعت الحملات الحربية في عهد سرجون ^(١١) ونرام — سن ^(١٢) الملكين الأكديين . ومن الطريف أن نذكر بهذا الصدد قصة قديمة عنوانها « بطل الحرب » تعرض طرفاً من حملات سرجون إلى الأناضول . وقد وجدت هذه مدونة باللغة البابلية وبالخط المسماري في أحد البيوت في تل العمرة ^(١١) .

لقد عملت هذه الفتوح على نشر الحضارة السمرية في جزء كبير من الشرق القديم ونشرت الخط المسماري إلى الأناضول حيث استعمله سكان كبدوكية ^(١٢) واتصل الأكديون والسمريون بجزيرة العرب ، ولا سيما القسم الجنوبي الشرقي منها طلباً للنحاس والتوابل وخاصة (اللبان) . وقد ذكر نرام — سن في نقوش أحد تماثيله أنه فتح مجان ^(*) وقهر ملكها مانيوم ^(١٤) . وورد ذكر البحرين (دلون) و (ملوخا) في المصادر المسمارية منذ أقدم العهود .

وبالرغم من أن الحملات الحربية الماسرة الذكر لم تسفر عن سلطان دائم للأكديين فإنها كانت ذات أثر بعيد في توحيد أساليب الحياة والحضارة في الشطر الآسيوي من الشرق الأدنى ، فالسالك في ذلك العهد إحدى الطرق التجارية الكبرى من سورية إلى التقاء الخابور بالفرات ثم إلى آشور في أعالي دجلة ، أو انبج إلى ماري « تل الحريري » وتزل مع الفرات إلى موطن الحضارة السمرية يجدي في أي مدينة يمر بها أن مظاهر الحضارة الأساسية واحدة : في الفن والعمارة وفي اللغة والكتابة، حيث الخط المسماري الخط العام

(*) من المرجح أن « Magan » هي « عمان » ولا علاقة لها « بمعان » وقد أطلق اسم « مجان » و « ملوخا » في العهود القديمة على موضعين في شرقي ووسط الجزيرة العربية . ولكن الآشوريين استعملوها في موضعين بعيدين وطور سينا في شرقي إفريقية . وأصبح من المؤكد أيضاً أن (دلون) هي البحرين (١٣) وعرفها البابليون أيضاً باسم القطر البحري الذي نشأت فيه سلالة بابلية (سمرية الأصل) عرفت بسلالة القطر البحري ، وذلك بعد سلالة حمورابي .

في المصالح والمعاملات التجارية والسياسية^(١٥) . وانتشر في سورية منذ هذه العهود القديمة كثير من المعتقدات البابلية كالأساطير الدينية . ففي وسع المتتبع أن يفترض أن ملاحم مهمة مثل قصة (الطوفان) (والحليقة) قد أخذت عن البابليين (السمرين القدماء) . وتوارثت روايتها الأجيال المختلفة، حتى وجدت طريقها إلى العهد القديم^(١٦) . وقد اتصلت الحضارتان السمرية والمصرية في تأثيرهما عند مدنى الشام الساحلية « كجيل » و « أوغاريت » (رأس شمرة) . وتشير ظواهر الأحوال إلى أنه لم يحدث بين الحضارتين تصادم ، وكذلك كان الحال في العهود التالية في عهد المملكة المصرية الوسطى^(١٧) .

أعقب عهد المملكة المصرية القديمة وعهد المملكة الأكديّة زمن اضطربت فيه الحياة في مواطن كل من الحضارتين السمرية والمصرية ، وتدهورت الحال السياسية ، إذ قضى على السلالة الأكديّة برايرة من شمال العراق وشرقه (وهم الكوتيون) وضعفت مصر من بعد سلاطها السادسة وحات فيها الفوضى السياسية بسبب الانشقاق الداخلى وخروج الأمراء على السلطة المركزيّة^(١٨) . وبعد ارتباك دام زهاء القرنين استطاع أمراء طيبة أن يوحّدوا البلاد من جديد ، فبدأ عهد مجيد في مصر هو عهد المملكة الوسطى (السلالتان الحادية عشرة والثانية عشرة) . أما في العراق فقد أعقب الفترة المضطربة التي دامت زهاء القرن الواحد عهد جديد ، بوسعنا أن نعدّه آخر أمباطورية سمرية ، وهى سلالة أور الثالثة المشهورة . وقد اتعشت في عهدها العلاقات بين العراق والبلاد السورية .

واستمرت العلاقات مع الجزيرة العربية حيث ورد في الأخبار أن « جودية » آخر الأمراء السمرين قد جلب النحاس والخشب من بحان وملوखा لبناء معابده^(١٩) .

واستأنفت مصر علاقاتها بالشرق الأدنى في عهد السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة . كما أبانت المصادر المصرية والبحوث التي تمت في مواقع سورية حيث تمكن النفوذ السياسى والثقافى في البلدان الشامية ، وأظهرت تلك البحوث أيضاً أنه أعقب ذلك حلول النفوذ البابلى في عهد سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بملكها السادس حمورابى^(٢٠) . ومن الأشياء الجديدة التي أظهرها البحث الحديث أن هذا الملك البابلى كان يعاصر ملكا آخر بالاسم نفسه، حكم في مملكة « يمدخ » التي كانت عاصمتها حلب . وكان بين الاثنين

حلف وصلات^(١٩) . وانتشرت الحضارة البابلية وتغلغت في المدن السكناية^(٢٠) كما تشير إليه نتائج التنقيبات الحديثة في المدن السورية^(٢١) ولاسيما في (تل العطفانة) «الآلاك» القديمة^(٢٢) وفي تل الحريري (ماري أو مائر)^(٢٣) وفي رأس شمرة (أوغاريت القديمة)^(٢٤) وفي تل عشار (ترقا) عاصمة المملكة القديمة «خانا»^(٢٥) . وتعزى سهولة نشر الحضارة البابلية بالإضافة إلى الفتوح إلى الروابط الجنسية بين ملوك بابل ومعظم سكان الشام، إذ أن أصلهم من الساميين الغربيين، أي الأموريين الذين كانوا يحكمون فيما قبل العام ٢٠٣٠ ق . م ، في دويلات كثيرة تمتد على طول الفرات الأوسط ، ثم أخذوا يتجهون إلى الجنوب ، فأسسوا في العراق سلالات بابلية تنازعت على السيادة حيناً من الزمن حتى تفردت بالزعامة سلالة حمورابي الأموري^(٢٥) .

ومما يحسن التنويه به بصدد العلاقات بين مصر والعراق في هذا العهد انتقاد النصارى بين البابليين في عهد حمورابي والمصريين في عهد السلالة الثانية عشرة . وإنما التقى نفوذ الحضارتين عند مدن الساحل الفينيقي التي كانت عاملاً مهماً في الاتصال الثقافي والتجاري في العالم القديم^(٢٦) .

وفما كان عالم الشرق الأدنى ينعم بالاستقرار في زمن المملكة الوسطى وسلالة حمورابي كانت براري «أوريسية» (أورية — آسية) تموج بالكتل البشرية الهمجية وهي تدفع بهيئة موجات إلى الشرق الأدنى مركز العالم المتمدن، فأحدثت فيه الفوضى والحرب، واستوطنت فيه أقوام جديدة، كالحثيين الذين حلوا في الأناضول وشمالي سورية، والكشيين الذين حكموا في العراق بعد سلالة حمورابي، والهكسوس^(٢٧) الذين قضوا على المملكة الوسطى . وظهر بعد حين في عالم السياسة الدولية الآشوريون في شمالي العراق وبحوار المينانيين الذين كانوا من الأقوام الهندية — الأوربية .

العلاقات في عهد الامبراطورية المصرية (١٥٧٣ — ١١٤٩ ق . م) :

اندج الكشيون بالبابليين في العراق وطفقت عليهم الحضارة البابلية وأسسوا سلالة دامت نيلاً وخمسة قرون . أما في مصر فبعد أن حكم الهكسوس في الدلتا زهاء القرنين

نار عليهم آخر نبلاء السلالة السابعة عشرة ، وتم طردهم وتحرير البلاد منهم بقيام السلالة الثامنة عشرة . ولكن لم يكتف ملوك هذه السلالة بطردهم بل لاحقوهم إلى فلسطين وسورية التي منها غزوا البلاد المصرية^(٢٧) . فنتج عن ذلك تكوين الإمبراطورية المصرية^(٢٨) . وبدأ طور جديد في تاريخ الشرق الأدنى امتحت فيه جميع الحواجز في العالم القديم واتصلت الشعوب ، ودخلت في علاقات مباشرة ، وتكونت صلات دبلوماسية هي الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات الدولية ، واستأنفت الحضارة طوراً عالمياً في جميع مظاهرها وأوجهها . وتتميز العلاقات في هذا العهد إلى سعتها وشمولها بكثرة النصوص والوثائق التاريخية ، مما جاءنا من السجلات الرسمية الملكية ، ولاسيما من مصر ومن عاصمة الحثيين حاتوشاش^(٢٩) .

إن اتساع العلاقات بين دول الشرق الأدنى في هذا العهد يجعل من المتعذر تفصيل القول في أوجهها المختلفة . ولاسيما الأوجه الثقافية والسياسية ، لذلك نجتزئ هنا بذكر أبرز المظاهر ، محيلين السامع الكريم إلى المراجع المبسطة في هذا الموضوع^(٣٠) .

فأولا اتصفت العلاقات السياسية والحرية بتوازن القوى الدولية في النزاع بين المصريين والحثيين والميتانيين على الشرق الأدنى أولاً ، ثم بين الآشوريين والبابليين والأرميين ، ونتج عن ذلك المعاهدات والتحالف والعلاقات الدبلوماسية الواسعة ، مما لم نعرف له مثيلاً في تاريخ الشرق القديم فيما قبل هذا العهد . وثانياً أنتجت هذه الصلات المباشرة الواسعة اتصال حضارات الشرق القديم فأثر بعضها في بعض تأثيراً متبادلاً جعلها تدخل في طور أصح ما يتميز به الوحدة في الحضارة ، في الفن وفي العادات وفي الأزياء ، حتى استعمل الناس لغة واحدة ، هي اللغة البابلية بالحظ المسماة في معاملاتهم التجارية ، والملوك في علاقاتهم الدبلوماسية .

وبلغ أمر الاتصال من الشدة ذبوع المعتقدات الدينية ، فكانت تماثيل الآلهة يتبادل إرسالها ملوك ذلك الزمان . فمن الحوادث الطريفة في هذا الصدد أن الملك المصري (أمنوفس) الثالث مرض مرة فأرسل إليه صديقه الملك الميتاني (تشرانا) تماثيل الآلهة الآشورية عشتار من نينوى لتشفيه من مرضه ، وكان يصحب هذا التمثال على ما رجح

أطباء آشوريون^(٣١) وأرسل الملك البابلي مرة طيبيا وراقيا إلى الملك الحثي (مواتلي — ١٣٠٠ ق. م) . وكان أطباء مصر الذين اشتهروا بحذقهم يزورون بلاطات الملوك في الشرق الأدنى^(٣٢).

والآن اسمحوا لي أن أقرأ لكم نموذجاً مختصراً من المحادثات الدبلوماسية من إحدى رسائل (العمرنة) من الملك البابلي (بورنابورياش) إلى أمنوفس الرابع (أختانون)^(٣٣) :

« إلى (نفخورويا) (*) ملك مصر .

هكذا يقول (بورنابورياش) ملك بلاد بابل أخوك .

إنني بخير . فعمى أن تكون أنت وبيتك وزوجاتك وأولادك وبلادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال .

منذ عقد أبي وأبوك الود فيما بينهما كانا يتهاديان أنفس الهدايا . ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر منه ، مهما عز وغلى .

والآن لقد أهدي إلى أخي « منين » من الذهب . فوددت لو أنك أرسلت إليّ ذهباً بقدر ما كان يهديه أبوك . وإذا كان لابد من تقليل المقدار فأرسل إلى نصف ما كان يرسله أبوك . فلم أرسلت « منين » من الذهب فقط ؟ إنني الآن باذل جهداً كبيراً في المعبد . وقد تمهدت العمل بقوة ، وسوف أنجزه بالدقة ، فأرسل إلى قدر كبير من الذهب ، وإذا رغبت في شيء في بلادى مهما كان فابعث رسلك يأتوك به .

في عهد أبي « كوريكالزو » أرسل إليه السكنعانيون يقولون : (لنذهب إلى حدود مصر ولنغزها جميعاً وسوف نعقد معك حلفاً) أما أبي فقد أجاب عن هذه الرسالة قائلاً : (كفوا عما تنشدهونه من الحلف . إذا كنتم أعداء ملك مصر أخي ، فليكن الحلف فيما بينكم ، ولكن لتحذروا جانبي . وإذا كان ملك مصر حليفي ، فمن ذا الذي يصدني عن أن أغزوكم ؟)

وهكذا فلاجل أهلك لم يسمع أبي مقالهم .

(*) وباللسان المصري « نفر — خفيرو — ر (ع) » (أى أمنوفس الرابع) .

أما ما يخص بعض الآشوريين من أتباعى [كذا] أفلم أخبرك برسالة فى شأنهم ؟
فلم دخلوا بلادك ؟

وبما أنك تحبى فيقين أنك لن تدخل معهم فى شىء ، وأنت ستعمل على إحباط جهودهم
وسعايتهم .

وبالحتام لقد أرسلت إليك هدية : ثلاثة منات (*) من اللازورد ، وعشرة أفراس
لخمس عربات من الخشب » .

إن هذه الرسالة جزء من قصة طويلة فى العلاقات السياسية بين أقطار الشرق الأدنى .
ولعل أحسن سبيل لفهم فحواها تقسيمها إلى فصلين يؤلفان حقتين متميزتين فى تاريخ
الشرق الأدنى . أما الفصل الأول فيبدأ بتكوين الامبراطورية المصرية منذ السلالة
الثامنة عشرة (فى القرن السادس عشر ق.م) وينتهى بزوال تلك الامبراطورية بعد عهد
رعميسيس الثالث (آخر عاقل قوى فى السلالة العشرين) فى نهاية القرن الحادى عشر ق.م
ويبدأ الفصل الثانى بزوال الامبراطورية المصرية فى بداية السلالة الواحدة والعشرين
(فى حدود ١٠٩٠ ق.م) ويتميز هذا العهد بضعف المملكة المصرية وتعاظم الآشوريين
وسيطرتهم على الشرق منذ زمن شيلمنصر الأول (القرن الثالث عشر ق.م) وتجيلا
تلبليزر الأول (فى حدود ١١٠٠ ق.م) وقد انتهى النزاع المسلح بين الآشوريين
والمصريين فى القرن السابع ق.م (٦٧٠ — ٦٦٣ ق.م) ولعل الفصل الأول أمتع قصة
فى التاريخ البشرى وأطرف حقبة فى العلاقات الدولية فى العالم المتمدن حينذاك . فعندما
تكونت الامبراطورية فى البلاد الشامية انحصر النزاع الحربى فى بادىء الأمر بين فراعنة
السلالة الثامنة عشرة والأمراء الشاميين وملوك الهكسوس . ولم تكن دول الشرق
الأدنى فى هذا الطور على جانب من القوة السياسية ، فلم تدخل فى المراحل الأولى
من هذا النزاع الدولى .

(*) يزن « المن » البالى نحو نصف الكيلو غرام .

فالمملوك السكشيون في البلاد البالية كانوا ضعفاء، ولعل ذلك ما جعلهم يلتزمون الحياد ويركنون إلى صداقة الملوك الفراعنة على الدوام تقريباً^(٣٢) وكان الآشوريون في بدء قوتهم السياسية يتربصون الفرص ويرقبون ذلك النزاع . ولم يلجأ الحثيون في بادئ الأمر إلى النزاع المباشر مع ملوك مصر ، ولسكنهم كانوا في الوقت نفسه يتحينون الفرص المواتية للدخول في النزاع المسلح . وقد جاءت الأحوال المناسبة في نهاية حكم (أمنوفس) الثالث (في حدود ١٣٩٠)^(*) حيث خلفه أمنوفس الرابع (أخناتون) الذي شغلته ثورته الدينية عن شؤون الملك في الداخل وفي الخارج . ولكن جاء إلى العرش الحثي ملك هو (شوبيلوليوما)^(†) كان على جانب كبير من المقدرة والدهاء . ومن الأمور الطريفة في سير العلاقات نشوء دولة في الشرق الأدنى تدعى (ميتاني) عرفها المصريون باسم (نهارين) بشمال العراق وجنوب سورية كانت بمثابة دولة حاضرة ومفتاح النزاع والنافس بين مصر والحثيين على بلاد الشام . وانضم إلى الدول المتنافسة الآشوريون الذين كانوا يخشون الدولة « الميتانية » في جوارهم . وقد رأت مصر نجاه خطر الحثيين والآشوريين أن تكسب صداقة هذه الدولة ، فكانت بين الطرفين مصاهرات سياسية . ولكن ذلك لم يخلص الميتانيين من تدخل الحثيين والآشوريين ، ففرض الحثيون أولاً حمايتهم على (ميتاني) بعد انقسام في البيت المالكي فيها ، ثم قضى عليها الآشوريون عندما صفا لهم الجو السياسي بعد الحثيين .

وقد بدأ الملك الحثي « شوبيلوليوما » نزاعه مع الفراعنة على السيادة بآثاره المعارضين من أمراء سورية ، ثم بدأت بين الطرفين حروب ومعارك دامت زهاء القرن الواحد^(§) آخرها المعركة المشهورة في (قاديشا) بين رعمسيس الثاني والحثيين مع أحلافهم من الأمراء السوريين . وبالرغم من أن المعركة لم تكن حاسمة فإن الإعياء الذي أصاب

(*) أو ١٣٨٠ .

(†) ويدعى Septel في المصادر الهيروغليفية .

(§) منذ مجيء شوبيلوليوما إلى الحكم في حدود ١٣٨٠ حتى إبرام المعاهدة الحثية المصرية في حدود ١٢٧٨ ق. م .

الجانبيين وخوف الحثيين من الخطر الآشوري الذي دهمهم في زمن (شيلمنصر) الأول^(٣٤) كل ذلك عمل على وقف النزاع المسلح وعقد معاهدة بين رعمسيس الثاني والملك الحثي (حاتوسيل) في حدود ١٢٧٨ ق. م.⁽⁺⁾ تنطوى على إحلال الصداقة وعدم الاعتداء بين المصريين والحثيين، وقد تزوج على أثرها الفرعون المصري بأميرة حثية^(٣٥). وكان من نتائج وقف النزاع بين مصر والمملكة الحثية عود العلاقات المصرية السورية إلى السلم، فسكان فترة هدوء وسلام في الشرق الأدنى عادت فيها العلاقات التجارية، وازدهرت المدن الفينيقية من جديد.

ولكن لم يدم هذا السلم أمداً طويلاً، إذ حل اضطراب جديد في أقطار الشرق الأدنى، كان مبعثه من الخارج، بنتائج هجرات الأقوام (الهندية — الأوربية) التي أزاحت موجات أخرى من الأقوام ودفعت بهم إلى أقطار الشرق الأدنى. فقد أزاحت القبائل الإغريقية الإيحيين من مواطنهم واندفعت فلولهم إلى الشرق الأدنى إلى سورية وفلسطين، فغزت بعض المدن الفينيقية في الساحل مثل « جيل » (وأوغاريت) وهددت قسم منها الحدود المصرية، مما اضطر رعمسيس الثالث إلى الاشتباك معهم بمعارك برية وبحرية لدرء الخطر عن أبواب مصر. وكان من النتائج الخطيرة لتلك الهجرات تحطيم المملكة الحثية وإزالتها من الوجود في (حدود ١٢٠٠ ق. م) وتمكن قسم من فلول الإيحيين وهم الفلسطينيون المشهورون في العهد القديم من تأسيس دويلات في بعض مدن الشام الساحلية كغزة وعسقلون وأشدود وغيرها.

ومما زاد في اضطراب الأحوال في حدود هذا الزمن هجرات أخرى من البشر^(*) من الأقوام السامية وهم الأرميون والعبرانيون^(٣٦) وقد بدأ الأرميون يثبتون أقدامهم في ربوع الشرق الأدنى، ودخلوا في نزاع رهيب عنيف مع الآشوريين شغل القرنين الحادى عشر والعاشر، وقد كاد يقضى على كيان الآشوريين.

(+) أو ١٢٧٢ ق. م.

Völkerwanderung (*)

وإلى هنا نكون قد بدأنا في الفصل الثاني من طور الصلات بين أقطار الشرق الأدنى ، وقد سبق أن عنواننا هذا الفصل بأنه يبدأ بزوال الأمبراطورية المصرية في عهد السلالة الواحدة والعشرين (في حدود ١٠٩٠ ق . م)^(٣٧) . وقد صفا الجؤ للآشوريين الذين بدأوا بتعاظمهم الحربى وفرض سيطرتهم على الشرق الأدنى منذ القرن الثالث عشر ق . م^(٣٨) ولم يتصد لتجديدهم من شعوب العالم القديم إلا الأرميون الذين ألفوا دويلات ومدنا مزدهرة في شمال العراق وسورية وهددوا كيان الآشوريين تهدبداً خطيراً فكانت حروب طاحنة دامت طوال القرن الحادى عشر والعاشر . ولم يستطع الآشوريون برغم جهازهم الحربى الرهيب كسر مقاومة الدويلات السورية إلا في النصف الثانى من القرن الثامن ق . م ، وكان من جملة تلك الحوادث القضاء على مملكة إسرائيل في العام ٧٢١ ق . م .

أما المملكة المصرية فاتها بالرغم من الضعف الذى حل فيها وانكماشها في داخل بلادها لم تنفض يديها من مشاكل الشرق الأدنى بالمرة ، فقد كانت تلتزم جانب الدويلات السورية في جميع أطوار النزاع بينها وبين الآشوريين . فالى إرسالها الحيوش في بعض الأحيان لمساعدة هذه الدويلات في مقاومتها للآشوريين كانت كثيراً ما تحرصها على الثورة للتخلص من الحكم الآشورى القاسى ، مما حدا بالآشوريين في آخر عهدهم إلى الركون إلى مغامرة حرية هي غزو مصر في زمن أسرحدون وأشوربانيبال في القرن السابع ق . م في زمن السلالة الخامسة والعشرين . وبالرغم من أن هذا الغزو لم يحقق غاية الآشوريين من إدماج مصر في الأمبراطورية الآشورية فإن مجرى الحوادث يشير إلى تكوين طور جديد في العلاقات المصرية الآشورية يتميز بنوع من الصداقة ، ولا سيما في أواخر أيام الآشوريين ، إذ نجدتنا التاريخ أن بعض فراعنة مصر (من السلالة السادسة والعشرين)^(٣٩) قد ساعدوا الآشوريين في حروبهم مع الكلدانيين والمأذيين ، ولكن ذلك لم يخلص نينوى من المصير المحتوم وتحقيق نبوءة النبي (ناحوم) فيها في عام ٦١٢ ق . م^(٣٩) .

(٣) الملك « نينوى » (٦٠٩ — ٥٩٣ ق . م .)

وبحلول البابليين محل الآشوريين في العهد البابلي الحديث ^(٤٠) نكون قد وصلنا إلى نهاية القصة في تاريخ الشرق الأدنى . وإن هذه النهاية لا تخلو من علاقات طريفة بين العراق والبلاد الأخرى . فقد اتصل نبوخذ نصر الثاني بـ « نيكخو » (ثاني ملوك السلالة السادسة والعشرين) بحرب حاسمة في كركيش (جربلس) أنهت التنافس بين الطرفين حول اقتسام أملاك الدولة الآشورية ^(٤١) وصارت سورية وفلسطين تحت تأثير الامبراطورية الكلدانية . وبالرغم من اندحار نيكخو في كركيش لم يتدخل ملوك السلالة السادسة والعشرين بالمرّة عن شؤون سورية ولا سبياً فلسطين . فقد حرضوا مملكة يهوذا على الثورة ، وقد ساعد الفرعون أفربز صدقيا بالحيش ، ولكن ذلك لم ينفذ أورشليم ، حيث قضى نبوخذ نصر الثاني على دولة يهوذا ، كما قضى الآشوريون على مملكة إسرائيل من قبل .

ولم تقطع علاقات بابل بجزيرة العرب في هذا العهد ، وقد سبق أن اتسعت علاقات العرب مع الآشوريين ، وورد ذكر اسم العرب أول مرة في عهد شيلمنصر الثالث ، وجاء ذكر التموديين في أخبار سرجون الثاني ^(٤٢) ومن الأخبار الطريفة في عهد الدولة الكلدانية (العهد البابلي الحديث) أن « نونهد » آخر ملوك البابليين قد اتخذ واحة (تيماء) منزها له بعد أن قهر أميرها . وكان هذا الملك الذي شغف بالتاريخ والتنقيب عن آثار الماضي يقيم في تيماء عند ما هجم الفرس على بابل ، وكان ابنه (يياشاصر) يقود الحيش ^(٤٣) .

التعليقات

(١) ولاسيما المدرسة الانكليزية القائمة بمبدأ « الانتشار التاريخي » في تفسير نشوء الحضارات (British School of Diffusionism) لاحظ نقد آراء هذه المدرسة وتقنيدها في : Toynbee, *A study of History*, Vol. I & III

(٢) انظر المصدر نفسه (Vol. I). أما الحضارات الأصلية الأخرى الى الحضارتين السمرية والمصرية فهي بحسب رأى المؤلف : الصينية ، والأندية ، والمنوية ، وحضارة المايا .

وراجع المصدر نفسه حول الأسباب التي حفزت الانسان الأول على الانتقال من الأطوار البدائية الى طور الحضارة فينشئ الحضارات الست الأصلية . وبوسع الباحث أن يضيف احتمالاً جديداً حول أصل الحضارتين السمرية والمصرية بفرض أن كليهما اشتقت من أصل مشترك يمثل في الشرق الأدنى طور الفخار المصبوغ الذي شاع في جميع أنحاء الشرق الأدنى في نهاية العصر الحجري المتأخر فيما يسمى بطور الـ (Chaleolithic) .

(٣) وقد سميت هذه الأطوار بأسماء المواقع التي وجدت فيها الآثار الخاصة بتلك الأطوار وقد تسمى في كل من مصر والعراق بعصور ما قبل التاريخ أو ما قبل السلالات . وتدعى أطوارها في مصر : « البدارى » ، « الأمراشي » ، « الجرزي » ، « السميني » (نقادة ٣) . وفي سورية في العرق (D و E) ووجدت آثارها في رأس شمرة وفي الجديدة وأرجبا . وفي العراق الأطوار التالية : « حسونة . سامراء . حلف . العبيد » .

(٤) للوقوف على هذه الآثار ودرسها انظر المراجع الآتية :

1. Childe. *New Light on the Most Ancient East* (1934), 106, 120 ff.
2. Frankfort, *Studies*, I, 118 f.
3. Scharff in *Zeit. für ägyptische Sprache und Altertumskunde* (1935), 89 ff. quoted by Jacobsen, *The Sumerian King-List*, p. 189
4. *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. VIII, 252 ff.

(٥) الطور « السميني » (نقادة ٣) الذي يعلم بالتسلسل التاريخي : (S. D. 63-80) ومن الجانب العراقي تعود أقدم هذه الآثار الى منتصف عصر الورطاء . واستمر وجود التأثيرات السمرية في الحضارة المصرية الى طور « جمدة نصر » الذي يقابل عهد سلالة « منا » والى القسم الثاني من عصر فجر السلالات (Jacobsen *The Sumerian King-List* p. 189) وأبرز الآثار التي تعود الى طور « نقادة ٣ » : مقبض السكين العاج الذي وجد في جبل « العرق » وبعض الآثار التي وجدت في القبر المزوق في « هيراكونبوليس » ومن بينها نوع من القوارب الغريبة تن السفن المصرية ولسكنها من القوارب السمرية . وصور على مقبض السكين السائف الذكر بعض الحيوانات الخاصة بالعراق كالكلب . وفي مقبض السكين وفي قبر « هيراكونبوليس » صور مشهد خاس بالفن السمرى وهو بطل يصارع أسدين . ومن صور الحيوانات الغريبة التي ظهرت في نهاية عصر ما قبل السلالات الأسود والفردة والعقارب وقد مثلت بأطرزة الفن السمرى . وتحت تماثيل الأسود وصورته في أولى أطوار الفن المصري هيثة تبدو فيها فغرة الأفواء على طراز الأسد البابلي و « السومى » .

وقد استمر هذا الطراز في العراق في جميع العهود ولكنه ترك في الأقطار التالية من الفن المصري .

(Childe. *ibid.* , p. 124 and n. 16, referring to the *Journal of Egyptian Archaeology*, VIII, p. 252.

Childe, *ibid.* , 124 ff. (٦) لزيادة الأمانة ووصفها راجع :

(٧) انظر المراجع الآتية :

1. Childe, *ibid.*, p. 127.

2. Alan Gardner in the *Legacy of Egypt*, p. 72.

3. Wilson in the *Intellectual Adventure of Ancient Man*, p. 95.

Reallexikon der Assyriologie, I, p. 64, referring to *The Cambridge Ancient History* (192), I, 577 ff. (٨) راجع :

Thur.- Danguin, *Die Sumerischen und Akkadischen Königsinschriften* . (٩) راجع أخبار « لوكال زاكيزي » في «
Akadischen Königsinschriften» .

Childe, *o. p. ct.*, pp, 286 - 7 referring to S. Smith, *Early History of Assyria*, p. 83 . (١٠) راجع :

(١١) وهذه المناسبة تذكر القصة الطريفة المعنونة « بطل الحرب » التي وجدت في أحد البيوت في تل العمرة ، وهي مدونة باللغة الأكديّة وأخط المسباري .
(S. Smith, *ibid.*, 83 ff.

(١٢) بلغت حملات « مرجون » و« نرام — سن » في البلاد الشامية الى جيبيل و(Yarimuta) جنوب جيبيل (S. Smith. *Alalakh and Chronology*, p. 32) .

Thur. - Danguin, *op. ct.*, (1907) , pp. 166-167 Statue A (١٣) راجع :
أما عن « دلون » وتعيينها بمنطقة البحرين فراجع :

P. B. Cornawall, "on the Location of Dilmun" in *Basor*, No, 103 (1946), 3 ff .

Hitti, *History of the Arabs* (Third ed. 1943), p. 36. وكذلك :

Childe, *o. p. ct.*, p. 289, referring to Conteneau, *Manual*, III p. 116.2 (١٤)

The Legacy of Egypt (1942/3) p. 26 (١٥) راجع :

ومما يحسن ذكره بهذا الصدد تشابه الأساليب الفنية تشابهاً كبيراً ، حتى ان لوح حجر منحوتاً وجد في خفاجي من عصور فجر السلالات مخروماً وكذلك وجد في ماري كسرة لوح مماثل بلغت فيهما المشابهة أن الكسرة تكمل الجزء المخروم من لوح خفاجي .

Steindorff and Seele, *When Egypt Ruled the East* (Un. of Chicago Press 1945) p. 49 (١٦) راجع :

(١٧) أسفرت البحوث التي تمت في جبيل عن تغافل الحضارة المصرية فيها ، ولكن الى ذلك وجدت بعض العناصر من الحضارة السمرية ، مما يشير الى التقاء الحضارتين وتأثيرها المشترك ، كاستعمال « حجر الأساس » في أسس المعبد المصري الذي وجد هناك (Childe, o. p. et. p. 286) .

(١٨) يرى الأستاذ « توينبي » أن العهد الذي توقفت فيه الحضارة المصرية عن النمو يبدأ بعد السلالة السادسة . ويعبر عن مفهوم توقف النمو بـ Breakdown . وإذا أردت الوقوف على الاعتبارات التي جعلت هذا الباحث يرى الرأي المذكور والأسباب التي يسوقها لتعليل هذه الظاهرة التاريخية فراجع بحثه القيم :

A. J. Toynbee, *A study of History*, Vol IV (1939) .

(١٩) راجع : S. Smith, *Alalakh and Chronology*, p. 34 f. & note 37 . وقد تبين حديثاً أنه يوجد محوراني ثالث عرف بملك « كوردا أو كوردا » وهي اقليم لم يعين بالضبط حتى الآن (ibid) .

(٢٠) حول النفوذ البابلي في البلاد الشامية في عهد السلالة الأولى (البابلية) راجع :
The Legacy of Egypt, p. 29 .

1. S. Smith o. p. et. p. 15, quoting Schäffer, *Ugaritica*, I, 18, note 2. (٢١)
2. Steindorff & Seele, o. p. et., 50-51 .

(٢٢) حول ملخص التنقيبات في « الآلاك » « تل العطشانة » راجع الكراس :

(S. Smith, *Alalakh and Chronology* (1940)

وكانت الآلاك عاصمة دويلة تدعى (Mukish) لا تعرف حدودها وسعتها على وجه التأكد . ولعل الحديقة القريبة من تل العطشانة التي نقت فيها جامعة شيكاغو كانت تابعة لهذه المملكة . وكانت تتاخم مملكة أخرى هي (Tunip) وكثيراً ما قاومت العاصمة « الآلاك » من الحملات الحربية في سهل حلب . ومن المرجح أن « سرحون الأكدي » و « زام — سن » قد مررا بالمدينة في حملتهما على مدينة (Yarimuta) جنوب جبيل (S. Smith, *ibid*, 31 ff. referring to *AJSL*, LV, 81&77)

(٢٣) حول التنقيبات في « أوغاريت » (رأس شمرة) راجع : Schaeffer, *Ugaritica* .

وكذلك S. Smith, *ibid* .

أما عن التنقيبات في تل الحريري (« ماري » أو « مائر ») (١٩٣٦ — ١٩٣٩) فراجع
Albright in *Rasor*, No. 77, 20 ff. و S. Smith, *ibid* وكذلك Syria, vols, XVIII & XIX.

وفيه بحث عن الضوء الذي تلقيه نتائج التنقيبات في ماري على الصلات التاريخية بين أقطار الشرق الأدنى .

(٢٤) نشرت نتائج التنقيب الاستكشافي الذي قام به Thureau-Dangin و Dhorme في Syria, V وقد أقام الكشيون مستعمرات قرب مملكة « خانا » التي كانت عاصمتها « ترقا » (تل عشرة) (راجع S. Smith, *ibid*, p. 23) .

(٢٥) بدأ حوراني عمله في العراق ، وبعد أن قضى على خصمه أخبار « ريم — سن » العيلامي وجهه إلى الفتوح الخارجية ، ومن المرجح أنه بدأ ذلك بغزوة « ماري » في سنته الثانية والثلاثين وقضى على ملك ماري المعاصر « زمرى — لم » (S. Smith, *ibid.*, 22-23) وكان ذلك بعد موت الملك الآشوري « نهمسى — أدد » الأول الذي بسط سلطانه على تلك المملكة .

وقد حالف حوراني البابلي في أول أمره حوراني السورى ملك « يمحذ » الذى خلف « يرم — لم » وقد ساعده هذا بالجيش في حروبه مع « ريم — سن » العيلامي (R. A., XXXV 110) .

(٢٦) لقد عثر حديثاً على كنز من الآثار مخزون في صناديق دفنت تحت معبد مصري في مصر العليا يدل محتوياته على سعة الاتصالات التجارية بين مصر وأقطار الشرق الأدنى ، فمن جملتها اختتام أسطوانية بابلية من حجر الازورد فضة وذهب وأوان حجرية من الصناعة الابجية (The Legacy of Egypt, 29-30) .

(٢٧) لا تزال قضية أصل الهكسوس ومهدم موضع خلاف بين المؤرخين . ولعل أسلم الافتراضات أنهم كانوا قوماً خليطاً يتكلمون لغة سامية . وقد عبدوا الآلهة العاصفة (Suteish) وقد سببت هجرات الأقوام (Völkerwanderung) في هذا العهد إلى الجنوب إلى آسيا الصغرى وسورية وشمال العراق إزاحة السكان في كثير من بقاع الشرق الأدنى ، فسألت الهكسوس إلى سورية وفلسطين (The Legacy of Egypt, p. 33) ويحتمل أنهم أخرجوا من مكان ما في آسيا الصغرى فغزوا سورية وفلسطين وبقوا فيها مدة تأهبوا فيها لغزو مصر . ومن المرجح كثيراً أن جماعات من الساميين التحقوا بهم إبان بقائهم واستعدادهم في البلاد الشامية (ibid., p. 220) وشاركت في غزو مصر . ومما يشير إلى وجود المنصر الآري في مجموعة الهكسوس ما خلفه الهكسوس أنفسهم من ذلك المنصر في سورية وشمال العراق ، كالتأييد ذلك أخبار الأمبراطورية المصرية . راجع حول قضية الهكسوس :

1. E. Meyer, *Geschichte des Altertums* (Second ed.) Vol-II, part. 1, 33-8
2. Toynbee, *A study of History*, II, 136, III, 404 .

أما سبب تسمية « منيشو » المؤرخ الكاهن المصري الذى كتب في حدود ٢٨٠ ق . م . لهم بالفينيقيين أو العرب ، فلهذه يرجع إلى بقائهم في سورية وفلسطين زمنياً ثبتوا فيه سلطانهم هناك قبل فتحهم مصر ، وكذلك لاختلاط كثير من الساميين بهم في غزو مصر في قسم الدلتا منها ، حيث ابتنوا عاصمتهم Avaris كما يروى « منيشو » (راجع 2 note p. 220 The Legacy of Egypt) وقد استمر سلطان الهكسوس في مصر حتى العام ١٥٨٠ ق . م . واختلف في مدة حكمهم في مصر . أما طردهم فقد بدأ بثورة آخر بلاء السلالة السابعة عشرة وتم طردهم وتحرير مصر منهم في بداية السلالة الثامنة عشرة حيث طارد « أحوسه » أول ملوك هذه السلالة ، ولاحقهم إلى جنوب فلسطين . وغزا مدينة « شاروهين » . واستمر غزو القرعنة فلسطين وسورية في عهد خلفاء أحوسه وم : « أمنحوتب الأول » و« طوطمس الأول » وقد تمكن « طوطمس الثالث » (١٥٠٦ — ١٤٦١ ق . م) من القضاء على قوة الهكسوس وقلوبهم نهائياً ، وذلك في معركة كبرى وقعت في « مجدو » (١٤٧٨) (The Legacy of Egypt, p. 221) وإلى ذلك راجع ما يأتي حول قضية الهكسوس :

1. R. M. Engberg, *The Hyksos Reconsidered* (The orient. Instit. S A O C, No. 18) .

2. Steindorff and Keith (C. Seele, *when Egypt Ruled the East* (1945) Chap. III.

(٢٨) شملت الإمبراطورية المصرية ثلاث سلالات ، وهي الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون (١٥٨٥ — ١٠٩٠ ق. م .) . ويستحسن أن يراجع عن الأسباب التي عملت على تكوين الإمبراطورية وأهميتها التاريخية *Cambridge Ancient History*, II وكذلك الدراسات القيمة في Toynbee, *A study of History* .

(٢٩) راجع : Figulla & Weidner, *Keilschrifttexte aus Boghazkoi* :

1. *Cambridge Ancient History*, Vol. II (٣٠) راجع

2. Reallexikon der Assyriologie, I. (Agyptien) .

Meissner, *Babylonien und Assyrien*, II, 285 . (٣١)

1. Knudtzon, *El-Amarna Tafeln* (1915), No-9 . (٣٢) راجع

2. *A Guide to the Babylonian and Assyrian Antiquities* (1922), pp. 126-7

(٣٣) كما يدل على ذلك رسائل العشرة المتبادلة بين الملوك البابليين من السلالة الكشبة (سلالة بابل الثالثة) والفرعونيين المصريين أمنوفس الثالث والرابع (أخنتون) . وهي خمس رسائل بين أمنوفس الثالث و « كدش مان — اتليل » وكذلك الرسائل بين بورتابورياش وأمنوفس الرابع (أخنتون) (راجع ٣٢ — ١) .

(٣٤) ان لجوء الملك الحثي (حتوسيل) الى وقف النزاع المسلح مع المصريين وإبرام معاهدة الصداقة مع رمسيس الثاني في سنته الواحدة والعشرين يدل على ما كان يتصف به الملك الحثي من بعد نظر وفهم صحيح للوضع الدولي في زمنه ، فأدرك أولاً أن انتصار مملكة « ميتاني » (بعد انقضاء البيت الملكي فيها) قد عرض الحدود الحثية الشرقية الى خطر الآشوريين المباشرين ، فنزحوا (شيلعنصر) الأول (١٢٧٦) « ميتاني » واستيلاءه على كثير من الرعايا الحثيين ووصوله الى الفرات الى « كركيش » واخضاع « كبدوكية » و « خنا » بالرغم من مساعدة الحثيين ، كل ذلك جعله يدرك حقيقة الخطر المحدق بالدولة الحثية . فبعد أن جدد صداقته القديمة مع البابليين أبرم المعاهدة المشهورة .

(٣٥) راجع نص المعاهدة في :

1 Langdon and Gardiner, "The Treaty of Alliance Between Hattusil, King of the Hittites and the pharaoh Ramses II of Egypt" in *Journal of Egyptian Archaeology*, VI, 179 ff.

2. *Cambridge ancient History*. II, 149 ff.

(٣٦) لا يعلم بوجه التأكيد تاريخ الخروج الاسرائيلي وهو يدور على الاقتراحات الآتية :
١ — من زمن طرد الهكسوس الى غزوات طوطمس الثالث أي من ١٥٧٠ ق.م . الى ١٥٠٠ ق. م . بوجه التقريب .

٢ — من زمن تدهور السلالة الثامنة عشرة الى عهد سيتي الأول ورعمسيس الثاني أى من ١٤٠٠ الى ١٣٠٠ ق. م. بوجه التقريب .

٣ — بعد نهاية السلالة التاسعة عشرة أى منذ ١٢٠٠ ق. م. فما بعد .

وليس ما يقال في ترجيح أى من هذه الاحتمالات ، لأنه لا توجد دلالة قاطعة تؤيد احداها . ولكن الفرض الأخير أبعدا عن الاحتمال ، والثاني من هذه التواريخ يبدو أرجحها . (أنظر بحث المسألة في *the Legacy of Egypt*, 223 ff. وفيه الاشارات الى المراجع المهمة في ص (223) الهامش رقم (١) .

(٣٧) بدأ التدهور في الامبراطورية المصرية يسيراً سرياً بعد عهد الفرعون (Merneptah) وليس أدل على هذا التدهور وزوال النفوذ المصرى من سورية وفلسطين من القصة الطريفة التى تروى حول « وين — آمون » سفير الفرعون « هاريمور » أو « حاريمور » (١٠٩٠—١٠٨٥ ق. م.) الى جيبيل . ومما يمتاز به هذا العهد توطيد شأن الاسرائيليين وتكوين كيانهم . وقد صارت لهم اليد العليا على أعدائهم الفلسطينيين في عهد شاؤول وداود .

Breasted, *A History of Egypt*, p. 526 quoted by the *The Legacy of Egypt*, pp 224-225.

(٣٨) من الممكن حصر الهجمات العسكرية الآشورية المتتالية التى دوخت الشرق القديم الى أربعة أدوار أو عهود يبدأ الأول منها في الهجمات الحربية المتوالية على الدولة الميتانية والسلالة السكشية في بابل في القرن الرابع عشر ق. م. وكذلك هجمات شيلمنصر الأول على العالم الحثي في العقد الثالث من القرن الثالث عشر عند ما كانت المملكة الحثية على وشك الانهيار بسبب الاعياء الذى أصابها في حرب المائة سنة مع المصريين في عهد الامبراطورية . ويميز العهد الثانى بحروب تجلاتيليزر الأول وتوسع غزواته في سورية الى ساحل البحر المتوسط في نهاية القرن الثانى عشر والحادى عشر ق. م. ويبدأ الدور الثالث بإعادة العمليات الحربية نفسها في زمن آشور ناصربال في سنة ٨٧٦ ق. م. واستمر الى عهد شيلمنصر الثالث الذى قام بعدة حملات لاكمال فتح سورية وقد خمد النشاط الحربي بالتدريج في النصف الثانى من القرن التاسع بعد ما تكس شيلمنصر الثالث في حربه مع الاتحاد السورى في موقعة (القرقر) في ٨٥٣ ق. م. .

أما العهد الرابع فيبدأ باغتياله « تجلاتيليزر » الثالث العرش الآشورى في ٧٤٥ ق. م. واستمر في العنف والتوسع حتى نهاية عهد الآشوريين العسكري في حروبهم مع الماخذيين وأحلامهم من البابليين و « العيينين » في ٦١٤ — ٦١٠ ق. م. .

(Toynbee, *A study of History*, IV, 473, nate 3

(٣٩) انظر *Gadd, The Fall of Nineveh* (1923) و « ناحوم » ٣ : ٨ — ١٠

(٤٠) ورد وصف الموقعة في « جرماية » ٤٦ : ١ — ١٢١ و ٢ ملوك ٢٤ : ٧

(٤١) Hitti, *History of the Arabs* (1943), 36 ff.

(٤٢) Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (1929), 106-7.

المظاهر الفنية في عواصم العراق الإسلامية القديمة

على ضوء الاستكشافات الحديثة

محاضرة السيد بسير يوسف رئيسي

موضوع محاضرتي « المظاهر الفنية في عواصم العراق الإسلامية القديمة على ضوء الاستكشافات الحديثة » وأعني بها اكتشافات مديرية الآثار القديمة في العراق ، التي ظفرت منها بنتيجة أعمال التنقيب والتنظيف في العواصم الإسلامية الأربع المشهورة ، تلك العواصم التي كان لها عظم الأثر وجليل الخطر في تاريخ العرب والإسلام بوجه عام ، وتاريخ العراق بوجه خاص ، وهي بحسب زمن تأسيسها : الكوفة وواسط وبغداد وسامراء ، وقد قصرت البحث على وصف المظاهر الفنية التي أخرجتها لنور تنقيباتها ليس إلا ، لأن ما توصل إليه الأجانب في هذا الشأن معلوم أمره من كتبهم التي يعرفها أصحاب الاختصاص ، وحضراتكم النخبة الطيبة من هؤلاء .

وقد غنيت مديرية الآثار العامة بعد أن تولت إدارتها الأيدي الوطنية باستجلاء ما بطلته خرائب هذه العواصم ، وبالكشف عن بقاياها ، والتعرف بوجود رقيها الفني والعمراني ، بالنظر لأهميتها التاريخية ، ولما هو محتوم عليها من واجب إحياء التراث القومي ودرسه وإذاعته بين الناس ، ولأنها وجدت أن بقايا هذه العواصم قد ظلت مطمورة تحت طيات التراب وأكدا من الانقراض لم تمنحها يد المنقب المحقق ، ما عدا سامراء التي عني بالكشف عنها قبيل الحرب العالمية الأولى المنقبان الألمانيان المشهوران ساره وهرزفد .

ولأبدأ بالكوفة أولى المدن التي أنشأها العرب بعد الفتح في العراق ، وأولى العواصم العربية الإسلامية فيه .

تجميع الأخبار على أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص لما افتتح العراق يأمره أن ينزل بالكوفة ويأمر الناس أن يخططوها ، فأختطت في نحو السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) ، وأن أول ما اختط من المدينة هو المسجد . و يروى البلاذري أن سعداً لما انتهى إلى موضع مسجدها « أمر رجلاً فعلا بهم قبل مهب القبلة فأعلم على موقعه ، ثم علا بهم آخر قبل مهب الشمال وأعلم على موقعه ، ثم علا بهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ، ثم علا بهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه ، ثم وضع مسجدها ودار إمارتها في مقام العالي وما حوله ، ثم اقتطعت الأراضي واختنطت كل قبيلة موضعها . وفي الطبري أن « أول شيء خط بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد . . . » . ولم يبق في جوانب المسجد حين تأسيسه بناء ، ثم زادوا عليه مع الأيام حتى كمل بناؤه في أيام زياد بن أبيه عامل معاوية بن أبي سفيان على العراق ، وكان « قصر الإمارة » يتصل بالمسجد من جهة القبلة .

ويصف ابن جبير الأندلسي في « رحلته » الجامع كما شاهده ، وكان قد زار العراق في سنة ٥٨٠ هـ فيقول : « وهو جامع كبير ، في الجانب القبلي منه خمس أبلطة ، وفي سائر الجوانب بلاطتان ، وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص . . . وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها » .

أما خرائب الكوفة القديمة فنقع اليوم بين الكوفة الحديثة والنجف . وهي تألف من آكام ومرتفعات واسعة الأرجاء ، كثيرة الحفر والأخاديد ، وحينما أقدمت مديرية الآثار العامة على التنقيب فيها سنة ١٩٣٦ ، وجدت الهيئة الموقدة لهذا الغرض أن الحجارين الجشعين وأنحباب المصالح الجاهلين ، قد سبقوهم بعشرات السنين بل مئاتها إلى هذا المكان ، فجعلوه مقالع للآجر ، استخرجوا ما شاء لهم أن يستخرجوا من حجارته ، ويخربوا

ما قدر عليه غيهم من التخریب ، دون أن يردعهم رادع من دين ، أو يثنيهم عن عزيمتهم بقية من ضمير . فطمسوا بذلك — وأأسفاً — معالم عزيم وأضاعوا آثار قومهم وهم لا يعلمون أى إثم يرتكبون ! على أن هذا الوضع المثير لصنوف الأشجان لم يضعف من عزيم الهيئة ، ولم يقل من عضدها ، فعقدت أمرها على الوصول إلى هدفها على قدر ما وسعها من طاقة وحيلة . ولما كان المعروف أن مسجد الكوفة القديم القائم الآن كان قد شيد فوق المسجد الأول ، وأن قصر الإمارة كان يلاصق جداره القبلى ، درست الموضع ورسمت كسوره (الكوتور) واختارت نقاطاً للشروع بعملها ، فوفقت إلى تحديد القصر وتعيين شكل أسواره وأسلوب بناء بعض أجزائه ، وتوصلت إلى الكشف عن الجدار القبلى للمسجد الأول والملاصق للقصر فقط ، لأن التحقق من حدود المسجد أيضاً صعب عليها لقيام الجامع المحدث فوقه ، ولأنه ما زال يصلى فيه .

ولقد تبين أن قصر الإمارة شيد بالآجر المحكم التشكيل والجلص ، وكان مربع الشكل تقريباً ، وأقول تقريباً لأن أبعاده — كما قيس من داخله — كما يأتى : الضلع الشمالية ١٧٠ متراً والجنوبية كذلك والشرقية ١٦٩ متراً والغربية ١٧٢ متراً . وأن معدل نخن الجدار ثلاثة أمتار وستون سنتيمتراً .

وظهر أنه كانت تدعم ثلاثة من أركانه ، وهى : الركن الشمالى الشرقى والركن الجنوبى الشرقى والركن الجنوبى الغربى ، أبراج مستديرة ، طول قطر البرج الواحد منها ٤,٤٠ أمتار ، ماعدا الركن الشمالى الغربى فقد كان بلا برج لملاصقته للضلع القبلى للجامع . وتدعم كل ضلع ، إلا الضلع الشمالية ، ست دعائم نصف دائرية ، معدل قطر الدعامة الواحدة منها ٣,٣٠ أمتار يتساوى بعد بعضها عن بعض . أما الضلع الشمالية فإن جزءاً منها يلاصق جدار الجامع القبلى ، وتمتد بقية شرقاً بعيدة عن حدود الجامع ، وتدعم هذا الجزء الأخير دعامتان على شاكلة الدعائم الأخرى . وفيه على بعد نحو سبعة أمتار من الجدار الشرقى للجامع فتحة المدخل إلى القصر ومقدارها ثلاثة أمتار . ووجد على جانبى المدخل من الخارج دكتان ، ونخن كل ركن من ركنى المدخل ٦,٢٠ أمتار .

وقد نقب في داخل القصر عند الضلع الشمالية ، وعثر على ثلاث غرف في الجهة الشرقية
نُحِن أضلاعها ١٥٠ متر ، وهي مشيدة بالآجر والجص ووجوها مكسوة بكساء من الجص
لحظت في بعض نقاط منه آثار زينة زوقت بأصباغ من اللون الأحمر والأسود والمائي
وغيرها من الألوان التي نصلت ، ولم يكن في المقدور التحقق منها ، وقوام هذه الزخرفة
أشكال هندسية معظمها مربعات ومعينات وأشكال أخرى مألوفة في المباني الإسلامية .

ووجد في الزاوية الشمالية من هذه الضلع ، غرفتان إحداها ذات ثلاثة مداخل
أحدها يؤدي إلى الجدار القبلي للمسجد ، ولعله كان الممر الخاص للأمر ، منه يدخل
لأداء الصلاة . وتدل بعض المعالم الباقية من هذه الغرفة أنها كانت عقادة نصف كروية ،
وقد حفرت أيضاً بعض الآكام في وسط القصر ، وعثر على مجموعة من غرف وممرات
يظهر من شكلها ومواد بنائها أنها لا تعود إلى دور البناء الأول .

ولم يكشف من القصر أكثر مما وصفنا لشدة التخريب فيه من جراء اقتلاع الطابوق
في الأزمنة الأخيرة ، كما سبق أن بينته ، إذ وجد في بعض الأماكن من القصر أن المجرمين
قد سطوا حتى على آخر ساف من أسسه ، وبهذا لم تتسن معرفة مداخله وطرز ريازته
وشكل نقوشه وزخارفه .

وكانت المواد المستعملة في البناء تتألف من الآجر الكبير الحجم المحكم التشكيل ،
ويغلب فيه اللون الأحمر القليل الطبخ مع جص ، وكانت الجدران غير متعاشقة البناء
بعضها مع بعض في الأركان ، على الضد من الأبراج والدعامات فانها متعاشقة البناء مع الجدران .

ومع أنه لم يتسن العمل في الجامع ، لما أوتخته قبلا من أسباب ، فإن بالإمكان
القول استناداً إلى الأخبار التاريخية ، أنه يشبه في تخطيطه جامع الحجاج في واسط ،
إذ الماثور أن الحجاج بنى جامعاً على غرار جامع الكوفة ، وبما أن مديرية الآثار العامة
قد وفقت إلى وضع تخطيط واف عن جامع الحجاج ، كما سأ بينه فيما بعد ، فبالوسع أن نستنتج
شكل جامع الكوفة من هذا التخطيط . ولا يفوتني أن أذكر بهذه المناسبة أن في صحن
مسجد الكوفة الحالي سرداباً يعرف اليوم باسم « السفينة » وينزل إليه بدرج ، تعلوه

عقادة ، تقضى إلى ساحة مكشوفة مشنة الأضلاع ، تعلو جدرانها إلى مافوق أرض المسجد الحالى قليلا ، وفى كل ضلع من هذه الأضلاع إيوان ، واثنان من هذه الأواوين الثمانية ينفذان إلى دهليزين ، يفضيان إلى سردابين مسقوفين ، ترى بعض زخارف آجرية على سقف أحدهما وعلى جدران الآخر .

وبلاحظ أن لهذا السرداب فروعا أخرى قد سدت بجائط فى الأزمنة الأخيرة ، مما يدل على أنه لا ينتهى بهذه الحدود ، ويرى بعضهم أن السرداب المذكور وتفرعاته من بقايا بناء الجامع القديم .

ولندع الكوفة بعد هذا ، لننتقل إلى واسط عاصمة الحجاج بن يوسف الثقفى عامل الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق . فإن الحجاج وجد أن الأصلح له ولإدارة البلاد الانتقال من الكوفة ، واتخاذ عاصمة جديدة يكون فيها مقر جنده من أهل الشام ، وكانوا صفوة من يعتمد عليهم . فأسس مدينة واسط فى وسط العراق . وإن معظم المؤرخين وبينهم البلاذرى والطبرى والسمعانى وياقوت والقزوينى فى آثار البلدان ، مجمعون على أن الحجاج أسس عاصمته سنة ٨٣ هـ (٧٠٣ م) أو ٨٤ هـ (٧٠٤ م) وأنه انتهى من إنشائها سنة ٨٦ هـ ، إلا بحشل وهو أسلم بن سهل الرزاز المتوفى فى حدود سنة ٢٨٨ هـ (٩٠١ م) ابن واسط ومؤلف تاريخها (مخطوط فى المكتبة التيمورية فى دار الكتب المصرية ونسخته المصورة فى خزانة كتب المتحف العراقى) فإنه يجعل تأسيسها سنة ٧٥ هـ (٦٩٤ م) والانهاء من بنائها فى سنة ٧٨ هـ . وقد أُنفق الحجاج على بناء المسجد الجامع والقصر والسور فى الجانب الغربى من واسط نحو ثلاثة وأربعين مليون درهم . وكانت واسط على جانبي دجلة ، وكان فى الجانب الشرقى قبل مجيء الحجاج بلدة ساسانية يسكنها الفرس وغيرهم تدعى كسكر . ولما توفى الحجاج فى سنة ٩٥ هـ دفن فى واسط كما يقول ابن خلكان .

وظلت واسط عاصمة العراق طوال العهد الأموى ، ثم بدأ عزها بالانقراض بمجيء العباسيين ، وما حل القرن الثانى عشر للهجرة حتى هجرها الناس هجراناً تاماً ، لتحول بحرى

دجلة إلى مجراه الحالي ، فصارت خراباً ، وتعرف خرائب واسط اليوم باسم المنارة ، لأن منارة قديمة لا تزال قائمة في الجانب الشرقي منها . وأطلال هذه المدينة الدارسة واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ممتدة على جانبي عقيق دجلة القديم المعروف اليوم بالدجيلية ، وتعلو آكامها في بعض جهاتها نحو ١٥ متراً وتنتشر بقاياها في أرض مساحتها ثلاثة كيلومترات مربعة ، وتقع على بعد نحو ٢٥ كيلو متراً عن جنوب شرقي الحى في جنوب الكوت .

وقد أظهرت تنقيبات مديرية الآثار العامة العراقية التي استمرت ستة مواسم منذ سنة ١٩٣٦ ، من جملة ما أظهرت ، جامع الحجاج وقصره ذا القبة الخضراء التي كانت ترى من قم الصلح ، على سبعة فراسخ من شمالها أي ٣٥ كيلومتراً ، وعثر فوق هذا الجامع على ثلاثة مساجد جامعة أخرى ، ولم يبق من الأول والقصر غير بقايا الأسس والسواري وأجزاء صغيرة من الجدران ، إذ الظاهر أن من شيدوا الجوامع التي أعقبته استعملوا في بنائها نقض الجامع الذي قبله ، وكانت البقايا المكتشفة كافية للاستدلال بها على أبعاد الجامع وعدد بلاطاته وأروقته . فالجامع مربع الشكل ذرعه ١٠٣×١٠٣ من الأمتار ، وجدرانه ثخينة تناهز المترين ونصف المتر ، مشيدة بحص وأجر أصفر اللون صلب بحكم التشكيل ، وفي مصلى الجامع خمسة أروقة يتألف كل منها من تسع عشرة بلاطة ، وفي مؤخره رواق من تسع عشرة بلاطة أيضاً ، وفي كل من جانبيه رواق واحد فيه ثلاث عشرة بلاطة . ويلاصق الجامع في جهته القبيلة قصر الحجاج ، الذي أظهرت الحفريات قسمه القريب من الجامع بوساطة أنفاق بقيت في النقض إلى عمق ثمانية أمتار ، وكان يقوم عند تقاطع أسس البلاطات مع أسس أروقة المصلى ، سوار مؤلفة من قطع الحجارة الرملية ، وبعض هذه السواري ساقط في مكانه ، ويلاحظ فيما هو موجود أن قطع السارية الواحدة كانت موضوعة قطعة على قطعة ، تصل بينها أصابع الحديد ، وما اكتشف منها هنا يشبه ما وجد في الجامع الثالث ، مما يؤكد أنه قد استعمل في هذا الجامع سواري الجامع الذي قبله . ولكنه كان استعمالاً مهوشاً ، إذ لم يؤخذ بنظام الزخرفة الكامل الذي تؤلفه قطع كل سارية فضاء انسجامها ، مما دعا القوم إلى إكسائها طبقة من الجص . ويختلف حجم هذه القطع ، فطول قطرها بين ١١ و ٩٥ سم . ومن الصعب معرفة طراز النقش معرفة دقيقة ،

على أن هناك بعض القطع كانت زخرفته بارزة وأرضيته محفورة ، وقوام الزخرفة غصن كرمة متموج بتشابك ورقها مع خيوطها ، وكذلك أزهار وعناقيد وغيرها ذات سطح مقنى تنتهى فيه القنوات بنطاق مزخرف يغلب أن يمثل زخرفة نباتية أو نجومياً أو أزهاراً أو نصف كرات . وكانت الجدران والأسس مبنية بالآجر والجص .

وقد شيد الجامع الثانى فوق الأول ، ولا يختلف عنه فى جملة تخطيطه إلا أن قبلته قد حولت نحو الجنوب بزاوية مقدارها ٣٤° عن قبلة الجامع الأول (أى من الاتجاه ٥١° بالاتجاه الجنوبي الغربى إلى ١٧° بالاتجاه نفسه) وأما الجامع الثالث فإنه مثل ما قبله ، ولكن الظاهر فيه ، أن أضلاعه الأربع يدعمها من الخارج اثنا عشر برجا أو دعامة ، أربعة منها على هيئة ثلاثة أرباع الدائرة فى الأركان ، والبقية بشكل نصف دائرة . وفى وجهته ثلاثة أبواب وفى كل من جانبيه أربعة . وثمة باب ضيق بالقرب من المحراب ، وشكل هذا المحراب سداسى يقع فى وسط الجدار القبلى . وقد عثر على قطعة أسطوانية فى هذا الجامع كتابتها :

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا آخر أسطوانة عملوها
الواسطيين فى هذا الرواق
وبالله

وقد اكتشف ، فى مكان آخر من واسط ، مئات من دمي الطين يعود زمنها إلى القرن السابع ، وهى الحانية ، أو بعد هذا الدور بقليل ، ومعظمها يمثل فرساناً وعازفين وراقصات وآلات طرب وطيوراً .

وتشبه وجوه هذه الدمي ما يوجد من الصور فى فخار البروتين الذى كثر استعماله فى منطقة الموصل فى القرن السابع أيضاً ، وتشبه كذلك ما بقى من صور زخرفية فى قصر بدر الدين لؤلؤ فى الموصل ، ومحراب سنجار فى متحف بغداد ، وكلها من القرن نفسه . أما المواد الفخارية والخزفية فإنها كثيرة كثرة هائلة فى واسط ، وبين الفخار صحنون

وجرار طيتها وردية ناعمة ومزخرفة بأشكال هندسية باللون الأحمر ، وبعضها مطعم بقطع
اللازورد والشذر ، ومعظمها من القرن الثامن ، ووجدت في طبقات أقدم زمنا كسر
من الفخار المختوم .

ونكتفي بهذا المقدار في وصف ما أنتجته التنقيبات في هذا الموقع من ظواهر فنية
لم تكن قد رأت النور قبلا ، فترك واسطاً ونقصد بغداد مدينة السلام عاصمة بني العباس ،
التي أسسها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة ١٤٥ هـ وأتم بناءها سنة ١٤٩ هـ ، وكانت
مدورة يطيف بها سوران ، وفي وسطها بني المنصور قصره المعروف بقصر الذهب والمسجد
الجامع ، وأقام حول ذلك سوراً ثالثاً ، ثم اتسعت في زمنه وفي زمن خلفائه ، وامتدت
خارج الأسوار ، ثم إلى الجانب الشرقي .

ولم يبق الخلفاء ولا ولاية عهودهم أو وزراءهم وقوادهم وكبار القوم في بغداد شيئاً
سمعوا بحجالة وحسنه وإبداعه إلا أدخلوه في القصور التي شيدوها أو المساجد والمدارس
والمارستانات التي أنشأوها . ولكن أين تلك البدائع ؟ أين مدينة المنصور بحجالتها وقصرها
وأسوارها ؟ أين قصور الرصافة ؟ وأين تلك المنشآت التي تحفل بوصفها كتب التاريخ
والبلدان والأدب وغيرها مما يعد بالعمرات ؟

إن بغداد في الواقع من أحسن الأمثلة التي تضرب عن تغير المدن ، وعن أثر
العوامل الطبيعية والبشرية في زوال العمران واندراس الآثار ، فلقد تضافرت على بغداد
كوارث الطبيعة ويد الإنسان ، فقضت على أبنيتها وذهبت بحجالتها . فإن طغيان دجلة
في كثير من السنين ويران الحرائق وما أحدثته الحروب والفتن من تدمير وتخريب ،
كل ذلك أزال الآثار ببغداد وطمس معالمها وأضاع خططها ، ولم يسلم من تلك القصور
الشاهقة والمباني الفخمة والمساجد الجامعة والمدارس الحافلة ، إلا قليل من المباني العباسية ،
من ذلك : المدرسة المستنصرية والبنية المعروفة بـ « القصر العباسي » وعدد من المآذن
والأضرحة وباب الظفرية في سور بغداد المعروف الآن بالباب الوسطاني ، بل إن هذا الذي

سلم من أبنيتها كان منها مقسماً بين الإهمال والأطماع ، مما زاد في تصدع جوانبه وتشويه بنيانه وضباع بعض أقسامه ، ولكن ما بقي من أجزائه خير دليل على ما وصلت إليه الرياسة في ذلك العصر الزاهر من رقي ، وعلى بلوغ أبناء العراق شأواً عالياً في الفن والصناعة ، ولا سيما في الرياسة والزخرفة والنقش وما إلى ذلك .

ودارت الأيام دورتها ، وآلت الأمور إلى أبناء البلاد ، وتسلمت الأيدي الوطنية إدارة شؤون الآثار ، فما كان منها إلا أن بادرت إلى بذل ما في وسعها من جهد ونشاط لإنقاذ البقية الباقية من مآثر الأجداد في بغداد ، والحفاظة على ما سلم من معالم رقيهم الفني والعمراني ، فوضعت لها خطة تسير على منوالها في ترميم المباني التاريخية المتصدعة ، وإحياء المهجور منها ، وإخراجها للأناظر بثوب قشيب ومظهر قريب من حالتها الأولى .

وعلى هذا ، بدأ العمل في صيانة « القصر العباسي » في قلعة بغداد ، والباب الوسطاني القريب من ضريح الشيخ عمر السهروردي والمدرسة المستنصرية . وكانت هذه المباني التاريخية ، قبل أن تعمل فيها يد التنظيف والترميم ، قد أخذ منها الدمار كل مأخذ ، بسبب الإهمال الشنيع طوال القرون الستة الأخيرة . فآلى ما أصابها من تخريب بفعل العوامل الطبيعية لم تنج من يد الإنسان المدمرة ، فقد قلعت بعض جدرانها ، وأحدثت جدران غيرها جديدة ، وسدت مداخل وأبواب وفتحت أخرى بدلا منها ، إذ أن هذه المباني استخدمت في الأدوار الأخيرة لأغراض حكومية مختلفة . فكانت مهمة إنقاذها ، على هذا ، شاقة صعبة ، والهدف عسير المنال ، والأمر يتطلب جهداً كبيراً قد يخف أمامه الجهد الذي أقام هذه المباني ، والعناء الذي تطلبه تحقيق إنشائها . ومع ذلك أقدمت دائرة الآثار العراقية على العمل بقلب عامر بالإيمان ، وبخطة يدعمها العلم والفن . فبدأت أول ما بدأت بالقصر العباسي في سنة ١٩٣٥ ثم في الباب الوسطاني في سنة ١٩٣٨ وأخيراً في المدرسة المستنصرية في سنة ١٩٤٦ .

وكانت أول خطوة خطتها في هذا السبيل ، نقل الأنقاض ثم رفع الإضافات الحديثة التي لا تمت بصلة إلى البناية الأصلية ، وأعقب ذلك الشروع بالترميم والصيانة .

وهي ما زالت مولىة عنايتها بهذه المباني دون انقطاع ، وسيدى هذا شأنها حتى يتم لها النجاح التام فى تعميرها وإحيائها .

إن زمن هذه المباني يرقى إلى أواخر عهد الدولة العباسية ، فالقصر العباسى والباب الوسطانى ، وهو الذى كان يسمى باب الظفرية ، من أبنية المائة السادسة من عهد الخليفة الناصر لدين الله ، والمدرسة المستنصرية من مباني النصف الأول من المائة السابعة ، فقد شرع الخليفة المستنصر بالله ببنائها فى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧م) وتكملت فى سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣م) فبين هذه وتلك نصف قرن أو يزيد . وفى ذكر هذه الحقيقة فائدة مهمة لمعرفة مميزات الرياسة فى ذلك العهد مما بقى من مظاهرها الفنية .

إن هذه المباني مشيدة كلها بالآجر المحكم التشكيل والجص ، وسقوف غرفها وحجراتها وأروقها معقودة كذلك بهما .

وتشترك المدرسة المستنصرية والقصر العباسى بوجود إيوان أو أكثر واسع الفتحة وعلوه يعادل علو طبقى البنايتين ، تزين معظم أجزائه زخارف جميلة التكوين رائعة المظهر . إن الزخارف التى تزين هاتين البنايتين ، ولا سيما القصر العباسى ، لا يمكن وصفها بالكلمات لدقة صنعها وروعة منظرها وتنوع أشكالها وانسجام تنسيقها وبداعة تركيبها وترتيبها ، وكلها مصنوعة من الآجر ، بخلاف زخارف سامراء المصنوعة من الجص ، والى هى من المائة الثالثة .

وتوجد هذه الزخارف فى معظم أجزاء البناية ، فهى تزين عقادات الأروقة والأواوين وأركانها وأقواسها وبعض أقسام جدرانها .

ويتكون نظام هذه الزخارف ، من تلاصق قطع متعددة من الآجر ، مختلفة الأشكال والحجوم ، كل قطعة منها منقوشة نقشا دقيقا على غرار حفر النقوش فى المعبدن أو الخشب ، وهذه القطع المتنوعة شكلا ونقشا وزخرفة ، مركبة تركيبا دقيقا ، كل واحدة تلاصق الأخرى ، بحيث تألف من مجموعها منظر رائع جميل أخاذ ، يريح العين ويعجب النفس ويخلق بخيال المرء إلى آفاق واسعة . . . إنه لشعر منظوم من قطع الآجر المهندمة ، أو حديقة غناء متنوعة الأزهار والورود تحلت بها الجدران .

تتألف نقوش هذه الزخارف من أنواع ، منها الهندسية ومنها الزهرية ، وفيها المنقوش على سطح مستو أو على سطح مقعر قليلا أو محدب قليلا ، وبينها البارز وبينها الواطئ .

ويتشابه القصر العباسي والمدرسة المستنصرية بتخطيط بنائهما ، والتخطيط يتألف من صحن مستطيل أو مربع في الوسط تحف به الأواوين والغرف والحجرات ، وأبوابها مفتوحة على الصحن وأمامها أروقة متصلة البناء .

ومما تثلت به المدرسة المستنصرية ، الكتابات التذكارية بعضها تزوِّقه زينة نباتية ، وهذه الكتابات كانت في أعلى باب المدرسة في جهتها الشرقية أو في الجهة المطلّة على النهر ومكتوبة بخط الثلث الكبير الجميل ، وتتألف من قطع الآجر المهندم ، وكل قطعة تلاصق أختها ، وقد يتكون الحرف الواحد من قطعتين أو أكثر من الآجر أعلى سطحها من قطع الأرضية المزخرفة . أما القصر العباسي فلم يعثر على أية كتابة في أى قسم بقي قائما منه ، سوى قطعة آجر مكسورة كتب عليها بين زخارف زهرية « ذلك في . . . » .

وقد تركت ذكر تاريخ هذه البنايات ووصف مرافقها وتخطيطها وصفا مسهبا ، نجبا لتطويل لا يمكنني منه الوقت المحدد ، وأحيل من أراد التوسع في هذا الباب إلى أعداد مجلة « سومر » الفاتنة ، ففيها ما يغنى عن المزيد .

* * *

أما « سر من رأى » أو سامراء العباسية ، فقصتها عجيبية فذة في بابها ، ومن أغرب وأمتع قصص المدن في التاريخ ، فقد أسسها الخليفة المعتصم بالله ثامن الخلفاء العباسيين سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) بعد نقله عاصمة الخلافة من بغداد إليها ، وتوسعت وازدهرت ازدهاراً عظيماً ، ولاسيما في أيام المتوكل . لكن سرعان ما هجرها الخليفة المعتمد عائداً إلى بغداد ففقدت مركزها ، وقل أهلها ، وذهبت مكائدها ، فصارت قرية صغيرة بعد أن امتدت خمسة وثلاثين كيلو مترا على ضفة نهر دجلة بأقل من نصف قرن .

غير أن سامراء إذا كان أمرها قد انتهى يمثل هذه المسألة ، فلها اشتهرت بحال قصورها ، وسعة مساجدها ، وبداعة زخارفها ، على قصر عمرها . وكنت أود لو أسعفتني الوقت للتفصيل في ذلك ، ولكنني أجتزئ القول فيها لكثرة ما نشر عن مبانيها وزخارفها ونقارها وزجاجها وبقيّة آثارها ، فأذكر كلمة عن منارتها العلويتين : الأولى في جامع الجمعة والثانية في جامع أبي دلف . إذ أن دائرة الآثار القديمة العراقية قد عيّنت بترميمهما ورفع الأنقاض التي كانت قد دفنت قاعدتيهما المربعتين ، وإعادة المئذنتين إلى حالتها الأصلية .

أما « ملوية » المسجد الجامع المعروف اليوم بجامع الجمعة ، فلها تقع خارج ضلع الجامع الشمالي على ٢٥ متراً منها ، وفي محور الباب الوسطي . وهي مئذنة مخروطية الشكل بوجه عام ، تستند إلى قاعدة مربعة ، يصعد إلى قمته من سطح مائل عريض يدور حول بدنها من الخارج دوران الحلزون ويبلغ طول ضلع القاعدة ٣٢ متراً ، وقطر قبة الملوية ٦ أمتار ، ويبلغ علو المئذنة عن سطح الأرض ٥٢ متراً .

ويبدأ المصعد الحلزوني الذي يوصل إلى القمة ، من وسط الضلع الجنوبي ، أي التي قبالة الباب الشمالي للجامع ، ويدور حول بدن المئذنة باتجاه دوران الساعة ، خمس مرات ، إلى أن يصل إلى باب في القمة يفتح هو أيضاً في وسط الجهة الجنوبية . وينتهي أعلى المئذنة بغرفة صغيرة مدورة الشكل يبلغ علوها نحو ستة أمتار ، في وجه جدارها ثمانى مشكيات صغيرة مذبذبة العقد ومقعرة السطح ، وتقوم إحدى هذه المشكيات مقام باب يفضى إلى داخل الغرفة ، ويوصل إلى ذروتها بدرج حلزوني يدور داخلها حول محورها .

وقد عملت يد الطبيعة والزمان على تخريب أجزاء كثيرة من المئذنة ولا سيما قاعدتها التي كانت مدفونة كلها في بطن الأنقاض ، فكان يظن أن المصعد اللولبي يبدأ من سطح الأرض ، فأزالت أعمال التنظيف هذا الوهم .

أما مئذنة جامع أبي دلف فبنية بالآجر والجص ، وتشبه مئذنة جامع سامراء المعروفة بالملوية ، ولكنها أصغر حجماً منها ، وتقع في خارج الجدار الشمالي للجامع على ٩٥٠ متراً منه ،

وفي محور الباب الأوسط في هذا الجدار . قاعدتها مربعة الشكل تقريباً طول ضلعها الجنوبي والشمالية ٨٧، ١٠ م والشرقية والغربية ١٠، ١٠ م ، وتعلو عن مستوى التطبيق ٢٧٠ متراً ، وزين وجوها صف من مشكيات في كل وجه ١٣ مشكاة ، ما عدا الوجه الجنوبي ففيه عشر مشكيات لوجود باب المصعد في وسطه . ويرتفع القسم الحلزوني فوق القاعدة إلى علو ١٦، ٢٥ متراً ، فيكون ارتفاع الملوية من مستوى التبليط حتى القمة المتهدمة نحو ١٩ متراً . ويبدأ الحلزون ، وهو مصعد المثذبة ، من يمين الباب ، ويدور ثلاث دورات كاملة باتجاه معاكس لدوران عقرب الساعة ، وعرضه نحو متر واحد .

هذا وأشكر حضراتكم على ما أوليتموني من شرف الاستماع إلى هذا العرض الموجز لبعض المظاهر الفنية التي تبنى لدائرة الآثار في بلادنا أن تكشف القناع عنها وتخرجها للثور صفحة ناصعة ، نذكر الحفداء بماثر الأجداد .

التنقيبات الأثرية في العراق

مقدمة محاضرة السيد فؤاد سفر

لا يخفى ما للعراق من أهمية كبرى في نشوء الحضارة العالمية الحاضرة ، ولا يضاهيه في ذلك سوى مصر . فتاريخ العراق حافل بعهود الحضارة المجيدة ، إلا أن الزمن عفى على معظمه . ولم يكن يعرف منه قبل قرن من الزمن إلا النزر اليسير المدون في تأليف اليونان والعرب والوارد في الكتب المقدسة .

ولما أخذ الغرب في نهضته وفي توسعه خارج أوربة زار بلاد الشرق الأدنى ومنه العراق عدد من السائحين ، فوصفوا آثاره الشاخصة ، ونقلوا إلى بلادهم من آثاره ما كان له هوى في نفوسهم وتيسر لهم نقله ، ونشروا رحلاتهم ، فنشأت الرغبة عند غيرهم للاطلاع على شئون الشرق وماضيه .

وكان التنقيب الوسيلة الوحيدة لإظهار ما في باطن الأتربة ، إذ أن معظم المدن القديمة قد درست وأصبحت أطلالا تضم آثار السلف من منحوتات ومبان وكتابات . وهكذا بدأ التنقيب في العراق نحو منتصف القرن التاسع عشر . وكان هدف المنقبين الأوائل في أعمالهم أن يكشفوا عن آثار نفيسة يسهل نقلها إلى عواصم أوربة لتزين متاحفهم . فنقلت معظم آثار العواصم الآشورية كنيوى وخرصباد والشرقاط ونمرود ، وبعض المدن البابلية كمدينة لجش .

وفي الزمن عينه حلت الرموز المسماة بقرى* مادونه سكان العراق القدماء من أعمالهم ومعتقداتهم وعلومهم .

وكان أسلوب التنقيب في بداية أمره حفائر وحنادق ضيقة في النقاط التي ظن المنقب أنها غنية بالآثار . إلا أن ذلك الأسلوب البدائي تطور تدريجياً ونشأ

عنه التنقيب العلمى المنتظم الذى لم يعد الاهتمام فيه مقتصرأ على الآثار القابلة للنقل ، بل شمل المباني وطبقات السكنى والآثار الدقيقة وضبط المعائر . وأول من أتقن هذه الطريقة العلمية هى البعثة الألمانية فى مدينة بابل فى بداية القرن الحاضر .

وانتهجت عناية المنقبين فى الفترة بين الحربين العالميتين إلى الحفر فى مواطن آثار ما قبل التاريخ ، حيث لم تكن الكتابة معروفة ، وكانت الحضارة فى بداية أطوارها .

وتشكلت مديرية الآثار القديمة فى العراق بعد تأسيس الحكم الوطنى للمحافظة على آثاره والمساهمة فى حقل التنقيب ، فعملت على سد الثغرات التى أهملها المنقبون ، فشرعت فى عام ١٩٣٦ تحفر فى « سامراء » و « واسط » المدينتين الإسلاميتين . ثم نقت فى « تل العقير » حيث كشفت عن معبد يرجع زمنه إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، كانت جدرانها مزينة برسوم ونقوش . وحفرت فى « تل حسونة » حيث عثرت على أقدم مستوطن معروف فى العراق ، ونقت فى أطلال « الدير » وفى « عقر قوف » عاصمة الكشيين ، وفى « تل حرميل » وأما كن أخرى وانقردت المديرية فى سنى الحرب الثانية بأعمال التنقيب ، وكانت جهودها عظيمة ، حتى إنه لم تضارعها مؤسسة أخرى فى ما استحققت من تقدير الهيئات العلمية المختصة فى هذه البحوث .

أثر الفينيقيين في حضارة الشرق

للمؤرخ موريس سُرهاب

سأدتي :

لعب الشعب الفينيقي دوراً هاماً في التاريخ ، إذ كان رسول الشرق نحو الغرب ، وقد حمل إليه حضارات الشرق السامية ، فساعد الغرب على الخروج من دياجي الظلام ، مشعاً عليه بتلك الأنوار الشرقية التي قادت به إلى عالم النور والحضارة .

لكن إن نظرت اليوم موضوعاً أشبعه العلماء درساً ، بل نكتفي — ضناً بالوقت — بتحديد مركز الفينيقيين بين الدول الشرقية التي كانت ركناً للإنسانية الناهضة ، والتي أصبحت اليوم تحفز للوثوب في العالم الجديد لاحتلال المركز السامي الذي أورثها إياه عن حق ما لها من الحضارة الراسخة في القدم .

منذ فجر التاريخ في عهد يعود إلى أكثر من خمسة آلاف سنة ، تركّز الفينيقيون على الشواطئ* اللبنانية والعلوية وفي الجبال المجاورة لها . وإن عمق الوديان وعلو الجبال والنظام الأمواج بأقدامها ، وكثافة الغابات في أكنافها ، وتكليل الثلوج لهاياتها ، فصلت بين أجزاء البلاد الفينيقية المختلفة ، ووزعت السكان فيها جماعات جماعات ، فقسمتهم إلى دويلات وممالك تعيش عيشها الإداري الخاص ، وتسكتف وتعاضد عند تدفق سيول الغزاة على أطرافها .

إنما ارتبطت هذه الجماعات بروابط معنوية قوية ألا وهي روابط العنصر واللغة والدين . وما الفينيقيون إلا فرع من الدوحة السامية ، يتراوح ويتهادى بين إخوته الفروع الأخرى ، من عربية وأكادية وعامورية وآرامية . هذا من حيث العنصر .

أما اللغة فهي كما تظهر لنا من أسماء الأعلام والمدن والقرى والنصوص العائدة إلى الألف الثاني لغة سامية على قرابة متينة مع غيرها من اللغات السامية .

وإذا بحثنا في أصل الفينيقيين ، فانا نرى أن الاسم الذي أطلق عليهم اسم حديث العهد ، ولعله اسم فرعى انطبق على سكان البلاد من جبل الكرمل إلى مصب العاصي . وقل ما عرف الفينيقيون أنفسهم بهذا الاسم . فأنهم كانوا يعرفون بالكنعانيين ، وهم يؤلفون مع الكنعانيين الذين سبقوا العبريين في أرض كنعان شعباً واحداً فصل بين أقسامه اتجاه أبنائه الطبيعي نحو الزراعة والإبحار .

وإن هذه الصبغة السامية في الفينيقيين تسمح لنا بقبول تقاليدهم عن أصلهم، إذ كانوا ينسبون هذا الأصل إلى الجزيرة العربية ، عرين السامية في العصور التاريخية .

عرف الفينيقيون بميلهم إلى الاجتهادات الدينية الروحية وبقابلهم على فلسفة الأمور الطبيعية وإدراك ما فيها من المغازى الالهية . وقد عبد الفينيقيون روح النبات بشكل إله شاب لقبوه بادوني أى سيدى . إله يقتله حيوان مفترس وتبت من دمائه شقائق النعمان ، وينبعث من الموت بعد حين كالنبات الذى يموت في فصل الشتاء ويعود إلى الحياة في الربيع .

وقد نسب الفينيقيون مسرح هذه المسأسة الإلهية إلى مدينة جبيل وما جاورها من الجبال المروعة والأنهار المتدفقة .

وها إن في مصر منذ أقدم العصور إلهاً سيصبح يوماً من أكثر الآلهة تمصراً، ألا وهو الإله أوزيريس . هذا الإله يموت فريسة مناوئه الإله سيت وبقذف في عباب اليم ، فتلقيه الأمواج على شواطئ جبيل ، حيث يلتف عليه غصن نصير ويصبح شجرة باسقة . وقد عادت إيزيس إلى مصر بهذه الشجرة وأحيت بملها أوزيريس بحنانها الزوجي .

ولو ثبتت اليوم نسبة أساطير أوزيريس إلى عبادة أودنيس ، كما يرجح ذلك كثير من علماء تاريخ الأديان المصرية ، لرأينا في هذا الأمر أول دور لعبه الفينيقيون في تاريخ الحضارة الشرقية .

مرت القرون بالحضارة المصرية، واتحدت كلمة المصريين، فألفوا دولة عظيمة الشأن واسعة الأرجاء تمتد قلائد مدنها وقراها على شواطئ النيل .

وكان الفينيقيون في ذلك الحين قد تركزوا على شواطئ البحر الأزرق، ف جذبهم بحبالة القتان، وامتطوا منه بمراكبهم، وأعملوا في مياهه مقاذيفهم، وبسطوا على سطحه أنسجة قلوهم، فحملهم الإبحار إلى البلاد المصرية أكبر الدول المجاورة لهم، وقد اقتطع الفينيقيون لمصر من أحراجهم أخشاب الأرز الصلبة وجذوع الأشجار الباسقة، فاستعانت مصر بهذه الخشب على إنشاء أبنيتها الأنيقة وصنع نواويسها الخالدة .

توثقت عرى التجارة بين الفينيقيين والمصريين، وأعجب المصريون بالمرآكب الفينيقية الكبيرة، فأطلق اسم جيل المصري على هذه المراكب، وعرف ما يمتخر منها عباب اليم بالمرآكب الحيلية أو كينيت . وما لبثت المواد الفينيقية أن تسربت إلى صميم الحياة المصرية . فكان المصري يسعى إلى تخليد الروح بالمحافظة على الجسم مقرها، ويلجأ إلى التحنيط ومن مواده الأساسية صوغ أشجار لبنان .

إن هذه المساهمة لاقت عند الفراعنة حق قدرها، فأغدقوا هباتهم على معبد جيل وأجلوا آلهتها، وأنحفوها بالآنية الثمينة منذ عهد حاسخا موى حتى عهد خوفو وخفرع ومنكورع، وحتى عهد الفرعونين يبي الأول ويبي الثاني .

في أوائل الألف الثالث طرأت على العالم الشرقي أحداث هامة، أثرت في حياته السياسية، فقوضت بعض الممالك والدول وأنشأت غيرها .

انتقل محور الحياة السامية إلى البلاد السورية الشمالية، وقامت فيها دولة العاموريين تقوى وتمهض وتدفق على شواطئ الفرات الخصبة . وقد اندفع العاموريون بسيولهم إلى بلاد شمر وأكاد، فأنشأوا في أواسط البلاد العراقية تلك الدولة البابلية الأولى التي أنبتت حورابي أقدم مشترعى العالم . وقد اتسعت الدولة العامورية ووليدتها الدولة البابلية من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط . ويظن أن طغيان العاموريين وصل إلى البلاد المصرية، ويعتقد البعض أن الأسرة الثامنة الفرعونية عامورية النسب .

على كل في هذا العهد الذى تبلبت به الهيئة الاجتماعية المصرية وثار به الشعب على الحكم الفرعونى المستبد ، نرى طلائع العاموريين والآسيويين على مختلف عناصرهم السامية تسرب زرافات ووحدانا إلى البلاد المصرية .

انقلبت الأمور على فرعون ، فتقلص ظل سلطته ، وضعفت هذه السلطة الإلهية ، وتقرب ابن الإله الشمس رع من البشر ، وخلق لهم شرائع تعترف بحقوقهم .

وهل بالإمكان أن تنكر ما للروح الشرقية من التأثير في هذا التطور في عقلية الفراعنة ، ونحن نرى ملوك البلاد السامية لا يدعون الألوهية بل جل ما يعتبرون أنفسهم أنهم كهنة للآلهة ، يتصدرون شعوبهم في عبادتها ، وينشرون عدل هذه الآلهة على الأرض .

أما الدور الذى لعبه الفينيقيون فيتضح لنا من نقمة المصريين على من تغفل في بلادهم من الغرباء ، وعلى الشعوب الذين حاربوها في بدء نهضتهم . ونرى في صفوف هذه الشعوب أهل صور وجبيل وغيرها من البلاد الفينيقية . وكان الفينيقيون في ذلك العهد على اتصال وثيق بالشعوب العامورية ، والأسماء العامورية منتشرة في بلادهم .

* * *

بعد ربح من الزمن استعادت مصر قوتها في القرنين التاسع عشر والثامن عشر وعادت علاقاتها مع البلاد الفينيقية ، وقد وجدنا عدداً من مدافن ملوك جبيل من ذاك العهد ، فإذا بها تضاهى بغناها غنى مدافن الأميرات الدفينات في دحشور ، وحلاها الكثيرة تأثرت إلى مدى بعيد بالفن المصرى .

أما معابد جبيل المعاصرة للمدافن فنراها حريصة على تقاليدها رغم تأثير الفن المصرى في بعض التماثيل والأسلحة الخبوءة فيها .

وإن تخطيط المعبد بقى على الطريقة السامية التقليدية التى قل ما تميل إلى تجسيم صورة الإله ، بل تفضل الرمز إليه . فمعبد جبيل يشكل أرضاً مستطيلة تؤلف الأرض الحرام ويفصلها عن الخارج سور يحيط بها . وفى منتصف المعبد فى الهواء الطلق نصب برمز إلى الإله ، وقد أنشئت حوله أنصاب أخرى شيدها تعبد المؤمنين ، ولا أحد منا يجهل

اللغات التي فيها زمناً على المعابد الكنعانية أخوات المعابد الفينيقية أنبياء إسرائيل الموحدين ، وأن أنصاب جيبيل أقدم مثال لتلك الأنصاب التي قضى عليها الإسلام في مكة المكرمة .

عرفت جيبيل في القرنين التاسع عشر والثامن عشر عهداً من أحسن عهودها ، وكان الشعب الجيبيلي على علاقات حسنة ، لا مع مصر وحدها بل أيضاً مع البلاد الشرقية إجمالاً . وإن ما وجدناه في المعبد يدل على أن هذه العلاقات تعدت الأقطار السامية ، وأنها كانت كبيرة مع المناطق الشمالية ، حيث حل الآريون برحلم ، ويستدل على ذلك من الخلاخيل الفضية والبرنزية التي كان يؤتى بها من جهات القفقاس .

إن ازدهار البلاد الفينيقية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر جذب إليها العناصر الآرية التي كانت قد تركزت في آسية الصغرى وعلى الفرات الأعلى ، فاختلقت أسماء ملوك فينيقيا عما قبل ، واتخذت شكلاً غير سامي ، وما لبثنا أن رأينا العناصر الشمالية تندفق على هذه البلاد ، وتضم في طريقها الشعوب التي بها ، وتتضخم بهذه العناصر الجديدة ، فتصبح نواة لغزوة تندرج بعجلاتها وخيولها ومشاتها على البلاد المصرية وتتركز في مصر الشمالية ، ساحقة بسرعة انقضاضها المقاومة المصرية ، مخضعة مصر لحكمها . وأن البلاد الفينيقية ملائى في هذا العهد بمدافن ذات أسلحة وخزف تتشابه كل الشبه مع ما اكتشف في مدافن تل اليهودية في مصر .

بعد احتلال دام قرناً ونيفاً تمكن المصريون من طرد الرعاة ومن التحق بهم من الشعوب من عبريين وغيرهم ، واحتل المصريون البلاد الشرقية الواسعة .

في البلاد الخاضعة للواء فرعون وجد الفينيقيون عالماً يتسع لملاحظتهم ولقوافلهم التجارية ، فجابوا أنحاء هذه البلاد ، وحاكوا بين أطرافها شبكة تجارية متلاحمة الخيوط . فازدهرت تجارتهم ازدهاراً كبيراً ، وأصبحوا أداة الوصل بين الأقطار المختلفة . ولم يبرز للفينيقيين من مزاحم في عالم التجارة ، وخاصة في عالم الملاحة ، سوى الشعب الإيحيى الذي نشأ وترعرع في بحر الأرخبيل وجزره وعلى شواطئه حول أواسط كنوسوس وميسين .

لهذه الحياة العملية التي حملت الفينيقيين على نقل بضائعهم المختلفة من قطر إلى قطر يتبادلونها مع الشعوب ولا يعودون إلى بلادهم إلا بعد معاملات كثيرة وأسفار شاقة ، لهذه الحياة رأى الفينيقيون أنفسهم بحاجة إلى طريقة سهلة للتعبير عن أفكارهم ولتدوين أعمالهم ، فدفعتهم الحاجة إلى اقتباس الطريقة الأبجدية .

وإن الكتابة الأبجدية الفينيقية ظهرت قبل القرن الثامن عشر ، إذ أن لدينا ، على بعض الحتاجر والفؤوس والأواني الحجرية المكتشفة في جيبيل والعائدة إلى هذا العهد ، بعض أحرف مبعثرة بلوح أنها أبجدية ، وإن أقدم نص لهذه الأبجدية هو النص المنقوش على أنفس قطع متحف بيروت ، أى على ناووس الملك أحيرام ملك جيبيل في القرن الثالث عشر .



لم يشرف القرن الثانى عشر ، إلا ورأينا العالم يتصدع فى جميع أجزائه . يتصدع قنهار الحضارات العظيمة ، وتتدفق القبائل البربرية أمواجا أمواجا على البلاد الإيجية . فقضت على الحضارة الإيجية ، وزعزعت الدولة الحثية .

ولم تلبث عرى الدولة المصرية أن تفككت لانفماس المصريين فى النعم بعد توسع دولتهم ولمهاجمة اللويين والإيجيين للبلاد المصرية ، وقد انفرط عقد تلك الدولة العظيمة وتحولت إلى دويلات صغيرة فى أغلب الأحيان .

هذا ماحل بالعالم فى أواخر القرن الثانى عشر . دول عظيمة انهارت أمام القوى الغاشمة ، أو غرقت فى الملهذات قتلاشت قواها ، وجهل عم بلاداً واسعة الآفاق كانت بالأمس من أمهات الحضارة . فى هذا الجو الذى حطمت فيه الدول الكبرى ، اندفعت الدول الصغرى من حدودها الضيقة ، فتسنى لبعضها أن تهيم نفسها بالعمل الجدى المركز الرفيع الذى يلقى بجهودها وبروحها الوثابة . وإن فينيقيا التى كادت أن تنحرف فى مهدها ، رأت السلاسل الخيقة بها تنحطم وتسقط إلى الخضيض ، فبسطت أجنحة سفنها ووثبت فى البحار نحو شواطئ إيجية حاملة إليها مشعل حضارتها وحضارات الدول الشرقية ،

منيرة غياهب الجهل الذى سادها ، ناقلة إلى سكان إيجة الجدد تلك البذور التى ستثمر ،
وتساعدهم على تكوين الحضارة اليونانية التى استحوطت أرفع منزلة فى العالم بحق .

فى نفس العهد تركز الفلسطو فى القسم الغربى الجنوبى من بلاد كنعان ، وهاجم
العبريون هذه البلاد من الشرق ، وتلاحم العبريون مع الفلسطو وسادوا البلاد فى القرن العاشر .

لم يكد الأمر يستتب لداود فى القدس ، حتى حاول جمع شمل القبائل العبرية .
فأنشأ الملكية العبرية ، واتخذ يروشلیم عاصمة له ، وسعى لبناء معبد تلتف حوله قبائل
العبريين المنتصرة . وأنى لهذه القبائل الحديثة فى الحضارة أن تنفذ رغبات ملكها داود ؟
ففى القوة الحربية ، لكن القوة الفنية تنقصها . لذلك وجه داود أنظاره إلى البلاد
الفينيقية التى اعتادت البلاد المحتلة الكنعانية أن تستمد نورها ، وطلب داود من أحيرام
أن يسعفه ، لا بالمواد وحدها ، بل بالبنائين والفنانين . ولم يكد سليمان يعتلى عرش أبيه ،
حتى عاود الكرة لدى أحيرام ملك صور ، وشدد عليه الطلب . فلباه ، واحتل الفينيقيون
مركزاً هاماً فى أعمال سليمان البنائية والعمرانية . وما عثم سليمان أن طلب من الفينيقين
أن يمرنوا أهل بلاده على أمور الملاحة ، وأن يساعدوه على إعادة الخطوط البحرية
بين خليج العقبة وبلاد أوفير ، أى الحبشة . فكيف والحالة هذه لا تتأثر الدولة العبرية
الفنية بالثقافة الفينيقية ؟ شعب مغلوب أرقى حضارة من الشعب العبرى المكتسح ، بلاد
تخضع للقوة ، ولكنها تقوى على الغالب بثقافتها ، وتعلمته لها ، فیرغم الملك سليمان ،
وهو ابن الملك التى ، یرغم سليمان الذى يبنى معبداً لإله إسرائيل ، یرغم على إقامة معبد
كنعانى يزدان بالأنصاب تقرباً من الكنعانيين ومن مبادئهم .

بعد موت سليمان ، انشقت الدولة العبرية إلى مملكتين : مملكة يهوذا ومملكة
إسرائيل . واتخذت مملكة إسرائيل عاصمة لها فى جهات نابلس الحالية . فالتصت
المملكة الجديدة اتصالاً وثيقاً بالفينيقين ، وسعى ملوكها للتخالف مع ملوك صور
ولمصاهرتهم ، ودخلت يزايل ، ابنة ملك صور إيتوبعل فى الحرم الملكى ، فاستعاد
الكنعانيون نشاطهم ، وقد اصطدموا بالأمناء للأفكار العبرية ، وعلى رأسهم إلياس النبی .

واكتسحت الأفكار الكنعانية الفينيقية ، حتى يروشلیم عاصمة يهوذا ، عندما أصبحت
عليا بنة يزاييل ، ملكة لها بعد مقتل بعلها ملك يهوذا .

وفي القرن التاسع اشتدت قوة مملكة إسرائيل ، فاتصلت بمملكة دمشق ، وملكها
الآرامی خزائیل ، وأصبح هذا الملك يجاری ملك إسرائيل في حقل الحضارة ، ويسعى
سعيه لاستقامتها من الفينيقيين . وحذا خزائیل حذو بلاطی يهوذا وإسرائيل ،
وطلب من الفينيقيين أن يصنعوا له تختاً من العاج . وقد وجد هذا التخت وعليه كتابة
بالأبجدية الفينيقية .

وانتقلت أيضاً هذه الكتابة إلى بلاد موآب حيث وجدت على نصب مشي .
وما انتهى القرن إلا ورأيناها منتشرة عند الآراميين على آثار نيراب قرب حلب .

وبعد الاحتلال الآشوري بالرغم مما رافق هذا الاحتلال من العسف ، كنا نرى
الفينيقيين أداة الوصل بين مصر والآشوريين ينقلون إلى بلاد آرام وبلاد آشور الطرق
الفنية المصرية من زهيرات اللوتس ومظاهر بعض الآلهة .

وفي القرن السابع يستعين الملك الآشوري سنحاريب بالمراكب الفينيقية للملاحة
على الفرات ، وقمع ثورة مردوخ في بلاد الكلدان .

وفي العهد الفارسی نرى فينيقيا تلعب دوراً هاماً في تجارة الشرق ، فيصف النبي حزقيال
ثورة صور وأعمالها قائلاً :

« آرام تاجرتك بكثرة صنائعك ، تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز
والبوص والمرجان والياقوت . يهوذا وأرض إسرائيل هم تجارتك ، تاجروا في سوقك
بخططة منيت وحلاوى وعسل وزيت وبلسان . دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك ، وكثرة
كل غنى بخمر حلبون والصوف الأبيض . ددان وياوان قدموا غزلاً في أسواقك .
حديد مشغول وسليخة وقصب الذريرة كانت في سوقك . ددان تاجرتك بطنافس للركوب .
العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخرقان والسكباش والأعندة . في هذه كانوا
تجارك . تجار شبا ورعمة هم تجارك ، بأنخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب

أقاموا أسواقك . حران وكنة وعدن ، تجار شبا وأشور وكلد تجارك . هؤلاء تجارك بنفائس بأردية أسمانجونية ومطرزة ، وأصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرزين بضائعك » .

وفي القرن الرابع يقبل الفينيقيون على الحضارة اليونانية ويفاخرون بها . وبعد أن دوخ الإسكندر الشرق ودمر صور ، اقتبست البلاد الشرقية وفي طليعتها فينيقيا حضارة الغالب ، ولكنها لونها بالألوان الشرقية ، فنشأت عن هذا التخصرم تلك الحضارة المعروفة بالهيلينية التي كانت من أجل عهود الفكر والفن اليوناني ، وأثرت حتى في تطور بلاد اليونان .

وبكلمة موجزة إن البلاد الفينيقية لعبت دوراً هاماً في البلاد الشرقية قد يكون أقل أهمية من الدور الذي لعبته في البحر المتوسط . ولكنها كانت دائماً أداة الوصل بين الحضارات الكبرى ، تقارب بينها ، وتشد من أواصرها وعلاقاتها . وعندما تفرد البلاد الفينيقية ، وتتملص من سيادة الدول الكبرى ، كانت ترفع مشعل الحضارات الشرقية الهاوى ، وتيربه سبل الرقي أمام الشعوب الناشئة .

القوانين الأثرية في بلاد الشرق العربي

لمؤسسانه عبر الراهدي صحاده

سادتي وإخواني :

ما كان لمنحدث أن يبدأ القول ، قبل أن يذكر ما تختلج به أفئدتنا جميعاً ، من آيات التناء والشكر لحضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر والسودان ، ولحضرات إخوانه أصحاب الجلالة والفخامة ملوك ورؤساء الدول الشرقية الشقيقة ، الذين كان لهم الفضل الأول في توجيه حكوماتهم الرشيدة ، إلى العمل على تحقيق أمنية طالما جاشت بصدور المفكرين من رجال الشرق العربي ، وهي توثيق الصلات بين الأمم الشرقية ، ووصل ما انقطع منها ، وبث روح التعاون والاتحاد فيها بينها ، بعد أن شتت شملها الظلم والطغيان زمناً مديداً ، وفرق كلمتها أيدي سبا . والاتحاد كما تعلمون ، أيها السادة ، قوة لا تقف في سبيلها الصعاب الجسام ، ولا تصمد أمامها حادثات الزمن .

وهكذا أتيسح للعاملين من رجال تلك الأفطار الاجتماع في مؤتمرات عامة ، يتدارسون فيها نواحي النهضة الحديثة في السياسة والعلوم والفنون والآداب . فعلى بركة الله نجتمع في مؤتمر للآثار ، وكلنا آمال في أن نكون أعضاء نافعين في تلك السكتلة العربية الضخمة ، التي أخذت تتحرك لرفع شأن الشرق العربي ، وإعلاء كلمته واسترجاع مجده الغابر .

حقاً إنه لتوفيق من الله عظيم ، أن نرى أبناء النيل وأبناء الفرات ، وإخوانهم السوريين وأبناء لبنان ، وقد اجتمعوا مع رجال الجزيرة واليمن وفلسطين حول مائدة

واحدة ، يعملون بدءاً واحدة وعين الله ترعاهم ، على توحيد كلمة تلك الأمم الشقيقة ، ويحققون أملاً طالما داعب خيال المفكرين من رجال الشرق العربي ، كي يروا أبناء تلك البلاد ، وقد وقفوا جنباً إلى جنب كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، متضافرين متساندين ، لا متخاذلين ولا متنازعين ، كما هي حال الدول الأخرى الآن . فإن هم تنافسوا ، فأنما يتنافسون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، ويتسابقون إلى العلم والمعرفة بمحبة وإخلاص ، في ظل راية للسلام موطدة الأركان ، خفاقة في ربوع الشرق .

والدول الممثلة ها هنا هي صفوة أمم الشرق العربي ، مهد الحضارة القديمة ، حيث انبعث أول قبس من نور الحياة البشرية ، ودوى صوتها ينبىء التاريخ برفع الستار عن أول دور من قصة الإنسانية ، فيسجل التاريخ فائحة ذلك السفر الجليل للحضارة الأولى على أديم هذا الشرق . ومن تلك الحضارة نهلت أمم الغرب ، وعنها نقلت معظم ما عرفته من الفنون والصناعات والأديان .

وقد خلفت تلك الحضارة للعرب تراثاً خليقاً بأن يفاخروا به ، وأن يحرصوا عليه ، وهم أجدر الناس باحياء تاريخهم القديم على أسس من العلم الصحيح . والأمم ، كما تعرفون ، لا تستطيع أن تنهض نهضة حقّة ، إلا إذا فهمت ماضيها أحسن الفهم ، واتخذت منه في حاضرها قنطرة إلى المستقبل .

قد يكون حقاً أن الغربيين حازوا قصب السبق في الاهتمام بتاريخ الشرق العربي القديم وآثاره . وقد نسب إلى بعثاتهم الفضل فيما تكشف من آثار تلك الحضارة المندثرة ، ولكننا سنظل نذكر استنثارهم بالكثير لأنفسهم ، فما كانوا بالمعلمين الأمناء ، وزادوا على ذلك قولهم : إن الشرق جاهل مستضعف ، يقصر بنوه عن المجازاة في هذا المضمار ، وهو بحاجة إلى من يتولى العمل عنه ، وقد ابتغوا من وراء هذا القول السيطرة والفخر ، وأن يمدوا في الوقت نفسه بلادهم بما تصل إليه أيديهم من تراث تلك البلاد . إذن لقد حق علينا أن تنهض للذود عن سمعتنا وعن آثارنا . وتوثيق الصلات بين دول الشرق العربي هو خير ما يعين أبناءها على صيانة آثارهم وعلى فهم تاريخهم ، فهو يؤهل

كل قطر منها أن يكون فكرة صحيحة عن حضارة ما يجاوره من الأقطار ، ولا سيما أن معظم حضارات تلك الأمم ، إنما يكمل بعضها بعضاً ، فهي وثيقة الارتباط منذ أقدم العصور .

فلما أذن الله أن يلتئم شمل الأقطار العربية تحت راية جامعة الأمم العربية ، أخذت الجهود تتوالى في سبيل زيادة التعارف ، وتنمية العلاقات بينها في شتى النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية ، وفي تقريب وجهات النظر وإزالة كل عنصر للخلاف . ومن هنا بدأت آراء العاملين من رجال تلك الأمم تتجه إلى العمل على توحيد القوانين بالأقطار الشقيقة . وقوانين الآثار في مقدمة القوانين التي يحتاج الأمر لبحثها والعمل على توحيدها أو التقريب بينها .

وسواء أكانت تلك الآثار راجعة إلى عصور سحيقة قبل المسيح ، أم كانت راجعة إلى العصرين المسيحي والإسلامي . فإن الغرض الذي تتوخاه من توحيد التشريعات الخاصة بها ، هو بذل الجهود الموحدة للمحافظة عليها وصيانتها من جميع الوجوه ، وذلك بالتآزر بين الدول الشرقية ، للضرب على أيدي العابثين بها ، ولتنظيم أعمال الحفر والتنقيب ، ووضع القيود لمنع تسرب آثار الشرق إلى خارج بلادها بطرق غير مشروعة ، وكف مطاعم الأجانب فيها ، ووضع قواعد لتداول الآثار الموجودة في الأسواق ولدى الهواة . وتضييق الخناق على التجار المتلاعبين ، والأخذ بناصية الخارجين على القانون منهم ، وعلى العموم تنبيه دول الشرق كافة إلى ما لا تارهم من قيمة عظيمة .

نحن لا ندعى أن الشرقيين كانوا حريصين منذ زمن بعيد على آثار بلادهم . فانه فضلاً عما أصاب الآثار القديمة في الشرق العربي من التشويه والتدمير ، بداعي التعصب الديني في الأزمان الغابرة ، كانت الثقافة الأثرية في بلاد الشرق العربي ضئيلة محدودة حتى أواخر القرن الماضي ، وكان الجهل فاشياً بين الطبقات الدنيا ، نتيجة تلك السياسة التي رسمها المسيطرون على تلك البلاد . فلا غرابة أن كان الفلاحون في مصر مثلاً ، لا يتورعون عن تشويه أثر جميل كي يبيعوه بدرهم معدودة ، ولا سيما أنه كان من ورائهم محرضون آثمة من تجار الآثار وأذئاب الهواة من الأوربيين ،

أضف إلى ذلك أن السياح الأجانب كانوا يقدون إلى البلاد العربية بكثرة ، ومعظمهم مشغوف بالحصول على بعض الآثار ، وكانوا يلجأون في ذلك لسلك الطرق ، مما زاد في طمع التجار والوسطاء وشجع الأهالي الجاهل على أن يعملوا فؤوسهم في التلال الأثرية والأبنية القديمة ، فلما بلغ السيل الزبى وأضحت الآثار نهياً للجميع ، وانكشف سوء الأمر لأهل البلاد ، وتنبهوا إلى مقدار ما أصاب بلادهم من الخسارة العظيمة بضائع آثارها وتدميرها ، لم يكن هناك بد من وضع قوانين للآثار في بعض بلاد الشرق العربي ، ولكن جاء معظمها ناقصاً مبتوراً حيث روح التشريع تسير هوى ذوي الأغراض ، وتناهى عما فيه صالح البلاد .

فمن مساوئ بعض تلك القوانين أنها أحلت الاتجار بالآثار ، تراث الشرق العربي الخالد ، على نطاق واسع ، فجعلت منها سلعة رخيصة بالأسواق . وكان من أثر ذلك استمرار اللصوص في الحفر خلسة ، ونهب الآثار كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، ليقدموها لقمة سائغة للتجار الجشعين . وبلغ الأمر بهؤلاء المجرمين إن هم وجدوا تمثالا وخشوا المفاجأة وتسرع عليهم نقله ، أن يكتفوا بالرأس فيطيحوا به ، وزاد الطين بلة أنه إذا تعذر على التجار العثور على آثار حقيقية ، زيفوا آثاراً وتفننوا في إتقانها إتقاناً عظيماً ، حتى سقطت قيمة التحف الفنية ، واختلط الغث بالثمين ، وأصبحت الآثار مبعث الاعتزاز والفخر موضعاً للشك والريبة .

وأجازت بعض تلك القوانين للبعثات الأجنبية الحفر في بلاد الشرق العربي للبحث عن الآثار بشروط اسمية لم تنفذ ، وترك الأمر والنهي لتلك البعثات ، فلا رقابة عليها ولا إشراف على أعمالها ، وقد فرضت في أعضاء تلك البعثات ومساعدتهم وتابعيهم الأمانة المطلقة التي لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . ولا داعي لأن نذهب بعيداً بحثاً عن صحة ذلك ، ويكفي أن نضرب مثلاً برأس نقرتين ، وكيف نقل إلى برلين ، ففي ذلك عبرة لمن يعتبر . وكان من جراء ترك الحبل على الغارب لتلك البعثات أيضاً ، أن قام بعضها بحفائره بطرق لا تمت بصلة إلى الأساليب العلمية الصحيحة للحفر ، فتركوا

المناطق الأثرية في حالة يرثى لها ، ذلك لأنهم رغبوا في الوصول إلى ما يبتغونه من الآثار أو مواد الدراسة والنشر من أقرب السبل .

نحن لا نغمط حق الكثير من البعثات العلمية فيما قامت به من الأعمال الجليلة في سبيل الكشف عن الآثار وتقدم البحوث التاريخية . ولا نكر على بعض أعضائها ما تحلوا به من الأمانة والإخلاص في العمل ، ولا ما عرف عنهم من الكفاية والخبرة . ولكننا لن ننكر أمر آثارنا للظروف والمقادير ، مادامت الأقلية منهم قد ضربت لنا شر الأمثال . والآثار تراث عظيم وعهدة في أعناقنا للأجيال المقبلة ، فهي ميراث الحفداء عن الأبناء ، ما كان لنا أن نفرط أو نتهاون في شيء منها ، وهي السجل الخالد لحضارة أمم الشرق العربي .

لن نؤخذ بعد الآن بأساليب الغرب ، ولن نخدع بما يقولون ، كفولهم إن آثار الشرق الأدنى ، هي كتب الحضارات الأولى للإنسانية جميعا ، ومرجع لدراسة تقدم التفكير البشري ، فهي إذن ليست ملكا خالصا لدولة بذاتها ، بل هي مشاع للعالم أجمع يحق لجميع الدول أن تتدخل في أمرها ، وتشترك في صيانتها ، وجعلوا من ذلك مبررا للتدخل في شؤون هذا الشرق . أما أنها سجل للحضارة العالمية ، فلا مرء في ذلك وهذا ما نعتز به ونفخر . أما أن يكون لدولة أجنبية الحق في أن تدس أنفها في شؤوننا ، فهذا ما لا نقبله ولا نرضاه . ومن أساليب أقوالهم أيضا أن عرض آثار الشرق بمتاحف العالم ، إنما هو دعاية طيبة لعظمة الشرق الأدنى وحضارته العريقة . وما كان ذلك القول ليغرينا على التفريط في آثارنا . وهل تسلم فرنسا مثلا بنقل أحد لوحاتها التاريخية من اللوفر ، لكي يعرض بمتحف القاهرة أو بمتحف بغداد ، مع ما في ذلك من الدعاية الواسعة لفرنسا وفنها العريق ؟ لا ريب أنها لن تفعل . ومع ذلك فلا ضير على دول الشرق العربي مساهمة منها في نشر الثقافة الأثرية ، أن تمد المتاحف الأجنبية ببعض آثارها ، ولن تضن متاحف الشرق العربي عليها بآثار قد تستغنى عنها أو يكون لديها منها أمثلة كثيرة . أما الآثار النادرة وذات القيمة التاريخية ، فالتنازل عنها بالتواجد ، فتاحف الشرق أحق بها وأولى .

وقد شاء الله القدير أن يبرز الآن في الشرق العربي رجال ضربوا بسهم وافر في الثقافة ، وتعمقوا في دراسة التاريخ والآثار وفروعها ، ومارس بعضهم الحفر سنوات كثيرة ، وقد نصبوا أنفسهم لخدمة بلادهم وبلاد الشرق العربي كافة . ولكنهم برغم ما بذلوا من جهود في سبيل الذود عن آثارهم ، أخفقوا فيما يتبعون من إصلاح ، بسبب تلك التشريعات البالية التي وقفت حجر عثرة في سبيلهم . فقوانين بعض البلاد العربية ، لا تزال توسع صدرها ، وتساهم في شحن آثار البلاد عبر البحار ، ونحرم منها متاحف البلاد ، كي تضي رونقا على المتاحف الأجنبية .

والآن وقد تبين لنا أن معظم قوانين الآثار في البلاد العربية الشقيقة ، أنشئت في حاجة إلى التعديل ، كي تسير أحوالها الحاضرة بعد أن استيقظ الوعي القومي ، وتفتحت عيون أبناء الشرق العربي ، وبعد أن تحطمت القيود ، وانحسر كابوس السيطرة والاستعباد ، فقد أصبح لزاما على دول الشرق العربي ، سواء ما كان منها ذا قانون أو كان لم يقن بعد ، أن تتعاون على وضع أسس ثابتة للأغراض التي ذكرنا في قانون موحد أو قوانين متقاربة ، تهدف إلى غرض واحد ، هو صيانة آثارها ، مبعث فخارها وسجل تاريخها ، والصلة بين ماضيها المجيد ومستقبلها المنشود .

وقد شعرت مصر في الآونة الأخيرة أن قوانين الآثار بها ، سواء ما كان خاصا بالآثار القديمة أو ما كان موضوعا للآثار الإسلامية ، قد أصبحت لا تلائم الزمن الحاضر ، فصح عزم ذوى رأى فيها على أن يضعوا تشريعا جديدا وافيا بالغرض . ولسورية ولبنان الشقيقتين قانون صادر عام ١٩٣٥ في أحوال مختلفة كل الاختلاف عن أحوالها الحاضرة ، وهو لا يفضل قوانين مصر . أما قانون العراق ، فقد وضعه رجالها الأفذاذ عام ١٩٣٦ ، وهو أفضل القوانين الشرقية ، غير أنه أيضا بحاجة إلى التمحيص والمراجعة ، كي يسير فكرة التوحيد التي نعمل على تحقيقها .

وقد يتردد الباحث متسائلا : هل يقتضى الأمر أن يكون هناك قانون واحد لجميع البلاد الشرقية الشقيقة ، أو يكون لكل دولة منها تشريعا الخاص ، على أن تكون هناك

أسس مشتركة يحتم أن يتضمنها تشريع كل دولة . ولما كانت الأفطار العربية متفاوتة من حيث الثروة التي تساعد على الاهتمام بالآثار اهتماماً مشمراً ، ومن حيث درجة الثقافة الأثرية ، وفي بعضها لا تزال المناطق الأثرية بكراً تبشر بوجود آثار كثيرة وتحتاج لجهود هائلة ، وهي كذلك مختلفة من حيث طبيعة تلك المناطق ، ووسائل حراستها وصيانتها ، وأنواع الآثار بكل قطر منها ، فقد يكون من المتعذر أن ينطبق قانون واحد على جميع تلك الحالات المتباينة . ويحسن في هذه الحالة أن يكون لكل دولة قانونها ، الذى يشمل المواد المشتركة ، مع ترك الأمر لها فى اتخاذ أساليبها الخاصة ، فى معالجة الأمور التفصيلية والإجراءات الإدارية والمالية ، حسبما يلائم أحوالها . والأمر فى ذلك مفوض لهيئة لجنة القوانين الموقرة .

وأول تلك المواد المشتركة ، هو المحافظة على الآثار من العبث والهدم والتشويه والسرقة والتهرب ، ومنع الاعتداء على المناطق الأثرية والحفر بها خلسة ، ووضع العقوبات الرادعة لمن يقترب شيئاً من ذلك ، ومن أهم ما يجب بحثه فى هذه المسألة موضوع ملكية الآثار العقارية ، وهل يظل للفرد حق تملكها ، ويكفى لصيانتها نظام التسجيل الذى أخذت به قوانين الآثار فى عدة دول شرقية ، أو يحتم أن توزع الدول ملكية كل الآثار العقارية ، وتضيفها لجانب الحكومة ضماناً لحفظها من الاعتداء والتلف ، إن هى تركت فى حوزة الأفراد ، كما دلت التجارب وحدث فعلاً برغم العقوبات المقررة لذلك . وباب هذا الموضوع مفتوح للبحث فى جانبكم الفنية . فإن لم يؤخذ بالشرط الثانى لأسباب هامة ، قد نجعل تنفيذه متعذراً ، فلا أقل من أن نحيط ذلك فى القوانين بسياج من الحذر والحيلة لصيانة الآثار ، وأن نقرر عقوبات صارمة للأفراد الذين يتهاونون أو يعتدون على الآثار التى فى حوزتهم .

ويحسن أن يستتبع هذه المسألة من القانون أيضاً النص على حق كل دولة من دول الجامعة ، فى استرداد أى أثر يكون قد تسرب منها بطريق غير مشروع إلى دولة أخرى من دول الجامعة . ولما كان القانون العام لا يشمل هذا الحق ، فلذلك يتعين إثباته فى القانون المشترك .

والمادة الثانية تعنى بشئون البحث عن الآثار، والقواعد اللازمة لأعمال الحفر، ومنع الحفر خلسة . ويتضمن ألا يجوز عمل مجسات أو حفائر أو كسح أثرية من المناطق الأثرية للبحث عن آثار، ولو كانت الأرض ملكاً للفاعل، ما لم يكن بيده رخصة صادرة من السلطات المختصة . ولا يجوز إعطاء هذه الرخصة إلا للعلماء المكلفين من الدولة بهذا العمل، أو للبعثات والهيئات التي توصى بها الجامعات والمتاحف العالمية، على أن تكون محدودة الزمان والمكان، وبشروط منها الكفاية والقدرة على التنقيب من الوجهتين العلمية والمالية، وأن يتعهد المرخص له ببقاء الآثار العقارية وبقاياها وكذلك الآثار المنقولة الضخمة في أماكنها الأصلية، أو بردها إليها إذا نقلها أثناء الحفر وأن تكون الآثار الناتجة من أعمال التنقيب كلها ملكاً للدولة، مع جواز النزول عن جزء منها مكافأة للجامعة أو المتحف الذي تقوم البعثة بالعمل لحسابه . ولكن يشترط أن تكون الآثار التي ينزل عنها من المكررات، وألا تكون من الآثار النادرة، أو التي تدخل ضمن المستندات التاريخية لحضارة الدولة أو الدول الشرقية أو تكون لازمة لإحدى دول الجامعة لتسككة مجموعاتها . وينبغي أن توضع الاحتياطات اللازمة لضمان تنفيذ شروط الرخص .

ونود أن نذكر هنا أن بعض الحريصين على آثار بلادهم من رجال الشرق العربي يرون منع البعثات الأجنبية بتاتاً من مباشرة الحفر في بلادهم، كما هي الحال في بعض الممالك، غير أن معظم المعتدلين من المعينين بشئون الآثار، يجذون السماح للهيئات الأجنبية بالحفر والتنقيب، ويرون في ذلك فوائد جمة تعود على البلاد، منها المعاونة في الكشف عن الآثار الكثيرة التي لا يخلو منها بلد من بلدان الشرق العربي والتي تعجز ميزانية تلك البلاد عن تحمل أعباء استخراجها، ومنها المساهمة في دراسة تاريخ حضارة بلاد الشرق العربي دراسة وافية والنشر عنها نشرًا علميًا فذاً، بوساطة علماء خصصوا أنفسهم لذلك، وقضوا سنوات كثيرة يمارسونه بمهارة وخبرة، ولا سيما أن بعض بلاد الشرق لما تبلغ بعد الدرجة المطلوبة في الثقافة الأثرية التي تستطيع معها مباشرة هذا العمل بنفسها على الوجه الأكمل . والبت في ترجيح أحد الرأيين متروك للجان المؤتمر، على أننا لو أخذنا بالثاني

من الرأي لحتم علينا أن نضع لتلك الرخص الشروط اللازمة لضمان سلامة الآثار وحفظ المناطق الأثرية، ولا يكون ذلك إلا بتعيين موظفين قنين من الوطنيين، لملازمة البعثات القائمة بالحفر، وقانون العراق أوفى القوانين في هذه الناحية .

ولقد لوحظ أن حراسة المناطق الأثرية في وقت العمل، والمحافظة على الآثار التي يكشف عنها، من الصعوبة بمكان على رجال البعثات الأجنبية لعدة أسباب. ويحدث من جراء ذلك أن تتسرب الآثار، وتظهر في الأسواق، ويتبع ذلك إشاعة وضجة، تسمى سمعة البعثات نفسها. وقد حاولت بعض الحكومات الاكتفاء بالتفتيش الدوري على أعمال البعثات، تنفيذاً لما نص عليه في قوانينها. ثم أحمل هذا أيضاً شيئاً فشيئاً، لما ظهر فيه من الغشاضة في نظر رجال البعثات. وهكذا أصبح لضمان تنفيذ الشروط الواردة في رخص الحفر، سوى الثقة المطلقة بالبعثة القائمة به .

والثالث يتعلق بتجارة الآثار. والحقيقة أنه نجم عن السماح بتجارة الآثار وتداولها يبعاً وشراء، ضرر عظيم حاق بالبلاد. فتجارها يثرون أكثر من تجار الخدرات، إذ أنها ذات قيمة عظيمة، وهواتها ثروة يدفعون فيها أثمناً خيالية. مما كان سبباً في تهافت الكثيرين على مزاوله تلك التجارة محاولين الحصول على الآثار بالطرق المشروعة وغير المشروعة، محرضين الأهالي على أن يعملوا معاوهم في المناطق الأثرية في غفلة من الحكومات، وأن يهشموا نقوش المعابد والمقابر، كي يقدموها لقمة سائغة لهم. كذلك الحال في حيازة الأفراد للآثار تحت ستار «الهواية»، فهي أشد ضرراً بصالح البلاد. ومعظم هؤلاء الذين نعمتهم القوانين بالهواية إنما يتخذون من تلك الصفة ستاراً للتجارة، والهواة الحقيقيون منهم يعملون ما يعمله زملاؤهم التجار من التحريض على سرقة الآثار والحفر خلسة لاستخراجها إشباعاً لهوايتهم .

على أن حيازة هؤلاء للآثار هي نوع من أنواع الاحتكار، لا يقره الصالح العام، إذ أن هذه الآثار تصبح محبوسة لمتعهم الخاصة، فلا هي معروضة للجمهور للتمتع برؤيتها كما يتمتع برؤية الآثار الأخرى المعروضة بالمتاحف، ولا هي في نطاق البحث العلمي العام .

بسبب ذلك كله انجبت الأفكار الآن إلى وقف تجارة الآثار ، والحد من حيازتها للهواة ، ووضع القيود على تداولها كسلع ، ثم تنظيم أمر الآثار الموجودة في الأسواق أو لدى الهواة ، تنظيمًا يكفل الانتفاع بها بطرق مشروعة ، ولذلك سيبلان : أولها تسجيل الأثر تسجيلًا يلزمه في انتقاله من يد إلى أخرى . وهذا ما أخذ به قانون العراق الشقيق ، بالرغم من أنه لا يخلو من صعوبة قد تتجسم في مصر ، لكثرة الآثار المتداولة في الأسواق أو لدى الهواة ، مع قلة أهمية معظمها ، ولا سيما أن هناك آلافًا منها صغيرة متشابهة بعضها مزيف وبعضها مشكوك فيه . والسبل الثاني أن يقوم كل من لديه آثار بتقديم بيان مفصل بها ، مع وصفها وصفًا ينفى كل التباس بينها ، إلى مصلحة الآثار المختصة التي تقرر هذه البيانات وتصدق عليها ، على أن تخطر المصلحة بكل ما يستجد لدى التاجر أو بما يتصرف فيه من بضاعته .

وقبل أن أنهى كلمتي ، أود أن أوجه النظر إلى خطر تزيف الآثار ، فقد بلغ من الكثرة إلى درجة تهدد الآثار الحقيقية ، وما يرادفها ، واستمرار تزيف الآثار هكذا يتعارض مع الرغبة في الحد من تجارتها . إذ يتعذر الأخذ بنصية التاجر المتلاعب ، إن هو خلط بين الآثار الحقيقية والمزيفة ، ويتخلص من العقاب بهذه الوسيلة . إن بعض قوانين البلاد الشرقية قد منعت تزيف الآثار ، أما تقليدها لأغراض علمية أو فنية فممكن السباح به ، وهذا ما يجب أن تشمل القوانين جميعاً .

وإني على استعداد لتقديم جميع ما يلزم من البيانات والتوضيحات في هذا الموضوع إلى اللجنة المختصة ، راجياً أن يوفق حضرات أعضاء المؤتمر كل التوفيق في هذا الموضوع لصالح جميع دول الجامعة . والسلام عليكم ورحمة الله .

علاقة مصر بشعوب الشرق القديم

في عصور فجر التاريخ

لدر كنور عبر المنعم يوسف أبو بكر

لقد برهن العلم الحديث أن الإنسان كان يعيش على وجه الأرض في عصور تسبق بألاف السنين تلك التي استطاع علم الآثار أن يحدد فيها بعض الحقائق عن حياة الإنسان الأول بواسطة المخلفات البشرية .

ويقسم العلماء تاريخ الأرض إلى خمسة عصور ، ظهر الإنسان في آخرها ، وهو العصر المعروف بعصر البليستوسين (Pleistocene) ويمتاز هذا العصر بوجود أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم الآن . فالجليد كان يكسو أوربة ، على حين كانت أقاليم البحر الأبيض المتوسط الجنوبية تتمتع بما يشبه جو أوربة الحالى ، فعمت من جراء ذلك بثروة نباتية هبات يثمة تصلح لحياة قطعان من الحيوان ، كالوعل والنعام والأغنام والأبقار الوحشية . وكانت حياة إنسان ذلك العصر تركز في محاولة قنص الحيوان والنقاط الثمار ، وهى حياة لا تدفع إلى الاستقرار ، فلجأ إلى الكهوف يعيش فيها بعض وقته ، ودفعته الحاجة إلى استعمال ما تحت يده من الطران والحجارة فحولها إلى أدوات بدائية تقي بالغرض الذى يسعى إلى تحقيقه من الدفاع عن نفسه ضد الضواري ومحاولة صيدها . ويسمى هذا العصر بالعصر الحجري القديم ، وهو عصر لم يعرف الإنسان فيه الاستقرار ، كما قدمنا ، ومن ثم لم يحترف الزراعة .

وتشابهت حضارة الإنسان الأول الذى عاش في ذلك العصر في جميع المناطق التى عثر فيها على مخلفاته ، فالآلات المتخذة من الطران التى استعملها الإنسان في مصر هى بعينها الآلات التى استعملها إنسان سورية وبلاد ما بين النهرين .

وبانقضاء عصر البلستوسين المعروف أيضاً بالعصر المطير، انقضى الدور الأول من حضارة الإنسان، وحل عصر الجفاف الذى دفع بالإنسان إلى السهول والوديان حيث تنوافر المياه. ولا غرابة فى ذلك، إذ أن الأماكن التى كان يسكنها بدأت تجف وتحول إلى صحارى، وهجرها الحيوانات. وأخذ الإنسان يحاول الاستفادة من البيئة الجديدة التى حولته إلى ناحية الزراعة، ومن ثمة إلى الاستقرار، وبدأ الناس يتجمعون فى أوطان صغيرة، فلت الوحدة الإقليمية الثابتة محل الوحدة القبلية المتنقلة، وتألفت جماعات من الناس ارتبطت حياتهم بالأرض ارتباطاً وثيقاً يدافعون عنها ويحاولون توسيع رقعتها باغتصاب ما يجاورها. وهذا هو ما نسميه بالعصر الحجري الحديث الذى يمتاز أكثر ما يمتاز بالاستقرار، وبأن كل شعب أخذ يتأثر بالبيئة المحيطة به، ومن ثم بدأت تظهر فروق واضحة المعالم بين الحضارات المختلفة فى شعوب الشرق القديم، فطبعت كل بيئة حضارة شعبها بطابع خاص يتفق مع مقتضيات الحياة فيها.

وقد اعتمدت مصر — وهى الواحة الممتدة فى شريط ضيق لايزيد أعرض أجزائه عن أربعة عشر ميلاً من الشرق إلى الغرب — اعتمدت الاعتماد كله على نيلها الذى هو نعمة يهب الحياة والنعماء لأهلها وزرعها، ونقمة إذا ما فاضت أمواحه أهلكت الحرث والنسل. فكان النيل لذلك من أهم الأسباب التى دفعت المصريين إلى الاتحاد، إذ اضطروا منذ فجر التاريخ إلى العمل متحدين على تنظيم شئون الري ومتعاونين على حماية قراهم من خطر الفيضان. ولذلك كانت مصر هى الأمة الأولى بين أمم الشرق القديم التى نعمت منذ أول تاريخها باتحاد كامل تحت حكم ملك واحد.

أما سورية وبلاد ما بين النهرين فقد امتدت السهول فيها امتداداً واسعاً، فظهرت فيها دويلات المدن (City States) التى هى عبارة عن مدن كبيرة يتوسط كلا منها معبد الإله ولكل منها حكومة مستقلة على رأسها أمير، هدفه الذى يسعى إليه هو أن يزيد مساحة الأراضى المزروعة المحيطة بمدينته حتى تزدد ثروته ومن ثم قوته. ولقد كان يحدث أحياناً أن يتغلب أحد هؤلاء الأمراء على أمير مدينة مجاورة فيضمها إليه، كما وقع ذلك بالفعل

بالنسبة إلى الملك (Eanatum) ملك « لجش » الذى هزم كلا من أميرى أود وأروك وكذلك الملك (Lugal-Zaggisi) الذى يغلب على الظن أنه تمكن من تشييد مملكة مترامية الأطراف حوالى عام ٢٨٠٠ ق. م^(١). ولكن هذه الانتصارات كانت مؤقتة عاشت مع أصحابها ودقت معهم. ومن الثابت أن بلاد ما بين النهرين لم تعرف الملكية الموحدة إلا فى عصر متأخر.

ويجد المؤرخ نفسه أمام عقبات كثيرة ليس من السهل التغلب عليها إن هو حاول أن يحدد عصور فجر التاريخ فى مصر وأمم الشرق القديم بالنسبة لبعضها البعض، فإنه لا يملك نقوشاً مكتوبة تعاونه على هذا التحديد، بل كل ما لديه مخلفات بشرية من مثل الأوانى الفخارية والآلات الطرانية وأدوات الزينة. وهذه ليست كافية لتحديد هذه العصور، وهى إن دلت على شىء فأنما تدل على تشابه حضارة إنسان ما يعيش فى منطقة معينة، وحضارة إنسان آخر يعيش فى منطقة أخرى، كما أنها تدل أيضاً على تتبع انتقال هذا الإنسان ومعه حضارته من منطقة إلى أخرى. وتبعاً لذلك فإنه من العسير أن نجزم برأى قاطع: أى شعوب الشرق القديم أقدم؟

ولقد استمر هذا السؤال موضع جدل بين علماء الآثار، ولم يخرجوا من هذا الجدل برأى قاطع، بل ذهب كل فئة منهم تعنى بدراسة شعب معين إلى أن شعبها المختار هو أقدم الشعوب حضارة. على أننى أميل إلى الاعتقاد بأن الشعب الذى سكن منطقة بلاد ما بين النهرين الجنوبية هو الشعب الوحيد الذى يمكن أن نرجع بتاريخه إلى عصر يعادل عصر فجر التاريخ فى مصر، وهو شعب « شومير » الذى عاش فى الدلتا التى تكونت شمالى خليج فارس، والتى ساعد على تكوينها انحسار مياه البحر عنها بترام الغرين الذى أرسبته مياه دجلة والفرات. ولقد اتخذ إنسان شومير فى أول أمره لسكناء أكواخا عالية من الغاب أقامها على قواعد من القصب، كى يتقى المستنقعات التى كانت تزرعها هذه المنطقة. ولقد كانت وسيلة انتقاله بين هذه الأكواخ قوارب صغيرة صنعها من القصب كذلك.

Junker-Delaporte: Völker des Antiken Orients (1933) Page 207. (١)

ولكن إذا كانت هذه المنطقة بصورتها التي نعرفها لم تكن صالحة للحياة قبل تكوين الدلتا المذكورة، فمن أين أتى شعب الشومير، وإلى أى جنس ينتمى؟ لقد ظن أولاً أنهم ساميون، ولكن عدل عن هذه النظرية عند ما تبينت الفروق الواضحة بين جحاجهم وجحاجم الساميين، والنظرية التي استقر عليها رأى العلماء أخيراً^(١) هي أنهم ينسبون إلى شعوب كانت تسكن أفغانستان ومنطقة نهر السند، وساعد على قيام هذه النظرية ما عثر عليه (Sir John Marshall) في المنطقة الشمالية الغربية من الهند في هارابا (Harappa) وموهندجو دارو (Mohendscho Daro) — وكلاهما من المحلات التي كانت مأهولة بالسكان في عصور فجر التاريخ — من آثار تشبه إلى حد كبير ما وجد في سوسة. كما أن العالم (De Sarzec) عثر في لجش على آثار شبيهة بتلك التي عثر عليها مارشال في هارابا وموهندجو دارو.

ولقد عثر في منطقة سوسة على نوعين من الفخار، يعرف الأول باسم (سوسة ١) وهو عبارة عن أوان كبيرة يميل لون سطحها الخارجى إلى الصفرة وتزينه رسوم سوداء اللون، والنوع الثانى وبطلق عليه (سوسة ٢) يمتاز بأن رسومه ذات لون أحمر، ويشبه النوع الأول ما عثر عليه في المناطق الشمالية الشرقية، مثل هضبة إيران حتى بلوخرستان، ولذا سميت هذه الحضارة بالحضارة الجيلية، على حين أن النوع الثانى يشبه ما عثر عليه في المناطق الشمالية الغربية حتى جبال طوروس. وقد انتشر بنوع خاص في حوضى الدجلة والفرات، ولذا سميت هذه الحضارة بحضارة السهول. ولنا أن نقول إن الحضارة الجيلية هي حضارة شعب شمالى هو شعب الآريين القدماء، وإن حضارة السهول هي حضارة شعب شومير. ولنا أن نضيف إلى ذلك حقيقة أخرى هي أن الحضارة الأولى دخيلة وأن الحضارة الثانية أصيلة.

ولكن هل كانت هناك علاقة بين مصر والشومير في تلك العصور؟ من المسلم به أن شومير ومصر كانتا على اتصال في أواخر العصر الحجري الحديث وأوائل العصر التاريخي المصري، بل إن هناك من الباحثين من يقرر أن مصر كانت متأثرة إلى درجة ما

Junker-Delaporte : Völker des Antiken Orients (1933) p. 181. (١)

بمناصر من الفن الشوميرى، إذ عثر على مظاهر كثيرة لا يمكن أن تكون المصادفة البحتة مبعثها الوحيد، كما يتجلى ذلك فى الأمثلة الآتية :

١ — حضارة نقادة الثانية — وهى إحدى حضارات العصر الحجري الحديث فى مصر — بها أوان فخارية زينت سطوحها الخارجية برسوم مختلفة من بينها المثلث المتكرر الممتد حول رقابها، والخطوط المتموجة والطيور المائية ذات السيقان الطويلة (شكل رقم ١) فى وحدات متكررة. هذه العناصر الزخرفية بعينها نراها ممثلة على الأوانى التى عثر عليها فى سوسة وترجع الى العصر نفسه (شكل رقم ٢).

٢ — استعمل المصريون فى أواخر العصر الحجري الحديث وفى أوائل العصر التاريخى سدادات من الغرين مخروطية الشكل لتغطية الأوانى الضخمة التى اعتادوا أن يخزنوا فيها الحبوب والزيت، وكان من عاداتهم أن يطبعوا فوق هذه السدادات صوراً وكتابات بواسطة خاتم أسطوانى الشكل، حفرت عليه هذه الرسوم والكتابات. هذه الأختام الأسطوانية عرفها الشوميريون قبل المصريين، كما أنها استعملت بوجه خاص فى المناطق التى عرفت الخط المسمارى وزاويلته (شكل رقم ٣).

٣ — هناك سكين من حجر الظران عثر عليه بمصر بجبل العرق، وسمى من أجل ذلك باسم سكين جبل العرق (محفوظ الآن بمتحف اللوفر) له مقبض من العاج حفرت على وجهيه رسوم تستلقت النظر. نشاهد على أحد الوجهين صورة معركة بين المصريين وشعب أجنبي. أما الوجه الآخر فعليه صورة رجل واقف بين أسدين واقفين على قدميهما الحلفتين، وقد استند كل واحد منهما بإحدى قدميه الأماميتين على الرجل الذى أمسك بكل من الأسدين بإحدى يديه ويلاحظ أن سحنة الرجل غير مصرية وأن لحيته ولباسه الطويل يدلان على أنه شوميرى الأصل^(١) (شكل رقم ٤).

٤ — ولقد عثر فى مصر على تمثال من الجرانيت الأسود لأسد قابع، وفاغر فاه (صورة رقم ٥) (كان فى متحف برلين إلى ما قبل الحرب الأخيرة) وصناعة هذا الأسد

(١) H. Frankfort : Mesopotamia, Syria and Egypt, and their earliest Interrelations I p. 122.

غير مصرية ومتأثرة إلى حد كبير بالفن الشوميرى ، فكل تماثيل وصور الأسود لدى الشوميريين فاخرة فأها ، مما يقطع بأن صانع هذا التمثال إما شوميرى الأصل ، أو مصرى متأثر إلى حد كبير بالفن الشوميرى ، ولا سيما إذا لوحظ أن تماثيل الأسود لدى المصريين القدماء كانت منذ عصر فجر التاريخ مطبقة الفم (شكل رقم ٦) .

٥ — وأخيراً نستطيع أن نشير إلى ألواح السكحل المتخذة من حجر الأردواز والتي ظهرت فى مصر فى أواخر العصر الحجرى الحديث ، فإن الكثير منها يتضمن مناظر تمثل حيوانات طويلة العنق (شكل رقم ٧ و ٨) هذه الظاهرة الفنية قد توارت تماماً من الفن المصرى القديم منذ عهد الأسرات ، ولكنها ظهرت فى الفن الشوميرى ^(١) وأصبحت من أخص مميزات الفن البابلى فيما بعد .

هذه المظاهر كلها تقطع بوجود لون من ألوان العلاقات ، نشأ بين شومير ومصر فى تلك العصور السحيقة ، وليس من الممكن أن تكون المصادفة وحدها هى التى أملت هذه الألوان من المشابهة . ولعل هذا ما حدا ببعض العلماء إلى أن يفترضوا قيام الاتصال بين البلدين من طريق بلاد العرب أو من طريق موانئ البحر الأبيض المتوسط ، وحجتهم فى ذلك هى أن البلاد الواقعة فى أواسط آسية الصغرى ، وكذا فى سورية وبلاد ما بين النهرين تمتعت فى عصور فجر التاريخ بحضارات متشابهة ربما جاء تشابهها عن الفتح السياسى أو العلاقات التجارية أو تشابه البيئة ، مما جعل كل حضارة منها تتقدم فى الاتجاه نفسه بشكل مُشابه . ويغلب على الظن أن هذه العلاقات نشأت كأثر مباشر للتبادل التجارى ، فإن شومير كانت بمنابة محط تتلاقى فيه القوافل التى تسير بين بلاد شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة شرقى شومير . ومما يقوى هذه النظرية حقيقة أخرى هى أن شومير ليس بها معدن النحاس ، ولكنه عثر فيها على الرغم من ذلك على قطع كثيرة منه تدل على تفوق فى صناعته ، وهى جميعها تشبه فى طريقة صنعها وشكلها الخارجى الآلات التى عثر عليها بمصر وسورية من العصر نفسه ، ويفسر ذلك بوجود مناجم للنحاس

في غرب آسية الصغرى، وبانتقال طريقة الصناعة إلى سورية ومصر وشومير بعد تطورها هناك .

هذا فيما يتعلق بعلاقة مصر وبلاد شومير في عصر فجر التاريخ . أما علاقتها ببلاد فينيقيا إبان تلك العصور فلا شك فيها .

لقد حدثت في القرن الثلاثين قبل الميلاد هجرات واسعة من الساميين الذين تركوا أوطانهم واتجهوا شمالا واستوطنوا جزءاً من سورية، ثم تقدم فريق منهم حتى بلاد بين النهرين، وتمكن فريق ثالث من الوصول إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واتجه شمالا حتى ذلك الجزء الذي عرف في التاريخ بأن الفينيقيين سكنوه . ويظهر أن سكان هذه المنطقة الأصليين اضطروا تحت ضغط هذا السيل المستمر من الأعراب أن يهجروا بلادهم . والدليل على ذلك أن جميع الأسماء الجغرافية من أمكنة وأنهار هي أسماء سامية بحتة، ولقد سكن هؤلاء الأقوام الأصليون بلاد فينيقيا في عصور غابرة، وكانوا على حضارة بدائية وخلت مخلفاتهم من كل معنى من معاني الفن . ويمكن الأستاذ (Pater Zumhoffer) أحد أسانذة جامعة بيروت من العثور على بعض آثارهم، وهي ترجع إلى النوع السكالوسى (Chalossien) وهي حضارة نادرة لم يعثر على شبيه لها إلا في منطقة (Departement) في فرنسا ومنطقة العباسية بالقرب من القاهرة .

إذن فالفينيقيون ساميون كنعانيون استوطنوا منطقتهم هذه في عصر سابق على سنة ٣٠٠٠ ق.م، ثم احتلوا بعد ذلك بأجناس مختلفة كالمصريين الذين كانوا يترددون على بلادهم لإحضار الخشب، والحيثيين الذين أخذوا يمدون نفوذهم في الجزء الشمالي من بلادهم، والعاموريين الذين استوطنوا المنطقة الواقعة بين أعلى الفرات وبلاد الحثيين وهم أيضاً من جنس سامي، وأخيراً سكان جزائر بحر الأرخيل الذين كانوا يترددون على هذه المنطقة، فأثروا في حضارة أهلها، حتى إن كلمة فينيقيا عنها يرجعها بعض العلماء إلى كلمة (Φοινός) ومعناها (أحمر) وذلك نسبة إلى نوع من الحيوانات المسائية الحمراء اللون التي كان الفينيقيون يستعملونها بكثرة في الصباغة .

وكان المصريون على علاقة وثيقة بالفينيقين منذ عصر فجر التاريخ، والدليل على ذلك قصة أزوريس وست، وهى من القصص الدينية المصرى الذى يمكن إرجاعه الى عصر فجر التاريخ، فأزوريس كان فى هذا العصر ملكا على مصر ثم قتله أخوه ست حسداً منه ورغبة فى الاستئثار بالملك دونه، وألقى بجثته فى البم بعد أن وضعها داخل صندوق فحملها التيار إلى مدينة جيل بفينيقيا، وهى أقدم مدنها، وكانت على صلات مستمرة بالمصريين .

وقام المسيو مونتيه (Montet) ومن بعده المسيو دونان (Dunand) بحفائر واسعة فى منطقة جيل، أمكن من ورائها معرفة مدى علاقة هذه المدينة بمصر منذ أول عصور التاريخ ثم أثبت الأستاذ زيه (Sethe) أن كلمة (Kbn.t) كبت التى اعتدنا ترجمتها بكلمة سفينة أو أسطول ليست فى الواقع إلا صفة اشتقت من كلمة (Kbn) التى تعنى فى اللغة المصرية القديمة جيلا أو جيل، فيكون على هذا الأساس معنى كلمة (Kbn.t) سفينة فينيقية أو سفينة من صنع جيل .

ولقد ظهر أثر الفن المصرى القديم واضحاً فيما عثر عليه فى مقابر أهل جيل من أدوات جنائزية .

كما أنه من الثابت تاريخياً أن الملك خع — سخموى أحد ملوك الأسرة الثانية المصرية كان على علاقة مع أهل جيل، إذ وجد اسمه منقوشاً على قطعة من آنية عثر عليها هناك، كما أن الملك سنفر وأول ملوك الأسرة الرابعة أرسل أربعين سفينة إلى جيل لإحضار خشب الأرز الثمين .

وعلاقة مصر ببلاد سورية كانت قائمة أيضاً منذ عصور فجر التاريخ، وإذا تحدثت عن سورية فأقصد بذلك سورية الحالية وفلسطين وشبه جزيرة سينا، وكانت سورية فى تلك العصور القديمة تنقسم إلى قسمين : سورية الشمالية، وسورية الجنوبية .

إن من أقدم الأدلة التى تثبت وجود علاقات بين مصر وسورية الجنوبية، هى تلك الأوانى التى ظهرت فى حضارة نقادة الثانية فى مصر والمعروفة باسم الأوانى ذات

المقابض المموجة^(١) . إن الفرين الذى صنعت منه هذه الأواني ليختلف كل الاختلاف عن الطمى الذى صنعت منه جميع أنواع الفخار المصرى الأخرى . على حين عثر فى سورية الجنوبية على أنواع مماثلة ترجع إلى عصور فجر التاريخ^(٢) . إذن فهذه الأواني استوردت من فلسطين وكانت مستعملة لنقل بعض الزيوت الثمينة إلى مصر . ونحدد مبدأ ظهورها بالدرجة ٤٠ من التاريخ المتتابع ، ثم توارت حوالى الدرجة ٦٣ ، أى ظهرت فى عصر حضارة نقادة الثانية وتوارت قبل عصر الأسرات الأولى بقليل . ومنذ ذلك الوقت دخلت سورية الجنوبية فى نطاق النفوذ المصرى ، وبقيت هكذا حتى أواخر الدولة الحديثة .

وابتداء من عصر الأسرة الأولى لدينا ما يثبت وجود علاقات بين مصر وسورية الشمالية ، إذ عثر الأستاذ بترى على أوان فخارية كبيرة ذات عنق دقيق وفوهة مسطحة ولشكل منها مقبض يمتد من الفوهة إلى أسفل العنق . لقد رأى بترى أن هذه الأواني غير مصرية ، ونسبها إلى شعوب جزر الأرخيل^(٣) وظهر فيما بعد أنه مخطئ^(٤) وأنها أوان من صناعة سورية الشمالية ، إذ وردت مصورة بين الأشياء التى أحضرت إلى مصر فى عهد الملك سحورع كجزية قدمتها سورية الشمالية إلى مصر^(٥) .

ولقد كانت سورية الشمالية واقعة تحت التأثير الشوميرى ، ثم البابلى ، وكانت الحضارتان الشوميرية والمصرية تلاقيان وتختلطان فيها .

وهكذا ترون ، أيها السادة ، أن أمم الشرق القديم كانت على علاقات وثيقة فيما بينها منذ أقدم العصور .

Fl. Petrie : Naqnada & Ballas, pp 11, 38.

(١)

Macalister : Excavation at Gezer II page 143 sq

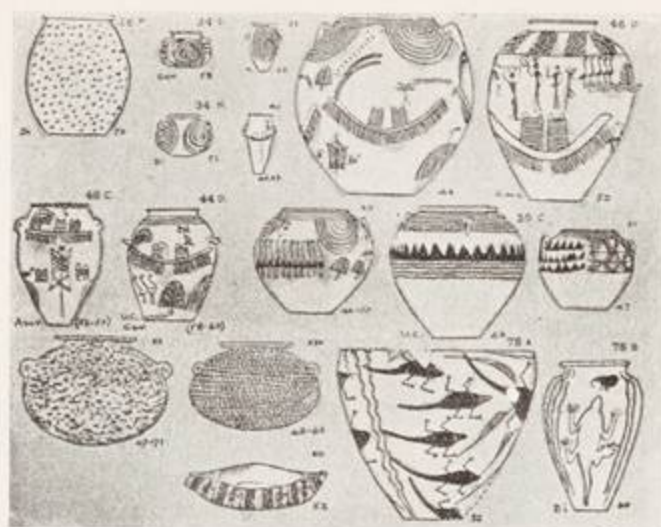
(٢)

Fl. Petrie : Royal Tombs II page 46

(٣)

Borchardt : Das Grabdenkmal des Königs Sahure I Abb 12

(٤)



(شکل رقم ۱)



(شکل رقم ۲)

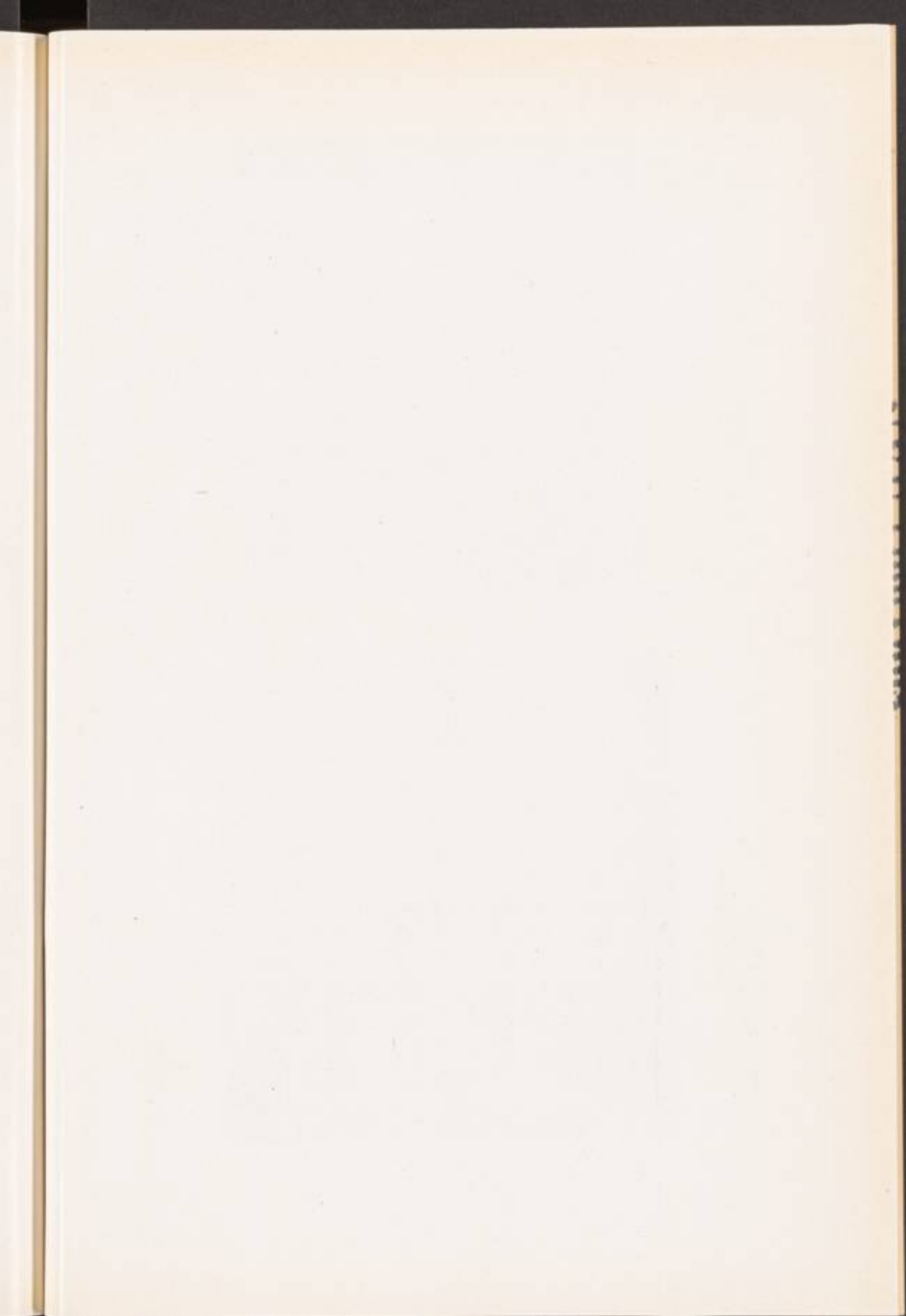


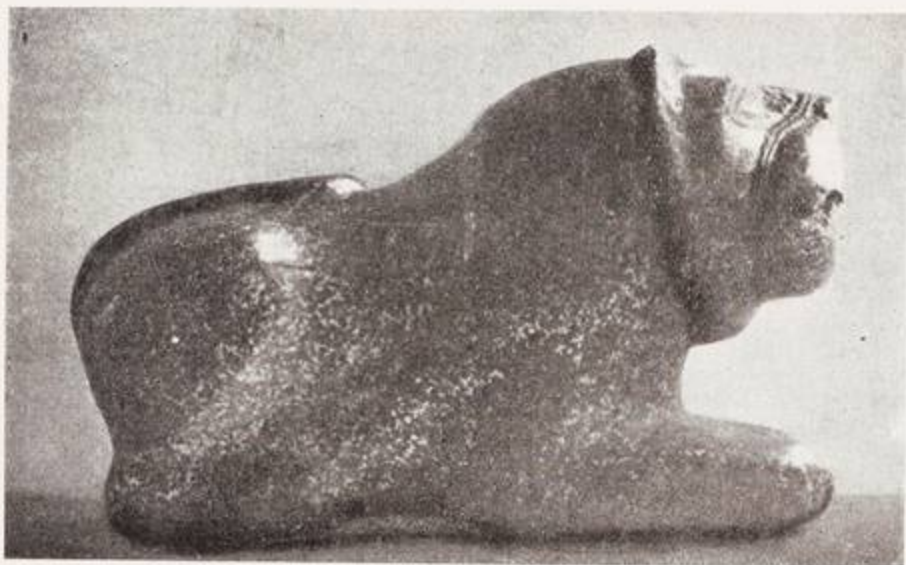


(شکل رقم ۳)



(شکل رقم ۴)





(شکل رقم ۵)



(شکل رقم ۶)



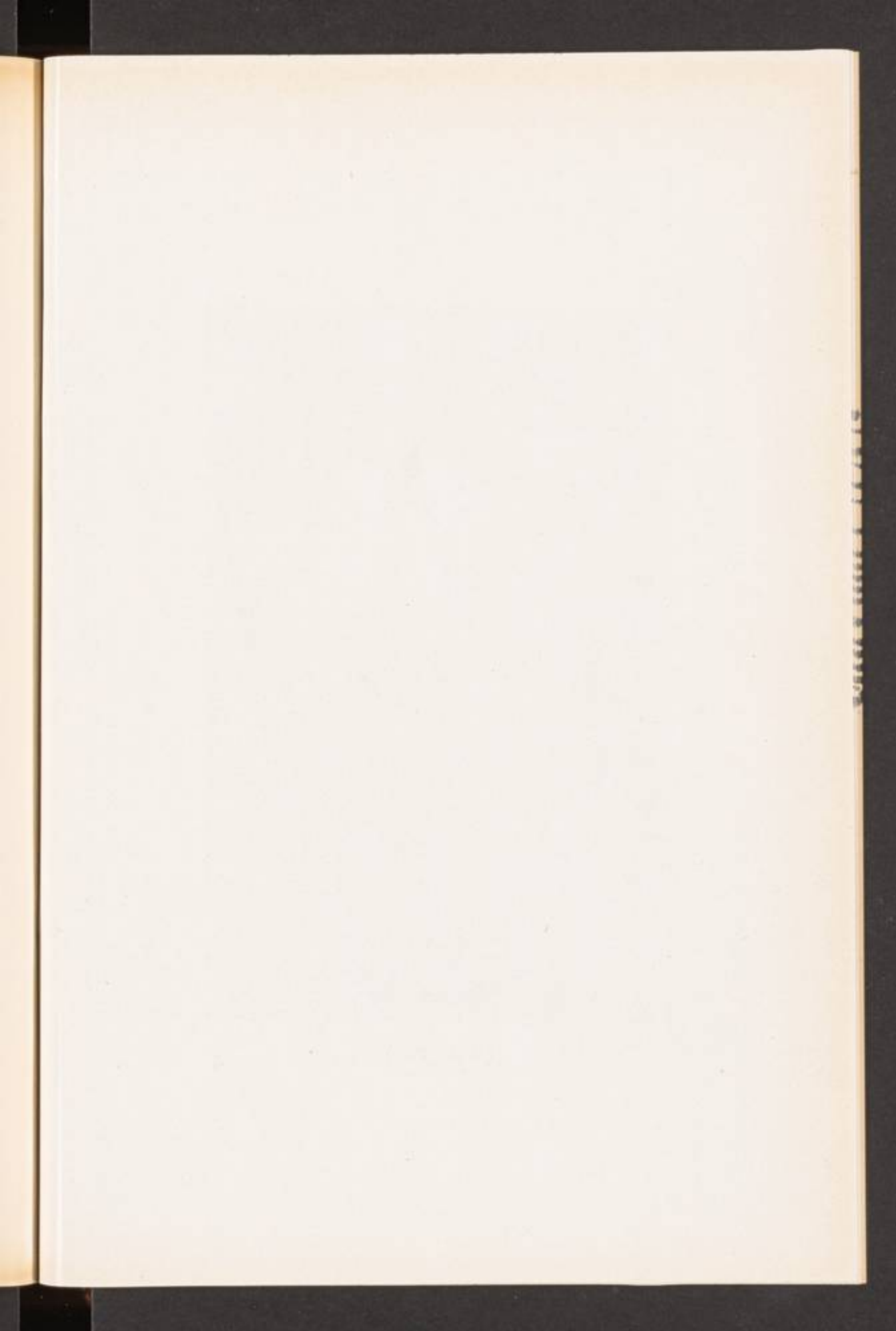


(شکل رقم ۷)





(شکل رقم ۸)



شرف الأبوانى

صانع الفخار المطفى فى القرن الثامن الهجرى

للكنور محمد مصطفى

أثناء اشتغالى فى السنوات الأخيرة بدراسة الأساليب الفنية التى كانت تستعمل فى زخرفة الفخار المطفى فى عصر المماليك ، وجدت توقيع « شرف الأبوانى » على الكثير من القطع الهامة . وقد تبين لى ما تمتاز به هذه القطع من طابع فنى خاص ، فرأيت أن أجعل منها موضوع كتاب ، سوف أشره عند الانتهاء من إعدادة . ولست أبالغ إذا قلت إن شرف الأبوانى هو الواضح لأسلوب خاص فى فن زخرفة الفخار المطفى بالطين المتعددة الألوان ، وإن من جاء بعده من الفخاريين فى القرن الثامن الهجرى قد نسجوا على منواله .

ولم أجد فى مراجع الفن الإسلامى ما يستحق الذكر عن شرف الأبوانى ، فلم يكتب أحد أى شىء عن مميزات أسلوبه الفنى ، أو عن العناصر الزخرفية التى كان يستعملها وطريقة تنفيذها ، بل لم يذكر أحد شيئاً عن شخصية هذا الفنان ، سوى الأستاذ الفرنسى (Abel) فى كتابه الذى وضعه عن الخزاف المصرى « غيبى » . فكتب فى صفحة ١٦ ثلاثة أسطر ، اكتفى بأن يقول فيها إنه يوجد من الأسباب الجدية ما يدل على أن شرف الأبوانى كان مسيحياً . وقد بحثت عن كل ما يمكن أن يستند إليه (Abel) كدليل يثبت كلامه هذا ، فوجدت جزءاً من جدار إناء من الفخار المطفى بالطين ، على أحد وجهيه (الشكل رقم ١) ^(١) سطر كتابة باسم شرف الأبوانى فى عبارة تقليدية اعتاد هذا الفنان

(١) الصور المعروضة هنا من عمل الأستاذ على القاضي مصور دار الآثار العربية .

أن يوقع بها على ما يصنعه من التحف . وعلى الوجه الآخر الداخلى (الشكل رقم ٢) رنك الصليب يتخلل سطر كتابة دعائية تدل على أن هذه الآنية صنعت لصاحب هذا الرنك . ورنك الصليب — كغيره من الرنوك الأخرى — هو شارة تدل على وظيفة صاحبها فى بلاط الممالك ، وشارة الصليب كانت لمستوفى الديوان من المسيحيين .

والراجح أن كلمة « شرف » اختصار لشرف الدين . وشرف الدين يعقبه اسم محمد أو أحمد أو غيره من الأسماء الإسلامية . ولم أجد فى كتب التراجم العربية اسما مسيحيا يعقب شرف الدين .

ومهما يكن من أمر فأنى لا يعينى أن يكون شرف الأبوانى مسلماً أو مسيحياً ، وإنما الذى يعينى أن أؤرخ لفنان مصرى ، بين أيدينا نتاج عمله الفنى ، نستطيع أن نعجب به ، وأن نميزه عن غيره من نتاج الصناع الآخرين .

وكان شرف الأبوانى يوقع فى التحف التى يصنعها بعبارات خاصة به . ويمكننا أن نميز بكل وضوح بين عصرين مختلفين ، تختلف فيهما عبارة التوقيع ، كما يختلف الأسلوب الفنى ونوع العناصر الزخرفية .

فكان يوقع فى العصر الأول بعبارة : « عمل شرف بأبوان » مكتوبة بخط بسيط ، ومحفورة فى طبقة الطلاء على جدار الإناء من الداخل (الشكل رقم ٣) .

وكان يوقع فى العصر الثانى بعبارة التقليدية : « مما عمل العبد الفقير المسكين شرف الأبوانى غلام الناس كلهم العز والإقبال وبلوغ الآمال لصاحبه دام » يكتبها فى سطر أعلى جدار الإناء من الخارج غالبا ، وذلك بخط نسخى مملوكى بارز بالمينا ، ويحدد بخطوط دقيقة من لون يختلف عن لون الكتابة .

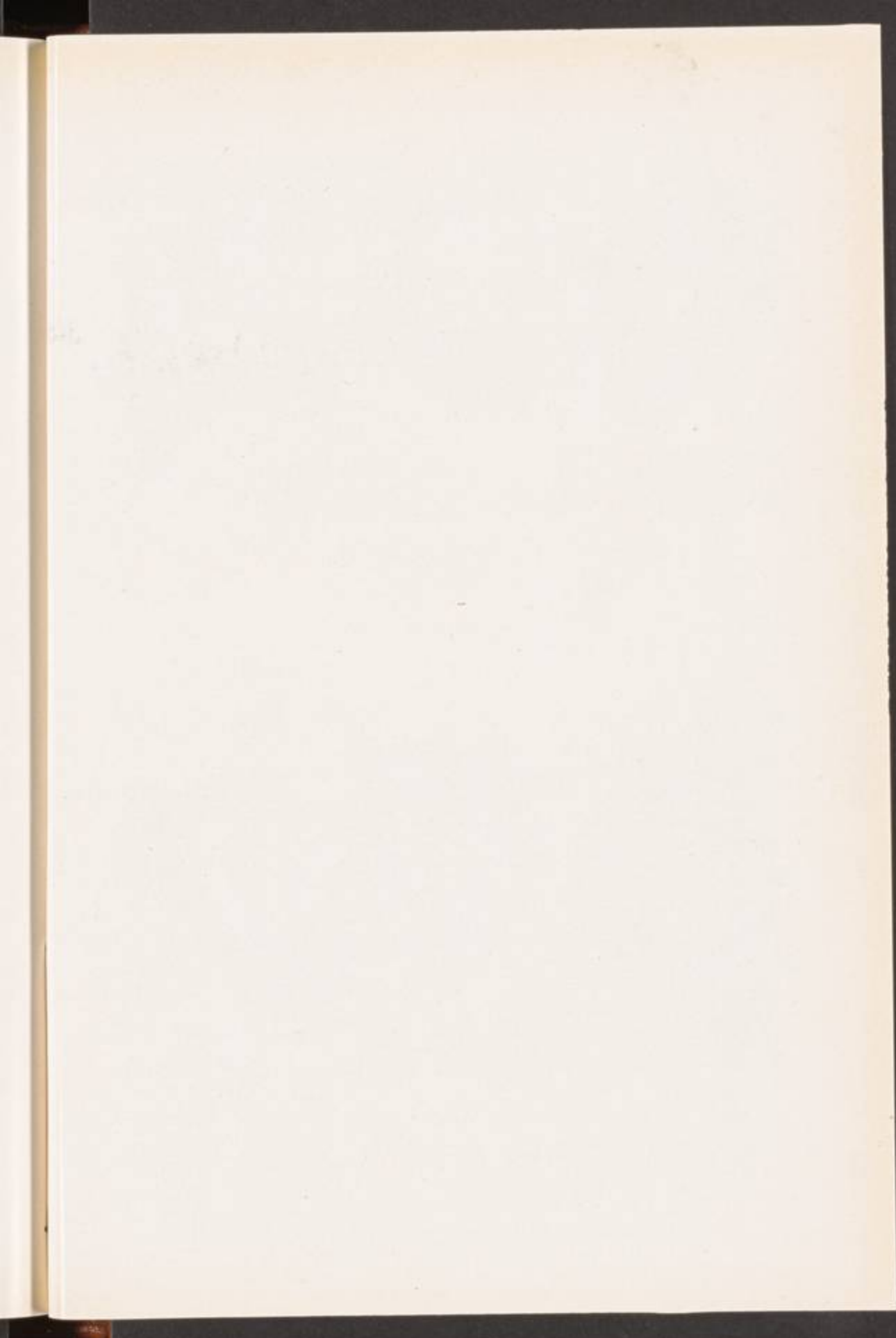
وعلى بعض التحف الهامة التى ترجع إلى هذا العصر الثانى ، نجد التوقيع فى ثلاث كلمات : « عمل — شرف — البركة » تكتب كل منها منفردة على جدار الإناء من الداخل أسفل سطر كتابة باسم الشخص الذى صنع من أجله ، وهذا النوع من التحف مصنوع بناية فائقة (الشكل رقم ٤) .



(شكل رقم ١)
دار الآثار العربية رقم ٥١٤٤/٣

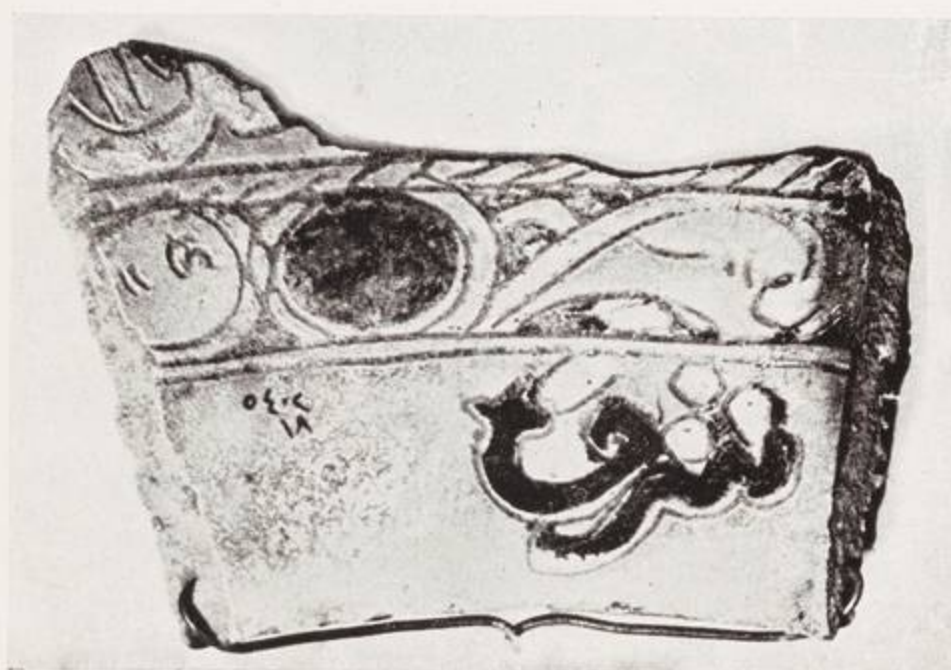


(شكل رقم ٢)
دار الآثار العربية رقم ٥١٤٤/٣

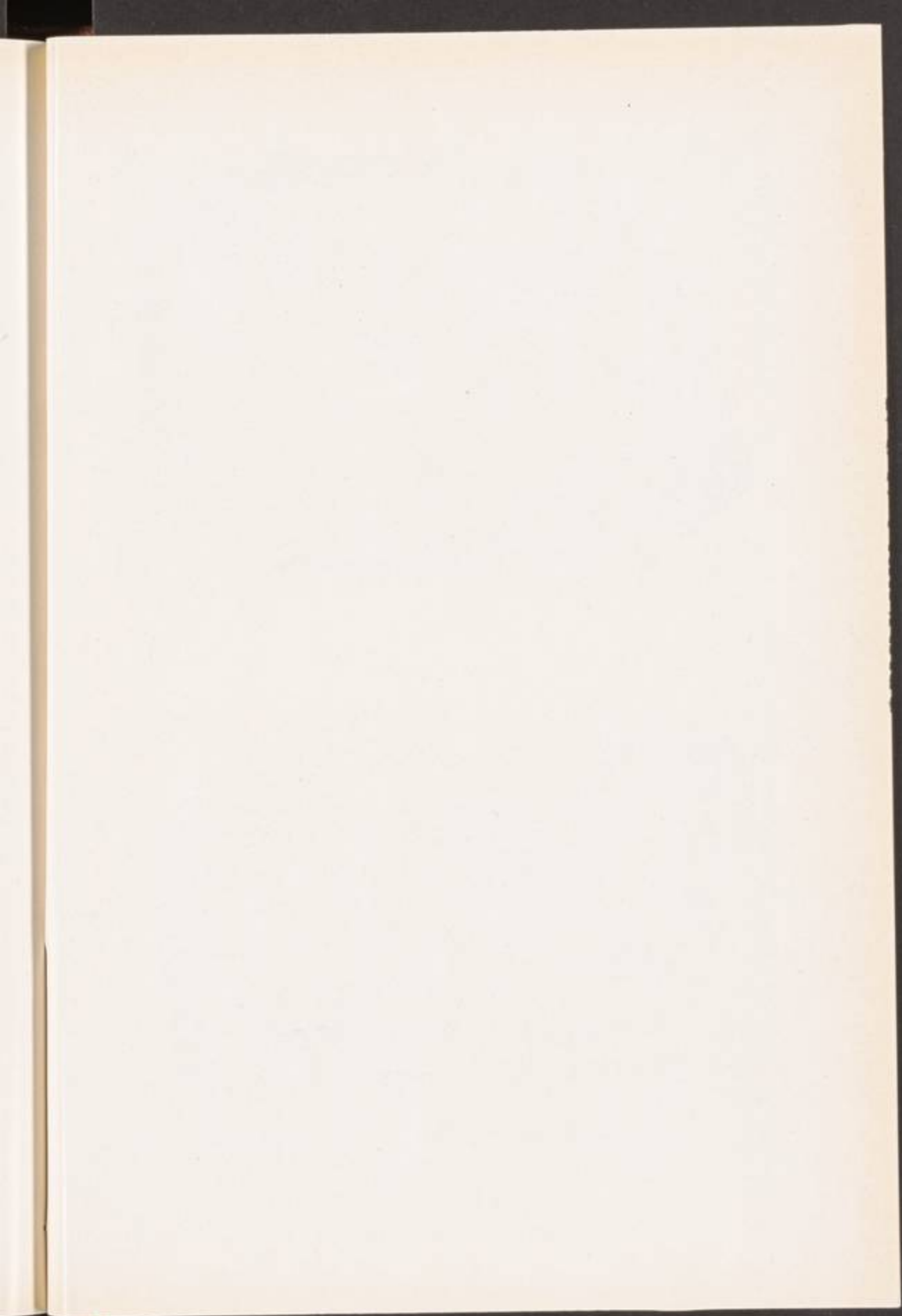




(شكل رقم ٣)
دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٢



(شكل رقم ٤)
دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٨





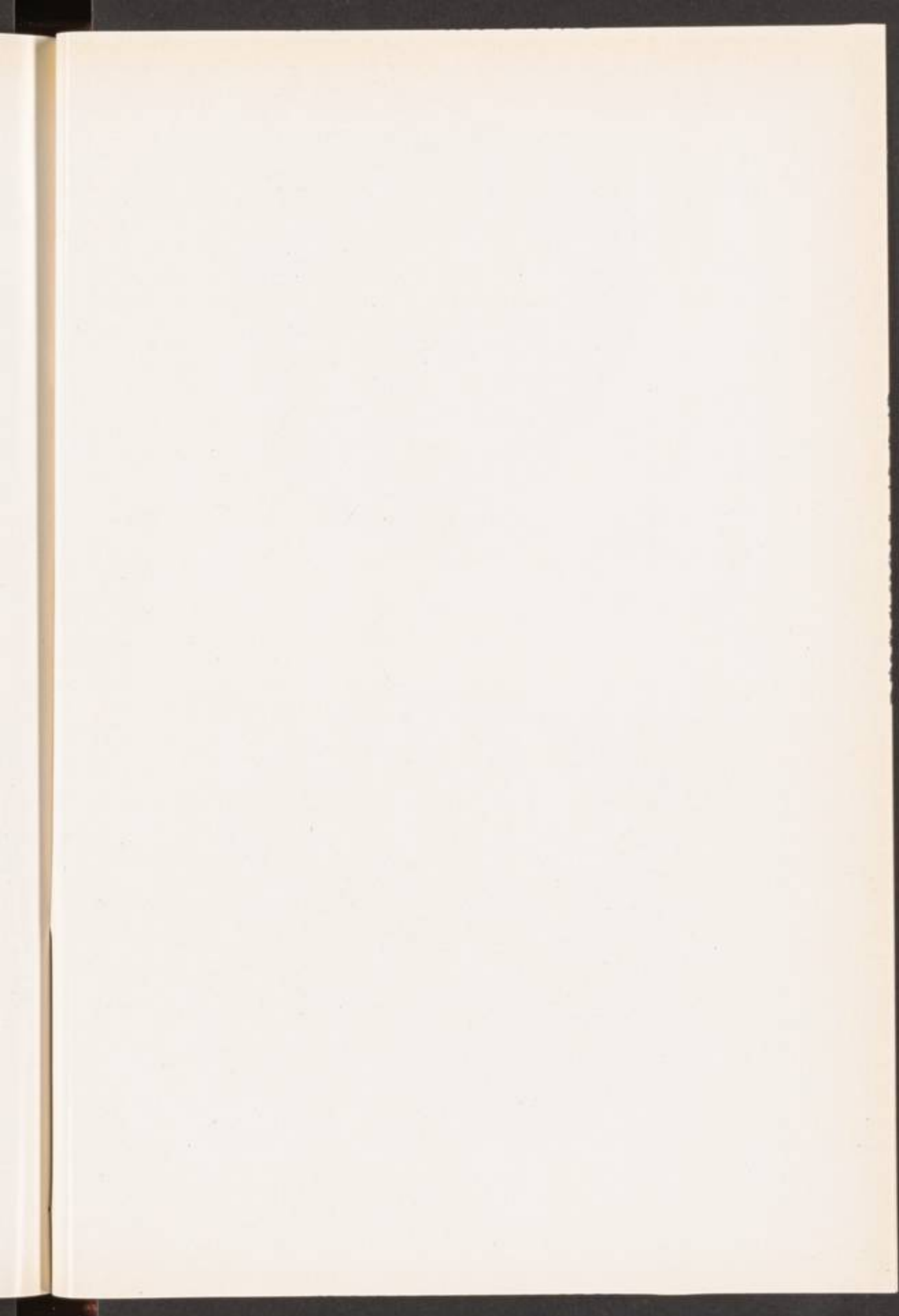
(شكل رقم ٥)

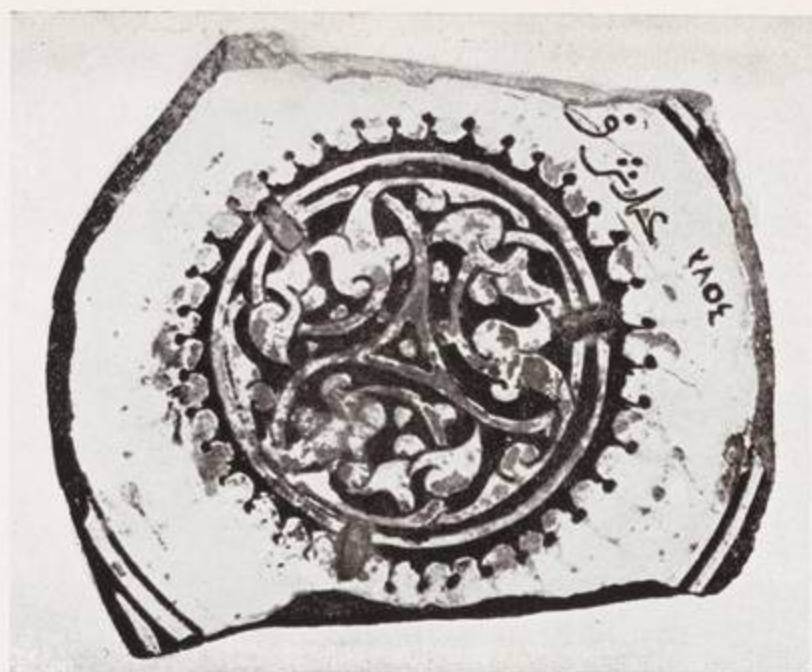
دار الآثار العربية رقم ٥١٦٤/١



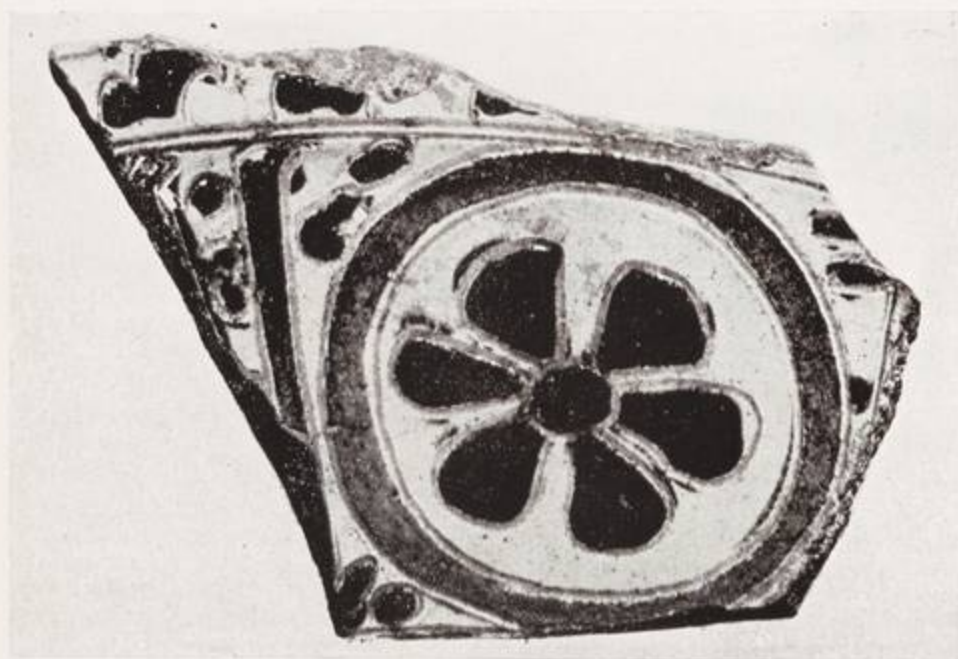
(شكل رقم ٦)

دار الآثار العربية رقم ٥١٦٤/١

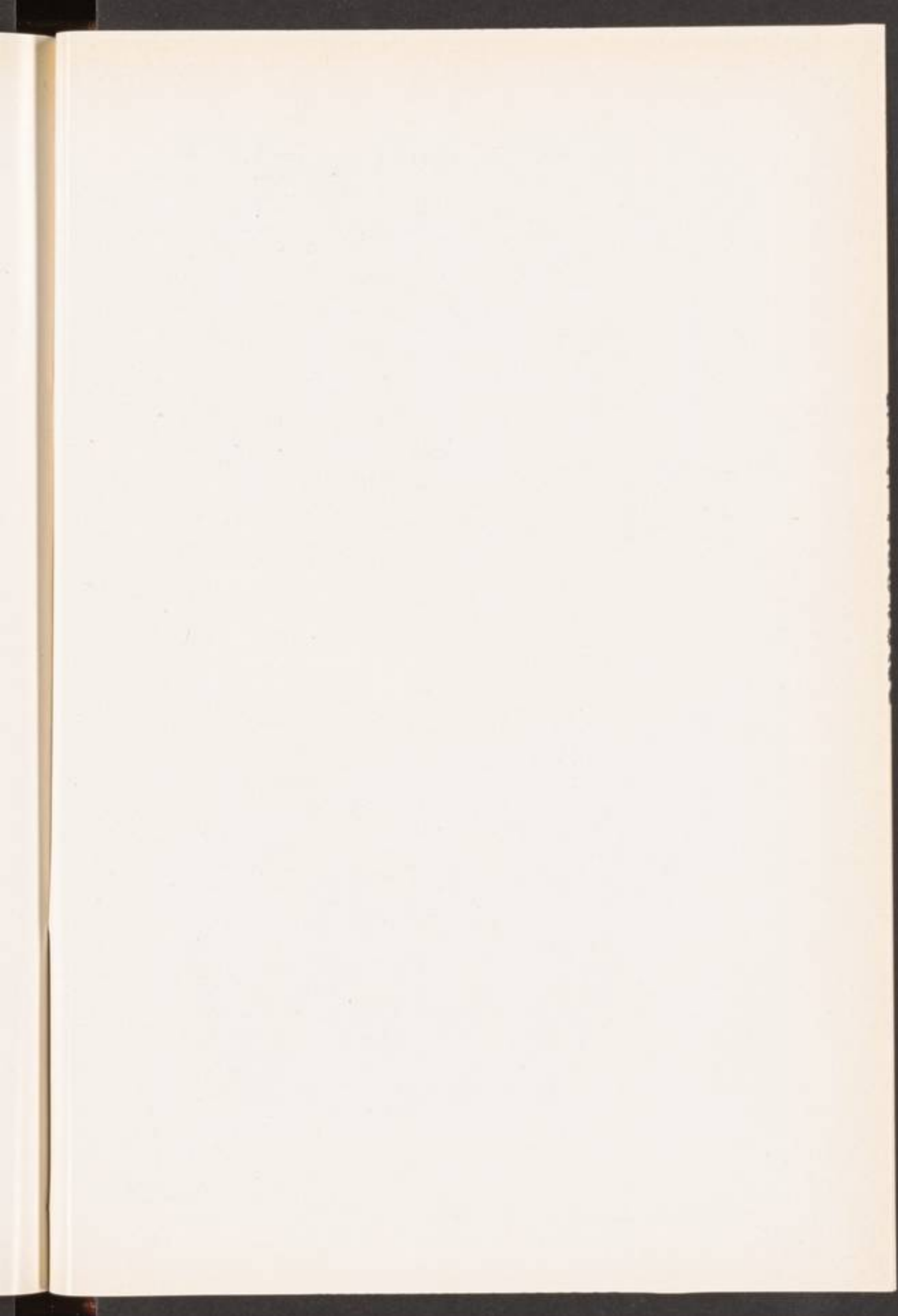




(شكل رقم ٧)
دار الآثار العربية رقم ٣٨٥٤



(شكل رقم ٨)
مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٣١٨





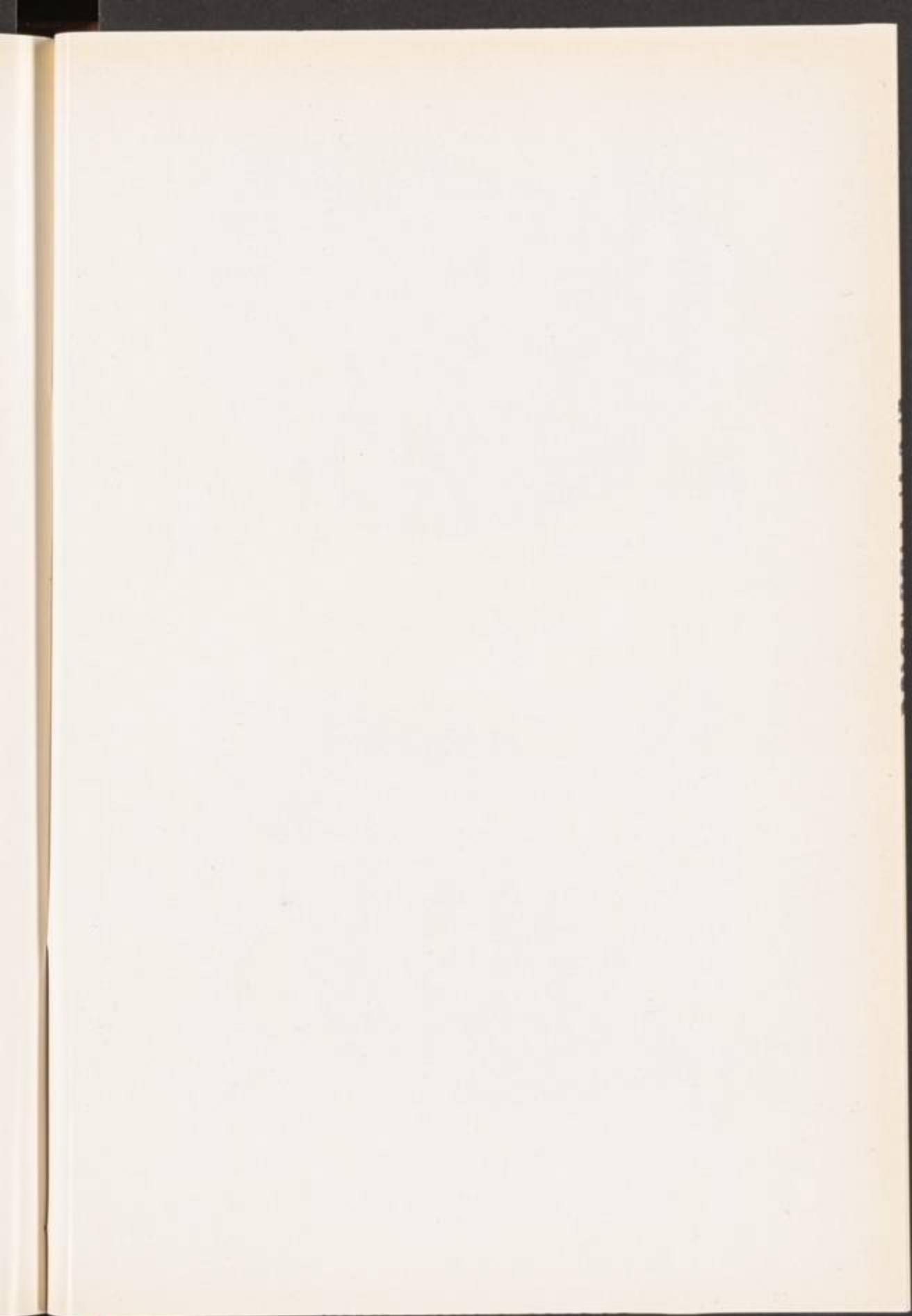
(شكل رقم ٩)

دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٤



(شكل رقم ١٠)

دار الآثار العربية رقم ٦٥٢٦/١





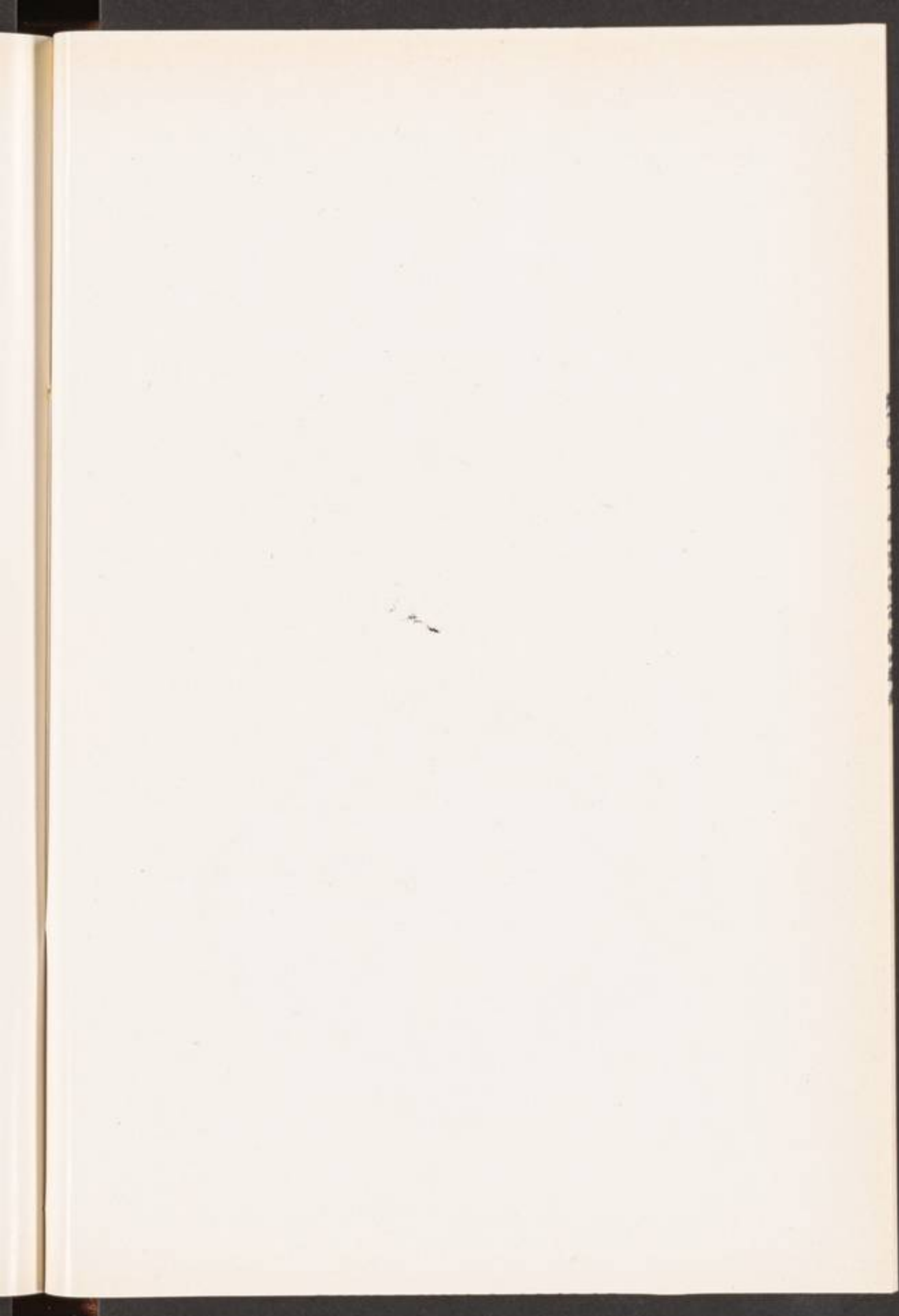
(شكل رقم ١١)

دار الآثار العربية رقم ٦٥٣٦/١



(شكل رقم ١٢)

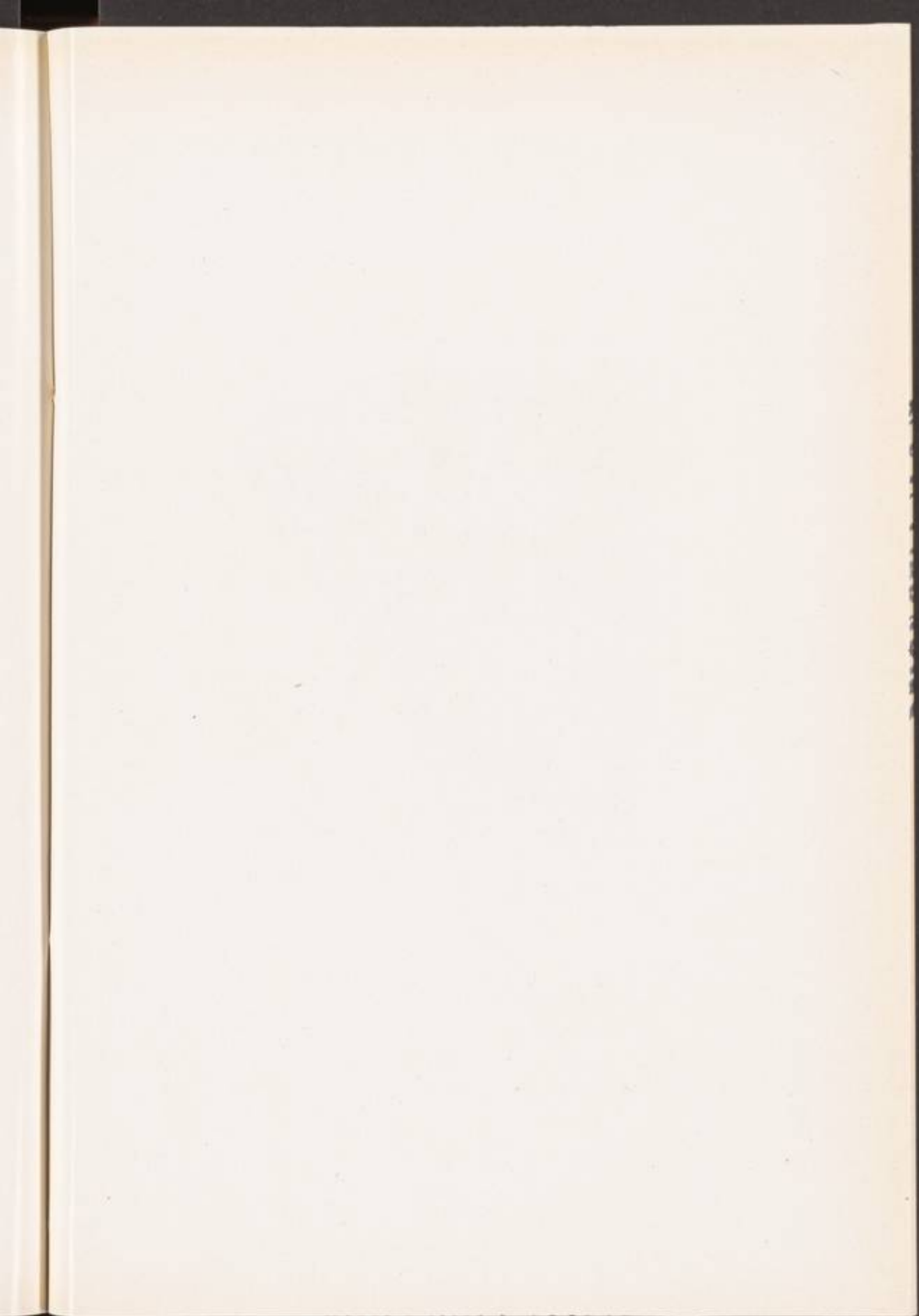
دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١١





(شكل رقم ١٣)

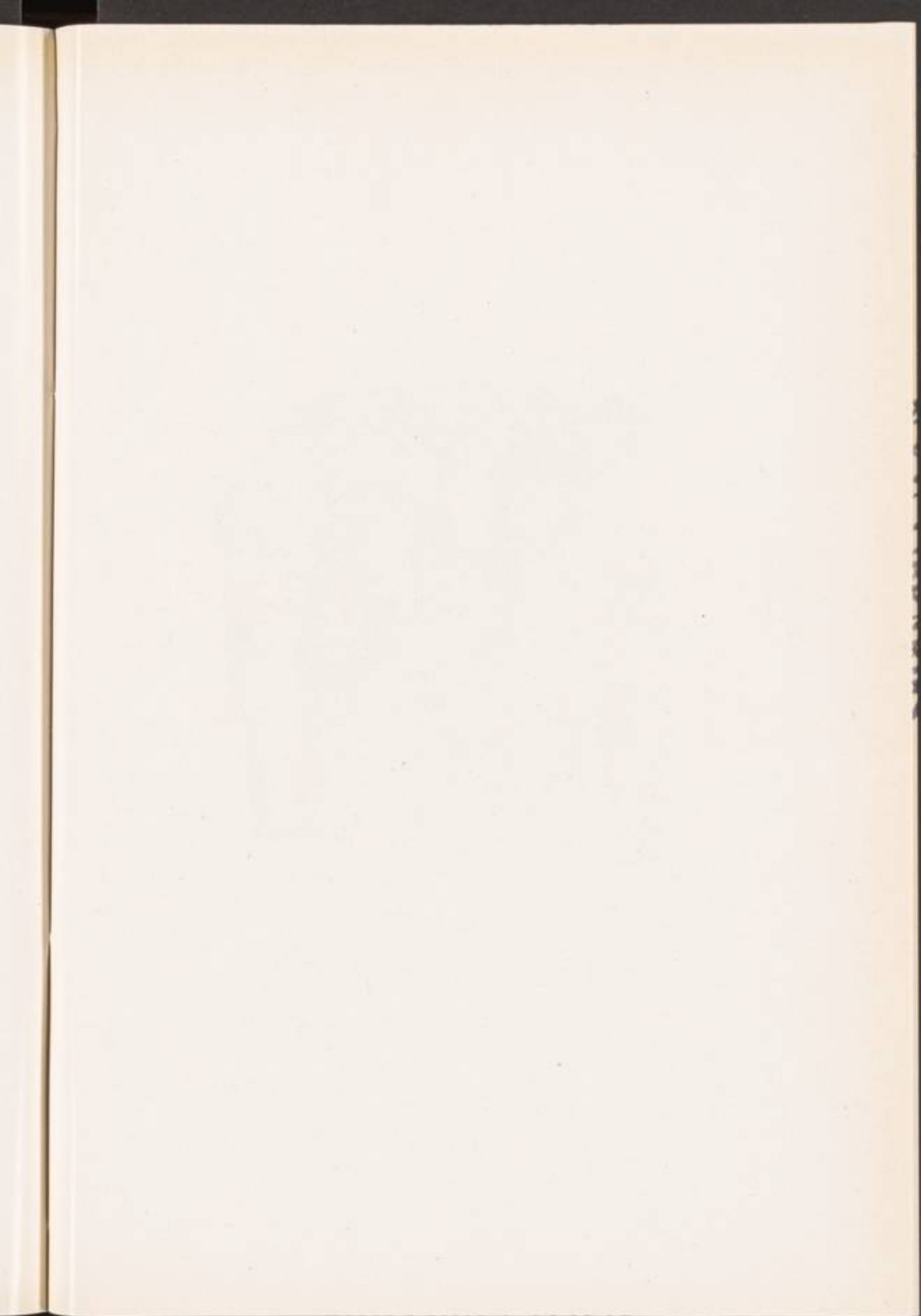
مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ١١





(شكل رقم ١٤)

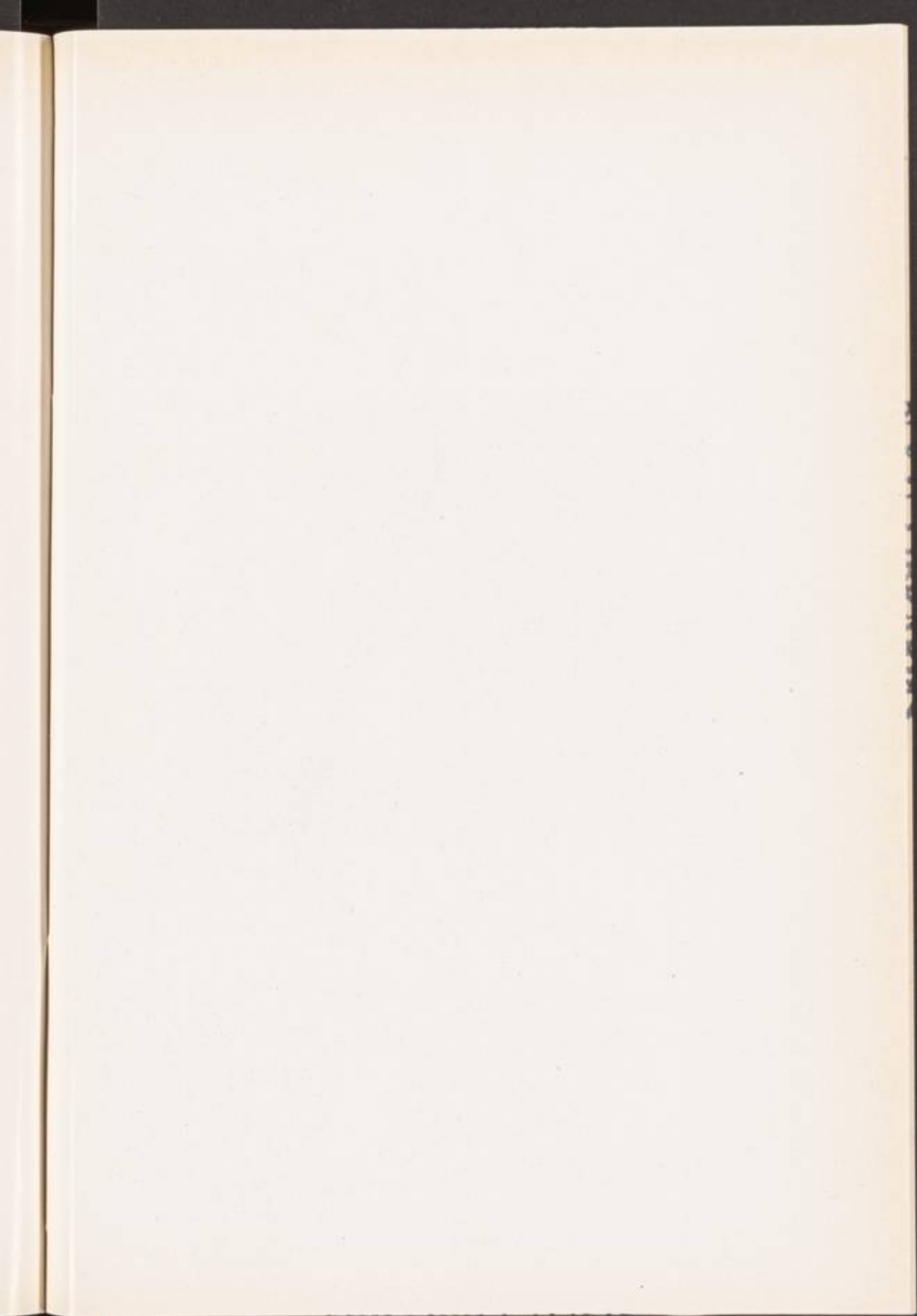
مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ١١





(شكل رقم ١٥)

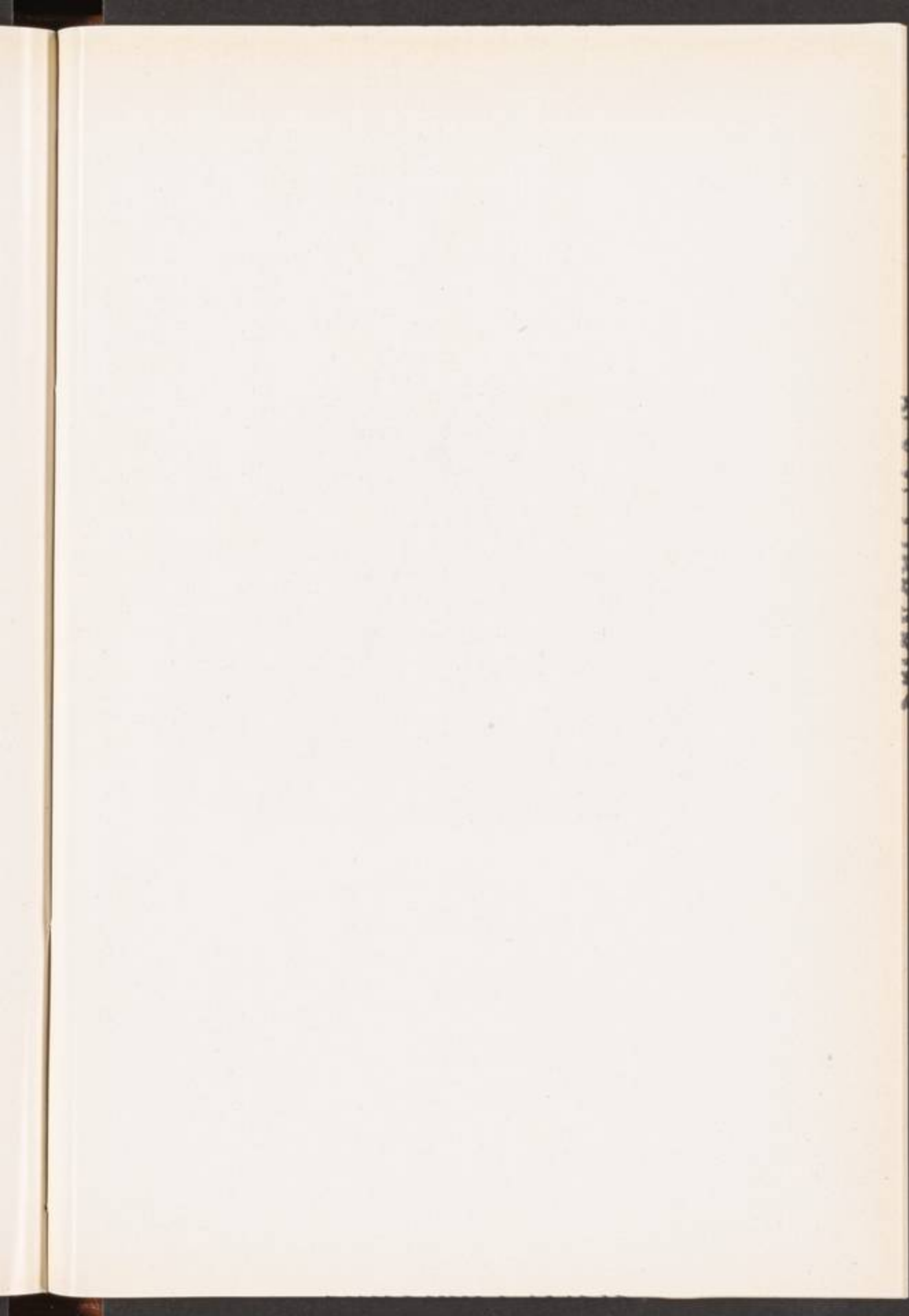
مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٣٤٣





(شكل رقم ١٦)

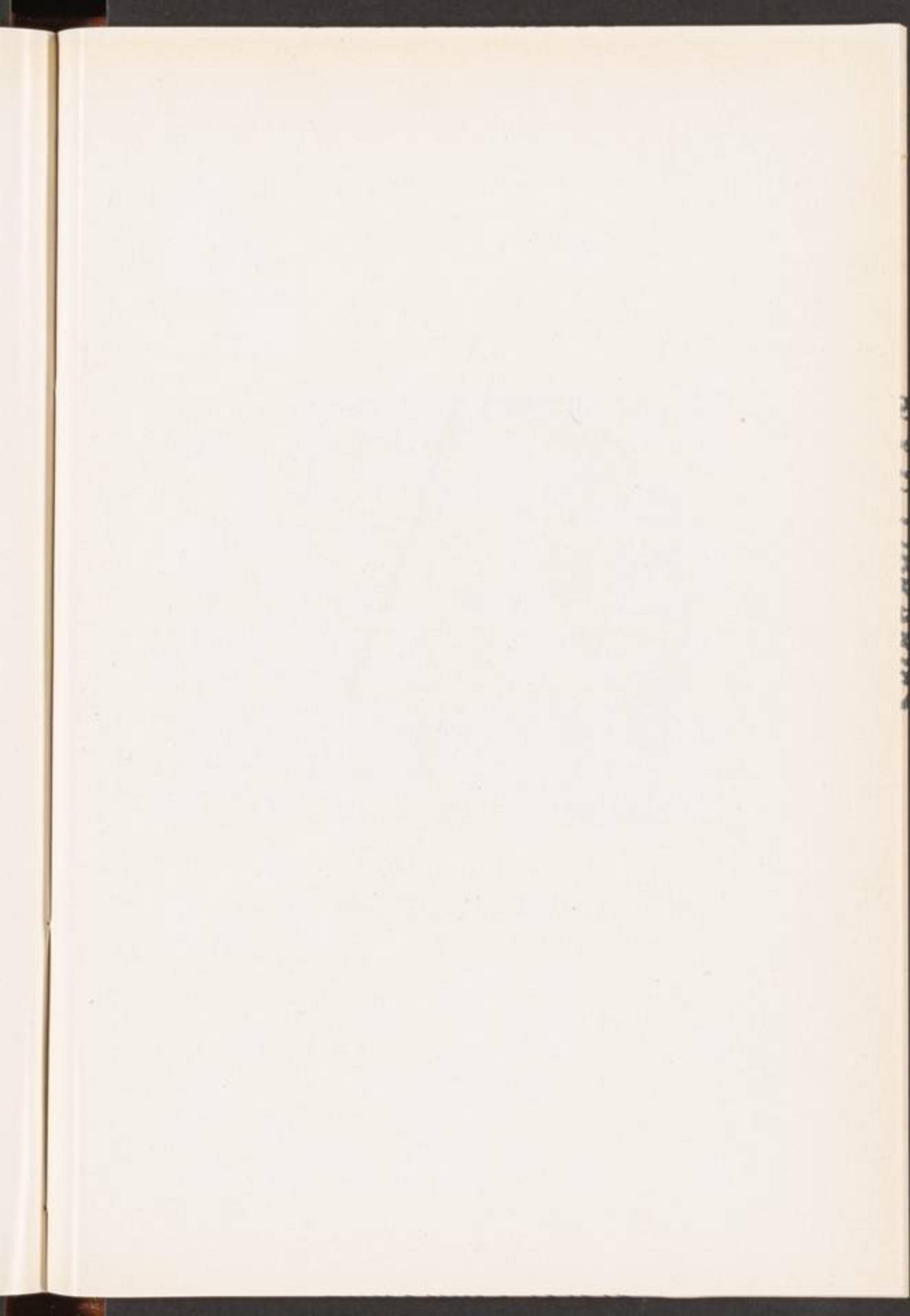
دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٥





(شكل رقم ١٧)

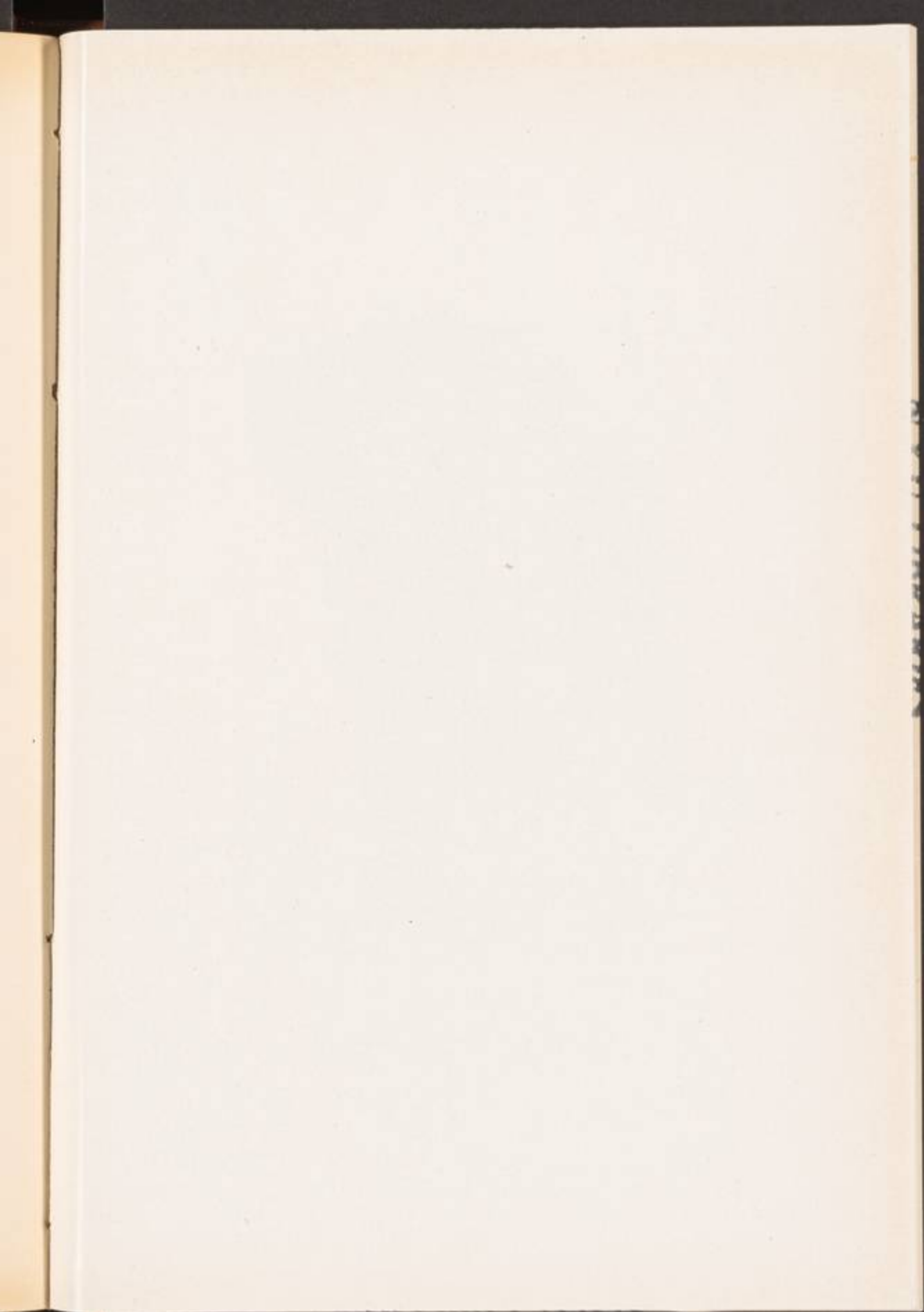
مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٢٤٤





(شكل رقم ١٨)

مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٣١



والأبوانى نسبة إلى بلدة أبوان بناحية البهنسا في صعيد مصر . وتدل هذه النسبة على أن شرف وقت اشتغاله بصناعة الفخار المطلق كان يعيش في بلد غير بلدته التي ينتسب إليها ، كتوقيع « التبريزى » مثلاً على الخزف العثماني المصنوع في مدينة أسنك بآسيا الصغرى ، مما يدل على أنه لحزاف أصله من تبريز ، وكان يقيم في أسنك وقت صناعته لهذا الخزف .

وإتأكد نفهم من توقيع الأول : عمل شرف بأبوان ، أنه أقام في هذه البلدة أولاً ، ثم انتقل بعد اشتهاره إلى مدينة الفسطاط ، ليكون قريباً من عملائه ، فصار يوقع هنا بنسبته : الأبوانى . وقد تثبت الحفائر التي سأقوم بها في الموسم القادم ببلدة أبوان صحة هذا ، فنستطيع أن نسجل كشافاً جديداً في صناعة الفخار المطلق بمصر ، بالرغم من بعد المسافة بين أبوان والقاهرة ، وبالرغم مما لمدينة الفسطاط من شهرة وتقاليده قديمة في صناعة الفخار المطلق والخزف .

ولا يدل عدم العثور على قطع تالفة في القرن بتوقيع هذا الفنان ، على أن صنع شرف الأبوانى لم يكن بمدينة الفسطاط ، إذ أن قطع الفخار المطلق التالفة في القرن التي عثرنا عليها من العصور المختلفة قليلة جداً ، ويرجع هذا إلى سرعة تشقق الطلاء الزجاجي وسقوطه عن جدار الفخار ، ولا سيما في قطع تالفة ألفت من المصنع حيناً اتفق . ولكننى بالرغم من ذلك أعتقد أنني عثرت على قطعة على وجهها الخارجي (الشكل رقم ٥) توقيع شرف الأبوانى ، وجدت بالفسطاط ، وأستطيع أن أعتبرها من القطع التالفة في القرن التي تدل على وجود مصنع شرف بالفسطاط . وهذه القطعة من قاع إناء ، التصق به آخر أثناء الحريق في القرن ، فترك عليه من الداخل دائرة كبيرة بدون طلاء زجاجي (الشكل رقم ٦) ، مما يشوه من شكل الإناء ، ويجعله غير صالح للاستعمال ، لأن مسام الفخار تمتص من السوائل التي توضع في الإناء فيتشرب بها جداره ويسقط عنه الطلاء الزجاجي ، وكل هذا لا يرغب في شراء مثل هذا الإناء .

ويتبين من مقارنة العناصر الزخرفية التي كان يستعملها شرف الأبوانى بمثلاتها على بعض الآثار المؤرخة ، كما تدل طريقة تنفيذ هذه العناصر الزخرفية ، على أنه اشتغل بصناعة

الفخار المطلى فيما بين سنتي ٦٩٠ و ٧٦٠ هجرية . ويظهر أن تلاميذه استمروا في العمل بهذا المصنع على نسق أساذهم بعد وفاته .

وقد قلنا فيما تقدم إنه يمكننا أن نميز في تحف شرف الأبوانى بين عصرين متتاليين ، تختلف فيهما عبارة التوقيع ، كما يختلف الأسلوب الفني ونوع العناصر الزخرفية وطريقة تنفيذها . فنجد أن شرف ينفذ زخارفه في العصر الأول بطريقة الحفر في طبقة الطلاء التي تغطي الفخار ، فيظهر العنصر الزخرفي بارزاً ، ثم يكسو الآنية بالدهان الزجاجي فتظهر المناطق المحفورة دكناء اللون لعمقها وتجمع الدهان الزجاجي فيها (الشكل رقم ٧) .

وطريقة الحفر في الطلاء كانت شائعة في إيران حتى القرن السابع الهجري ، نراها في تحف بلاد جبرى وزنجان وآمول . واستمر استعمال هذه الطريقة في مصر حتى أوائل القرن الثامن الهجري ، ولا نراها هنا بعد هذا التاريخ .

وينفذ شرف الأبوانى عناصره الزخرفية في العصر الثانى بطريقة التموه بالطين البازرة عن سطح الطلاء ، كما يظهر في هذه القطعة التي نرى عليها رنك الزهرة يتخلل سطر كتابة (الشكل رقم ٨) .

ولم تستعمل طريقة التموه بالطين في مصر قبل أواخر القرن السابع الهجري . ولا شك أن هذه الطريقة في زخرفة الفخار بعناصر زخرفية بارزة بالطين المتعددة الألوان ، قد تأثرت كثيراً بصناعة تكفيت النحاس بالذهب والفضة والمعادن الأخرى ، التي نشأت بالموصل في القرن السابع الهجري ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الشام ومصر واليمن . وكذلك صناعة الزجاج المموه بالطين التي انتشرت في الشام ومصر منذ أواخر القرن السابع الهجري . والواقع أن الفنانين المصريين في هذه الفترة من تاريخ الفن قد تأثروا كثيراً بالأساليب الفنية وطرز الصناعات التي جلبها معهم الصناع والفنانون الهاربون من بلادهم أمام فتوحات المغول .

وكان شرف الأبوانى في العصر الأول يزخرف أوانيهم في بداية أمره على نسق الأواني الإيرانية المزخرفة بطريقة الحفر ، أى أنه كان يزخرف الإناء من الداخل فقط

ويترك سطحه الخارجى خلواً من الزخارف ، مع التوقيع فى الإناء من الداخل بكلمات « عمل شرف بأبوان » (الشكل رقم ٩) .

ويظهر أن شرف انتقل بعد ذلك إلى الفسطاط فجعل يقع هنا بكلمتى « عمل شرف » فقط دون ذكر كلمة « بأبوان » (الشكل رقم ١٠) ، وكان هنا أيضاً مازال يزخرف أوانيه بطريقة إبراز الرسم بحفر ما يحيط به من طبقة الطلاء أو برسم دوائر صغيرة محفورة فى الأرضية المحيطة بالزخارف ، غير أن عناصره الزخرفية تطورت وصارت كثيرة التعقيد . كما أنه بدأ يزخرف الأوانى من الداخل والخارج ، كما يظهر هذا على الوجه الآخر الخارجى من القطعة السابقة (الشكل رقم ١١) .

وقد نال شرف هنا فى الفسطاط من الشهرة ما جعل الناس على اختلاف طبقاتهم يقبلون على شراء أوانيه ، فأضاف إلى كلمتى « عمل شرف » كلمات « غلام الناس كلها » ليثبت للناس تواضعه وتقانيه فى خدمتهم . ونراه هنا (الشكل رقم ١٢) يتبع عبارته هذه بكلمات « برسم الحاج عمر » مما يدل على أنها آنية صنعت لأحد أفراد الشعب .

وقد تطورت عبارة التوقيع هذه فى العصر الثانى ، بعد أن زادت شهرته واشتد تواضعه ، إلى عبارته التقليدية الطويلة « مما عمل العبد الفقير المسكين شرف الأبوانى غلام الناس كلهم إلخ » وكان يكتبها بخط نسخى جميل بالملينا البارزة فى شريط على أعلى جدار الإناء من الخارج .

وكان يزخرف الأوانى فى هذا العصر الثانى من الداخل والخارج بأشرطة جميلة جمعت فى أول الأمر بين الزخارف البارزة بحفر ما يحيط بها من طبقة الطلاء ، والزخارف البارزة بالملينا ، ثم اقتصرت فى أواخر عصره على الزخارف البارزة بالملينا فقط .

وفى (الشكل رقم ١٣) نرى توقيع شرف الأبوانى بارزاً بالملينا ، وعلى أسفل الجدار شريط من كلمة « البركة » متكررة فى مناطق متجاورة وبارزة بطريقة الحفر .

ومن بين الزخارف الشائعة أشرطة الكتابة الدائرية باسم صاحب الإناء ، أى الذى صنع من أجله ، وتتخلل هذه الأشرطة الرنوك الخاصة به . وليس من شك فى أن الرنوك

المرسومة على تحف شرف الأبوانى أهمية علمية خاصة ، لأنها ترجع كلها إلى عصر محدود ومعروف ، وتبين التطورات التى دخلت على رسم الرنك وتقسيمه فى خلال هذا العصر . وفى (الشكل رقم ١٤) نرى رنك النسرة ، وإلى يمينه سيف ، يتخلل سطر كتابة نسخية بارزة بالميناء ويعلوه شريط زخرفى من فرع نباتى متعرج بارز بطريقة الحفر .

وفى (الشكل رقم ١٥) قطعة أخرى من هذا النوع عليها رنك فريد فى نوعه على شكل حدود ، نرى فيها ثلاث نقط تمثل أماكن المسامير التى تثبتها فى حافر الجواد ، وهذا الرنك يتخلل سطر كتابة نسخية بارزة بالميناء ، ويعلوه شريط من شبه كتابة زخرفية بارزة بطريقة الحفر .

وفى مجموعة الرنوك التى يكتنيتها حضرة صاحب السعادة كامل عثمان غالب باشا بالقاهرة نجبة جميلة من حوالى ٣٥ قطعة عليها اسم شرف الأبوانى ، هذا عدا الكثير من القطع الأخرى التى يدل أسلوبها الفنى على أنها من صنع هذا الفنان . ويوجد أيضاً بدار الآثار العربية بالقاهرة عدد كبير من التحف التى عليها رنوك من صنع شرف الأبوانى .

كما أننا نستطيع أن نتابع دراسة الأساليب المختلفة للكتابة العربية على تحف شرف الأبوانى : من شبه كتابة لا تقرأ ترسم فى أشرطة زخرفية (الشكل رقم ١٥ و ١٦) ، وكتابة كوفية مثل كلمة « البركة » متكررة على شريط فى مناطق متجاورة (الشكل رقم ١٣) ، والخط النسخى الذى تزينه وحدات من زخارف نباتية تظهر كأنها تنفرع من أطراف حروفه (الشكل رقم ١٧) ، ثم الكتابة النسخية التى تزينها زخارف بسيطة ونقط وعلامات ضبط (الشكل رقم ١٨) .

وقد تفنن شرف الأبوانى فى رسم أنواع الزخارف الأخرى : مثل الجديدة المركبة من ثلاثة فروع (الشكل رقم ١١) والفرع النباتى المتعرج (الشكل رقم ١٤) ، وغير ذلك من رسوم هندسية ونباتية ، لا يتسع المجال هنا للتحدث عنها .

والحق يقال إن هذه الفترة من تاريخ مصر التى اشتغل فيها شرف الأبوانى بصناعة الفخار المطفى كانت فترة رخاء وترف ، مما جعله يتفنن فى زخرفة أوانيهِ ، كما تفنن أيضاً فى ابتكار أشكال جديدة لهذه الأواني .

طراز الإسكندرية

للمؤلف محمد عبد العزيز مرزوق

كلمة الطراز — على حد قول الجواليقي^(١) — فارسية الأصل ، استعمالها العرب في عصورهم الأولى ، فقال شاعرهم حسان بن ثابت :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

وهي تعني في اللغة الزى والهيئة ، أو النسق والنمط ، أو شريطاً من الكتابة المنقوشة على الحجر أو المصنوعة بالفسيفساء أو المحفورة على الخشب^(٢) أو الكتابة الرسمية التي كانت تتوج أوراق البردي ، أو المصنع الذي كانت تصنع فيه تلك الأوراق وتبصم هذه الكتابة^(٣) .

كما أنها تعني أيضاً المديح (البرودى) أو الزخرفة التي ترين ثوبا ، ولاسيما إذا كانت هذه الزخرفة شريطاً من الكتابة منسوجة في لحمة الثوب وسداه أو مطرزة عليه أو مثبتة فوقه ، وكان الثوب خاصاً بماكم أو شخص ذي حيثة .

وتعني كذلك المصنع الحكومى الذى تنسج فيه الثياب التى تزدان بالطراز^(٤) وحول هذا المعنى الأخير فقط يدور هذا البحث الذى تقدمه الآن .

(١) الجواليقي (أبو منصور) العرب من الكلام الأعجمى على حرف المعجم (نشر أحمد محمد شاكر ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١ هجرية ص ٢٢٣) .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٧٩ و ٢١٢ و ٤٠٧ (طبعة بولاق) .

(٣) البيهقى : الخائن والمساوى ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤) Grohmann : "Tiraz", Encyclopedia of Islam.

ولقد عرف العرب الطراز بهذا المعنى على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إذ يخبرنا الثعالبي في كتابه « لطائف المعارف » نقلا عن الجاحظ أن خراج مصر على عهد عمر بن الخطاب كان يتضمن فيها يتضمن « دق الطرز » أى الأقمشة الرقيقة المتخذة من الكتان التى كانت تنسج فى الطراز^(١).

ولقد اشتهرت الإسكندرية قبل الإسلام بصناعة المنسوجات، وردد هذه الشهرة طائفة من قدماء الكتاب من اليونان والرومان^(٢)، واحتفظت تحت ظل العرب بتلك المسكاة التى أحرزتها من قبل فى هذه الناحية : ذلك لأن العرب قد رأوا بثاقب نظرهم وحسن تقديرهم للأمور أن يتفادوا من التغيير ما أمكن ذلك، وأدركوا أنه أجدى عليهم أن يثبتوا أركان النظم القائمة التى كانت سائدة فى جميع نواحي الحياة وقت الفتح ما دامت لا تتعارض مع عقائدهم من أن يكدوا أذهانهم فى سبيل استنباط نظام جديد . ولم يكن ما أحدثوه من التغيير إلا وليد الظروف الجديدة التى أحاطت بهم ، وقد اتسم هذا التغيير بسمة التدرج طبقا لما اقتضته طبيعة الأشياء ، ولهذا فالفتح العربى للإسكندرية لم يقطع — فى الواقع — سلسلة التقدم فى حياتها الصناعية ، بل لقد حرص العرب منذ أن استقر بهم المقام على أن يستفيدوا من مهارة السكان فى هذه الناحية .

ولقد كان فى تقاليدهم وأميالهم — مثل كسوة الكعبة ومنج الخلع^(٣) وميلهم

Serjeant (R. B.): Material for a History of Islamic Textiles up to (١) the Mongol Conquest (Ars Islamica, Vol. LX, p. 65), he quotes Al Tha'alibi (Lataif Al Ma'arif) Lyden, 1867, p. 176.

Lumbroso : Recherches sur L'Economie Politique de l'Egypte sous (٢) les Lagides, p. III ; Reil : Beiträge zur Kenntnis des Gewerbes in hellenistischen Agypten, pp. 116-122.

(٣) يظهر أن الدكتور كونز فى كتابه Islamische Stoffe aus Aegyptischen Graben, p. 14 قد تابع المقرئى (الخطط ج ٢ ص ٩٩) فى اعتبار هارون الرشيد أول من أوجد تقليد منج الخلع، ولكن الواقع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول من أحيا هذه العادة فى الإسلام عندما خلع بردته على كعب بن زهير (ابن الأنثيم : تاريخ الكامل ج ٢ ص ١٣٣ و١٣٤).

الطبيعى إلى التكثير من الثياب ^(١) واستحسانهم لها عند الإهداء ^(٢) والنصدق بها على الفقراء في المواسم والأعياد ^(٣) — كان في هذه التقاليد والميول ما طاون على استمرار التقدم في هذه الصناعة على أيديهم ، ومهد سبيل الوصول بها إلى درجة من الكمال والجمال قلما نجد لها مثلة في ناحية أخرى من نواحي النشاط الفنى عند العرب .

ويكفى دليلا على ازدهار هذه الصناعة بالإسكندرية في عهد العرب أن نشير إلى ما قاله ابن تفرى بردى من أن عدد الأنوال في هذه المدينة كان في القرن الثامن الهجرى (٧٩٠ هـ) أربعة عشر ألف نول ونيفا ^(٤) وأن عدد النساج فيها كان في القرن الحادى عشر الهجرى أكثر من عشرة آلاف شخص ، كما ذكر ذلك أحد الذين زاروا الإسكندرية في هذا الوقت ^(٥) . بل إن كتب التاريخ لتزخر بذكر أنواع المنسوجات المختلفة التى كانت تخرجها أنوال الإسكندرية في العصور الوسطى ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر القماش السكندرى والإسكندرانى المطرز ^(٦) والشقق الإسكندرانى ^(٧) وفوط الإسكندرية ^(٨) والقوارات الإسكندرانى ^(٩) والوشى ^(١٠) والشرب ^(١١) والسكلتون ^(١٢)

(١) تفصح تركت الخلفاء والوزراء بأعلى بيان عن هذا الميل ، راجع مثلا تركه هشام بن عبد الملك في (الألبهى ، المستطرف ج ٢ ص ٤٧) وتركه الأمين في (الغزولى ، مطالع البدور ج ١ ص ٦١) وتركه الوزير بيرجوان في المقرئى (الخطط ج ٢ ص ٤) .

(٢) راجع هدية المقوقس الى النبي (المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ٢٩ و ٣٠ وهدية غمارويه الى الخليفة العاضد (الطبرى ج ٣ ص ٢١٣٣) وانظر أيضا الترجمة الانكليزية لكتاب : Mez : The Renaissance of Islam, p. 104 والمراجع التى يشير اليها الأستاذ فييت في بحثه في مجلة (Syria) : Wiet : Tissus et Tapisseries du Musée Arabe, 1935 .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٦ (طبعة دار الكتب المصرية) ؛ ابن اياس . بدائع الزهور : ج ١ ص ٣١ و ٣٨ ؛ المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٥٥ .

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ص ٦ (القسم الثانى) ص ٧١٤ (طبعة كاليفورنيا) .

(٥) Biblittica Bis Bibliografica Della Terra Santa, Golubovich, Tomo II, (٥) p. 48, ch. 64.

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٨ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٧) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٧٢ (طبعة بولاق) .

(٨) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤١٣ (طبعة بولاق) .

(٩) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٧٢ (طبعة بولاق) .

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٣ (طبعة المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ) .

(١١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور : ج ١ ص ٣١

(١٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٠٠ (طبعة بولاق) .

والمنمر^(١) والطررد وحش . وإذا رجعنا إلى كتب اللغة نسألها معاني هذه الالفاظ التي أطلقت على تلك الأنواع المختلفة من المنسوجات تحصنت بالصمت ، وإذا أجابت لم يكن جوابها جامعا مانعا على حد قول رجال المنطق . ولذلك كان تمييز هذه الأنواع عن غيرها من بين الأقمشة التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية من الصعوبة بمكان . على أننا نستطيع أن نتعرف مع شيء قليل من الشك ذلك النوع الأخير المعروف باسم الطرد وحش وذلك بفضل الوصف الذي تركه لنا الفلقشندي في كتابه صبح الأعشى إذ يقول : « أقبية من طرد وحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام بخوخ : جاجات (أي أشرطة) مكتوبة بألقاب السلطان ، وجاجات صور وحوش أو طيور صفار ، وجاجات ملونة بموجة بقصب مذهب^(٢) » وفي كل من دار الآثار العربية بالقاهرة ومتحف فيكتوريا وألبرت بلندن قطعة ينطبق عليها الوصف سالف الذكر .

ويصف الفلقشندي منسوجات الإسكندرية بصفة عامة فيقول : « وفيها ينسج القماش الفائق الذي ليس له نظير في الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض^(٣) » .

ولقد حملت شهرة الإسكندرية في صناعة الأقمشة النساج على تقليد أقمشتها مما دفع بابن الحاج في كتابه « المدخل » إلى تحذير الناس « مما يفعلها التجار الذين يتجرون في الإسكندرية » . وهو أنهم يشترون القماش الخام الأبيض من بلاد مختلفة مما يشبه قماش الإسكندرية ، ثم يقصرونه بالإسكندرية ويبيعونه على أنه إسكندري ، وهذا غش أيضاً لأن المشتري لو علم أنه من غير الإسكندرية لم يرض به ولم يعط فيه من الثمن إلا دون ما أعطاه أولاً^(٤) .

(١) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ (طبعة بولاق) وراجع كذلك بحث الأستاذ

Mayer: Some Remarks on the Dress of the Abbasid Caliphs in Egypt, p. 38 (Islamic Culture, 1943).

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٣ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٨ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ١١٥ (طبعة الاسكندرية) .

ولقد كان للحكومة مصنع نسيج بالإسكندرية ، أو بعبارة أخرى كان لها طراز تنسج فيه الأقمشة التي هي في حاجة إليها . ترى ما أصل هذا الطراز؟ ومتى ظهر في تلك المدينة؟ ومتى انتهى فيها؟

ينفرد ابن خلدون بين الكتاب والمؤرخين بالإجابة عن الشطر الأول من هذا السؤال ، إذ ينسب أصل الطراز إلى إيران قبل الإسلام^(١) . ولكن هذه النسبة لم تؤيدها حتى اليوم الأبحاث الأثرية ، على أن ذلك لا يمنع من أن تكون صحيحة على الأقل فيما يخص بدور الطراز التي ظهرت في العراق وإيران في العصر الإسلامي . أما طراز الإسكندرية نفسه حيث تشير التقاليد القديمة في تلك المدينة إلى وجود ما يشبه الطراز منذ عصر البطالمة حتى الفتح العربي ، فيصعب علينا أن نفترض أنه استمد وجوده من المصدرعينة الذي ذهب إليه ابن خلدون ، ولعله من الحق أن نتساءل : لماذا نحاول أن نبحت عن أصل طراز الإسكندرية خارج الإسكندرية نفسها؟ إن التاريخ يحدثنا عن وجود مصنع ملكي للنسيج في الإسكندرية في عصر البطالمة عهدت الملكة كيوباترا بإدارته إلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني ، وعندما فتح أكثافوس مدينة الإسكندرية سنة إحدى وثلاثين قبل الميلاد قتل هذا الروماني ، لأنه اعتبر أن قبوله لمثل ذلك المنصب عار وحطلة تلحق بالرومان جميعاً ممثلين في شخصه^(٢) .

ولقد كان في المدينة على عهد الرومان مصنع إمبراطوري للنسيج (Gynaceum) يمد الإمبراطور بما يحتاج إليه هو ورجال بلاطه من الأقمشة الحريرية^(٣) وقد ظل هذا المصنع قائماً حتى الفتح العربي^(٤) . وليس يبعد أن العرب خلعوا على هذا المصنع الروماني اسم «الطراز» .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٢

(٢) Orosius : Hist. Advo. pag , VI, 19 and 20.

وانظر أيضاً الدكتور ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عهد البطالمة (مكتبة النهضة بالقاهرة

سنة ١٩٤٦) ص ٥٤٩ ج ٢

Von Falke : Kunstgeschichte der Seidenweberei, Berlin, 1913, I, (٣) p. 48 ; he refers to Theodosian Code of the year 438 A. D. ; Jean Ebersolt : Les Arts somptuaires de Byzance, p. 12, Paris, 1923.

Kuhnel : La tradition Copte dans les Tissus Musulman, Bul. Soc. (٤) d'Arch. Copte, T IV, p. 81.

أما متى ظهر طراز الإسكندرية ومتى انتهى فنحن نرجح أن ظهوره كان بعد الفتح العربى بقليل ، وأنه استمر قائماً فى تلك المدينة حتى نهاية عصر المماليك البحرية على الأقل . وهذا الترجيح يستمد قوته من علمى التاريخ والآثار ، فلقد رأينا أن منتجات الطراز كانت ، كما يقول الجاحظ^(١) ، ضمن خراج مصر على عهد عمر بن الخطاب ، وأشار القلقشندي إلى وجود الطراز بالإسكندرية على عهد الدولة الأموية والدولة العباسية^(٢) ، وأمدقا الحفائر الأثرية بقطعة من الكتابة مطرز عليها بخرير أحمر سطر من الكتابة الكوفية تقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، بركة من الله وسعادة لعبد الله الإمام المعتمد على الله أمير المؤمنين أعزه الله ، مما عمل بطراز الإسكندرية سنة ثلث ومائتين^(٣) » . ولعل فى هذه الوثيقة الأثرية خير ما يؤيد أقوال القلقشندي . وأشار المقرئى فى خطه إلى وجود طراز الإسكندرية على عهد الفاطميين^(٤) . وإذا كانت الأدلة التاريخية أو الوثائق الأثرية تعوزنا لإثبات وجوده فى العصر الأيوبي فإن وجود الطراز فى الإسكندرية إبان عصر المماليك — كما سننبته بعد قليل — قد يشفع لنا فى الاعتقاد بوجوده فى عصر الدولة الأيوبية ، وهو العصر السابق مباشرة لعصر المماليك ، ولا سيما إذا تذكرنا أن مركزين من أهم مراكز صناعة النسيج فى مصر هما دمياط وتيس قد منيا بخسائر فادحة بسبب الحروب الصليبية ، مما جعل الفرصة سانحة لازدهار صناعة النسيج فى مراكز أخرى ، ولم يعد الأستاذ جاستون فيت جانب الحق عندما قال إن الإسكندرية ودمهور ورثتا عظمة تيس ودمياط فى ذلك العصر^(٥) .

(١) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٧٦ (طبعة ليدن) .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) سجل الكتابات العربية ج ٢ ص ١٨٧ ، ويلاحظ أن هناك ثمانى قطع أخرى من الكتان فى دار الآثار العربية بالقاهرة لا تتضمن الكتابة المنسوجة فيها كلمة « طراز » وإنما تشير فقط إلى أنها نسجت بالإسكندرية .

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤١٣ (طبعة بولاق) .

(٥) Hauteceur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 96.

أما في عصر المماليك فقد أمدنا النويرى في مخطوطه : «الإعلام بالإمام ، فيما جرت به الأحكام ، والأمور المقضية ، في واقعة الإسكندرية»^(١) «أمدنا بوصف الطراز الإسكندرية بمناسبة زيارة السلطان الأشرف شعبان أحد سلاطين المماليك له ، وهو في الحق وصف شائق فريد في نوعه يستحق منا أن نقف عنده قليلا . قال النويرى : « وسار به وزبره .. إلى أن أتى دار الطراز فترجل ودخلها صاعداً سلمها إلى أن أتى مواضع أنوالها واستعلائها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان »^(٢) « وفي موضع آخر يقول : « وجعل يطوف على الأنوال ويبصرها ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ويتفرج على الصناعات كيف ينسجون وإلى مكاهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه ليشهد في أعلى الأنوال الشياطين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادى ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والشادروانات وغيرها بتلك الحيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر وغيره » وفي موضع ثالث يقول : « ولم يزل طائفاً يتفرج على كل نوع حتى اجتاز بشيخ كبير السن ينسج بمنواله يمجج تارة عن يمينه وتارة عن شماله يرميه لمسكوكه في باطن مسديته فيظهر بذلك نسيج بديع كزهر الربيع »^(٣) « وفي موضع رابع يقول : « ثم إن السلطان المذكور شاهد ما في دار الطراز بالإسكندرية من عمل زراکش ورقم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختار منها ثياباً يستصحبها معه ، وترك الباقي إلى حين تكملة نسجه »^(٤) .

وإذا كان النويرى قد وصف لنا العمل في داخل طراز الإسكندرية فإن القلقشندي قد أمدنا بوثيقة تعين ناظر لذلك الطراز ترجع إلى القرن الثامن بعد الهجرة (٧٤١هـ) ،

(١) الجزء الثاني من هذا المخطوط مقيد بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢ تاريخ ، وقد كان المسيو كومب (Combe) مدير المكتبة العامة بجامعة قزوق الأول هو أول من وجه النظر إلى هذا المخطوط القيم .

(٢) ورقة رقم ١٤٢ من المخطوط .

(٣) ورقة رقم ١٤٢ و ١٤٣ من المخطوط .

(٤) مخطوط النويرى ورقة رقم ١٤٤

وهي تلقى ضوءاً باهراً على هذه المؤسسة الحكومية ، وتجمل لنا تاريخ هذه الوظيفة ، وتكشف عما كان يؤديه ناظر الطراز أو صاحب الطراز كما يسميه ابن خلدون ^(١) من أعمال ، وقد جاء فيها بعد الديباجة : « فليأثر هذه الوظيفة التي كانت في سالف الزمان إلى الأحكام تضاف ، وللعلماء الأعلام عليها نظر وإشراف ، ومنها يسدل على ألياتنا لباس الإناعام ، وترسل أجناس الإنحاف ، وتسربل السكبة البيت الحرام في كل عام ، بجلبابها المحكم النسج المعلم الأطراف ، وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ، وليزن خزها بتقريب مشوبه ونحرير محضه ، وليبن عن حسن التدبير في إبرام حريرها ونقضه ، وليستجلب رجالها وصناعها ، وليجنب أحوالها ضياعها ، وليستجد أصنافها وأنواعها ، وليتفقد أكنافها وبقاعها ، حتى يظهر في أعمالها آثار الصلاح ، وتشكر مباشرته التي هي محمودة الانتهاء مسعودة الافتتاح . والله يقرن رجاءه بالارباح ، ويؤذن له حيث سلك باصابة الصواب والصلاح ، بمنه وكرمه ^(٢) » .

ويحدد لنا القلقشندي أيضاً ما يصنعه الطراز بالإسكندرية قائلاً : « ودار الطراز هذه هي التي تعمل فيها المستعملات السلطانية مما يحمل إلى خزانة الخاص الشريف من الأقمشة المختلفة الصفات من الحرير والمقترح الخوص بالذهب والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش المختلفة ، وغير ذلك من رقيق السكتان وغيره مما لا يوجد مثله في قطر من أقطار الأرض ، ومنه تتخذ الأقمشة التي يلبسها السلطان وأهل دوره ، وتعمل الخلع والتشاريف التي يلبسها أكابر الأمراء والأعيان وسائر أهل المملكة ، ومنه تبعث الهدايا والتحف إلى ملوك الأقطار ^(٣) » .

وإلى هذه النصوص التي قدمناها توجد نصوص أخرى لم تشر إلى طراز الإسكندرية عينه ولكنها تكلمت عن الطراز بصفة عامة ، نصوص ذكرها الصابي في رسائله وابن مماتي في كتابه قوانين الدواوين والقلقشندي في صبح الأعشى والمقريزي في خططه

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٢

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢٥ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢٧ (طبعة دار الكتب المصرية) .

وجميع هذه النصوص مجتمعة تعطينا فكرة تكاد تكون واضحة عن نظام الطراز باعتباره مصنعا حكوميا للنسيج . ونستطيع أن نلخص هذا النظام فيما يلي :

(أولا) الطراز باعتباره مصنعا للنسيج كان مؤسسة حكومية ينسج فيها ما تحتاج إليه الحكومة من أقمشة مختلفة الكسوة السكبة وعمل الأعلام والخيام والخلع والهدايا التي تحمل إلى الملوك ، وما يحتاج إليه الوالى أو الخليفة أو السلطان من ملابس له ولأفراد أسرته ولمن يلودون به من موظفين .

(ثانياً) كانت وظيفة ناظر الطراز أو صاحب الطراز من الوظائف الهامة التي ينتخب لها أعيان الدولة وذوو المكانة فيها ، كما كان الحال قبل الإسلام ، مما يشعر بمدى العناية بهذه المؤسسة والاهتمام بأمرها وقد حددت وثيقة التعيين التي احتفظ لنا بها الفلقشندى وأشرنا إليها من قبل ، واجبات هذا الموظف على الوجه الأكمل ، وذكر لنا المقرئى فى خططه ما كان له من حقوق فى عصر الدولة الفاطمية ^(١) .

(ثالثاً) كان من واجبات ناظر الطراز مراعاة أن يكون النسيج جيداً صحيحاً متيناً ، وأن ينقش اسم الخليفة على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام ونحوها ^(٢) .

(رابعاً) كان يشرف على سير العمل فى الطراز مع الناظر موظفون آخرون هم المشارف الذى يعاون الناظر فى عمله ، ويحفظ لديه ما تم نسجه من الأقمشة ، والعامل الذى يضبط حساب العمل والعامل ، والشاهد الذى يقوم بالإدارة المالية للمؤسسة ^(٣) .

(خامساً) النول الذى كان يستعمل فى طراز الإسكندرية كان من النوع الذى يعرف فى الإنكليزية باسم (Draw loom) ولعلنا نهتدى إلى الاصطلاح العربى فى القريب

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٦١/٤٧٠ (طبعة بولاق) . الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٢/١١٤

(٢) متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، الترجمة الانكليزية ص ٤١٦ حيث يشير الى رسائل الصابى ص ١١٣ (طبعة باعيدا) .

(٣) ابن ممانى ، قوانين الدواوين ص ٢٩٨ و ٣٠٢ و ٣٠٤ و ٣٣٠ و ٣٣١ (نشر الدكتور عزيز سوريال عطية) .

وهو نوع معقد نوعاً ما به عدة درقات (Heddles) ويجلس في أعلاه صبي يرفع هذه الدركات أو يخفضها كلما رغب النساج ذلك . ومخطوط النويرى سالف الذكر هو المرجع الوحيد — على قدر ما وصل إليه علمي — الذى وصف لنا نوع النول الذى كان يستعمل في الطراز، وطبعي أنه كانت هناك أنوال بسيطة إلى جوار هذا النول المعقد التركيب، والذى استلقت بتعقيده نظر السلطان شعبان عند زيارته لطراز الإسكندرية .

بقى لدينا سؤال واحد نحاول الآن أن نجيب عنه : من أى نوع كان طرز الإسكندرية ؟ أكان طراز الخاصة أم طراز العامة ؟

وفي الواقع نحن لم نعرف هذين النوعين من الطراز إلا من طريق الكتابات التى وجدناها منسوجة أو مطرزة أو مطبوعة على قطع المنسوجات التى كشف عنها البحث الأثرى، ولم يصل إلينا من الإسكندرية إلا تلك القطعة التى سبقت الإشارة إليها منذ قليل، والكتابة التى عليها ذكرت الطراز ولم تحدد نوعه . أما المراجع المطبوعة أو المخطوطة التى أتيت لى الاطلاع عليها فلم تشر إلى هذين النوعين ولم تذكر لنا قط « طراز الخاصة » أو « طراز العامة » وإنما ذكرت « الطراز » أو « دار الطراز » فحسب .

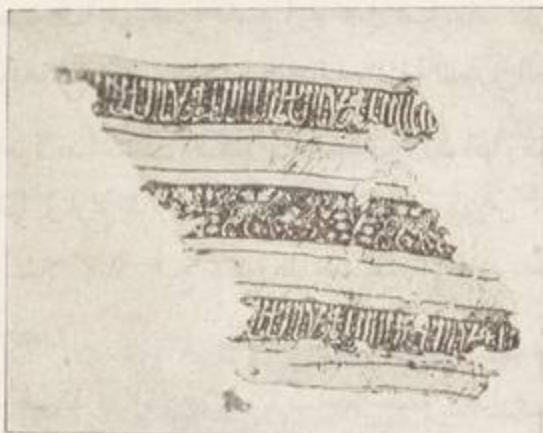
ونحن لانعلم فى الحقيقة مدى الفرق بينهما، ولكن إذا أخذنا بمدلول اللفظ جاز لنا أن نعتبر طراز الخاصة مصنع النسيج الحكومى الذى يمد الخاصة بما هى فى حاجة إليه، على حين أن طراز العامة يمثل المصانع الأهلية للنسيج التى تمد الشعب بما يحتاج إليه من أقمشة، وهذا فى الواقع افتراض لم يؤيده دليل مادى أو نص تاريخى . ولقد ذكر المرحوم على بك بهجت المدير السابق لدار الآثار العربية بالقاهرة ^(١) أن طراز الخاصة لم ينشأ إلا فى عهد الدولة الفاطمية، ولكن الحفائر الأثرية التى قامت بها دار الآثار العربية بالقاهرة فى منطقة الفسطاط بعد وفاته قد أمدتنا بقطع من المنسوجات عليها نصوص تبين وجود طراز الخاصة قبل عهد الفاطميين ^(٢) . وفى ظننا أن هذا النوع من الطراز

^(١) Aly Bey Bahgat : Les manufactures d'Etoffe en Egypte, (M.I.E. 1903)

^(٢) محمد عبد العزيز مرزوق ، الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ص ٢٥ و ٢٦ (مطبوعات دار الآثار العربية) .

قد وجد في مصر منذ الفتح العربي ، وأن طراز الإسكندرية — على أساس ما لدينا من مراجع تاريخية — كان من هذا النوع .

ولعل خير ما نحتّم به هذا البحث هو أن نشير إلى أنه إذا كان نظام الطراز قد انتهى في الإسكندرية بانتهاء عصر المماليك البحرية على الأقل ، فإنه لا يزال حياً حتى اليوم في القاهرة يعيش فيها باسم دار الكسوة ، وهذه الدار تشبه الطراز في كل شيء ، ولا تختلف عنه إلا في انكماش أعمالها واقتصارها على إعداد كسوة الكعبة التي ترسلها مصر كل عام إلى مكة المكرمة ^(١) .



يقرأ فيها :

”عز لمولانا السلطان الملك الناصر“ ، وجامات بها صور نمور
تقتنص غزلانا ، وجامات باهتة اللون ويغلب على الظن أنها
من النوع المعروف باسم ”طرد وحش“ .
[القرن الثامن الهجري (١٤ م) — بدار الآثار العربية]

(١) ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٨١/٢٩٢ ، ج ٢ ص ٣٢٩ وانظر ايضاً :

Combe (E) : Le Dar Al Tiraz, Revue de Conférences Françaises, p. 92
(No. 2, Février, 1947) .

مميزات العمارة الإسلامية

في القاهرة

للمستاذ حسن عبر الوهاب

مفتش الآثار العربية ومندوب جامعة الدول العربية

إن امتياز مصر بما حوته من مجاميع أثرية جعل لها مقاماً ممتازاً بين بلاد العالم . فقد تمثلت في تلك المجاميع مختلف الحضارات المتعاقبة وخاصة العصرين المصري والإسلامي . ومدينة القاهرة قد احتفظت بالكثير من أخطاؤها وأسواقها وفنونها وآثارها . فيجد الباحث في تاريخها وتاريخ العمارة الإسلامية مادة غزيرة للدرس . حيث يجد العمارة والصناعات ممثلة تمثيلاً كاملاً لجميع عصورها منذ الفتح الإسلامي حتى وفاة المغفور له محمد علي باشا الكبير .

وقد حوت خمسمائة أثر إسلامي ، فيها مساجد جامعة ومدارس وحصون وأسوار وقلاع وقناطر مياه ومقاييس للنيل ومشاهد وقباب وخوانق وربط وأسبلة وكتاتيب وأحواض لشرب الدواب وبهارستانات ووكالات وفنادق وقصور ومنازل وحمامات .

فمن الآثار التي ترجع إلى عصر الخلفاء الراشدين جامع عمرو بن العاص المنشأ بالفسطاط سنة ٢١ هـ ٦٤١ م وهذا المسجد وإن كان تجدد على مر العصور فإنه احتفظ بتفاصيل معمارية ترجع إلى مختلف العصور من عباسي وفاطمي ومملوكي وعثماني .

ومن الآثار التي ترجع إلى العصر العباسي ، مقياس النيل . وقد أمر بإنشائه الخليفة العباسي المتوكل على الله سنة ٢٤٧ هـ ٨٦١ م بجزيرة الروضة لضبط ارتفاع مياه النيل ، وهو الوحيد من نوعه .

ومن الآثار الطولونية قناطر المياه التى أنشأها بالقرافة الكبرى أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ ٨٧٦ م وقد تجلت دقة البناء بالطوب فى عقودها وطاقاتها وقناطرها ، ودار اكتشفها دار الآثار العربية فى مدينة العسكر ، وقد حوت من الزخارف الجصية ما يتفق مع زخارف الجامع الطولونى .

وأهم ما تخلف من منشآت هذه الدولة الجامع الكبير الذى أنشأه أحمد بن طولون بمدينة القطائع سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م وهو أقدم أثر فى مصر احتفظ بتفاصيله المعمارية . وفيه تجلت صناعة الجص لأنه حوى أكبر مجموعة من الزخارف والشبايك الجصية تنوعت أشكالها ، وامتاز بطرز منارته ذات السلم الخارجى ، وهى الوحيدة فى مصر .

ومن الآثار الإخشيدية بقايا مشهد آل طباطبا بالقرافة الصغرى المنشأ حوالى سنة ٣٥٤ هـ ٩٥٦ م ، وكان لهذا المشهد تخطيط غريب ، فقد تأثر بالجامع الطولونى فاقبس دعامته ذات العمدة الأربعة لمل قبابه . ويعتبر بأكورة للمشهد ذات القباب المحمولة على عقود مفتوحة ، والتى نسج على نهجها الفاطميون فى كثير من مشاهدهم .

الدولة الفاطمية :

أما الدولة الفاطمية فقد خلفت بالقاهرة ثروة عمرارية كبيرة ، وفيها تألق الفن الإسلامى فى جميع نواحيه . وهذه الدولة وإن كان الزمن قد اعتدى على أكثر منشآتها العمرانية ، كما أباد التتعت الدينى والسياسى منشآتها المدنية التى أهمها القصران والمناظر ، فإنها أبقيا على بعض منشآتها الحربية والدينية ، وتمثل فى أسوار القاهرة وأبوابها الباقية ، وهى بابا النصر والفتوح سنة ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م وباب زويلة سنة ٤٨٤ هـ ١٠٩١ م . وامتازت هذه الأبواب بدقة البناء وضخامته وإحكام العقود وورق الزخارف الحجرية .

ولم تكن هذه المميزات مقصورة على هذه الاستحكامات ، فقد سبقها القصور الفاطمية التى بنيت وجهاتها بالحجر ونقشت بمختلف النقوش ، وكذلك جامع الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣/٣٨٠ هـ ١٠١٢ م ففيه تجلت دقة الزخارف الحجرية فى مدخله الغربى وفى منارتيه المئبرتين من أقدم منارات القاهرة ، فقد بنيت بالحجر وزخرفت بالنقوش

والكتابات ، أما قمتها الحالية فقد بناها بالطوب ببيرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م بعد زلزال سنة ٧٠٢ هـ وأخذ البناء بالحجر يتدرج في هذه الدولة حتى ارتقى جداً في وجهة الجامع الأقر سنة ٥١٩ هـ ١١٢٥ م تلك الوجهة الفريدة في تصميمها وزخارفها . وبقي من آثار هذه الدولة أقدم منارة كاملة بالقاهرة ، هي منارة مسجد الجيوشي بسفح المقطم ، وامتازت تلك المنارة بظهور أول مقرنص تعددت حطاته في نهاية قاعدتها المربعة .

وفي ظل هذه الدولة ارققت الزخارف والكتابات الكوفية ، وانتشرت الزخارف الجصية في المحارب وحول العقود وخواصرها ، ويتجلى هذا في عقود المجاز بالجامع الأزهر سنة ٣٦١ هـ ٩٧١ م وفي محرابه القديم . وكان لي حظ اكتشافه سنة ١٩٣٣ بعد أن ظل محتجباً سبعة قرون تحت كسوة خشبية عملها الظاهر ببيرس البندقاري ، وظلت محارب هذه الدولة تتخذ من الجص وتنوع أشكالها . ووجدت منها نماذج بلغت منتهى الرقي مثل المحراب المستنصرى سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م بالجامع الطولوني . ومحراب مشهد إخوة يوسف (القرن الخامس الهجرى) الحادى عشر الميلادى ، ومحراب مشهد الجيوشي سنة ٤٧٨ هـ . وقد انفرد هذا المشهد بتخطيطه وبدقة وتنوع زخارفه وكتاباته ، كما امتاز بوجود دعائم في جانبه انتهت قمتها بقبة مصغرة لقبته الكبيرة فوق المحراب . ومع أن القبة الفاطمية ، وهي أساس تطور القبة في القاهرة ، ظلت على بساطتها إلى نهاية القرن الخامس الهجرى مثل قبة إخوة يوسف ، فقد بدأت في التطور من انتقال مقرنصها من حطة واحدة إلى حطتين ، وإلى تضليعها من الداخل والخارج في مبدأ القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، كما يبدو في قبة الجعفرى وعاتكة سنة ٥١٤ / ٥١٩ هـ ١١٢٠ / ١١٢٥ م وقبة السيدة رقية سنة ٥٢٧ هـ ١١٣٢ م .

وصناعة التجارة تدرجت في الرقى حتى بلغت الذروة ، وهذا تراه ملموساً في محراب السيدة رقية المودع بدار الآثار العربية وفي تابوتها وفي مصاريع أبواب مسجد الظافر بنصر الله (الفاكهانى) سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨ م . وفي منبر الصالح طلائع بقوص

سنة ١١٥٥ هـ ١٨٥٥ م . وفي كثير من الطرف الحشوية بدار الآثار العربية . وامتازت الأخشاب
الباقية من قصورهم بأشغالها على صور لآدميين وحيوانات .

ومن بين آثار هذه الدولة قاعة عرفت بقاعة الدردبر كانت إلى سنة ١٩٤١ معتبرة
من آثار العصر المملوكي ، إلى أن حقتُها وأثبت أنها قاعة فاطمية ، اعتبرها جناب الأستاذ
الدكتور كريسويل أساساً لاقتباس تخطيط المدرسة التي ظهرت في نهاية الدولة الفاطمية .

الدولة الأيوبية:

حكمت هذه الدولة مصر زهاء ثمانين عاماً وأنشأت الكثير من المدارس والمساجد
والقصور . إلا أنه مع الأسف لم يبق من آثارها إلا بقايا قليلة ، ولكن تفاصيل تلك
البقايا دلت على أهميتها وعلى أنها أرقى من معاصرتها في سورية . وأهم ما تبقى منها قلعة الجبل
التي أنشأها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٩ هـ ١١٨٣ م . وتعاقب على تكميلها
والزيادة فيها أفراد البيت الأيوبي ومماليكهم . وكل هذه التطورات تمثل في أبوابها
وأسوارها وأبراجها .

ومنها تابوتا الإمام الشافعي والمشهد الحسيني . أما الأول فقد أمر بعمله صلاح الدين
سنة ٥٧٤ هـ ١١٧٨ م وعليه اسم صانعه « عبيد بن معالي » . ولعله من أسرة ابن معالي
التي اشتركت في صناعة منبر نور الدين الشهيد بالمسجد الأقصى . واسمه عليه بما نصه :
« عمل سلمان بن معالي » . وهذا التابوت من روائع صناعة النجارة ، وله غطاء هرمي حافل
بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية ، وجميع جوانب هذا التابوت مكونة من أطباق
عربية منقوشة بزخارف نباتية دقيقة .

أما تابوت المشهد الحسيني فهو طرفة جديدة على جبهة الأثرين ، ظل محتجباً تحت
الأرض أسفل المقصورة نحو ثمانية قرون لم تكتحل به عين أحد من الأثرين . وقد انتهزت
فرصة تفتيش الأرضية أسفل المقصورة سنة ١٩٣٩ وهبطت إلى الحجر أسفلها في حجة صديق
السيد محمد عرفه وكيل المسجد . فبهرتني صناعة التابوت كما أحزنتني الحالة التي وجدته
عليها ، فقد دب التلف إلى أجزائه ، فأخرجته من مكانه وقامت بإصلاحه إدارة حفظ الآثار

العربية . ثم أودعته دار الآثار العربية سنة ١٩٤٥ . وهو مصنوع من خشب ساج هندي ومكون من جنب ورأسين منذ إنشائه ، ومكتوب عليه آيات من القرآن بالخطين الكوفي المزهر والبسيط والنسخ الأيوبي ، وبه حشوات نجمية ومسدسة محفورة زخارف نباتية مورقة تنوعت أشكالها في جميع أجزاء التابوت .

وقد روعي في اختيار الآيات القرآنية ما يناسب تابوت جثمان طاهر من فرع الدوحة الحمدية ، يقرأ منها قوله تعالى : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد — إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

ومن وصف ابن جبير الرحالة للمشهد تفهم أن هذا التابوت كان تحت الأرض منذ إنشاء المشهد ، إذ يقول :

« فن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما ، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض . . . » .

ومن فحص الزخارف وقاعدة كتابة الخطين الكوفي والنسخي واجتماع أحدهما بالآخر نضعه ضمن مصنوعات الدولة الأيوبية . وكذلك مقارنته بشيبه تابوت الإمام الشافعي تدل على أنه معاصر له ، بل تجعلني أرجح أنها صنعا في عصر واحد . ويد صانع واحد .

وبما أنه ثبت أن لصالح الدين علاقة بالمشهد الحسيني ، وأنه أنشأ مدرسة بجواره ، فأنى أرجح أنه هو الأمر بصنعه ، كما يحتمل أيضاً أن يكون صانعه عبيد النجار المعروف بابن معالي .

ومن التوايت القيمة أيضاً تابوت خشبي في قبة الإمام الشافعي صنع سنة ١٢١١هـ / ١٨٠٨م فوق قبر أم الملك الكامل ، لا يقل أهمية عن تابوت الشافعي ، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت بالأويمة ذات الفروع النباتية تتوسطها حشوات نجمية اثنتا عشرة بداخلها أخرى مسدسة ملئت بفروع زخرفية آية في الدقة والجمال .

وفي هذا العصر اطرده التقدم في الصناعات . ففرى الزخارف الحجرية تابعت تقدمها في باب تربة إسماعيل بن ثعلب سنة ٦١٣ هـ ١٢١٦ م وفي باب وأعتاب شبايك المدرسة الصالحية سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٣ م .

وقباب هذه الدولة وإن ساد خارجها البساطة فإن قواعدها حليت بزخارف جصية ، وحفل داخلها بشتى أنواع الزخرف مثل قبة الإمام الشافعى سنة ٦٠٨ هـ ، وامتازت محاريب تلك القباب وحجور شبايكها بدقة فائقة في صناعة الجص ، كما نشاهده في قبة الخلفاء العباسيين سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٣ م وفي قبة شجر الدر سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م . وثمة ميزة أخرى ، كسوة رؤوس محرابي قبة شجر الدر والصالح نجم الدين بالفسيفساء المذهبة المطعمة بالصدف . ولم تكن فسيفساء محراب قبة الصالح نجم الدين معروفة إلى أن اكتشفها سنة ١٩٣٦ . وفي هذا المحراب وجدت أقدم كسوة رخامية .

ووقعت على الزخارف الجصية تأثيرات أندلسية في نهاية هذه الدولة ، وبقيت حتى نهاية القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر الميلادى . وهذا التأثير زاه ملموساً في زخارف المدرسة الكاملية سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م وفي منارة الشهيد الحسيني سنة ٦٣٤ هـ ١٢٣٧ م وفي (رباط أزدر الصالحى) قبل سنة ٦٧٢ هـ ١٢٧٣ م وفي منشآت أوائل القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى .

وانفرد كثير من قبابها بطراز اقتصر ظهوره على هذه الدولة مثل قبة أبو الفضل وشجر الدر والخلفاء العباسيين . كما ظهر تنوع جديد في المآذن تمثل في منارتى أبو الفضل والصالح نجم الدين نعتبره باكورة لتطورها .

دولة المماليك البحرية :

هذه الدولة تركت وراءها ثروة معمارية كبيرة لختلف الأسر التي حكمتها ، بقي منها حتى الآن مائة أثر . وللمنصور قلاوون وأولاده وحفدته ومماليكهم مجموعة كبيرة من الآثار في أنحاء القاهرة تطاول السماء بمناراتها وقبابها ، وعلى رأسها منشآت المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وأولاده وأمراؤه .

وفي مبدأ حكم هذه الدولة ، أي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، وجدت آثار اشتملت على تفاصيل ميزت مصر على سائر الأقطار ، وانفردت بها عن بقية عصورها .

أولها قبة المنوفى ،

هذه القبة في القرافة الصغرى وهى قبة كبيرة تعلوها قبة صغيرة متصلة بإيوان كبير كان يتصل به من طرفه الآخر قبة صغيرة هدمت . ولا شك أن تلك البقايا مخلفة من خاتناه أو مدرسة قديمة . ويقرر بريس دفين أن العرب أول من اخترع هذا النوع من القباب وأن مهندسها سبق عصر برونيلسكى سنة ١٤٢٠ الذى ينسب إليه فى وقت ما اختراع هذا النوع من القباب بمدينة البندقية .

ونظر الآن هذه القبة خالية النصوص ومجهولة المنشأ ، ولم يتناول آثار هذه المنطقة مؤلفو الخطط ، فأن اتأولها بالوصف ، ثم أحدد تاريخ إنشائها بطريقة المقارنات المعمارية . حقيقة أن هذه القبة فريدة فى طرزها ، وهى مكونة من قاعدة مبنية بالحجر الضخم ، وفتح بجوانبها القبلية والغربية عقود حجرية ، كما أقيم عقد آخر فى وجه العقد البحرى لجل رجل عقد الإيوان .

ويعلو القاعدة مربع آخر به أربعة شبايك يعلوه مشمن ثم ربة القبة وبها ١٦ شباكا اثنان مفتوحان واثنان مضاهيان ، وهكذا بالتناوب ، ثم إفريز تعلوه القبة التى تنتهى قمتها بمنور فوق ربة مشمنة تحمل قبة صغيرة مضلعة ، والجميع مبنى بالطوب . وبجدار القبة الشرقى محراب بسيط به من أسفل كسوة رخامية .

والإيوان الكبير بنى أسفله بالحجر وأعلاه بالطوب ، وبه محراب مثلث يعلوه شباك قنولية به بقايا زخارف جصية بها توريق مشرشر .

وبناء قاعدة القبة بالحجر الكبير والثلاثاء والقبة فوقها بالطوب شاع فى قباب آخر القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى . إذ نراه فى قبة لاجين المنصورى بالجامع الطولونى سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦ م وفى قبة علاء الدين ايدكين البندقدارى سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٤ م . وفى قبة زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ م .

وعقد المحراب المنكسر أو الثلث نواه شاع في محاريب قبة علاء الدين ايدكين
البندقدارى وإيوان زين الدين يوسف السابق ذكرهما ، وفي قبة حسام الدين طورنطاي
سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م ، ومقرنص القبة وجدناه أول مرة في قبة أم الصالح مع تنوع
بسيط سنة ٦٨٢ هـ ١٢٨٢ م ، ثم وجدناه مطابقاً له في باب خانقاه بيبرس الجاشنكير
سنة ٧٠٦/٧٠٩ هـ ١٣٠٦/١٣٠٩ م .

والقبة الصغيرة أعلى القبة مقتبسة من قبة منارة الجامع الطولونى عمل لاجين
سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦ م والمدرسة الجاولية سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وغيرها من قباب ومنازل
النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى .

ومن هذه المقارنات يتبين أن تفاصيل الإيوان والقبة اتفقت مع منشآت نهاية القرن
السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى .

وإلى الآن لم أرمأ مطابق هذه القبة . إلا ما رأيت في خان أسعد باشا العظم بدمشق
سنة ١١٦٦ هـ ١٧٥٢ م فإن فيه قباباً ذات منور خشبي ، كما وجدت في مصر قباباً ذات
مناور مفتوحة في دار الضرب التى أنشأها المغفور له محمد على باشا بالقلعة سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧ م
كانت مغطاة بمناور خشبية .

وثانها قبة رباط أحمد بن سليمان الرفاعى .

هذا الرباط بحارة حلوات قسم الخليفة ، أنشئ سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م وقبته تسودها
البساطة إلى حد أن الرأى لها من الخارج لا يكثر لشكلها ، ولا تبدو عليها أية أهمية ،
فاذا ما دخلها أخذ العجب وبهرته زخارفها وألوانها ونوادير الصناعة فيها . فهى صغيرة
الحجم مربعة القاعدة ترتكز من الجانبين الغربى والقبلى على عقدتين ، ومقرنصها يتكون
من ثلاث حطات ، حفلت بالزخارف طاقاته وخواصره وتواشيعه وحوافيه وداخله ،
واشتمل على كتابات بالخطين الكوفى والنسخى .

وبصدر القبة المحراب ، وهو من الطرف النادرة ، فعقده منكسر حليت طاقته وتواشيعه
وجوانبه بزخارف جصية هندسية ومورقة . وقد انفردت تلك الزخارف بميزة لا نظير لها

في العمارة الإسلامية على ما أرجح . فقد غطيت الكتابة بالسطر أعلاه بزجاج رقيق ملون بلون أرجواني ، وتخللت تلك الكتابة زخارف مورقة غطيت بزجاج ملون باللونين الفيروزي والأرجواني . ومنها الفروع المورقة من زخارف عقد الحراب وباطنه وتواشيحه ، وأحيط الحراب بإفريز به حشوات مستديرة ومسدسة لصق عليها الزجاج المنقوش بالألوان المذكورة .

واستهل القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، بحكم الناصر محمد بن قلاوون ، ومدة حكمه لمصر أطول مدة قضاها ملك بعد حكم المستنصر بالله الفاطمي ، وكان مغرمًا بالعمارة فأنشأ وعمر الكثير من الآثار .

ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد تبارى أمراؤه في إنشاء المدارس والمساجد والخوانق ، وشاركهم نساؤهم في إنشاء المساجد حتى إن حدق القهرمانة مربية الناصر محمد بن قلاوون أنشأت مسجداً باقياً حتى الآن ، وكلها منشآت عن بشييدها وزخرفتها . وكان للتنافس أثر كبير في حصولنا على ثروة فنية عظيمة في مختلف فنون العمارة .

ودرة منشآت هذه الدولة مدرسة السلطان حسن سنة ٥٧٦٤ هـ ١٣٦٤ م فهي غنية بفنونها وعمارتها ، ولا شك في أنها من مفاخر العمارة الإسلامية ، وقد وفقت إلى العثور على اسم مهندسها منقوشاً على طراز جصي بالمدرسة الخفية بما نصه : « وشاد عمارته محمد بن بيليك المحسني » .

وبرغم أن سورية وفلسطين ومصر في أكثر عصورها الإسلامية كانت خاضعة لحكم واحد ، وكان الأمراء يتنقلون بين مصر والشام ، وأنشأوا آثاراً لهم بمصر والشام ، فإنها اختلفت بعضها عن بعض وخاصة في التفاصيل المعمارية . فهي وإن اتفقت أحيانا في التصميم من حيث المساقط الأفقية والمداخل الرئيسية ، فإنها اختلفت في التفاصيل المعمارية ، وخاصة في القبة والمئذنة وصناعة الجص . ولم يكن هذا التغير مقصوراً على الشام ، بل شمل العراق وبلاد المغرب والأندلس وفارس ، مما جعل للكثير من تفاصيل العمارة الإسلامية في مصر طابعاً خاصاً بها ميزها على بقية الطرز الأخرى .

وامتازت العمارة في دولة المماليك بأنها تجمعت وتركزت قواعدها . فظهر تحسين كبير في تصميم وجهات المساجد والمدارس ، وارتقت القبة والمئذنة وتنوعت أشكالهما . وازدهرت صناعة الرخام في المحاريب والوزرات والأرضيات ، كما ازدهرت صناعة الجص في الزخارف والشبايك . وانتشرت الأبواب المغشاة بالنحاس مع تنوع أشكالها وزخارفها وتكفيها بالذهب والفضة .

وارتقت المئذنة وضخمت وصارت تبني قاعدتها بالحجر وعلوها بالطوب ، وانخذت لها خودة مضلعة ، ثم تطورت فبنيت جميعها بالحجر ، وتعددت دوراتها ، وأبدلت الخودة المضلعة بخودة مستديرة ذات هلال ومحمولة على أكتاف رشيقة أقرب إلى العمدة ، ثم أبدلت بها عمدة رخامية . وكل هذا التطور نراه في مئذنة المنصور قلاوون سنة ٧٠٣ هـ . ١٣٠٣ م وفي مئذنة المدرسة الجاولية سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وفي مئذنة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقاهرة سنة ٧٣٥ هـ ١٣٣٥ م وقد وقعت عليهما تأثيرات فارسية وخاصة في قمتيهما المكسوتين بالقاشاني . وفي مئذنة خانقاه قوصون سنة ٧٣٦ هـ ١٣٣٦ م ثم في مئذنة صرغتمش سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٧ م وآسفينا سنة ٧٧٣ هـ ١٣٧١ م والجاي اليوسفي سنة ٧٧٤ هـ ١٣٧٣ م .

وقد مرت القبة بهذه الخطوات من حيث بناؤها بالطوب ثم بالحجر والطوب ثم بناؤها بالحجر مع تنوع أشكالها ، ونرى هذه التطورات ممثلة في قبة زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ م وفي قبة الجاولي سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وفي قبة سنجر المظفر سنة ٧٢٢ هـ ١٣٢٢ م وهي أول قبة بنيت بالحجر وفي قبة تنكزيغا سنة ٧٦٤ هـ ١٣٦٤ م وهي ثالث قبة حجرية ، وفي قبة الجاي اليوسفي سنة ٧٧٤ هـ ١٣٧٢ م ، وتنوع زخرف رقبها من إفريز جصي مزخرف إلى قاشاني ملون فمكتوب ومزخرف .

وتدرجت المحاريب من الجص إلى الرخام الذي بلغ الذروة في هذه الدولة ، وطعم بالصدف ، وتعدى المحاريب إلى الوزرات والأرضيات . وتراه ممثلاً في محراب ^(١)

(١) نختار هذه النماذج من هذه التفاصيل وغيرها من فترات متفاوتة للتعريف برق النوع في الحقب المتعاقبة . وهي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . وفي معرض الصور الذي أفتته بقرع العظم بدمشق مقر اجتماع مؤتمر الآثار عرضت مميزات العمارة الإسلامية بالقاهرة وتطورها في مختلف تفاصيلها . وقد حوى أربعاً عشرة صورة .

ووزرة قبة المنصور قلاون سنة ٦٨٤ هـ ١٣٨٤ م . وفي محراب المدرسة الطيرسية بالأزهر
سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م وفي محرابي المدرسة الإقباقوية ومسجد المارداني سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م .
وعادت القسيساء المذهبة إلى الظهور في محاريب مدرسة المنصور قلاون سنة ٦٨٤ هـ
١٣٨٥ م والجامع الطولوني سنة ٦٩٦ وفي المدرسة الطيرسية ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م وفي
المدرسة الإقباقوية سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م وفي مسجد حديق سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م ، ولم تكن
معروفة إلى أن اكتشفتها سنة ١٩٣٧

وكذلك ظهرت محاريب حصية دقيقة في خانقاه أم أتوك حوالي ٧٤٢ هـ ١٣٤٢ م
وفي قبة أصل السليدار سنة ٧٤٦ هـ ١٣٤٥ م .

وقد سارت الزخارف الحصية في تقدمها ، وتتمثل دقتها في مسجد الظاهر بيبرس
البندقداري سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٦ م وفي رباط أزدمر الصالحى ، وفي زاوية زين الدين
يوسف ، ورباط ابن سليمان ، والخانقاه البندقدارية ومدرسة الناصر محمد بن قلاون
سنة ٧٠٥ هـ ١٣٠٥ م ومسجد أمير حسين سنة ٧١٩ هـ ١٣١٩ م ، ومدرسة السلطان
حسن ٧٦٤ هـ ١٣٦٤ م .

ومثلها التجارة ، فقد تابعت تقدمها في شتى تفاصيلها ، سواء أكانت في التوايت أم الأبواب
والمناير ، وطعمت بالسن والآبنوس . ومنها نماذج قيمة جداً في تابوت رباط أحمد بن سليمان .
وفي منبر المنصور لأجين بالجامع الطولوني سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦ م ، وفي منبر
بكتسر الجوكندار في جامع طلائع بن رزيك سنة ٦٩٩ هـ ١٢٩٩ م وفي منبرى أرغون
شاه الإسماعيلي سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م والطبقا المارداني سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م وفي أبواب
مسجد أم السلطان شعبان ٧٧٠ هـ ١٣٦٨ م .

الممالك الجراكسة :

أما دولة الممالك الجراكسة فزوتها لا تقل أهمية وعدداً عما تركه الممالك البحرية .
فقد بقي لها بالقاهرة مائة وثلاثون أثراً على رأسها مدرسة الظاهر برقوق سنة ٧٨٨ هـ
١٣٨٦ م . وخانقاه ابنه الناصر فرج بالصحرء سنة ٨١٣ هـ ١٤١٠ م ثم منشآت الأنشرف

برسبای من مساجد ومدارس وخوانق ٨٢٩ — ٨٤١ هـ ١٤٢٥ — ١٤٣٧ م ، ثم منشآت القاضي يحيى زين الدين من مساجد ومدارس سنة ٨٥٠ — ٨٥٦ هـ ١٤٤٦ — ١٤٥٢ م . ومنشآت الأشرف قايتباي ٨٧٣ — ٩٠٠ هـ ١٤٦٨ — ١٤٩٤ م وهي وحدها ثروة فنية كبيرة . فقد ترك اسمه مسطوراً على ما يزيد عن ٧٠ أثراً بقي منها بالقاهرة ٣٥ ما بين مساجد ومدارس وقلاع ، وغيرها مدرسته وترتبه بالصحراء . وتبعه أمراؤه في إنشاء المساجد ، ومن خيرتها مسجد أقيحاس الإسحاق وأبي بكر مزهر .

ويليه في العناية بالمعارة السلطان الغوري . فقد كان مغرمًا بها ، وليس أدل على غرامه بالمعارة من إنشائه في منطقة واحدة مجموعة مكونة من وكالة وحمام ومنزل ومقعد وسبيل وكتاب ومدرسة وقبة . ودرتها مسجده بالغورية سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م .

في هذه الدولة سارت التفاصيل المعمارية على اختلاف أنواعها في تقدمها واطراد تحسنها . فاستقرت المنارة على طراز واحد مع تنوع بسيط . وكان هذا التنوع يتفاوت بين البساطة وكثرة الزخرف والاعتدال فيه . وفيها ظهر نوع جديد في زخرفها ، وهو تليس بدن دورتها الأولى بالرخام ، مثل منارتى برقوق بالنحاسين والقاضي يحيى بالأزهر ، ثم حلى بدن دورتها الأولى بزخارف هندسية ونباتية ، مثل مسجد برقوق بالصحراء سنة ٨١١ هـ ومنارة مسجد تراز الأحمدي ٨٧٦ هـ ١٤٧١ م ومنارات قايتباي بالأزهر وبمسجديه بالصحراء وقلعة السكبش ومنارتى جانم البهلوان ٨٨٣ هـ ١٤٧٨ م وأبي بكر مزهر ٨٨٤ هـ ١٤٧٩ م .

وفي نهاية هذه الدولة ظهر نوع من المنارات مزدوج الرأس ، منها منارة مدرسة قاني باي الرماح سنة ٩٠٩ هـ ١٥٠٣ م ومنارة الغوري بالأزهر سنة ٩١٥ هـ ١٥٠٩ م وامتازت بتليس بدن دورتها الأولى بقاشاني أزرق ، وأن السلم الموصل بين الدورتين الأولى والثانية مزدوج لا يرى الصاعد فيه النازل ، وهو ثالث أنموذج في منارات مصر ، إذ الأول في منارة قوصون والثاني في منارة أربك اليوسفي .

وسار الرخام في تقدمه سواء أكان في المحاريب أم الوزرات والأرضيات . ومنه نماذج راقية جداً في منشآت الأشرف برسبای والأشرف قايتباي وقانصوه الغوري وأمرائهم .

وصناعة الجص وإن كانت تأخرت فقد عوضت بتقدم بالغ في صناعة الشبايك الجصية والتوفيق في اختيار ألوانها .

واستمرت القبة سائرة في التحسن إلى أن بلغت الذروة في هذه الدولة ، وحلى سطحها الخارجى بنقوش هندسية وأخرى مورقة ، حتى انقردت بحملها على سائر قباب العمارة الإسلامية ، وهذا ما نلسمه في قبة جاني بك الأشرف بالصحرء سنة ٨٣١ هـ ١٤٢٧ م وفي قبة المدرسة الجوهرية بالأزهر سنة ٨٤٤ هـ ١٤٤٠ م وقبة الأشرف برسباى بالصحرء سنة ٨٣٥ هـ ١٤٣١ م وفي قبة الأشرف قايتباى بالصحرء سنة ٨٧٩ هـ ١٤٧٤ م وهي منتهى ما وصل إليه رقى القباب .

وإلى نهاية هذه الدولة كانت أعمال النجارة متقدمة في شتى أنواعها ، سواء أكانت في المنابر أم الأبواب ، وتجلى دقتها في أبواب ومنبر جامع المؤيد شيخ سنة ٨٢٣ هـ ١٤٢٠ م وفي منابر الأشرف برسباى بالأشرفية ، وقايتباى بالصحرء ، وقجاس الإسحاقى . وقانصوه الغورى .

ويحق لنا القول بأن العمارة الإسلامية في هذه الدولة أخذت زخرفها وازينت وبلغت أقصى مراتب السكالم .

العصر العثماني :

كان لسقوط دولة المماليك الجراكسة ودخول مصر في حوزة الدولة العثمانية أثر كبير في تأخر الفنون والعمارة الإسلامية . فما إن تم للسلطان سليم الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م حتى جمع مهندسيها وفنانيها وخيرة صناعها من بنائين ونجارين ومرمخين وأرسلهم إلى استامبول . وبذلك قضى على النشاط الفنى والصناعى إلى حد كبير . والدولة العثمانية وإن تأخرت العمارة فيها فأنها خلفت ثروة معمارية كبيرة بقى منها ١٩٠ أثرأ ما بين مساجد وأسبلة ووكالات ودور .

وفي عصر هذه الدولة أدخلت إلى مصر أساليب معمارية تركية جديدة لم تكن مألوفة بمصر من حيث التصميم والزخرف . فقد أنشأ سليمان باشا مسجده بالقلعة سنة ٩٣٥ هـ ١٥٢٨ م

على طراز مساجد الآستانة . فهذا المسجد مكون من قبة كبيرة مكسوة بالقاشاني يحيط بها أنصاف قباب . وأمامها محن مكشوف تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة كسيت بالقاشاني أيضاً .

وبرغم أن تصميمه عثماني بحت ، فإن منارته تأثرت بالمنارة المصرية عدا خودتها التي أبدلت بها مسألة كسيت بالقاشاني . وأيضاً فإن وزرته الرخامية وإفريزها المكتوب بالخط الكوفي تأثرت بالوزرات المملوكية ، ومثلها الأرضيات الرخامية . على أن أهم ما يسترعى النظر فيه مجموعة النقوش الملونة والمذهبة بالقبة الكبيرة وأنصاف القباب حولها . وحذا حذوه في التصميم مع اختلاف في التفاصيل مهندس مسجد المللكة صفية سنة ١٠١٩ هـ ١٦١٠ م . وكان الحال كذلك في مسجد سنان باشا يولاق ١٥٧١ هـ ١١٧٩ م إلا أنه استعاض عن الحوش المكشوف بأروقة معقودة حول وجهاته الثلاث . وفي هذين المسجدين تظهر المنارة التركية التي شاعت في القاهرة بعد ذلك .

وبرغم التأخير الذي أصاب القبة والمنارة وصناعة الجص والنجارة وكثيراً من الصناعات فقد استمرت صناعة الرخام على تقدمها ، وكذلك صناعة النحاس فقد ازدهرت ، وخاصة النماذج المصبوبة للشبابيك بالأسبلة . ووجدت عناصر جديدة للزخرف هي كسوة الجدران والقباب والمحاريب بالقاشاني . ومنه نماذج قيمة في مسجد آق سنقر من عمل إبراهيم آغا سنة ١٠٦٢ هـ ١٦٥٢ م وفي سبيل عبد الرحمن كتنخدا سنة ١١٥٧ هـ ١٧٤٤ م وسبيل رقية دودو سنة ١١٧٤ هـ ١٧٦٠ م .

وانتشرت صناعة الحشب الخراط ، وافتن صانعها في إيجاد رسوم وكتابات بها ، وشاعت المشريات في الدور ، وهي التي طبعت الدور في أحياء القاهرة بطابع خاص اقتصر عليها ، مثل منازل الكريدلية سنة ١٠٤١ هـ ١٦٣١ م وجمال الدين الذهبي سنة ١٠٤٧ هـ ١٦٣٧ م ومنزل السحيمي سنة ١٠٥٨ هـ ١٦٤٨ م . وقد اشتملت هذه الدور وغيرها على مقاعد وقاعات حوت سقوفاً دقيقة لا تقل عن سقوف دولة المماليك . كما حوت وزرات وأرضيات دقيقة ، وامنازت بوجود فسقيات رخامية توسطتها نافورات رخامية مفرغة بأشكال زخرفية .

وبجانب التأثيرات التركية التي وقعت على العمارة في القاهرة والتأخير الذي أصابها وجدت مساجد ظلت متأثرة بالطرز المملوكية ، وأهمها مسجد البردي المنشأ سنة ١٠٢٥ — ١٠٣٨ هـ ١٦١٦ — ١٦٢٨ م وهو صغير الحجم عبارة عن قاعة صغيرة أحيطت بوزرة رخامية رقيقة جداً . وله محراب رخامي دقيق ومنبر صغير مطعم بالصدف . وتماز منارته بأنها مملوكية الطراز ، مما جعل هذا المسجد درة المساجد المنشأة في العصر العثماني .

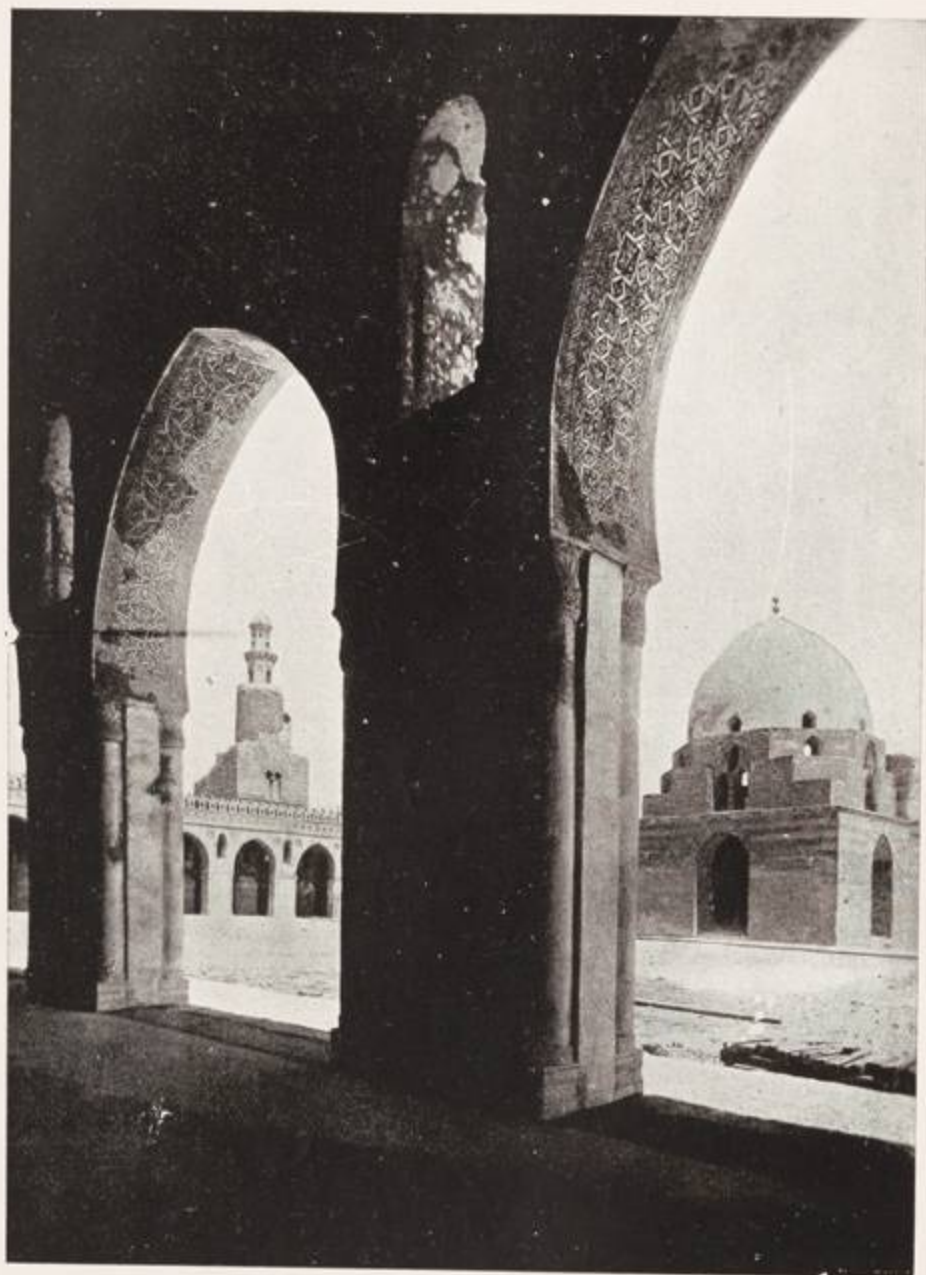
وفي هذا العصر كثر إنشاء السبيل منفرداً يعلوه كُتَّاب . وأجمل هذه الأسبلة سبيل خسرو باشا سنة ٩٤٢ هـ ١٥٣٥ م وسبيل وكتاب عبد الرحمن كتحذا بشارع بين القصرين . ولم تقتصر أهمية هذا السبيل على تفاصيل وجهاته الفنية بالنقش في الحجر وتطعيم الرخام ، بل تعدته إلى داخله المكسو بالقاشاني المرسوم فيه صورة الكعبة الشريفة .

عصر المغفور له محمد علي باشا :

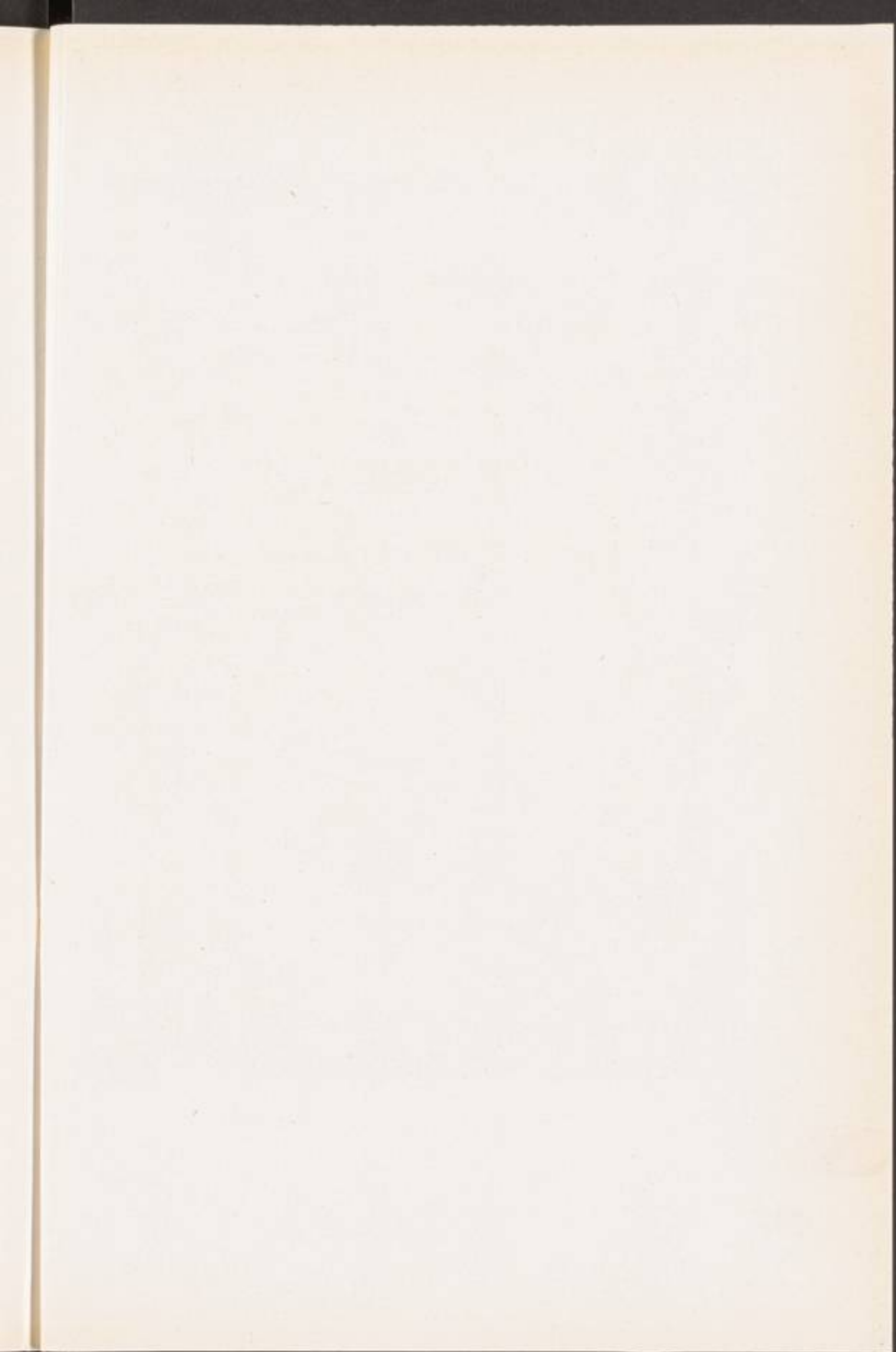
إن أكثر الآثار الباقية من هذا العصر ترجع إلى هذا العاهل الذي أنشأ المساجد والقصور والمصانع والحصون والقناطر ودار المحفوظات ودار الضرب ، وبقى منها عشرون أثراً ، أهمها القناطر الخيرية ، ثم مسجده العظيم .

وكان لاستعانتهم بمهندسين وصناع أجانب وأتراك أثر في إيجاد عناصر جديدة في العمارة والزخرفة لم تكن موجودة من قبل . فالزخارف تمثل زهوراً وعناقيد غنب وستائر ومناظر طبيعية . وهذا النوع من الزخرف شاع في تركيا في القرن الثامن عشر الميلادي ، ويعرف باسم (روكوكو) وقد دخل إليها بعد انتشاره في أوربة على أيدي قناتين من جنوبي إيطاليا وصقلية .

وقد شاع هذا الفن في زخارف قصوره وقصور أولاده ، وأخص بالذكر منها قصر شبرا الذي أنشأه سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م وقصر الجوهرة بالقلمة سنة ١٢٢٩ هـ ١٨١٣ م ثم قصر الحرم بداخل القلمة سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧ م . وفي هذه القصور نرى لوناً جديداً في تصميم القصور ومواد بنائها ، وغالبها من الخشب .

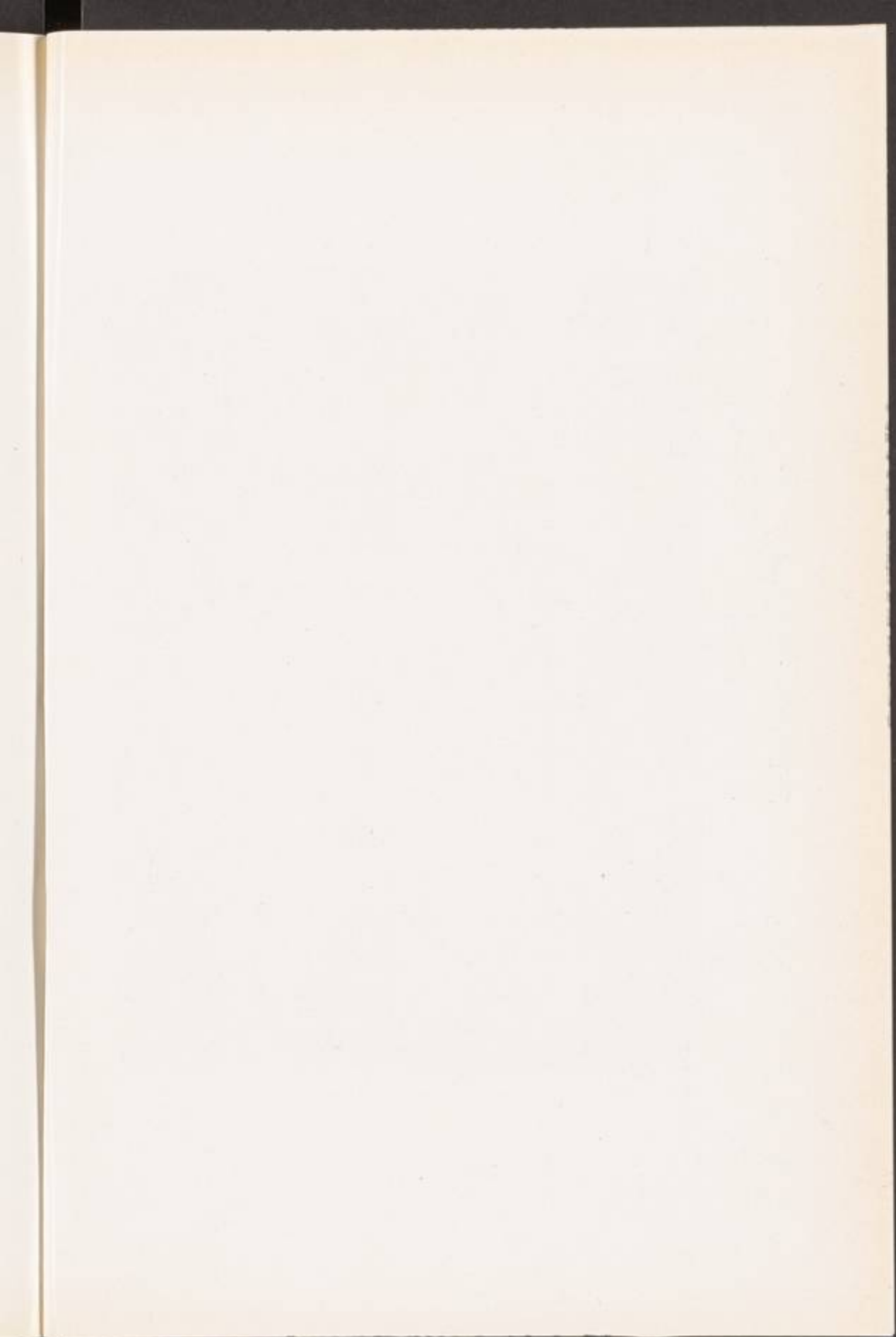


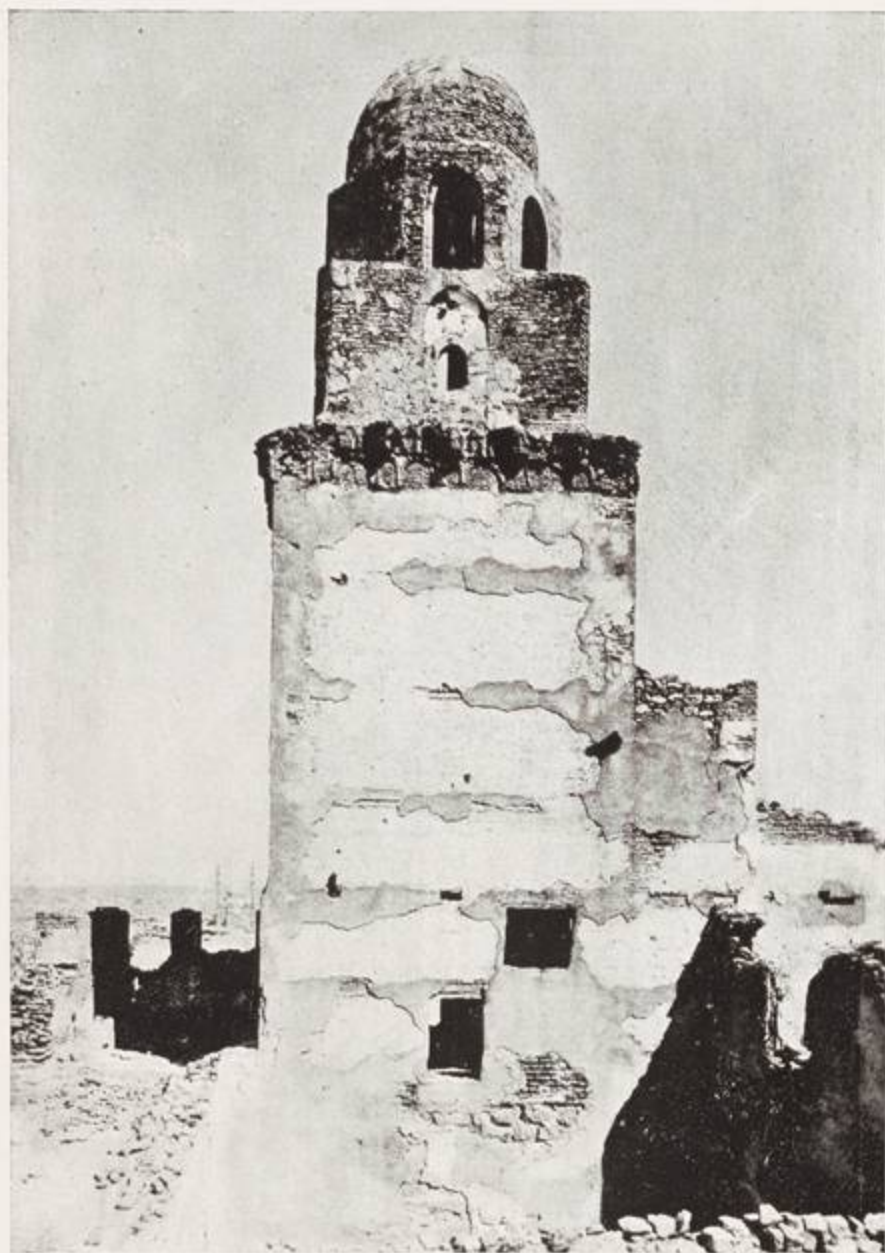
(شكل رقم ١)
الجامع الطولوني



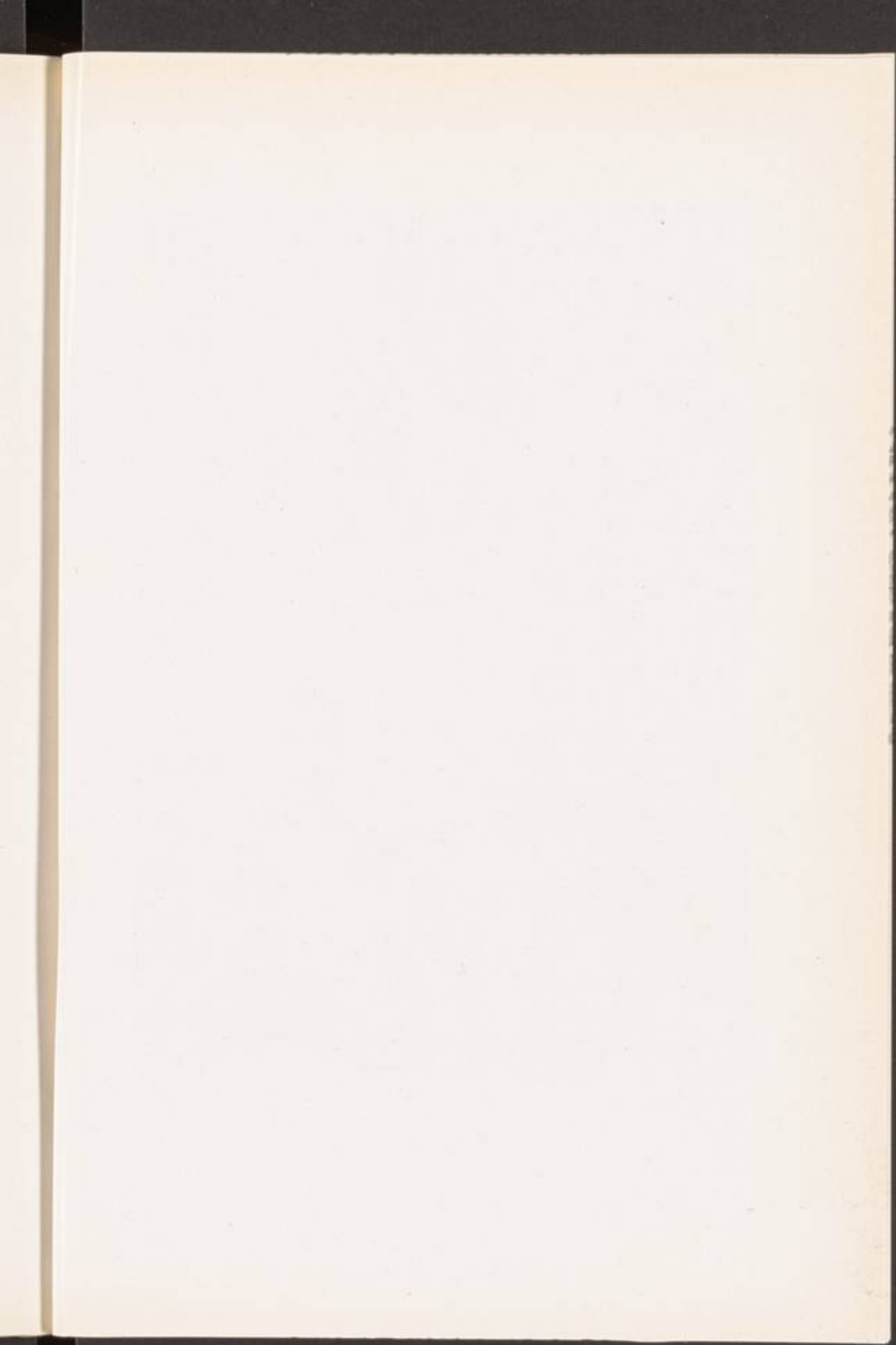


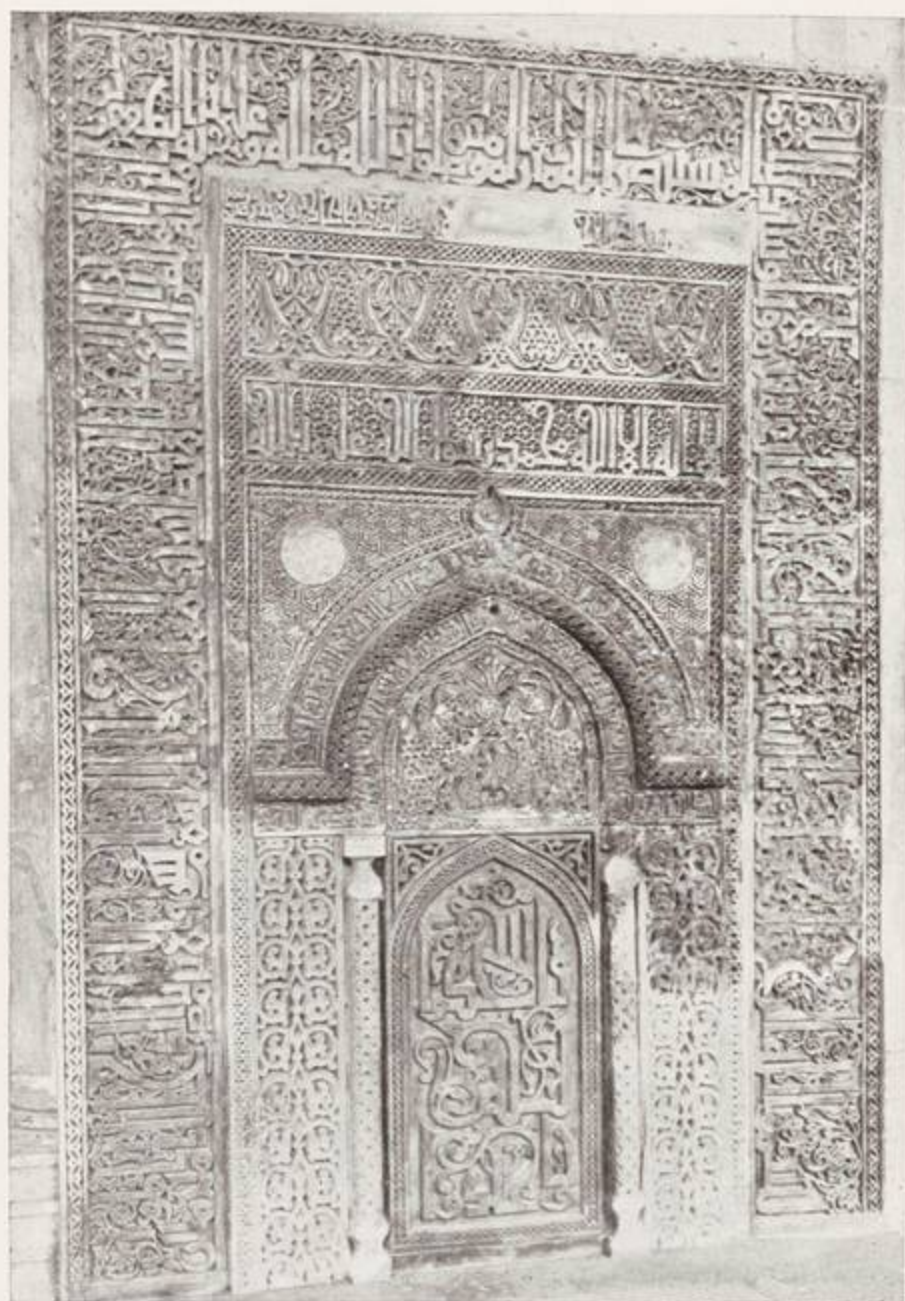
(شكل رقم ٢)
زخارف مدخل جامع الحاكم بأمر الله



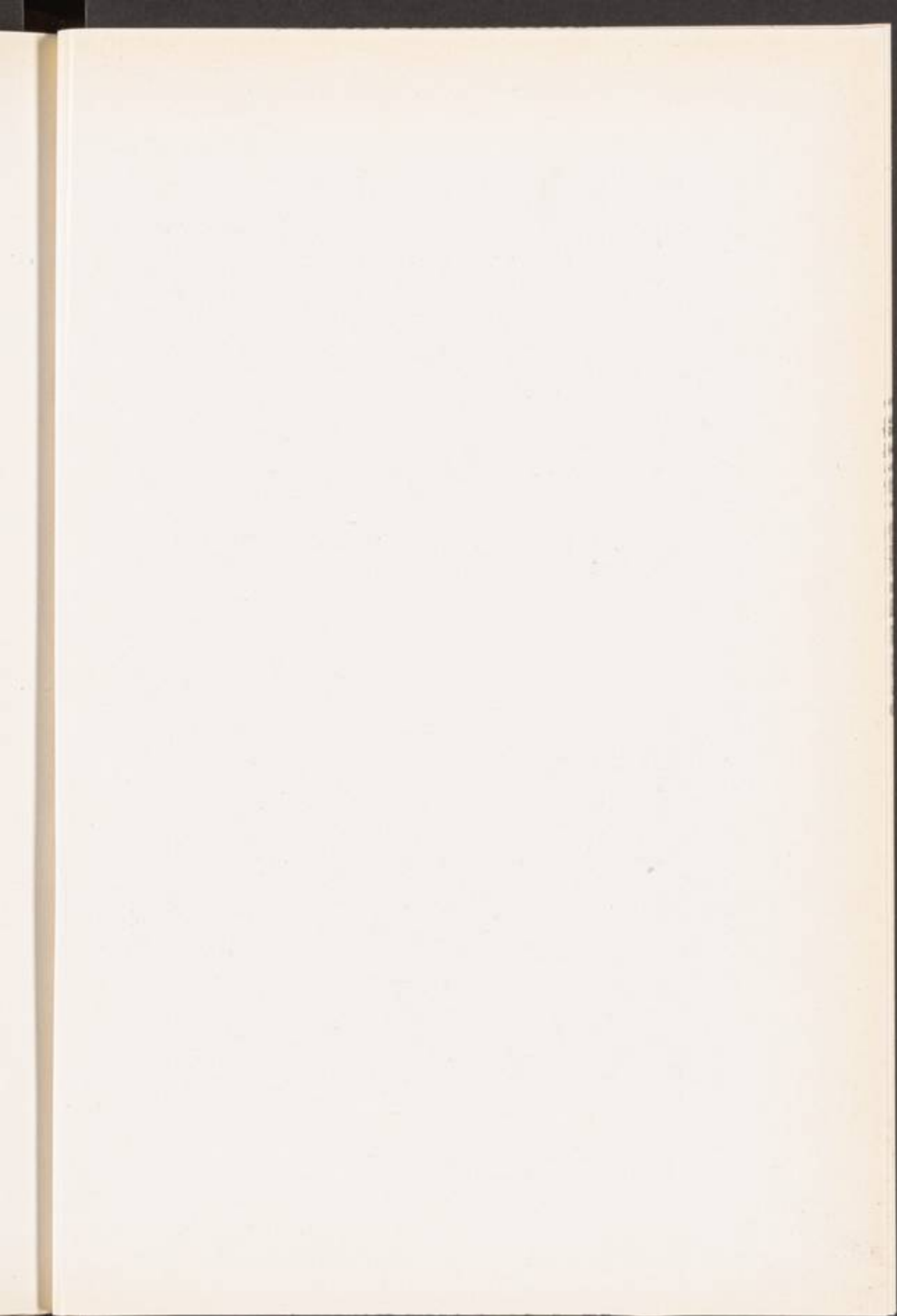


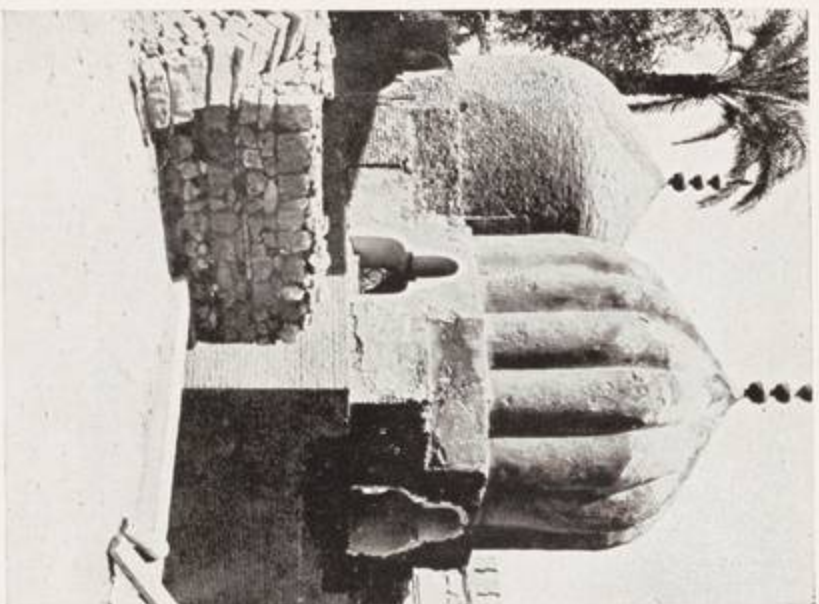
(شكل رقم ٣)
منارة الجيوشى



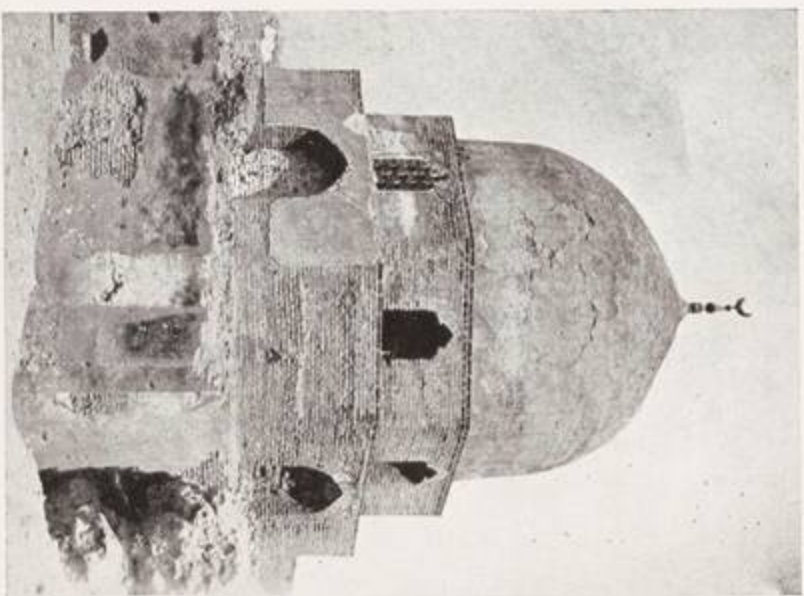


(شكل رقم ٤)
المحراب المستنصرى

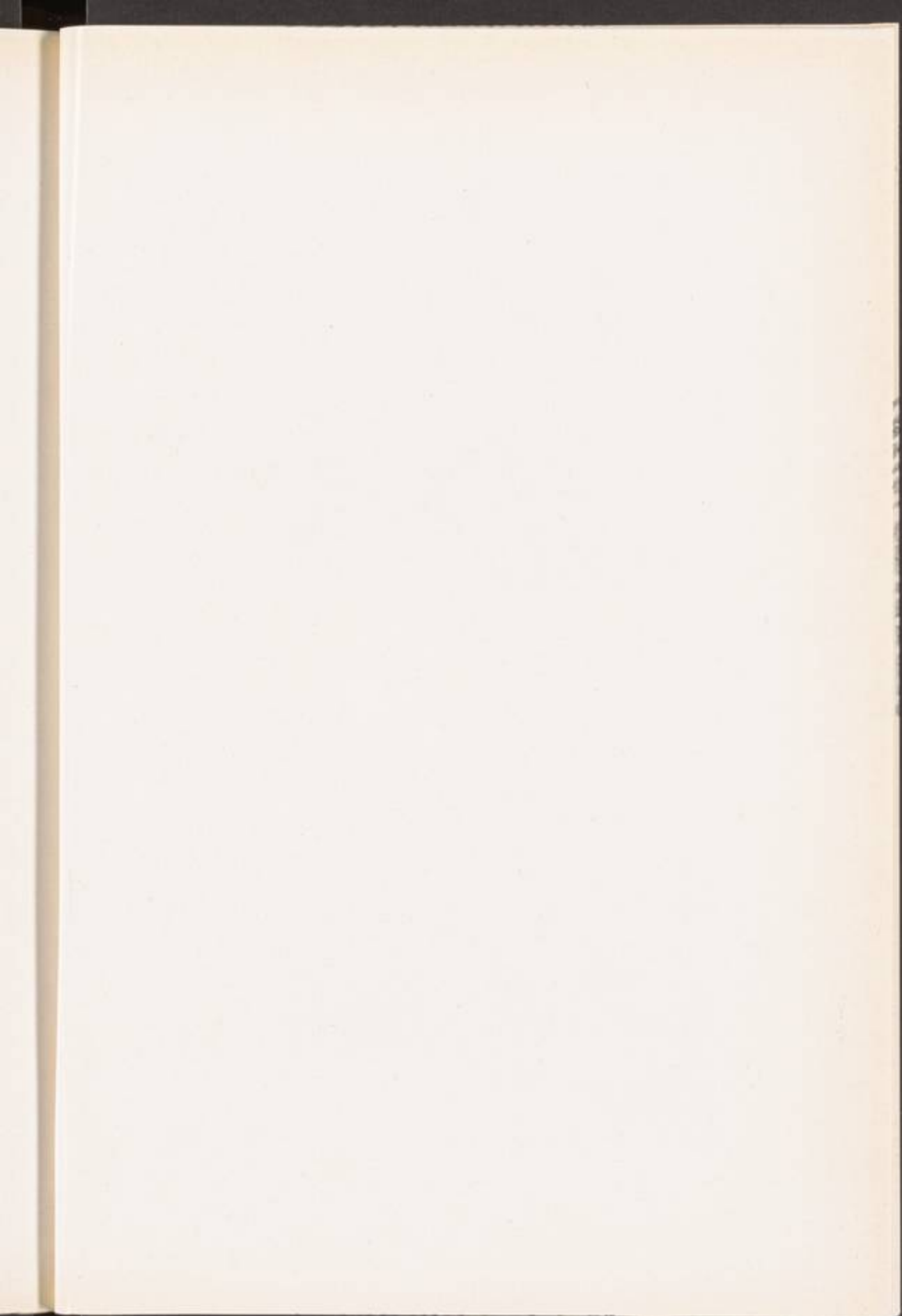


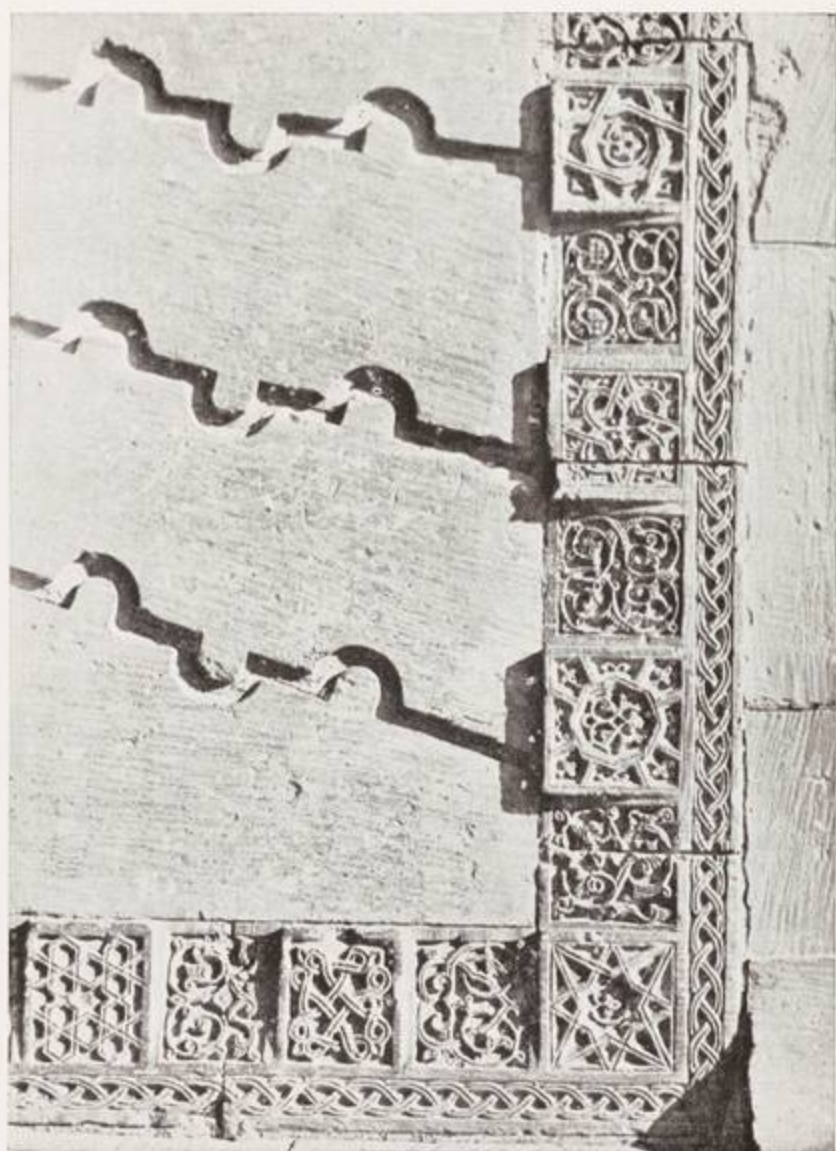


(شکل رقم ۶)
قبر عائشة و الجعفری



(شکل رقم ۵)
قبر اختی یوسف





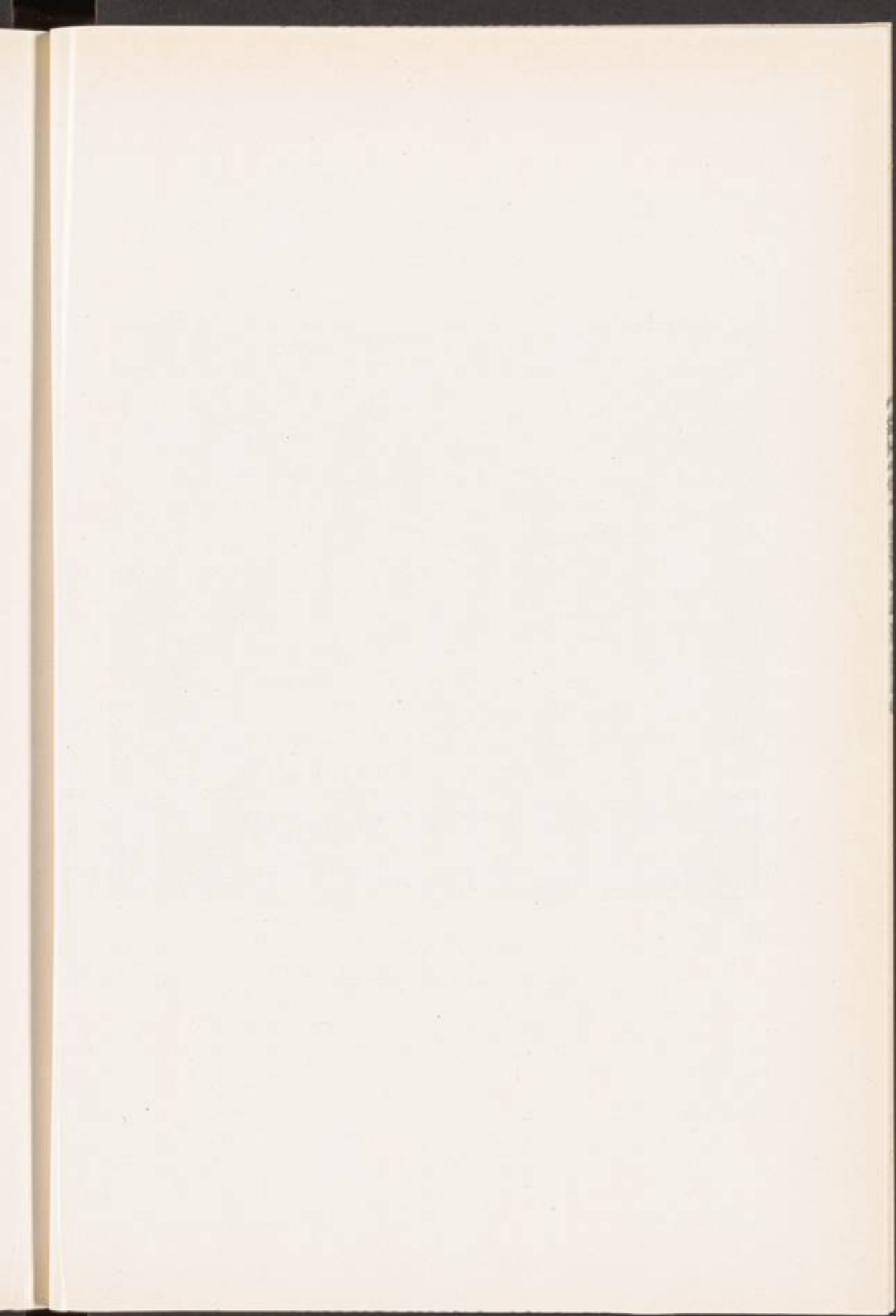
(شکل رقم ۷)
باب تریة اسماعیل بن ثعلب

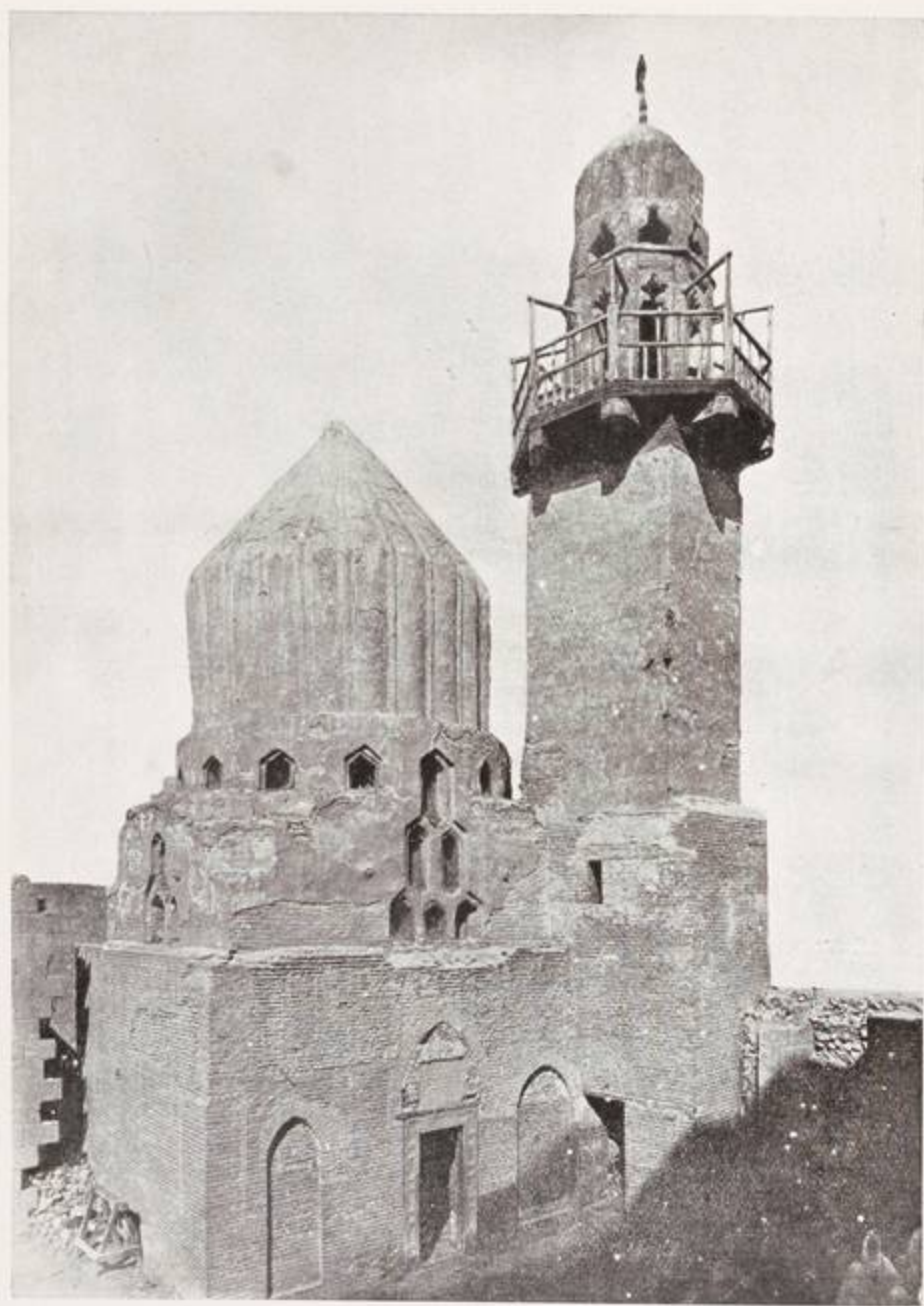




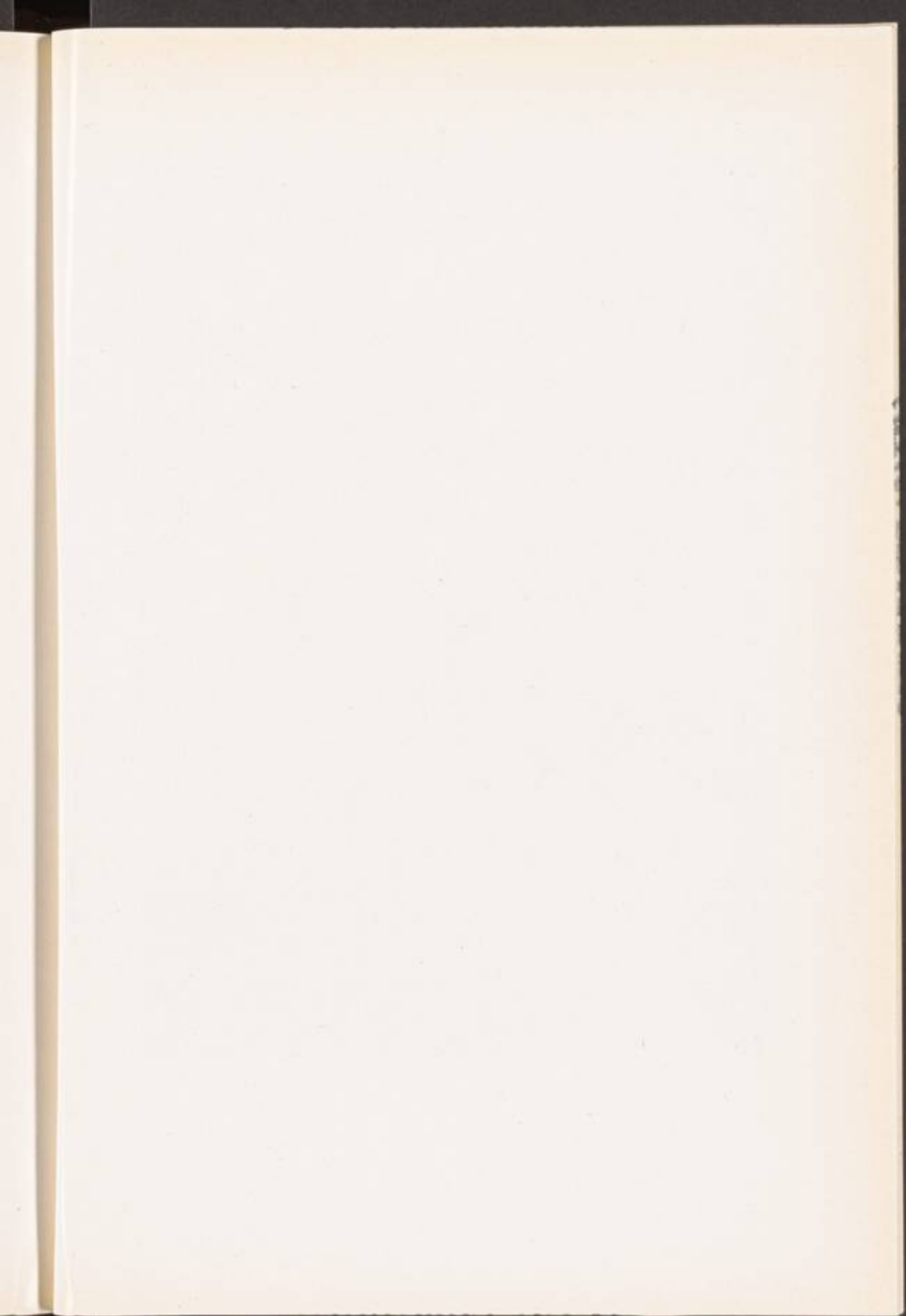
(شكل رقم ٨)

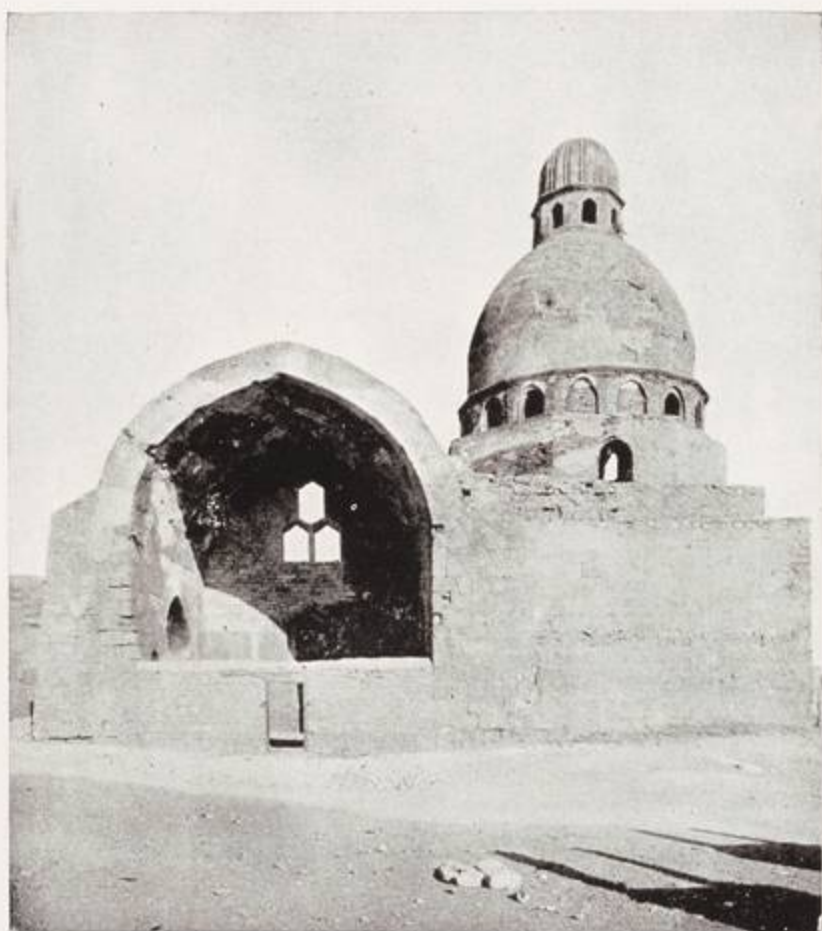
زخارف جصية بقبة الخلفاء العباسيين



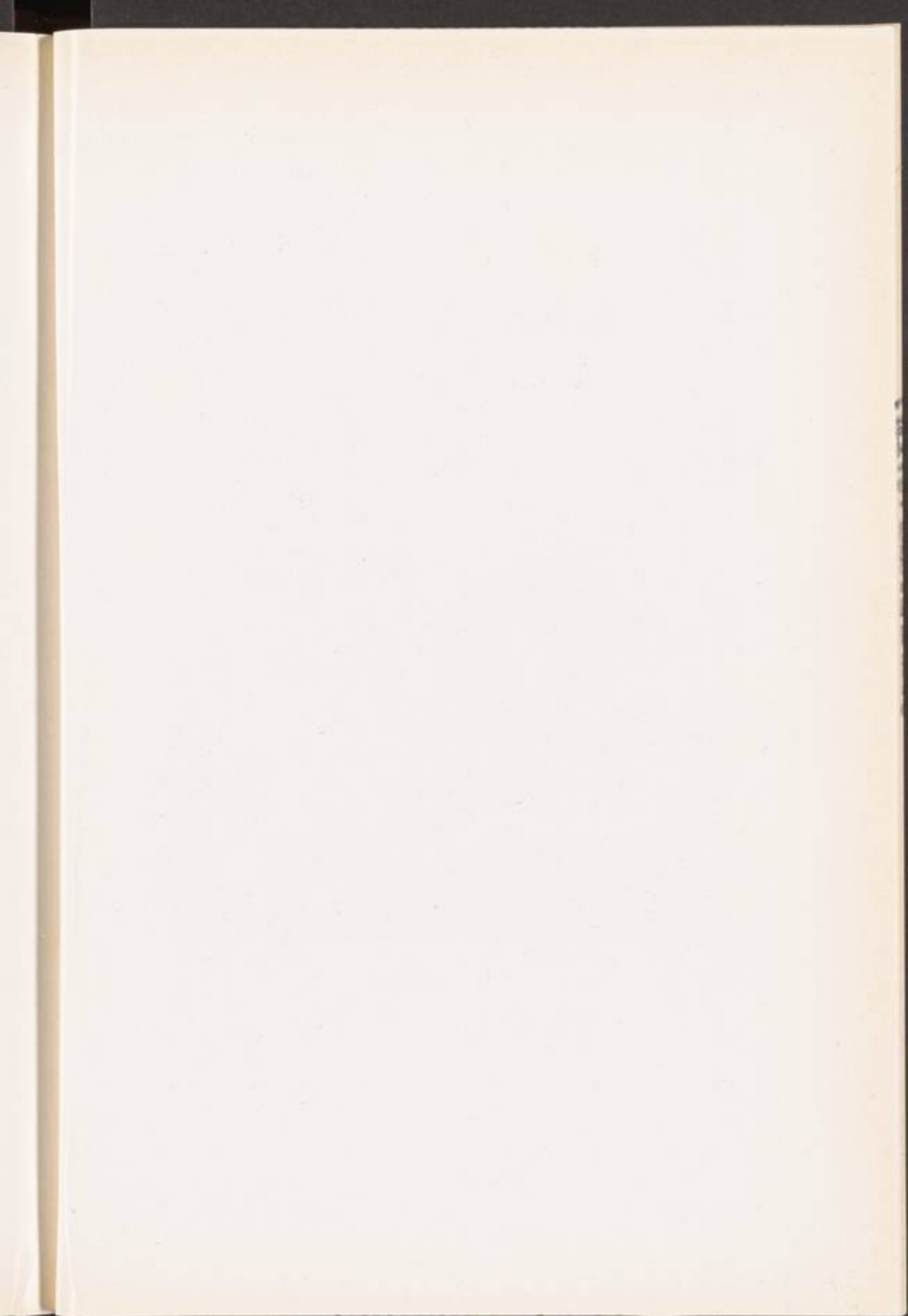


(شكل رقم ٩)
قبة ومئذنة أبو الغضنفر





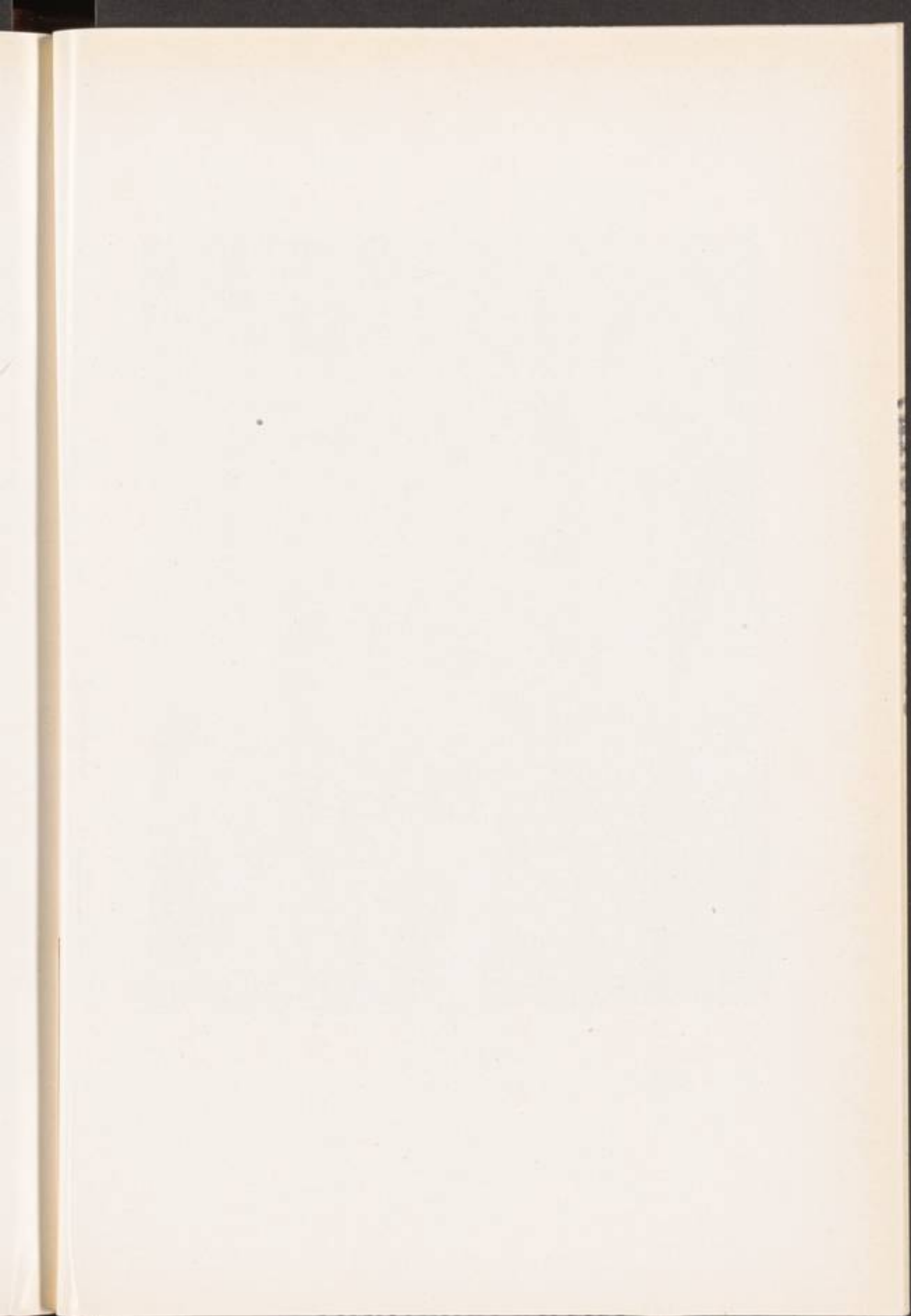
(شكل رقم ١٠)
قبة المنوفى





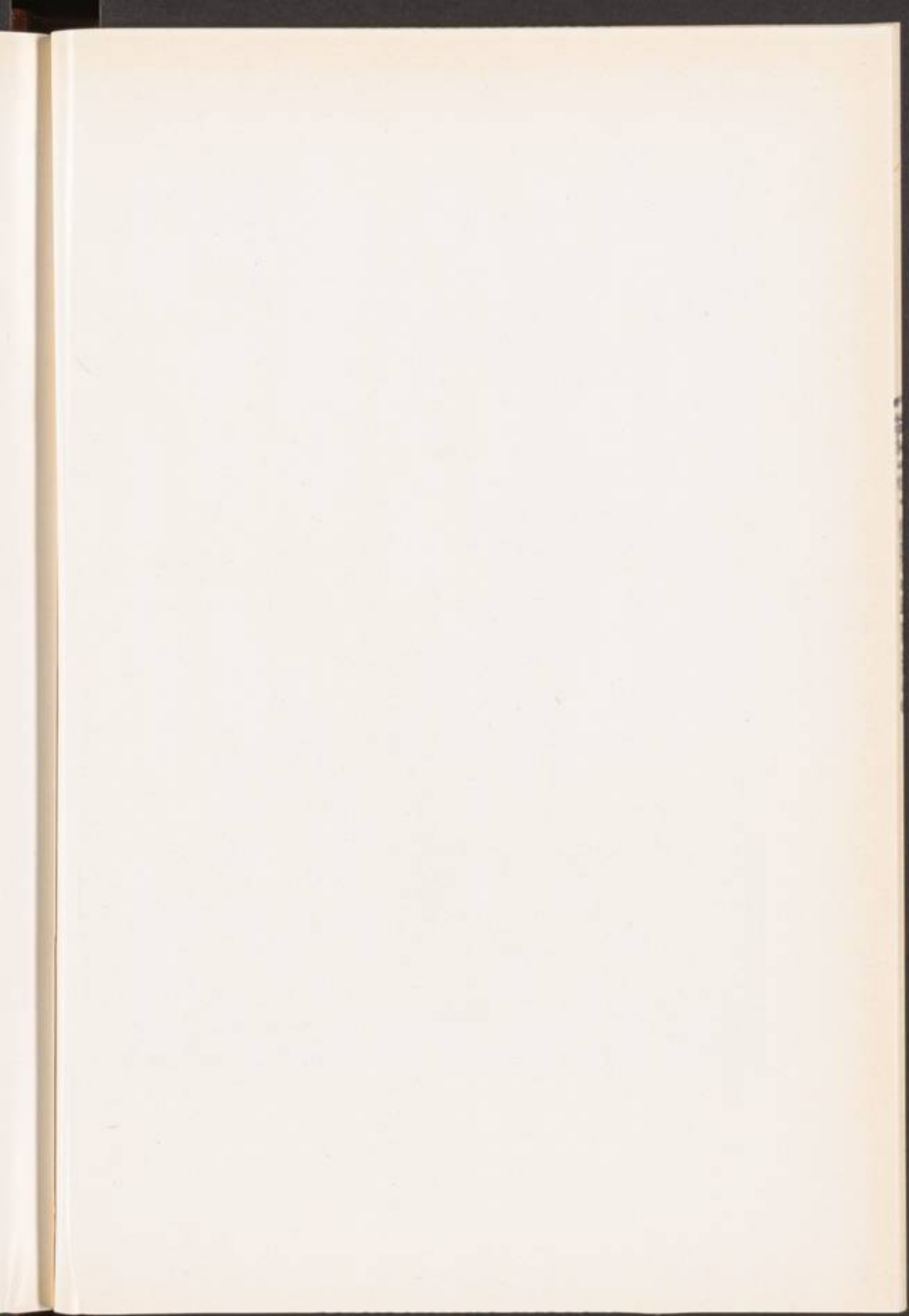
(شكل رقم ١١)

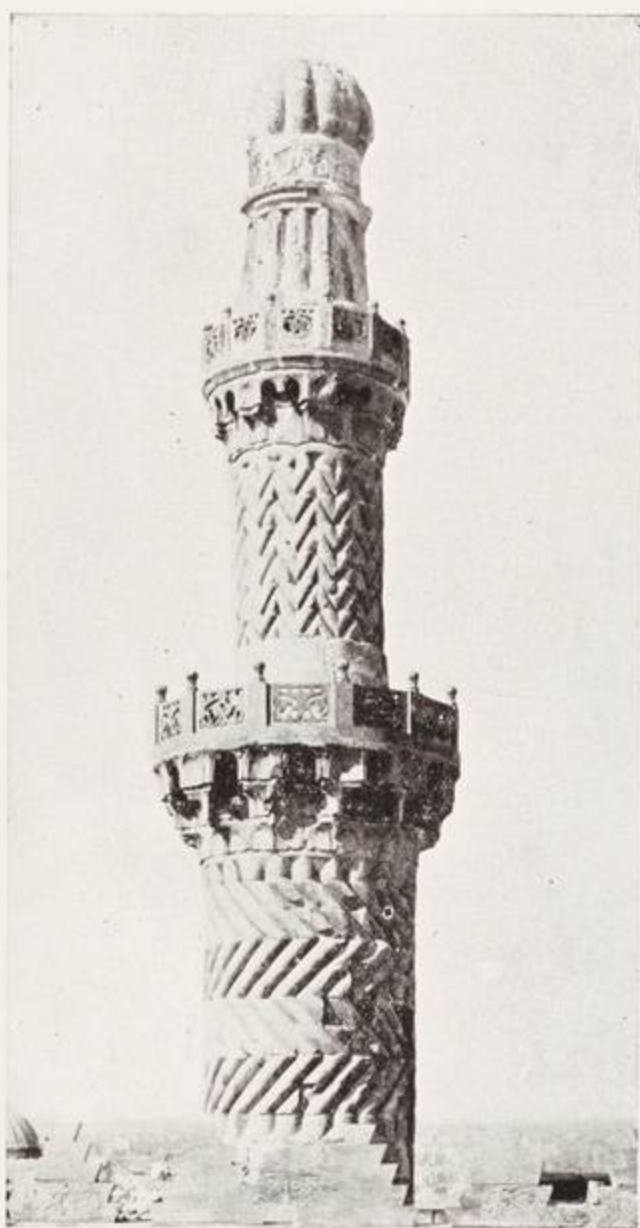
تفاصيل من الزخارف الحصية وزجاجها بقبة أحمد بن سليمان



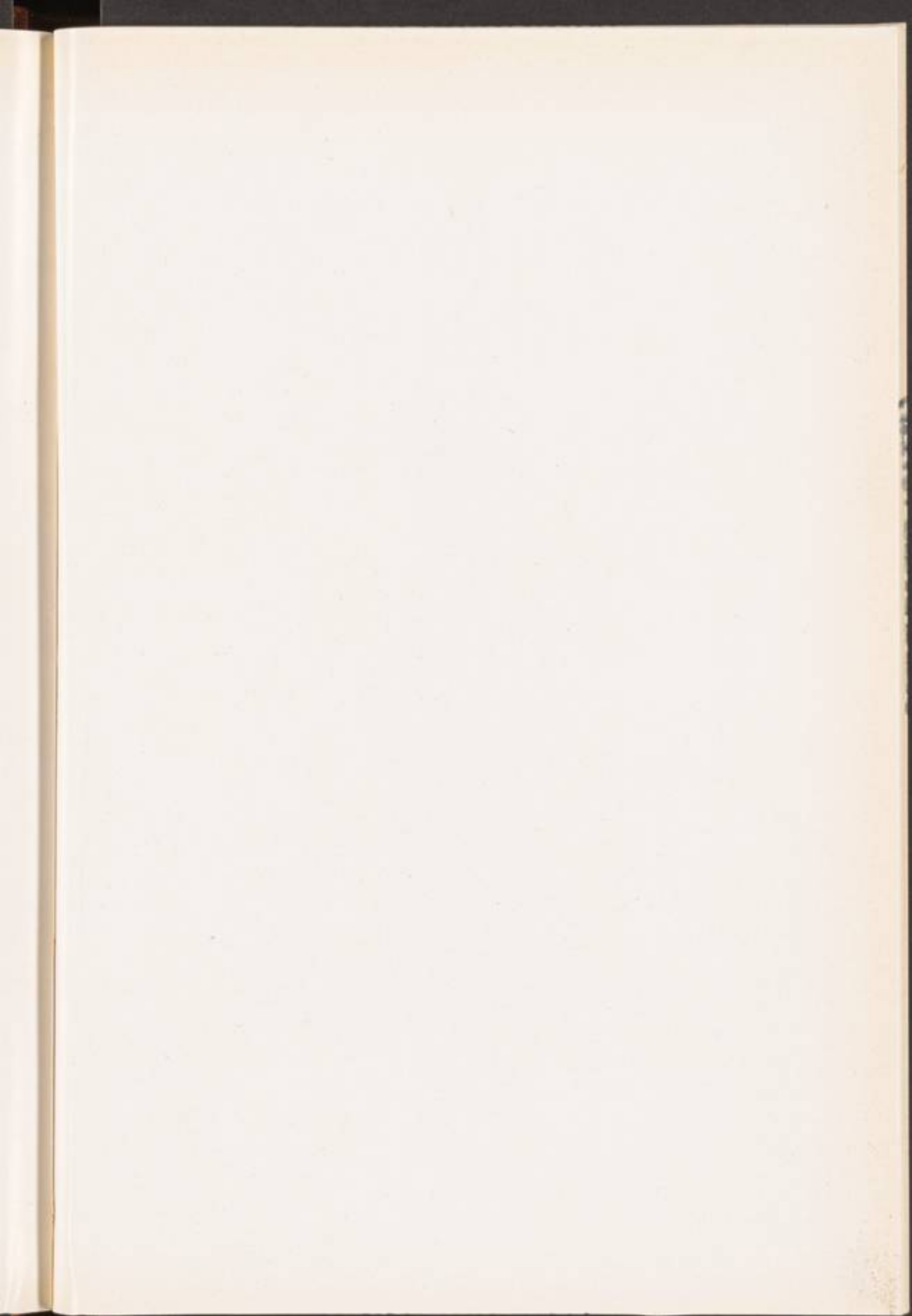


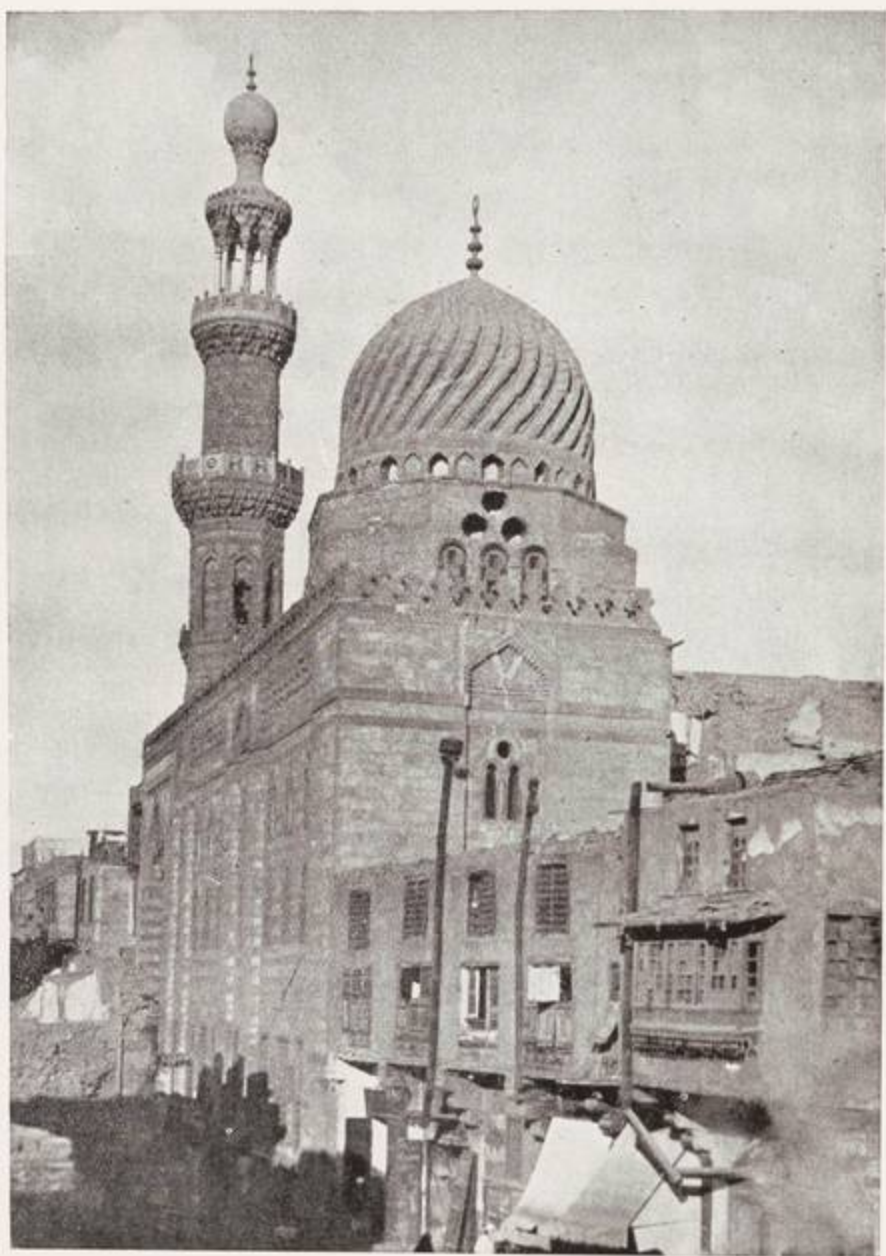
(شکل رقم ۱۲)
جامع الحساوی



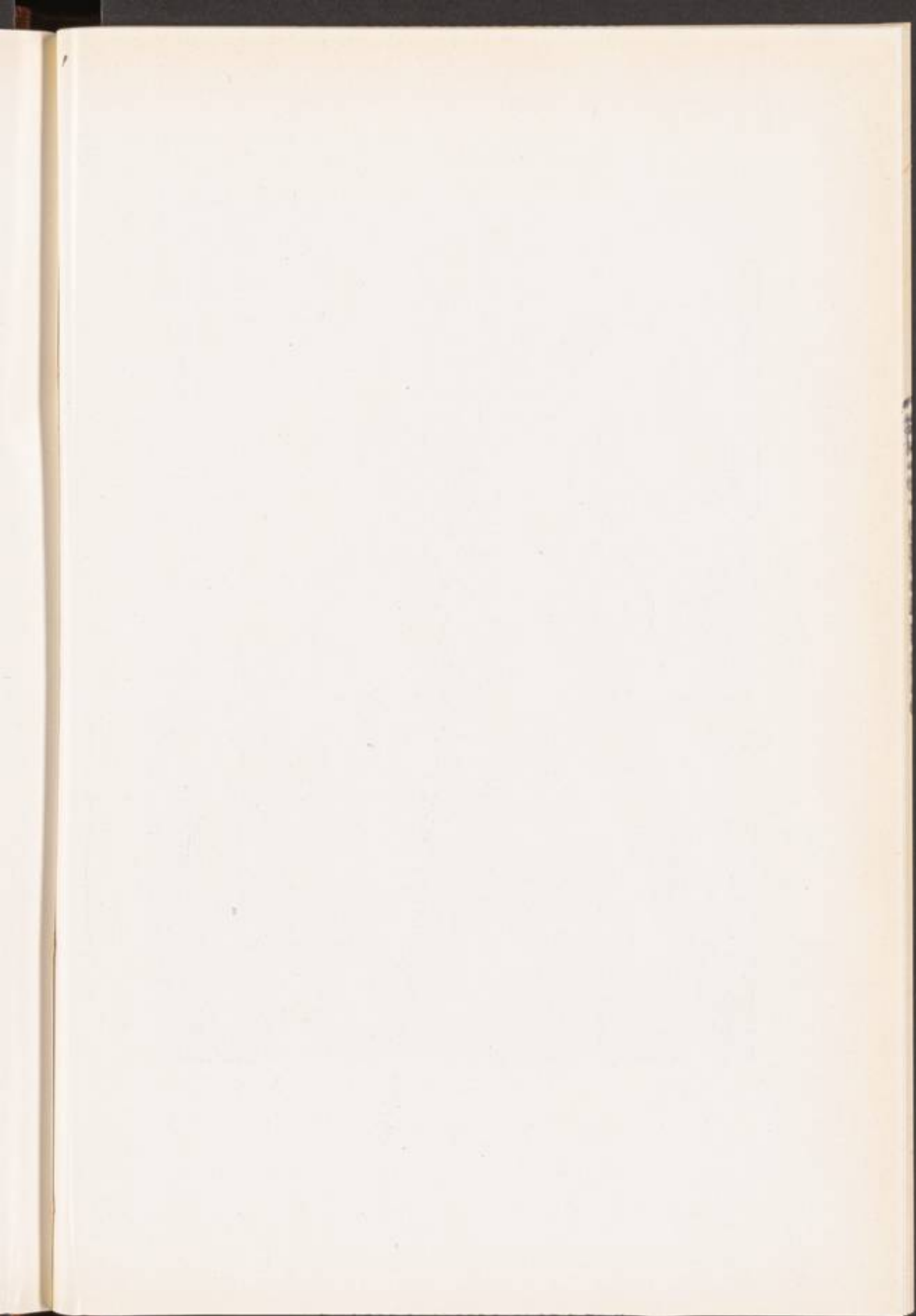


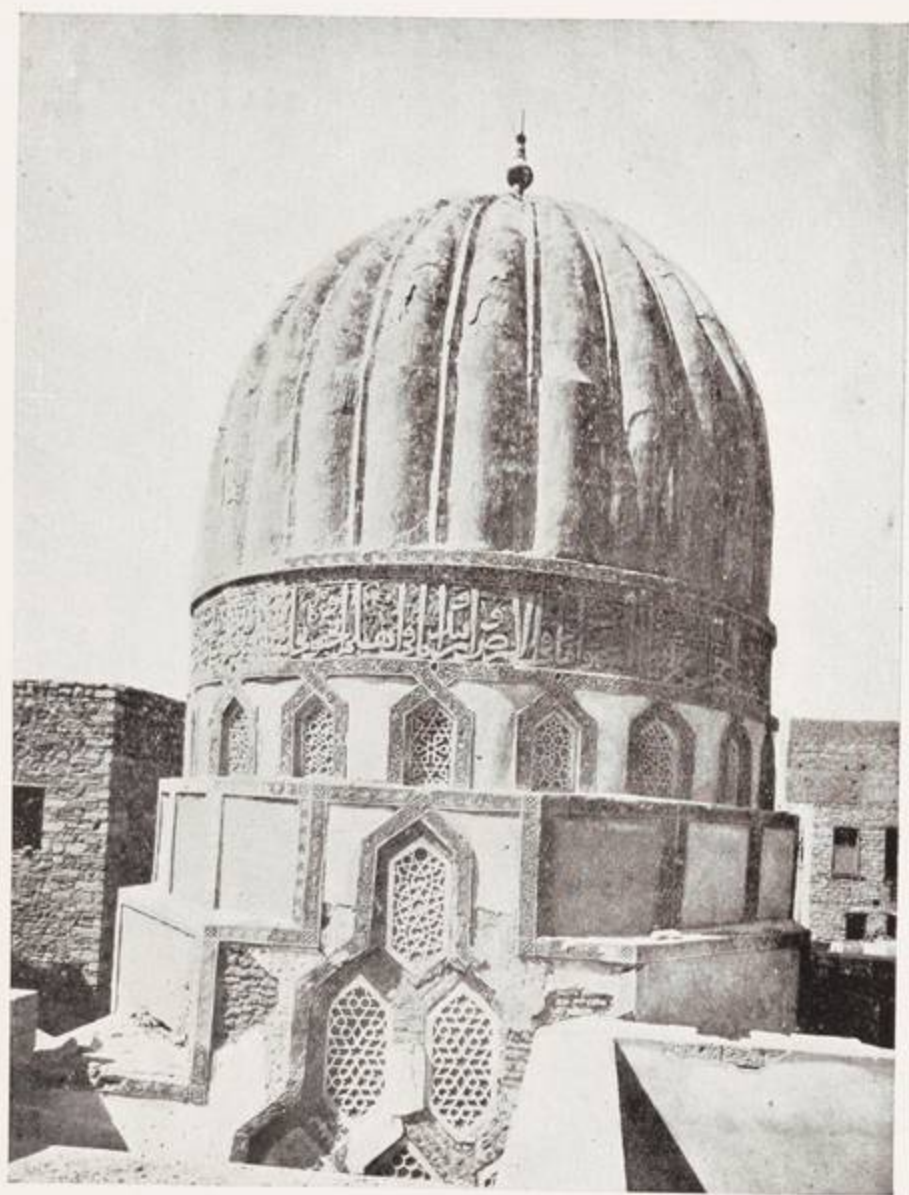
(شكل رقم ١٣)
منارة الناصر محمد بالقلعة



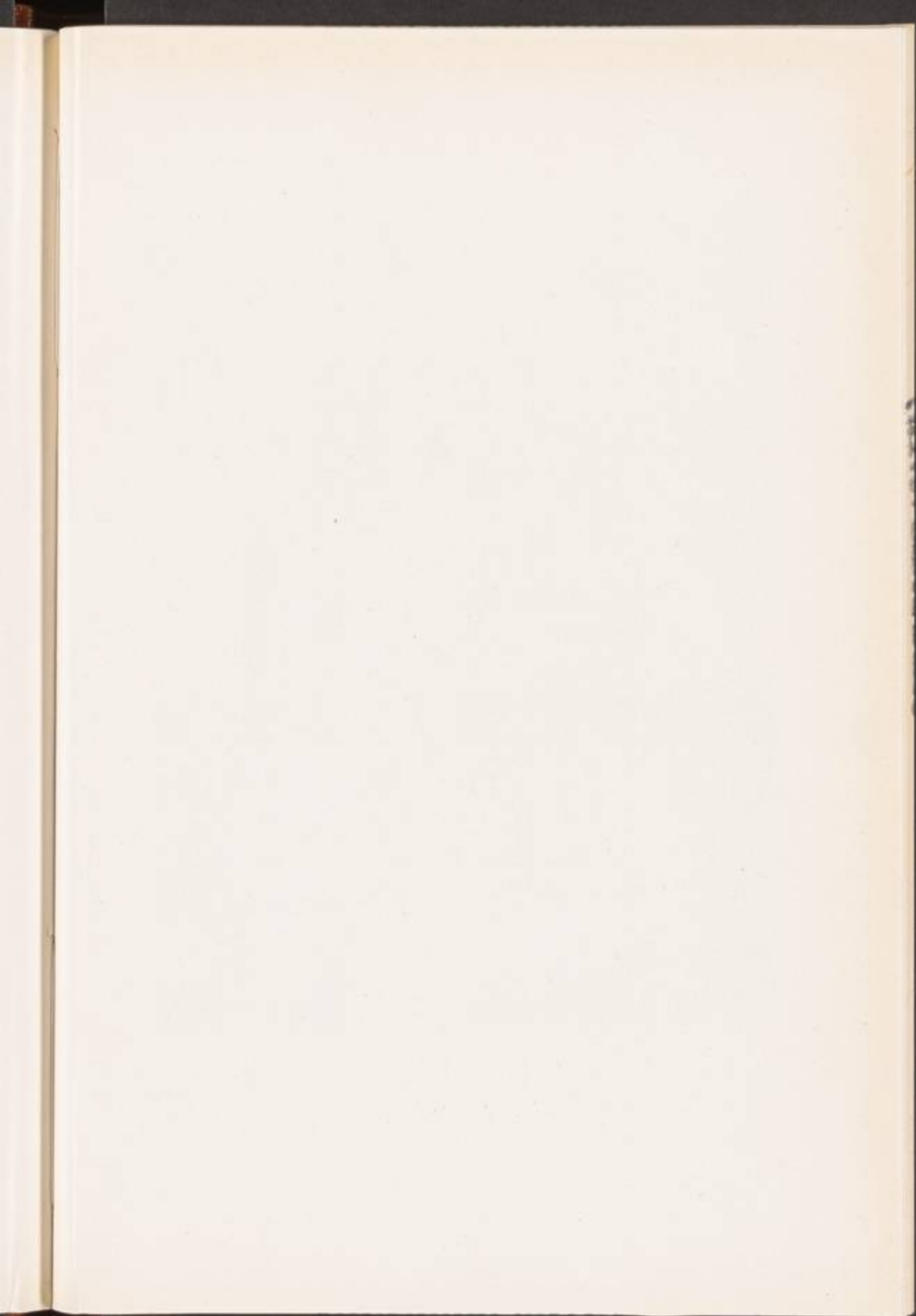


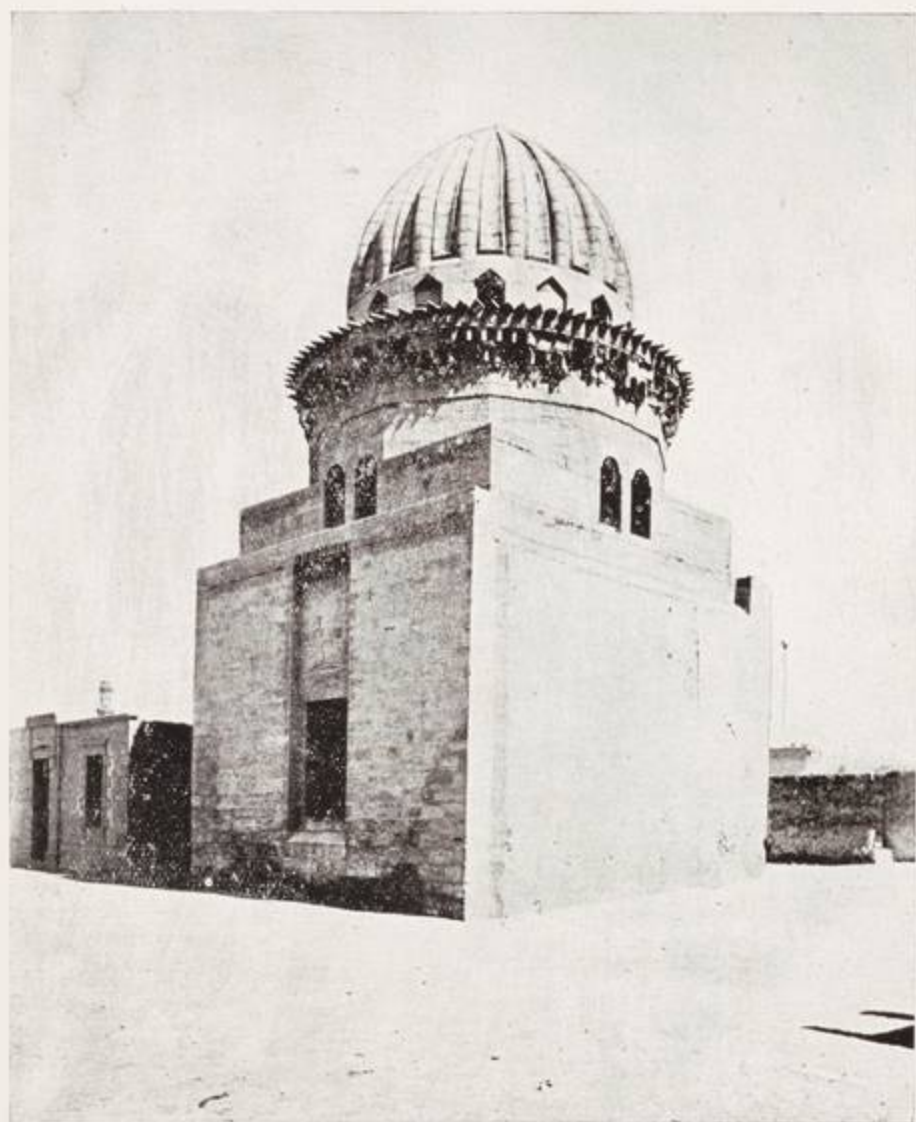
(شكل رقم ١٤)
منارة وقبة الجاي اليوسفي



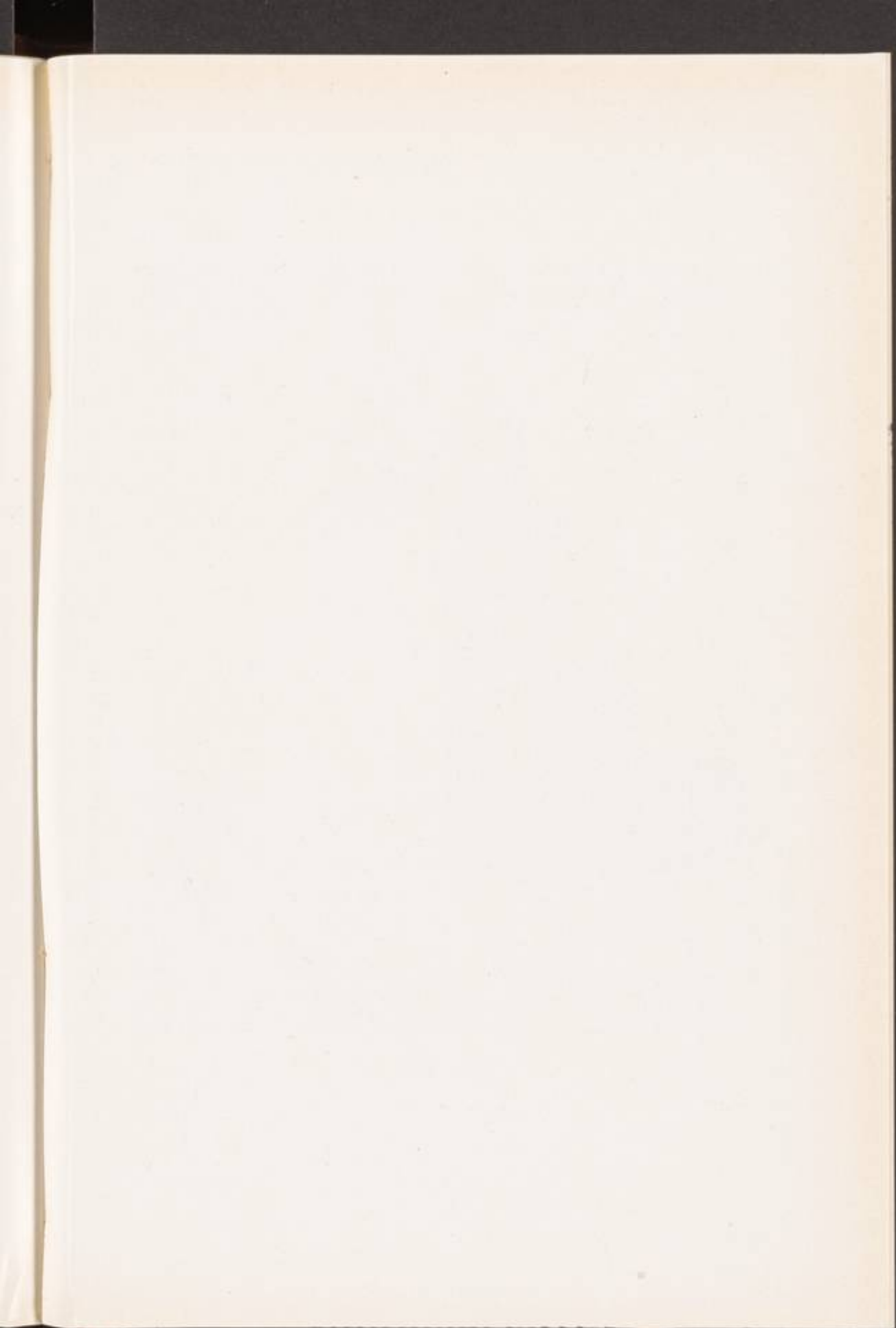


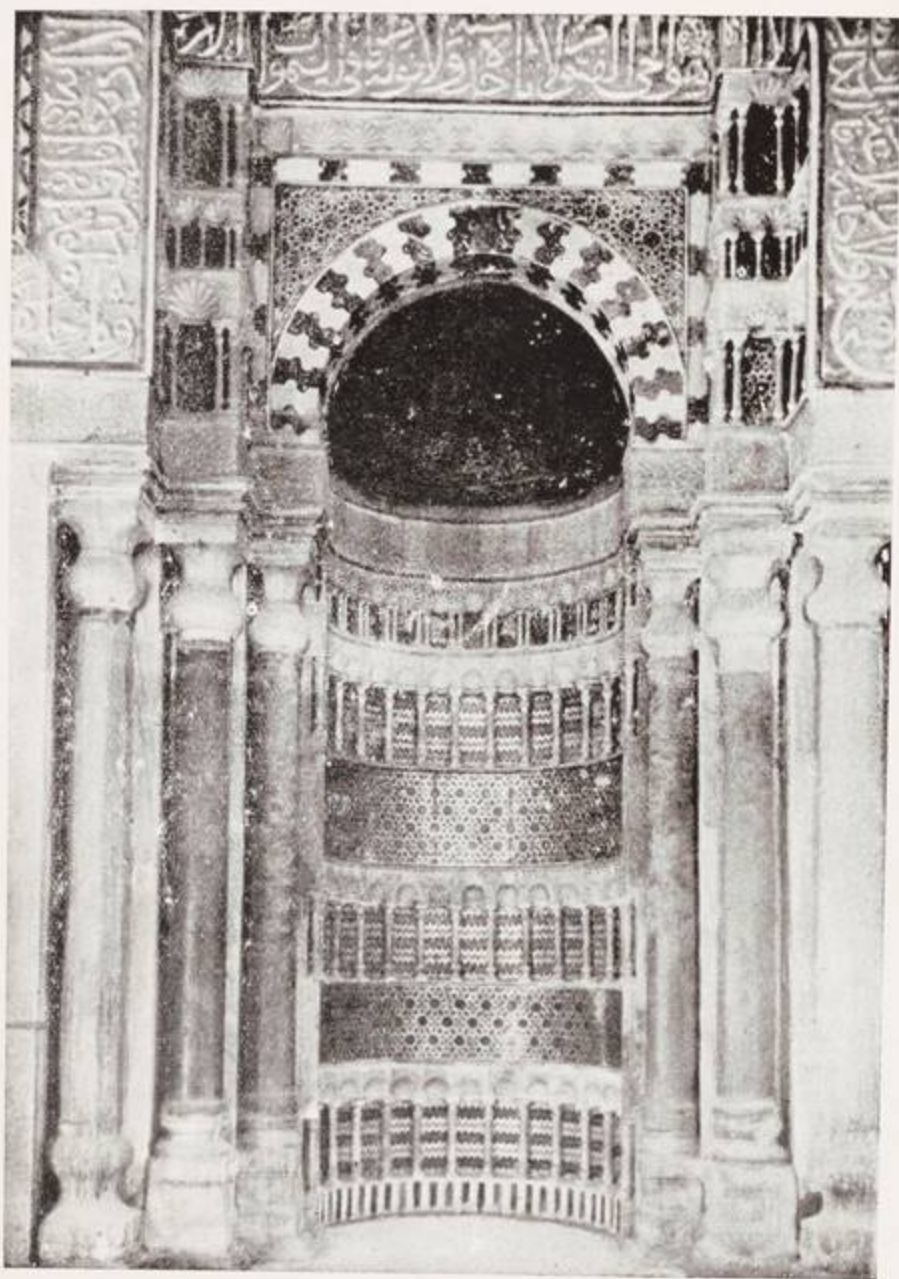
(شكل رقم ١٥)
قبة زين الدين يوسف



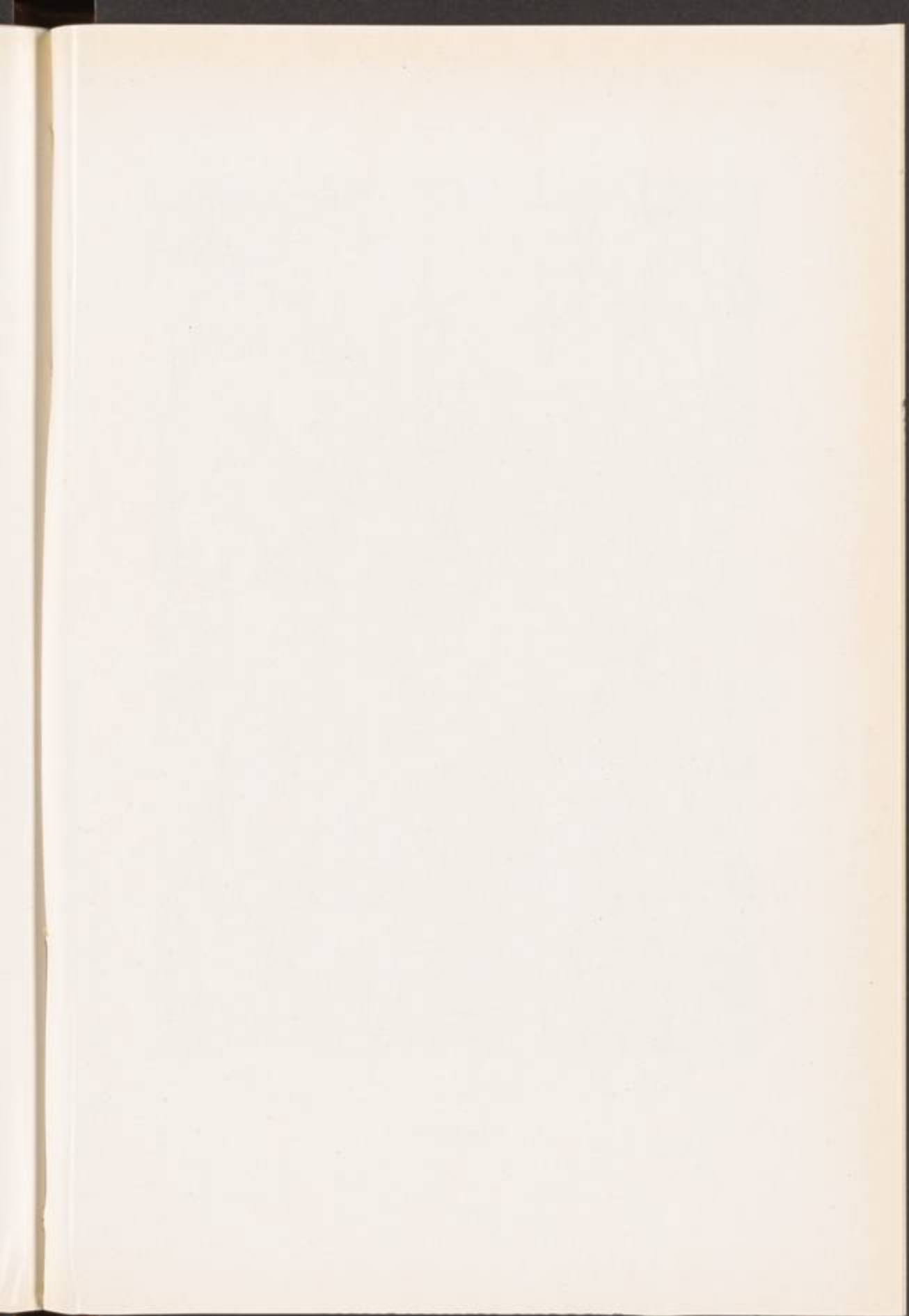


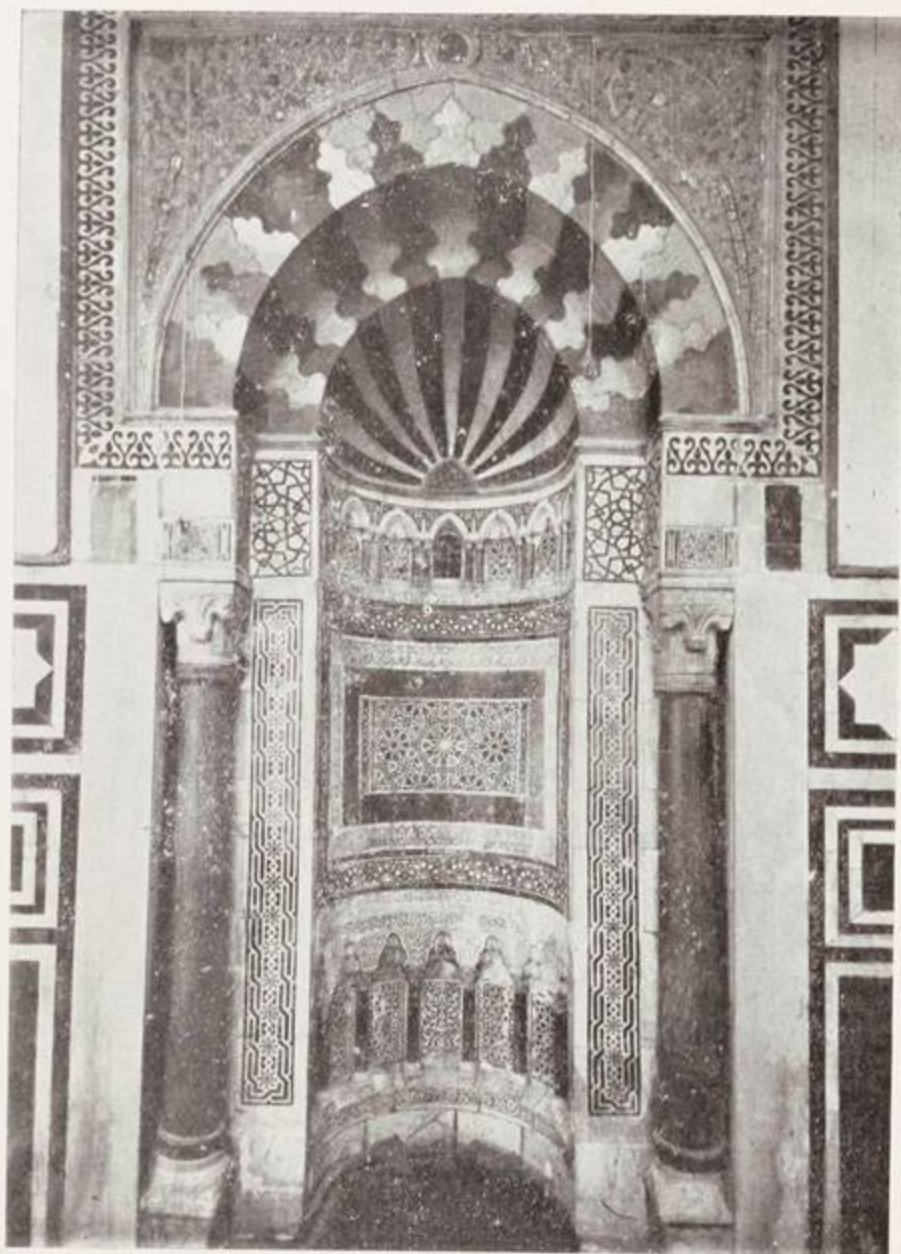
(شكل رقم ١٦)
قبلة تاركبغا



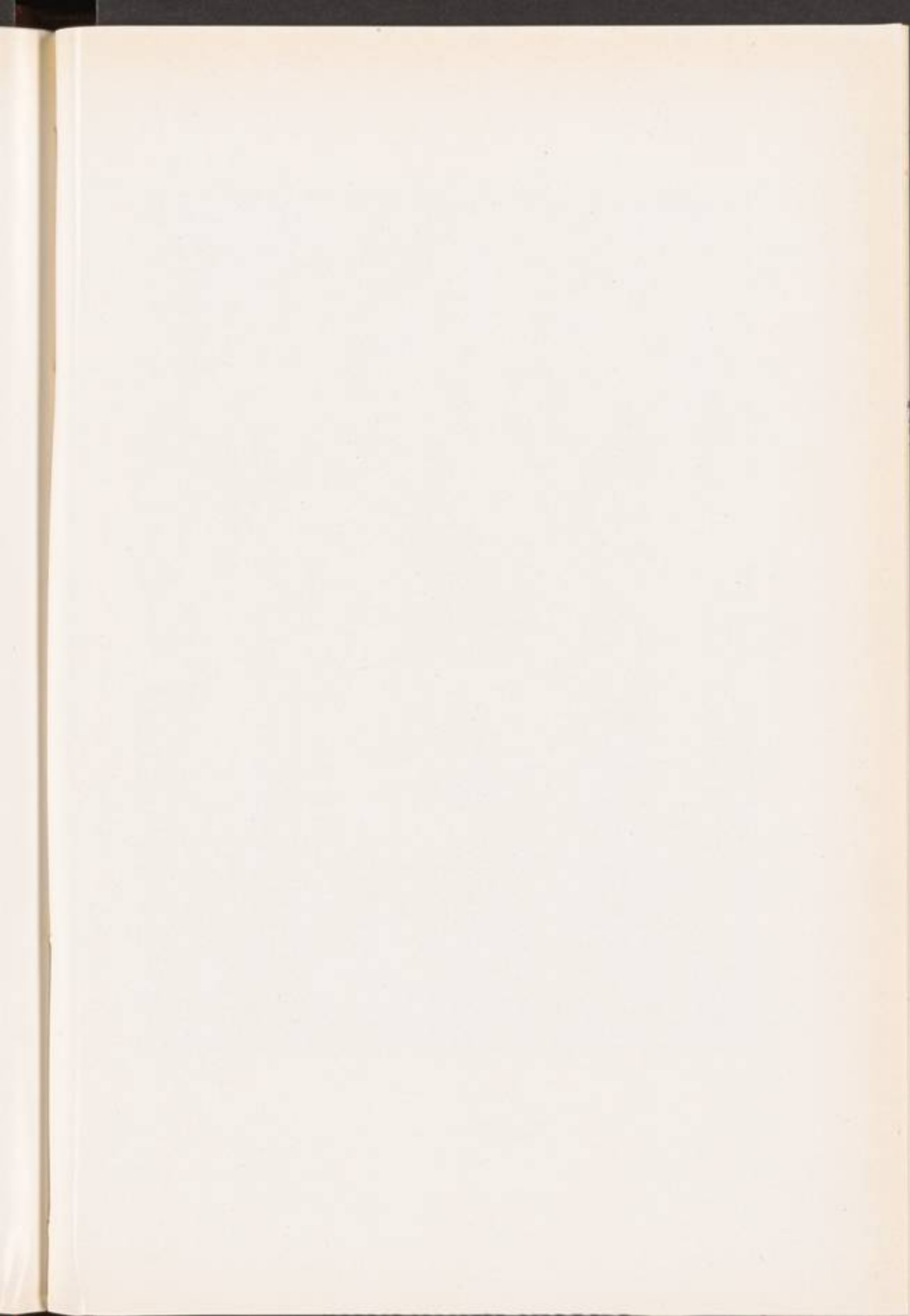


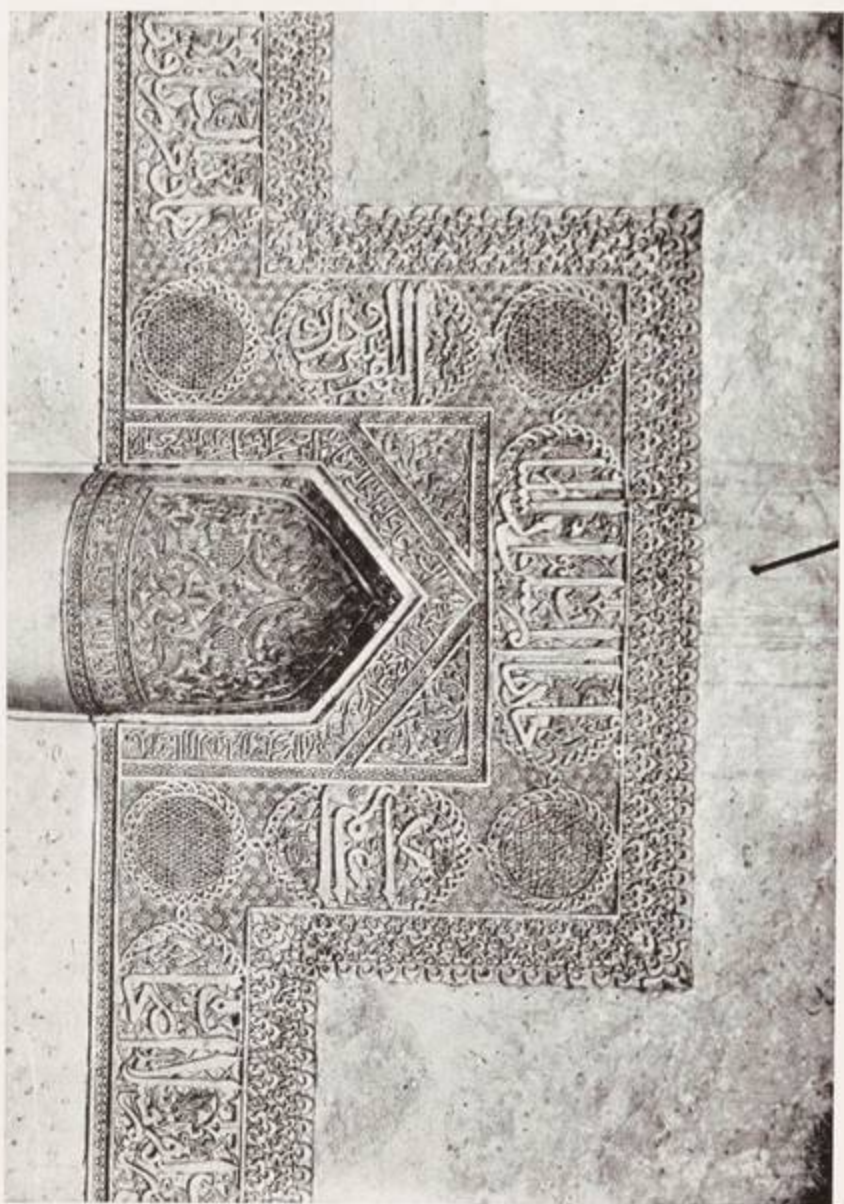
(شكل رقم ١٧)
محراب قبّة قلاوّن





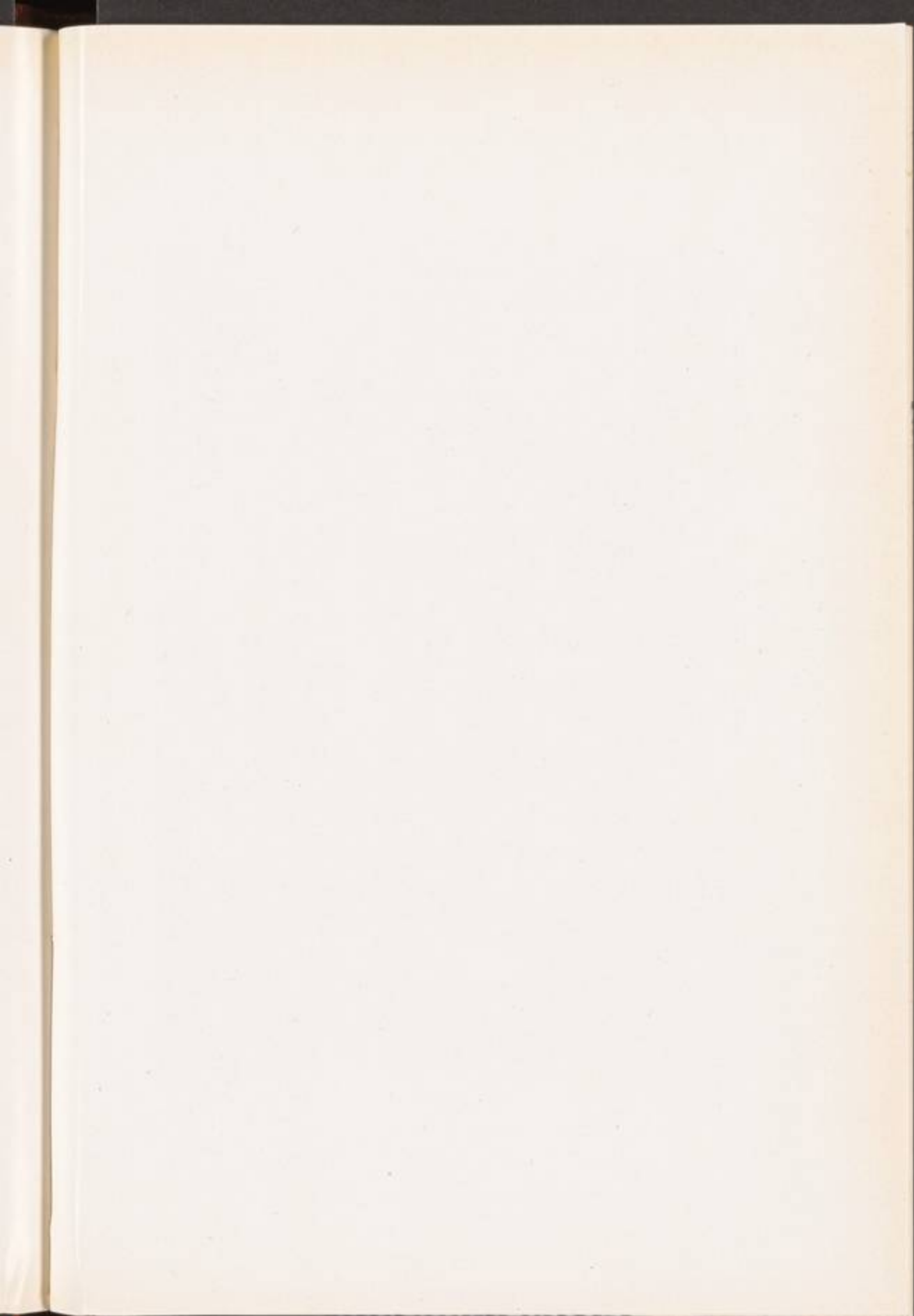
(شكل رقم ١٨)
محراب المدرسة الطيبرسية

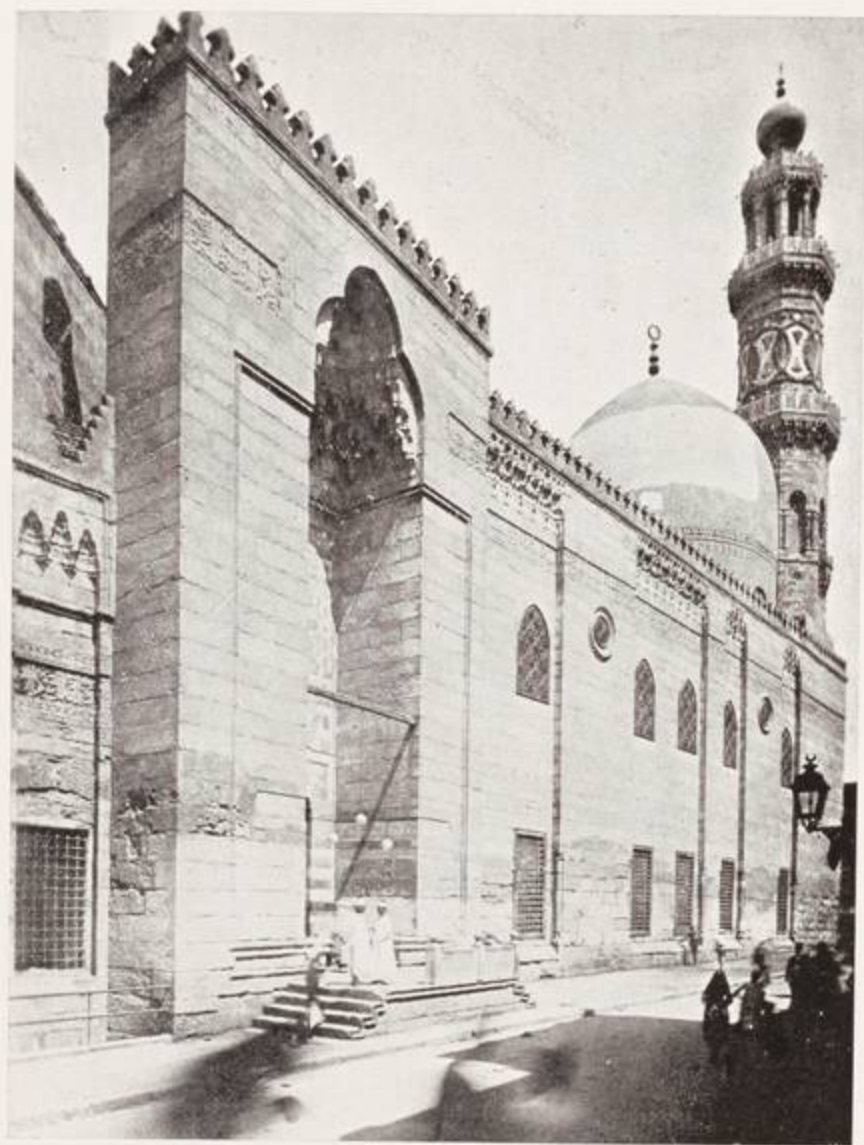




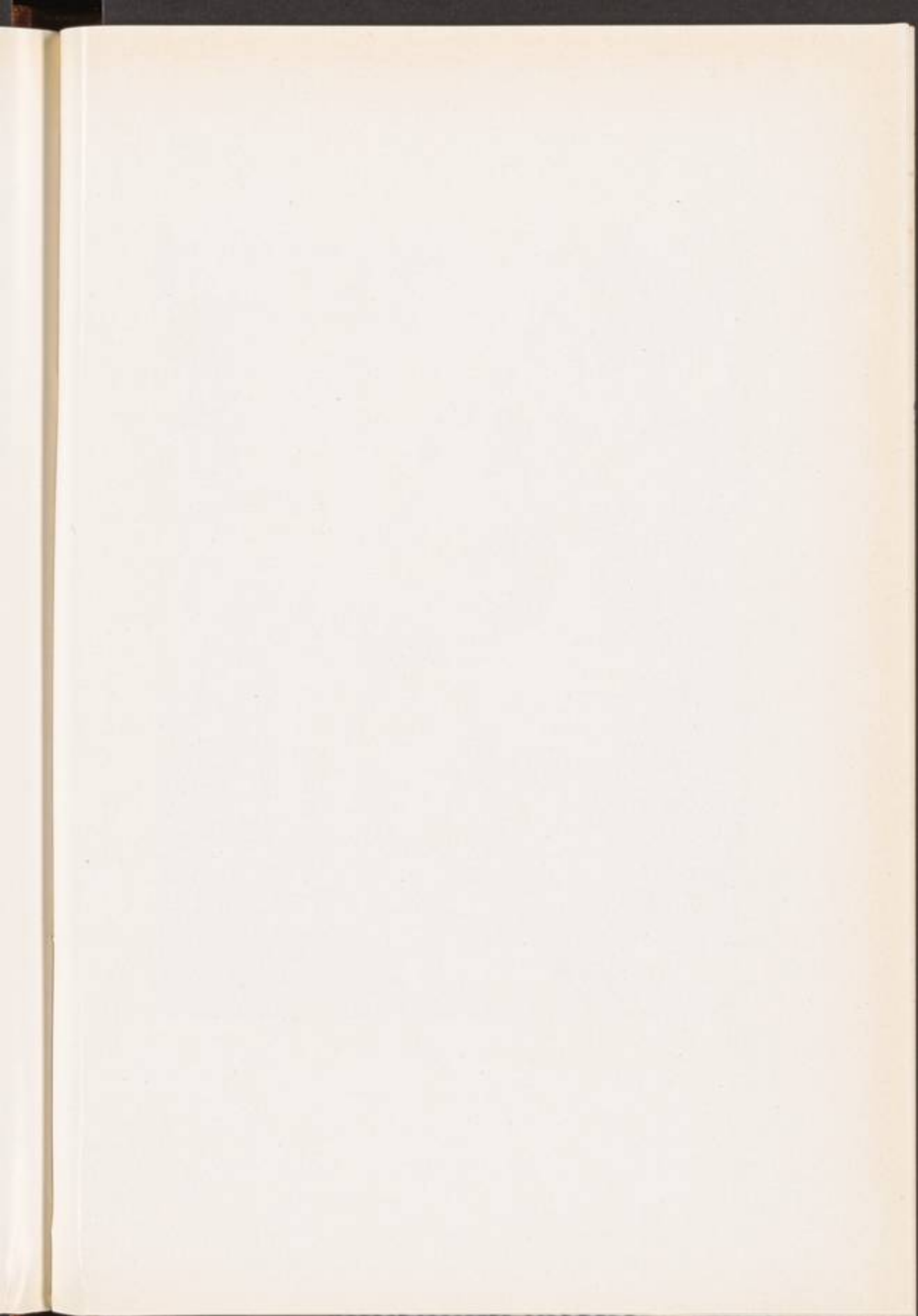
(شكل رقم ١٩)

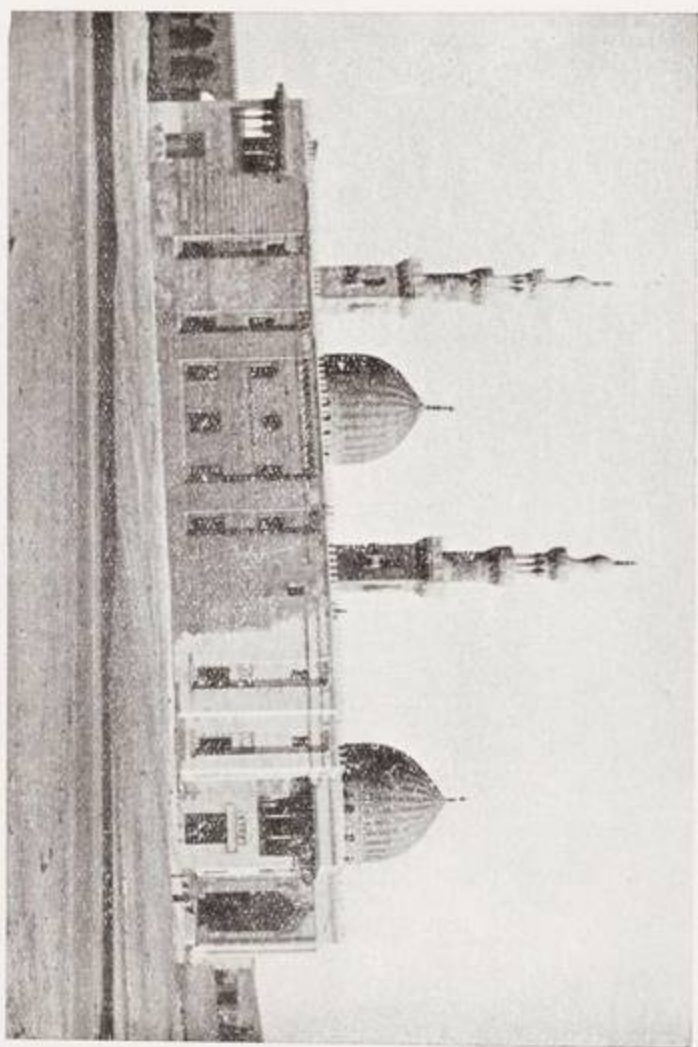
محراب زاوية زين الدين يوسف



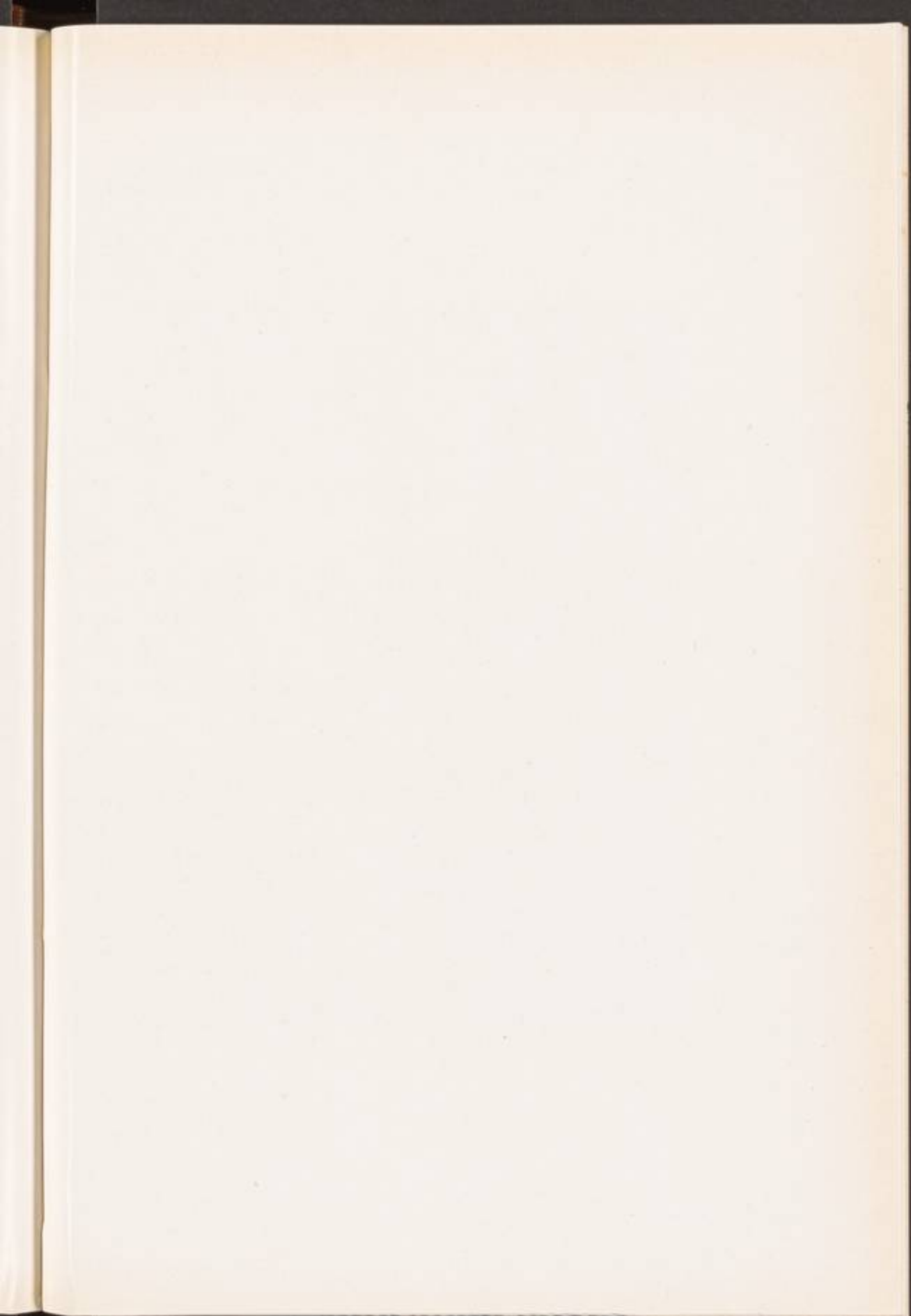


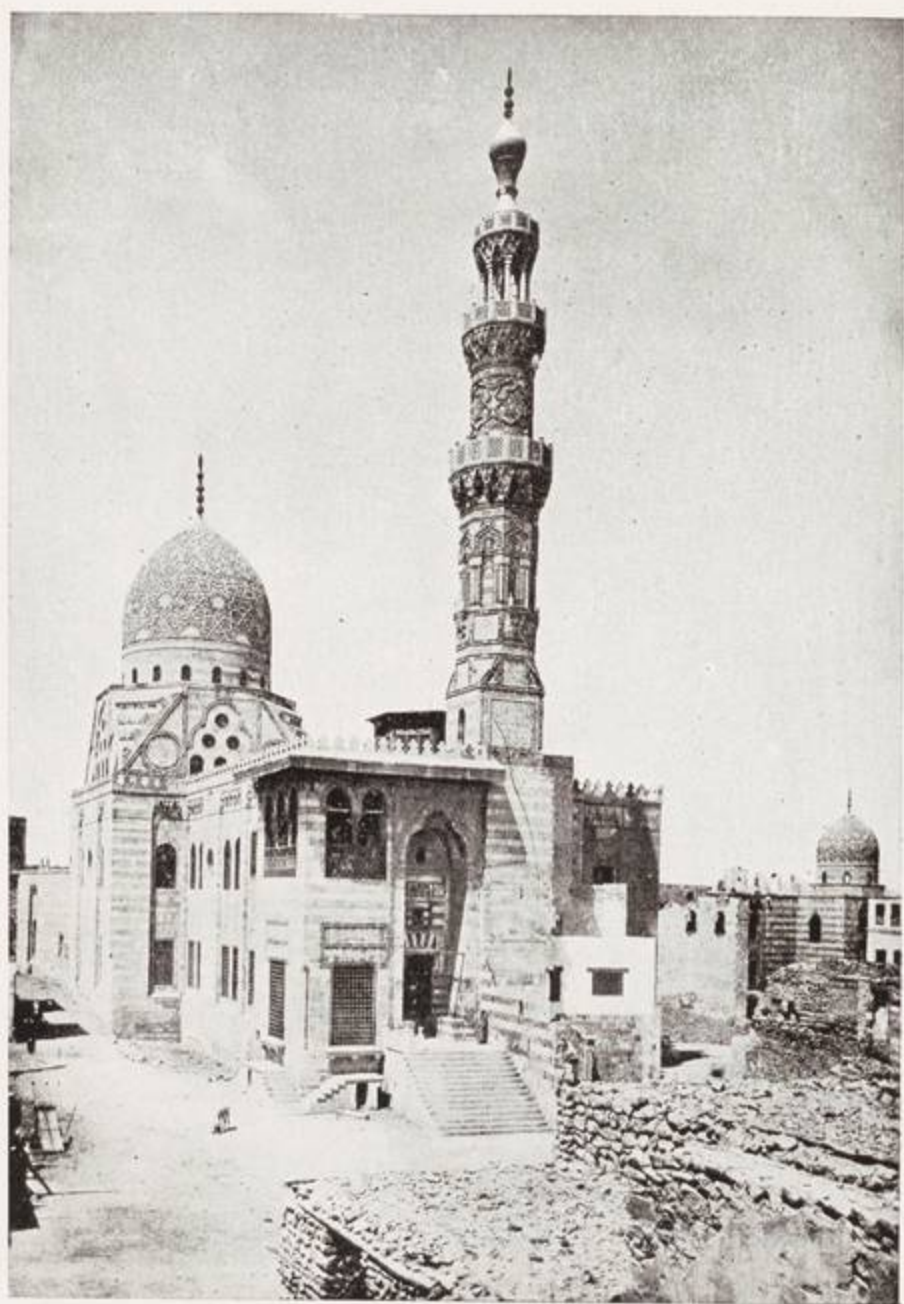
(شكل رقم ٢٠)
جامع السلطان برقوق



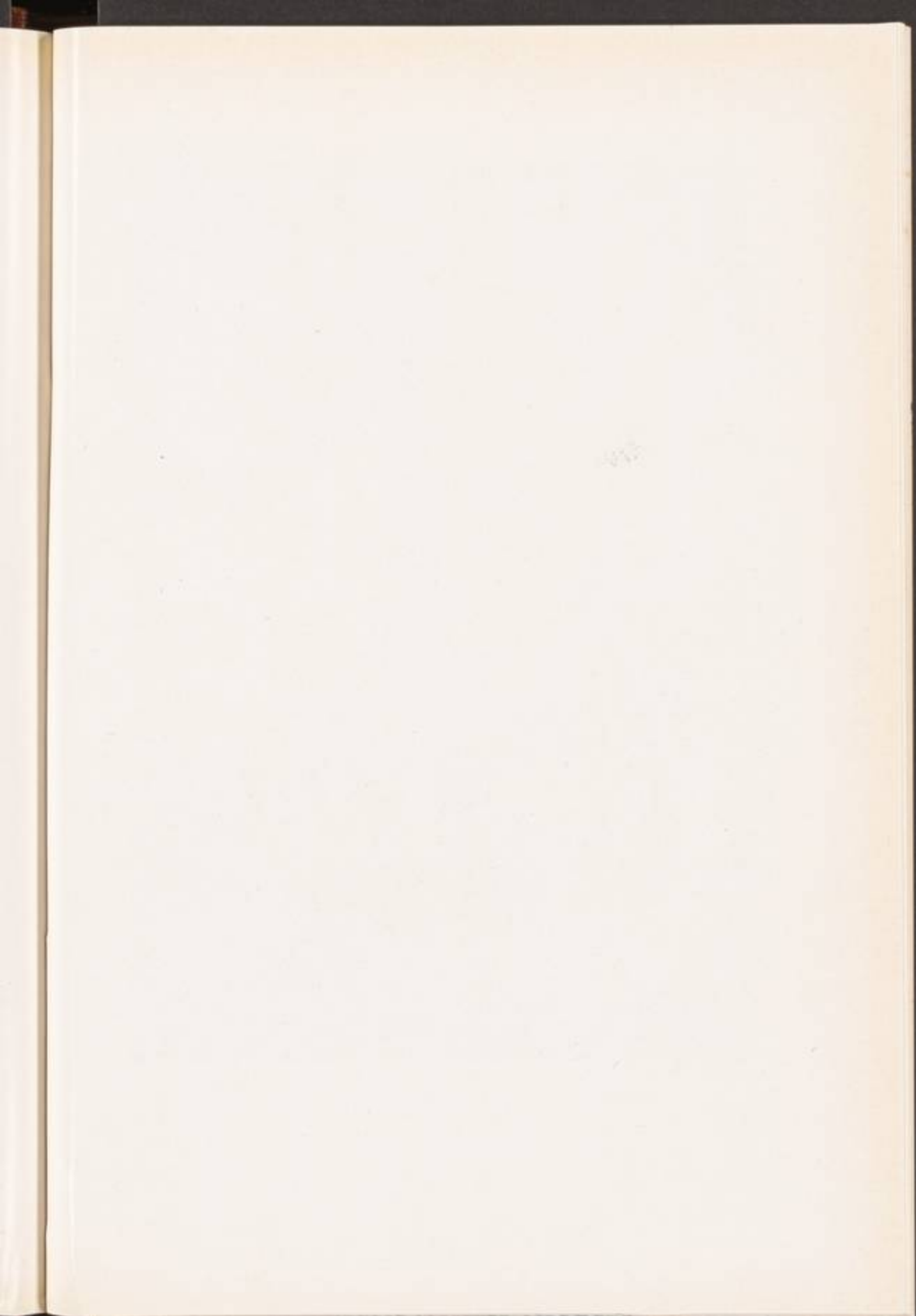


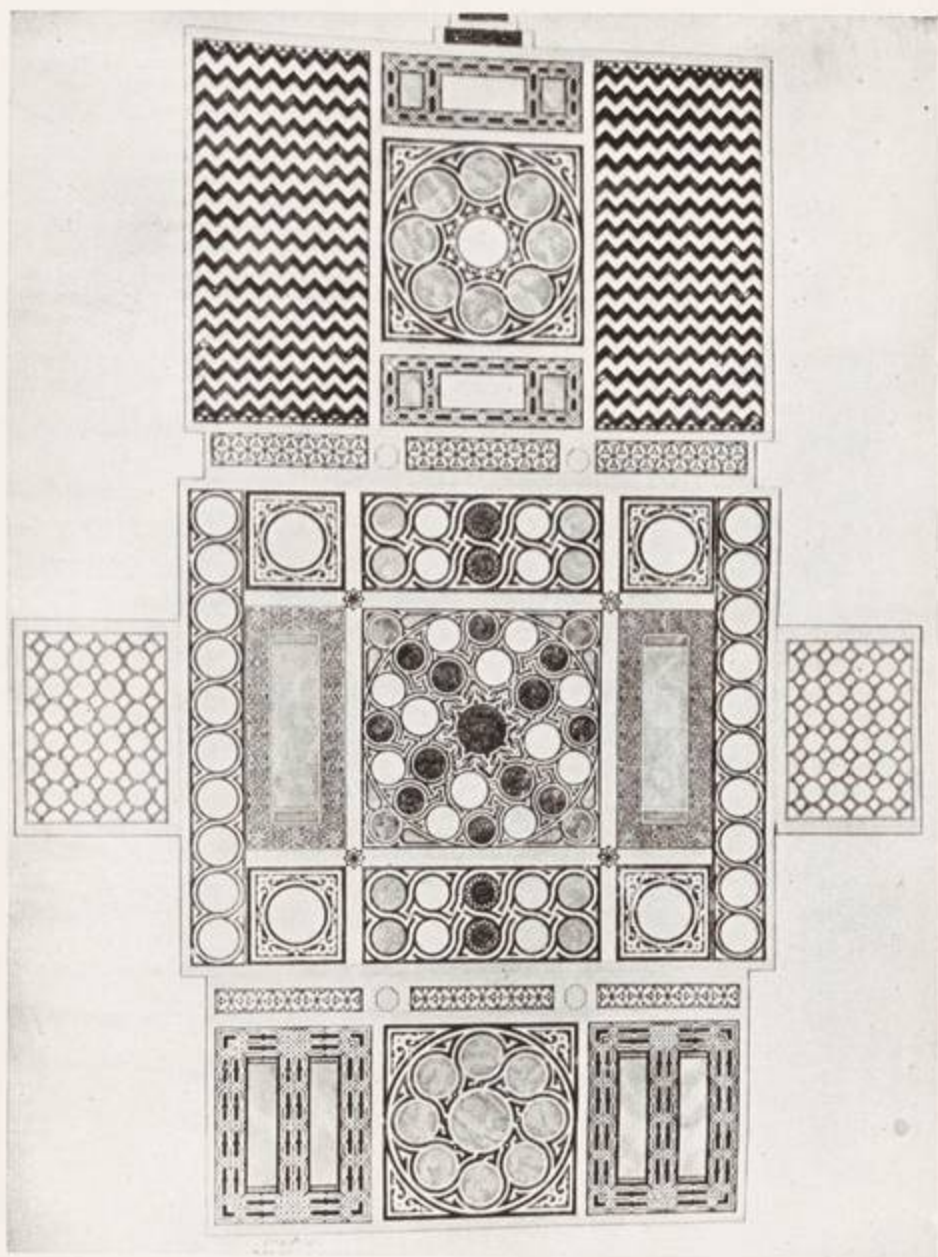
(شكل رقم ٢١)
خانقاه السلطان فرج بن برقوق



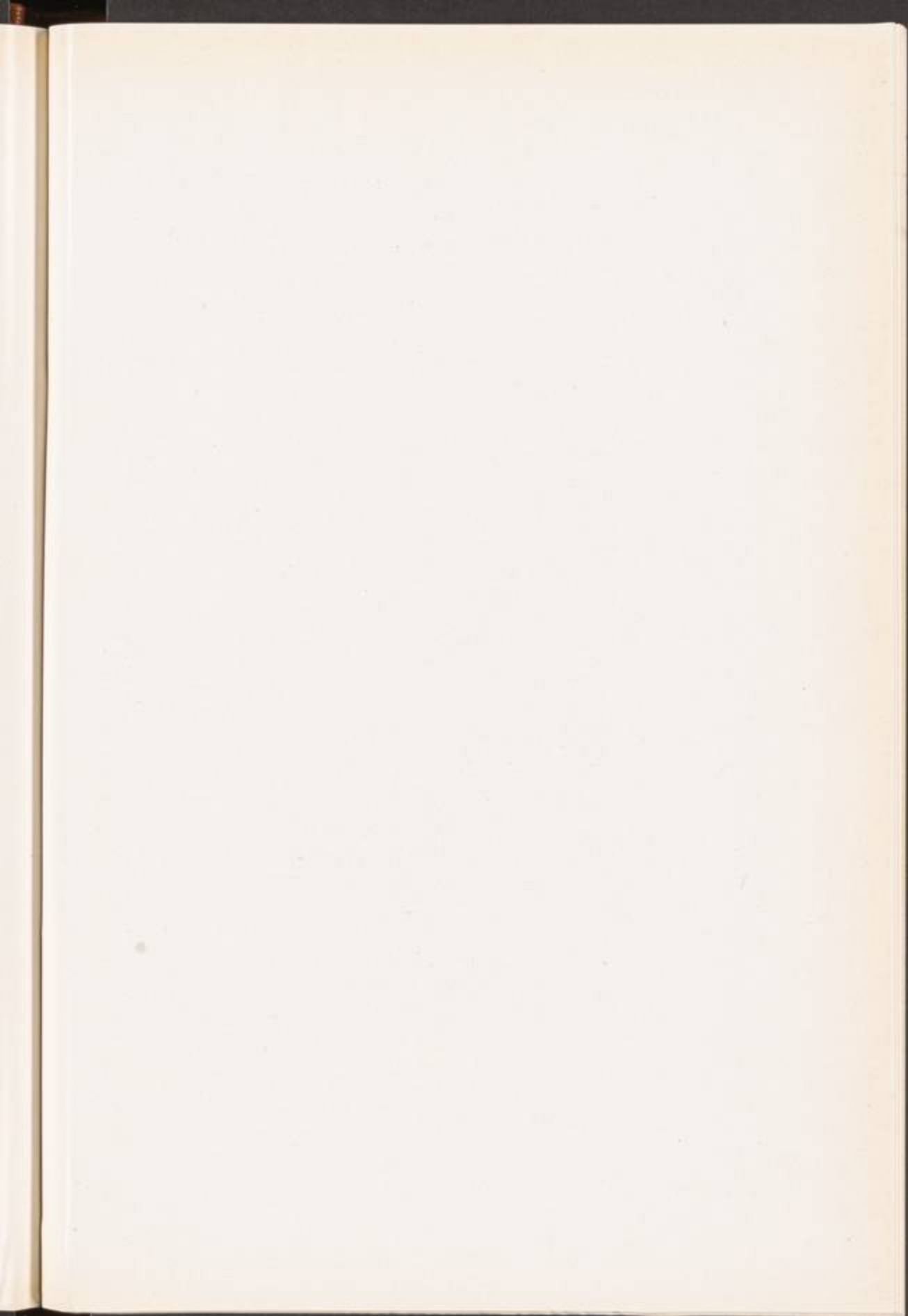


(شکل رقم ۲۲)
مسجد قایتبای بالصحراء



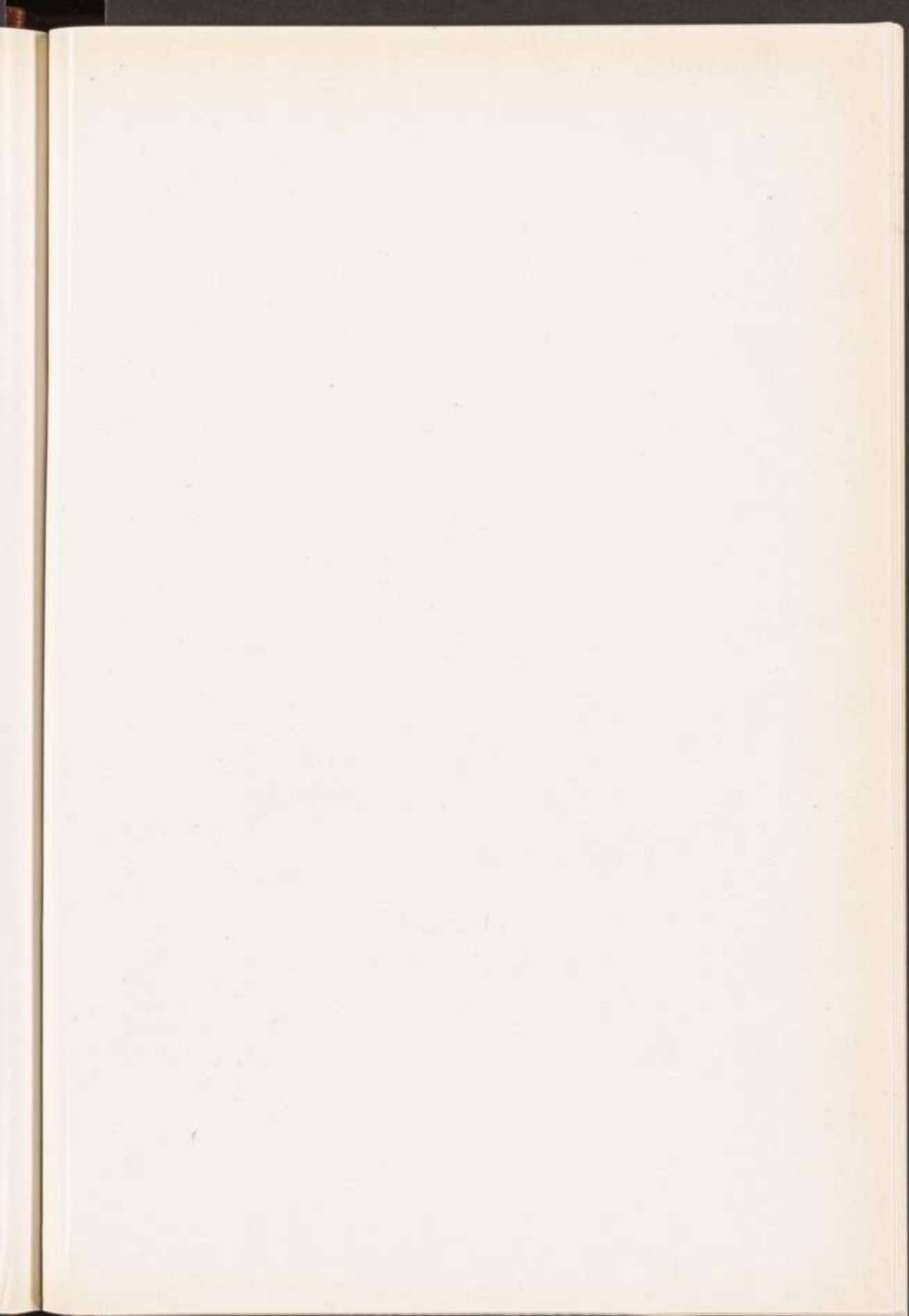


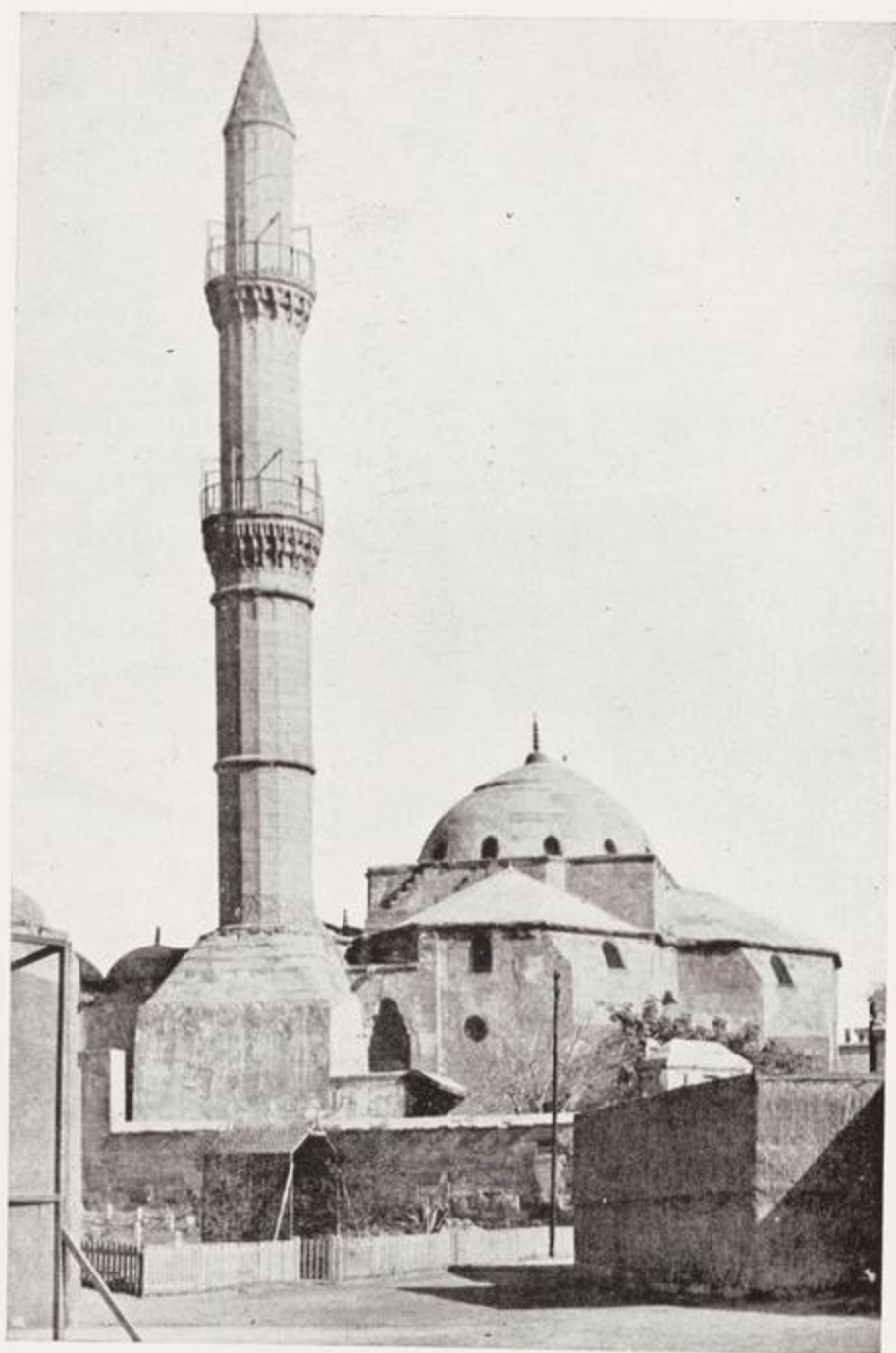
(شكل رقم ٢٣)
أرضية رخامية بمسجد أبي بكر مزهر



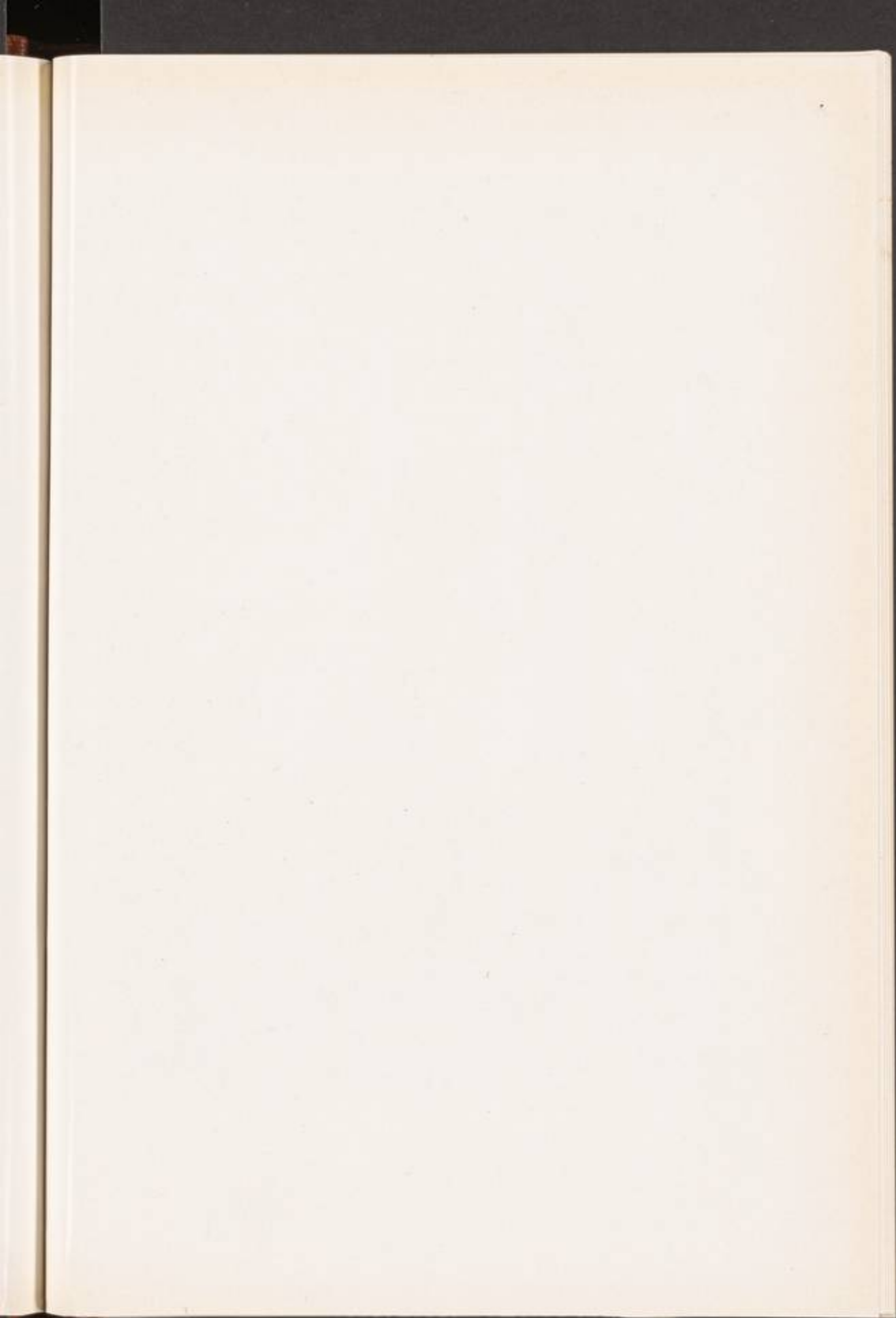


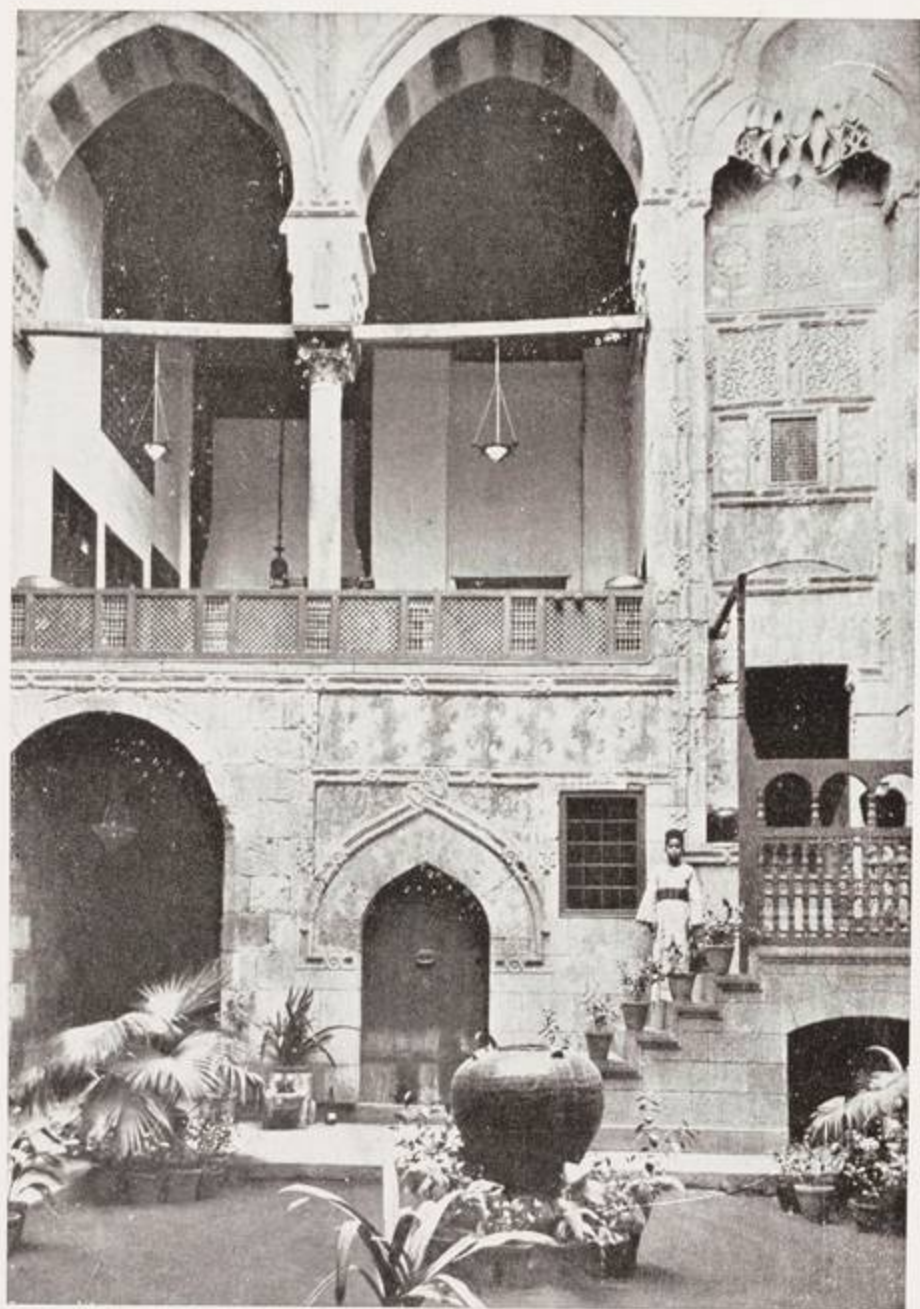
(شكل رقم ٢٤)
قبة المدرسة الجوهريّة



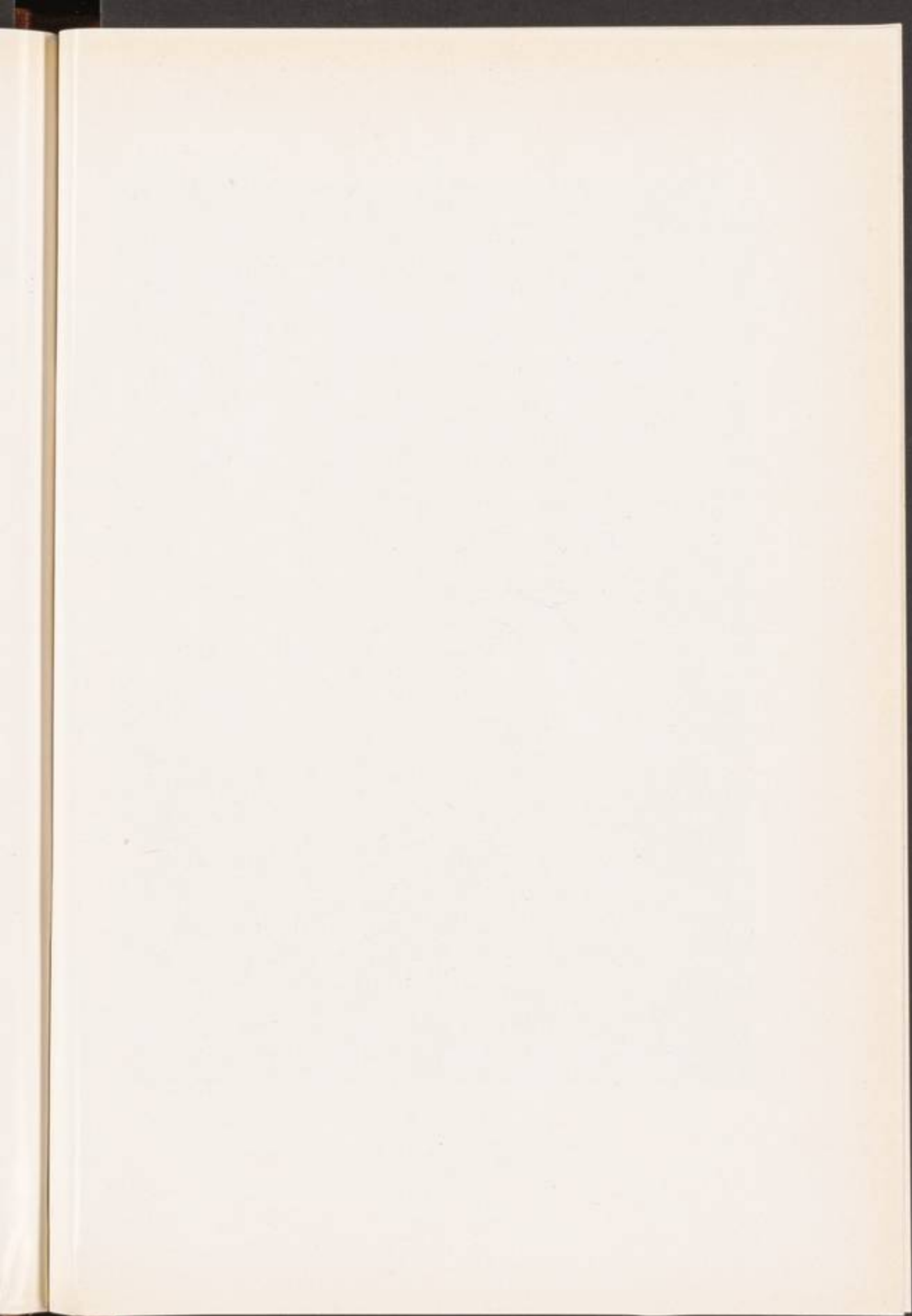


(شكل رقم ٢٥)
مسجد سليمان باشا بالقلعة



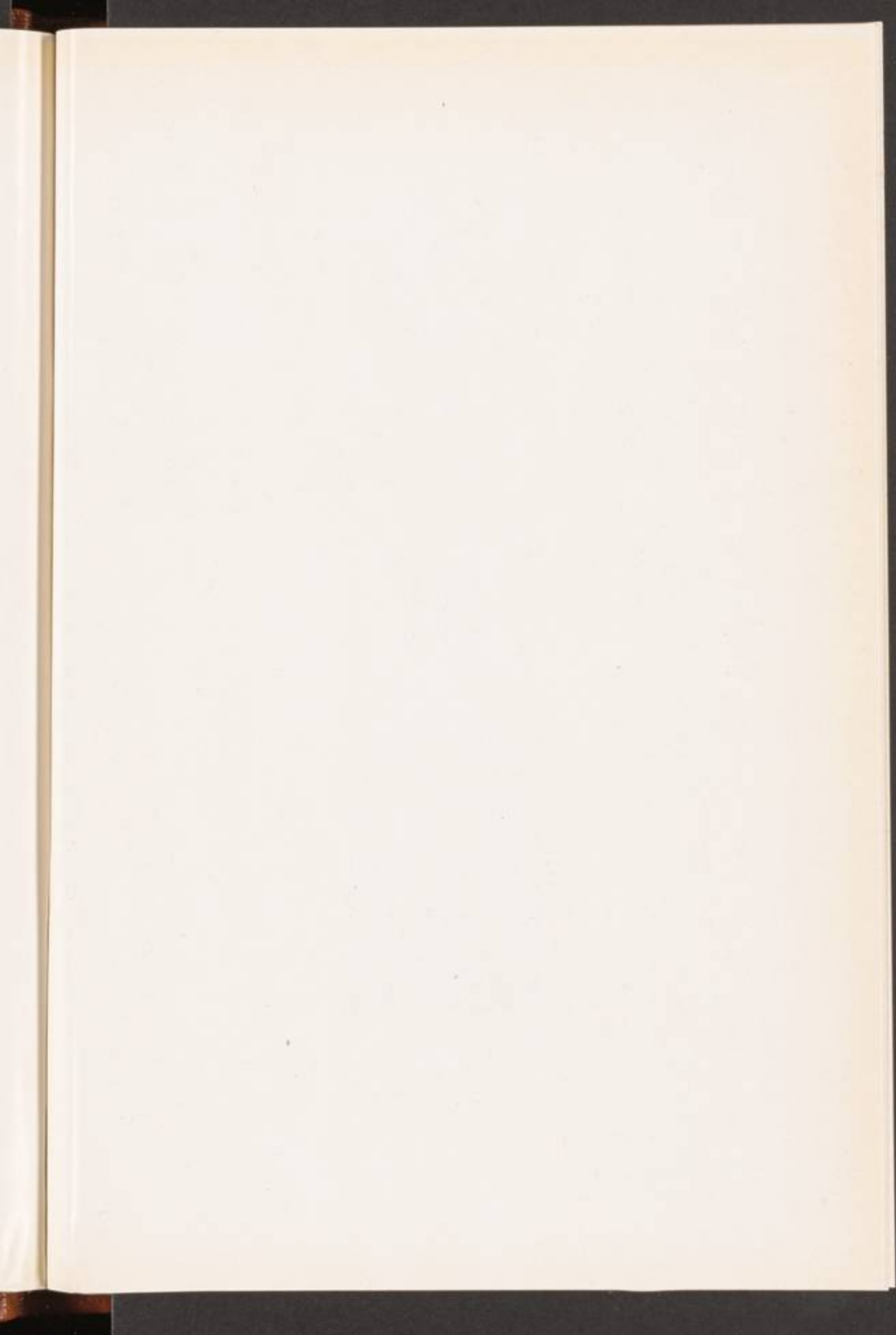


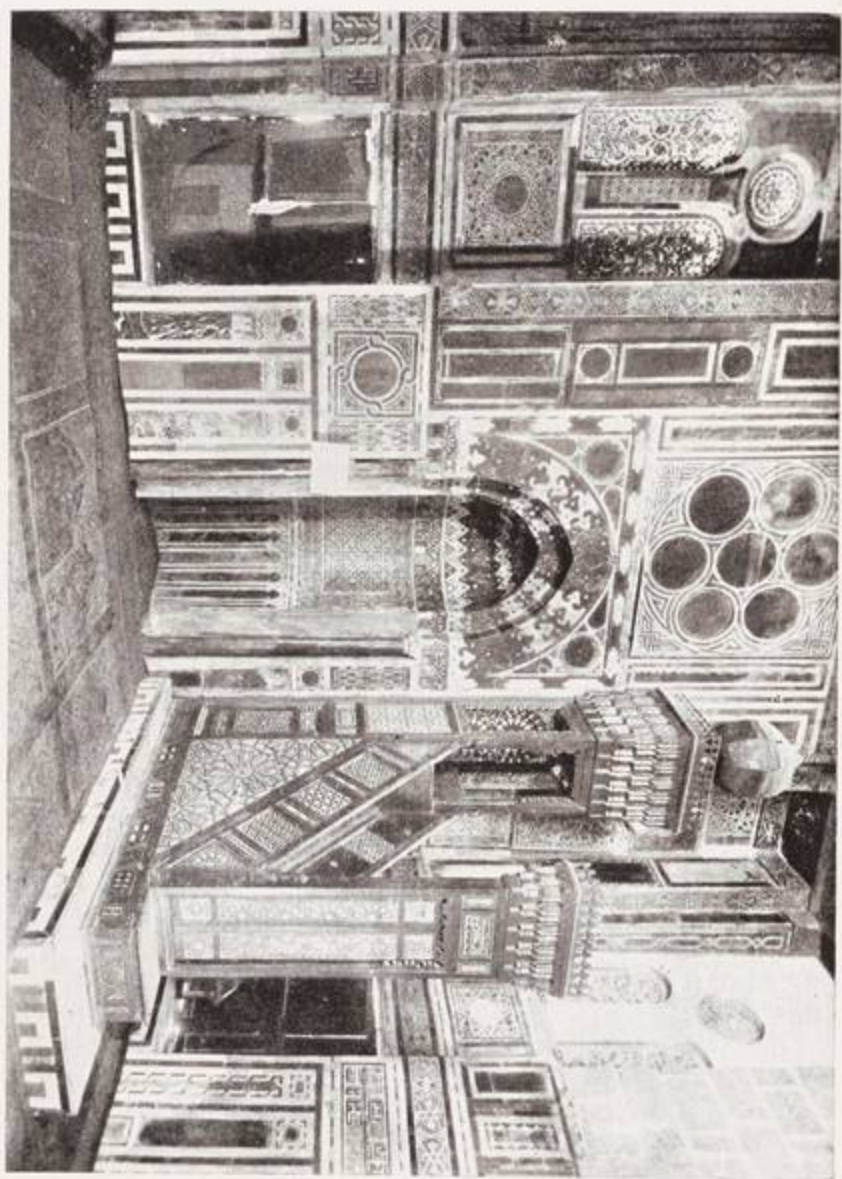
(شكل رقم ٢٦)
منزل الجريدلية



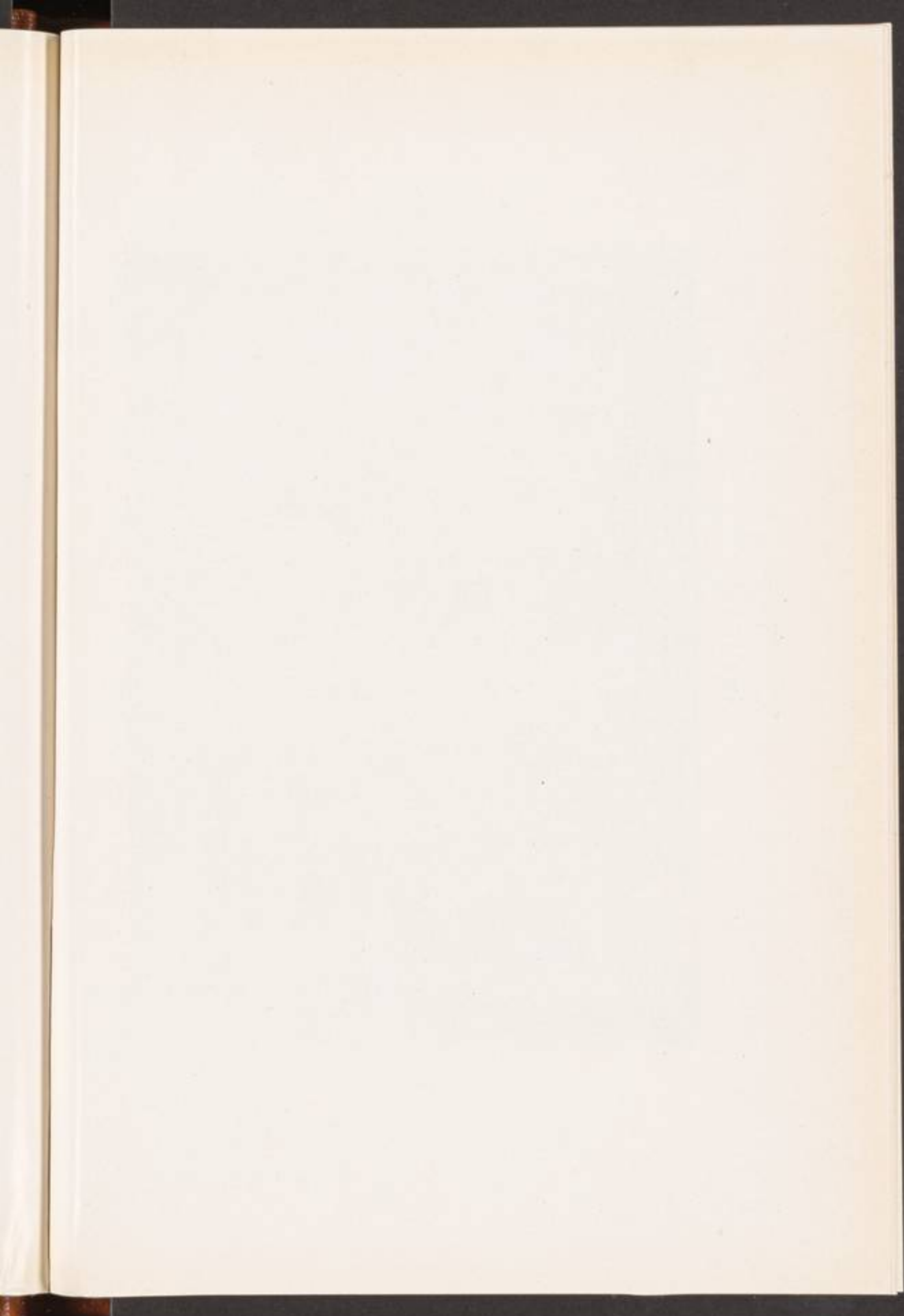


(شكل رقم ٢٧)
واجهة مسجد البردي ومنارته



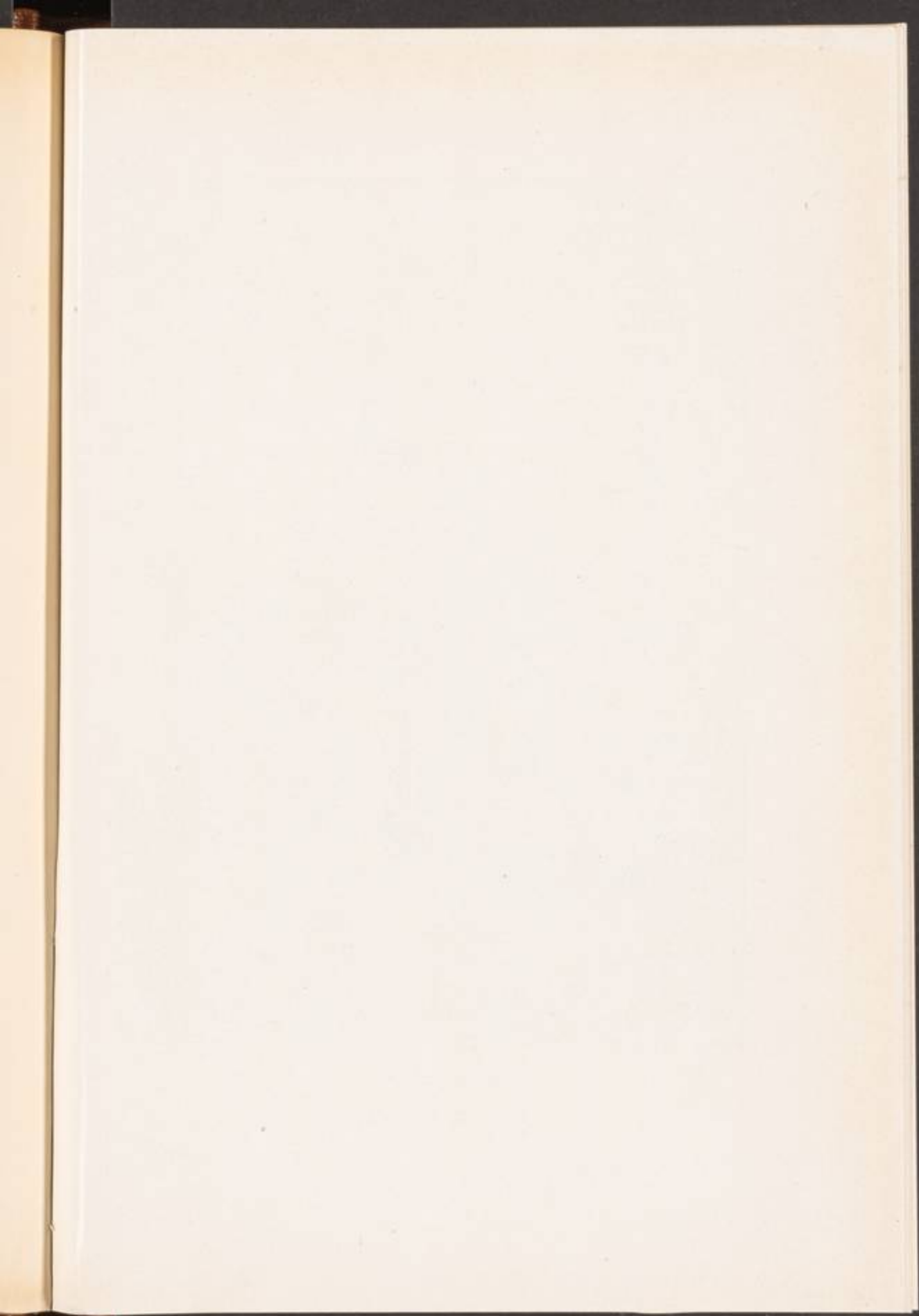


(شکل رقم ۲۸)
داخل مسجد البردنی





(شکل رقم ۲۹)
مسجد محمد علی باشا الکبیر



هذا وقد شيد مساجده على الطراز العثماني البحت ، فسجده الكبير المشيد سنة ١٢٦٥ هـ
بنى على مثال مسجد السلطان أحمد بالآستانة ، كما أقيم المسجد الذي أنشأه بالخانكاه
على الطراز التركي البحت . أما المساجد المعاصرة له فقد أنشئت على الطراز الإسلامي
البحت في تصميمها وقفاصيلها ، مثل مسجد حسن باشا طاهر ١٢٢٤ هـ ١٨٠٩ م ومسجد
الجوهري سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م .

والخلاصة : أن العمارة الإسلامية في القاهرة امتازت بميزتين : الأولى أنها احتفظت
بالكثير من التفاصيل المعمارية التي انعدمت أو قلت من الأقطار الأخرى التي كانت تشترك
معه فيها . والثانية أنها انفردت بمميزات اقتصر عليها ، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال
التجارة والجنس والرخام ، ميزتها على كثير من سائر الأقطار الإسلامية .

رحلة إلى مأرب

محاضرة الأستاذ أحمد فخرى

مقدمة :

في يوم الخميس ١٠ من جمادى الآخرة عام ١٣٦٦ هـ الموافق أول مايو عام ١٩٤٧ م بدأت رحلتي من صنعاء إلى بلاد المشرق وبلاد الجوف ، وكان الفضل في ذلك إلى حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين الإمام يحيى ملك اليمن الذي أمر بأعداد هذه الرحلة على نفقة الدولة ، كما تفضل فأمر بعمل كل ما من شأنه المساعدة على نجاحها . وقضيت في زيارة تلك المناطق أربعة وعشرين يوماً على ظهور البغال زرت أثناءها بلاد الحضارتين السبئية والمعينية وفحصت أطلال صرواح وسد مأرب ومنطقة مأرب ، ثم ذهبت إلى بلاد الجوف ، فزرت خريبة سعود ، وبراقش ، ومعين ، ومدينة هرم ، وكمنة والسودة ، وفي العودة مررت بعرمان . وجميع هذه البلاد تحتوى على بقايا معابد هامة تمكنت من أخذ صور فوتوغرافية لها ، كما نقلت جميع ما وقعت عيني عليه من النقوش في صرواح والسد ومدينة مأرب . وبحثي اليوم لن يتناول نتائج هذه الرحلة أو ما أضافته من معلومات جديدة إلى دراسات بلاد العرب الجنوبية ، وإنما يقتصر على ناحية واحدة فقط ، وهي « سد مأرب » الشهير والمنطقة التي حوله .

وصف منطقة مأرب :

تقع بلاد مأرب على مسيرة خمسة أيام بالبغال أو بالجمال إلى شرق صنعاء ، وليس هناك في تلك الجهات طرق صالحة للسيارات ، لأن الحيال الشاهقة وبجاري السيل تقف دون ذلك . وفي نهاية اليوم الرابع يصل المسافر إلى صرواح وهي في صميم بلاد المشرق ، وتقع وسط واد متسع كبير يكاد يكون مستديراً ، وتحيط به الحيال . وقد كان هذا الوادي

منزوعاً وهناك بقايا سد لمياه السيول ، وفي وسط الوادى تقريباً ترى بقايا المدينة القديمة وفيها المعابد المختلفة والحصن ، وكلها من الحجر الجيري والجرانيت والمرمر . وقد نقلت في صروح واحد أو خمسين نقشاً ، بعضها على واجهات معابد ما زالت مطمورة في الأرض ، ومن هذه النقوش يوجد على الأقل عشرون لم يسبق لأحد الرحالين أن رآها من قبل ، إذ أنها جديدة لم تظهر إلا منذ عهد قريب

وعلى مسيرة تسع ساعات شرقي صروح يصل المسافر إلى موقع سد مأرب وهو واقع عند مكان يقال له « الضيقة » بين جبلي بلقي ، وتسير « سايلة ذنة » في بلاد متعددة في اليمن ، وتتجمع فيها السيول إلى أن تصل إلى هذا المكان وتسير في الضيقة وتوجه إلى مأرب . وهذه المياه تضع الآن في الرمال ، ولا يكاد ينتفع بها أحد ، أما في العصر القديم فإن القدماء استغلوها كما استغلوا غيرها ، فأقاموا السدود في اليمن ، وأهمها وأشهرها كلها سد مأرب الذي بنوه عند الضيقة ، ويقع على مسافة تسعة كيلومترات تقريباً غربي مدينة مأرب .

وبلدة مأرب الحالية مبنية فوق إحدى أكوام المدينة القديمة المتسعة الأرجاء ، وهي متوسط واديا متسعاً فسيح الأكناف على أكبر جانب من الحصب . وقبل أن أصف ما بقي من بلاد مأرب أو السد ، أبدأ بذكر ما نعرفه من أقوال العرب عن ذلك :

سد مأرب في كتابات العرب :

يرجع الفضل الأكبر في شهرة سد مأرب إلى ذكره في القرآن الكريم ، وما اقترن بهدمه أثناء سيل العرم من قرق القبائل وخراب البلاد . جاء في سورة سبأ :

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حطوط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومنقاهم كل ممزق ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . »

وبالرغم من أن سيل العرم تهدم السد كانا في وقت غير بعيد من ظهور الإسلام (بين عامي ٥٤٣ ، ٥٧٠ ميلادية) فإن كتاب العرب والمفسرين أدخلوا خرافات ومبالغات كثيرة في أخبار هذا السد ، خصوصاً عند ذكرهم لأسماء الذين بنوه أو تهدم في أيامهم ، كما وجد الخيال مرعى خصيماً في اختراع السبب الذي أدى إلى تهدمه ، وأظهر هذه الرويات أن جرذاً ذا مخالب من حديد وأنياب من حديد ، قرض حجر السد فسالت مياهه وتهدمت ^(١) .

ولكن مهما كان رأينا فيما ذكره كتاب العرب فالتأني أنفسنا مضطرين إلى الإعجاب بوصف أحد مؤلفيهم ، وهو الحسن الهمداني مؤلف كتاب الإكليل ، فهو يعني الأصل زار آثار اليمن في القرن العاشر الميلادي ووصفها في الجزء الثامن من كتابه الذي تفتى فيه بمجد بلاده ، قال : « وجدت في إحداها (يقصد الجنتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن) عريق أراك ، وفي أصله جذع نخلة أسود قد كبست باقيه السواقي ، فقال بعض من كان معي لا أظنه إلا من بقايا نخل الجنتين ، وما أحسب أنه بقي من العصر القديم . وأمام قاسم المساء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقامت كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين باقياً وهو الذي يخرج منه المساء قائماً بحاله على أوثق ما كان ولا يتغير إلا أن يشاء الله عز وجل ، وإنما وقع الكسر في العرم . وقد بقي من العرم شيء مما يصل إلى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمس عشرة ذراعاً » . ثم ذكر الهمداني أشعاراً كثيرة جاءت في كلام العرب عن مأرب ومجدها وما آل إليه أمرها ، أهمها ما قاله الأعشى :

ففي ذاك للمؤتسى أسوة ومأرب قفًا عليها العرم
رخام بناء له حمير إذا جاءه مأوهم لم يرم
فأروى الحروث وأعابهم على ساعة مأوهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة فجارفهم جارف منهم
فطار القيول وقيلها بهما فيها سراب يطم ^(٢)

(١) ياقوت ج ٤ ص ٣٨٣ ، حزة الأصفهاني ص ١٢٦ ، الأغاني ج ١٦ ، ص ٧٢ وانظر أيضاً جورجى زيدان - العرب قبل الإسلام ١٥٠ - ١٥١ ، نبيه مؤيد العظم - رحلة في بلاد العربية لمسيحة ج ٢ ص ٥١ - ٥٥

(٢) يطم : يعلو ويغلب .

الرحالون الأجانب :

وبرغم شهرة هذا السد وموضوع تخريبه وذكر ذلك في كتب التفسير فإن العالم بقي في شك في أمره حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما تمكن الصيدلي الفرنسي « يوسف توماس أرنو » عام ١٨٤٣ ، من الوصول إلى مأرب . وقد لاقى هذا الشخص صعاباً كثيرة ، ولم تنشر مذكراته إلا بعد أن فقد بصره وقام غيره بذلك ، وقد تمكن أرنو من رسم منطقة السد كما نقل بعض النقوش السبئية التي رآها هناك ^(١) .

وفي عام ١٨٧٠ أرسلت وزارة المعارف الفرنسية العالم « يوسف هاليثي » لنقل كل ما يستطيع نقله من النقوش السبئية لنشرها في ال (Corpus Inscriptionum Semiticarum) فكان هاليثي أول وآخر أوربي استطاع زيارة بلاد مأرب وبلاد الجوف ونجران معاً وقد تعرض للخطر ، واحتمل المرض والمشاق في سبيل العلم ، ولا شك أن الكثير من نجاحه يعود إلى مساعدة اليهود له ، إذ أنه لبس ملابس اليهود اليمنيين ودلى سؤاليه على جانبي رأسه ، وكان أدلاؤه منهم في داخل البلاد ، وكان يحل عليهم أينما نزل ، وعاد هاليثي من اليمن بعد أن نقل ٦٨٦ نقشاً منها ١١ فقط سبق أن نقلها غيره ، ويذكر هاليثي أنه نقل ٩ نقوش في سد مأرب ، و ١٢ نقشا في المدينة نفسها ، و ٧ نقوش من الأحجار التي في الحيانة ^(٢) .

وفي عام ١٨٨٢ بدأ ادوارد جلازر رحلته إلى اليمن ، ولكنه لم يستطع الذهاب إلى مأرب إلا في رحلته الثالثة عام ١٨٨٨ ولم يستطع ارتياد بلاد الجوف بنفسه ، ولو أنه كان يرسل مع البدو ورق « استمياج » ليحصل على صورة النقوش ، ونستطيع أن ندرك بسهولة أن العمل بهذه الطريقة جاء ناقصاً لأن البدو لم يعتادوا الدقة في مثل هذا

(١) Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie Méridionale, entre- pris en 1843 par M. Arnaud ; في Journal Asiatique, 4^e série, T.V.(Paris 1845), p. 211 - 245 ; 303 - 435.

(٢) J. HALÉVY. Rapport sur une mission archéologique dans le Yemen, (2) Journal Asiatique, 6^e série, T. XIX, Paris 1872, p. 5-38, 129-266, 489-547 Voyage au Nedjran, Bulletin de la Société de Géographie, مقاله أنظر أيضاً 6^e série T. VI, 1873 p. 5-31, 249 - 273, 581, 606.

العمل كما أنهم كثيراً ما نقلوا على ورق الاستمپاج أجزاء من أحد النصوص وتركوا أجزاء أخرى ، ولهذا بقيت نقوش هاليثى منذ عام ١٨٤٣ إلى اليوم هي المصدر الوحيد الجدير بالثقة فيما يختص بالجوف .

وبالرغم من أن رحلة « جلازر » إلى مأرب لم تتم إلا بفضل مساعدة وتشجيع الوالى التركى فى اليمن إذ ذاك واسمه عثمان باشا ، وأنه ترك صنعاء ومعه رئيس أشرف مأرب ، وكان يلبس ملابس علماء المسلمين ، وادعى أنه مسلم وأن اسمه الحاج حسين ، فقد لنى الكثير من الأخطار وتعرض للقتل ، لأن قبيلة عبيدة القوية لم ترغ إلى دخول شخص غريب إلى البلاد . ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن بلاد المشرق وخاصة منطقة مأرب لم تخضع يوماً من الأيام للحكم التركى ، بل لم يجرؤ الأتراك على التعرض لأهل هذا الجزء من بلاد اليمن الذى لم يدخل فى طاعة الإمام يحيى إلا منذ عام ١٩٣٣ . وتميش هناك قبائل لا تخضع لقانون ، ونحيا اليوم حياة شبيهة بالحياة التى عاشها أجدادهم منذ آلاف السنين ، مع فارق صغير ، وهو فى الوقت نفسه عظيم الأثر ، ذلك هو انتشار الأسلحة النارية بينهم انتشاراً هائلاً . وكانت إقامة جلازر أقل من أربعة أسابيع ، ولكنها كانت رحلة مباركة الثمرات ، نقل فيها نقوشاً كثيرة ووضع عدة رسوم للسد والمنطقة التى حوله . ولم ينشر فى حياته إلا القليل ، ولكن مذكراته محفوظة ويرجع إليها المشتغلون بدراسة النقوش السبئية . واشتغل قبل موته كثيراً فى وضع كتاب أراد أن يسميه « سبأ » ولكن المنية عاجلته ، فأتمه اثنان من زملائه ، ونشراه تحت اسم آخر عام ١٩١٣ أى بعد موته بخمس سنوات ^(١) .

ومضت الأعوام ولم يجرؤ أحد من الرحالين الكثيرين الذين ذهبوا إلى اليمن أن يجرؤ على السفر إلى مأرب ، لما هناك من أخطار ، واكتفوا جميعاً بالذهاب إلى صنعاء أو شمالها بقليل .

DAVID HEINRICH MÜLLER - N. RHODOKANAKIS, Eduard Glasers Reise ^(١)
Nach Narib, Vienna 1913.

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، وقرر الأتراك الانسحاب من اليمن ، وتولى جلالة الإمام يحيى عرش بلاده ، وكثيراً ما طلب منه الزوار أن يسمح لهم بالسفر إلى مأرب ، ولكنه لم يصرح مطلقاً لأحد بالذهاب لخوفه على حياة ضيوف بلاده . وقد حاول أحد الألمان واسمه « هانز هلفرتز » وهو رحالة معروف أن يصل إلى مأرب عن طريق حضرموت ، ولكن رجال الإمام قبضوا عليه وأحضره إلى صنعاء ومنها إلى الحديدة دون أن يتمكن من زيارة المنطقة .

وقد سمح مولانا الإمام لاثنتين بزيارة المشرق أحدهما الأستاذ نبيه مؤيد العظم الذي ذهب إلى مأرب وفي صحبته عامل المنطقة وعدد غير قليل من الجنود في عام ١٩٣٦ . وقد نشر الأستاذ العظم مذكراته في كتاب أسماه « رحلة في بلاد العربية السعيدة » ومهما اختلف رأى الناس فيما جاء فيه فإن لهذا الكتاب قيمته لما فيه من معلومات هامة عن بلاد اليمن ، كما أن الفصلين اللذين تحدث فيهما عن وصف سد مأرب جديران بتهنئة المؤلف بهما . وثانى الشخصين هو الأستاذ محمد توفيق المصرى الجنس الذى سمح له جلالة الإمام بزيارة المناطق الأثرية في الجوف عام ١٩٤٥ ولكنه لم يسمح له بدخول مأرب . ولم ينشر الأستاذ توفيق شيئاً عن رحلته إلى الآن ، اللهم إلا مقاله في مجلة الكتائب المصرى عدد شهر أغسطس الماضى ، وقد تكلم فيه عن فضل حضارة اليمن وأشار فيه إلى الرحالين الذين زاروا بلاد المشرق ، وذكر ذهابه إلى الجوف .

وفي هذا العام سمح لى جلالتة بالسفر إلى جميع المناطق ، وأظهر — حفظه الله وأعز به اليمن — اهتمامه الكبير بأن أنجح فيما قبلت القيام به . وقبل أن أتقل إلى نقطة أخرى أرى من واجبي أن أحيى ذكرى هؤلاء الرحالين الذين عرضوا أنفسهم للموت في سبيل العلم ، وإنى كلما أتذكر المشاق التى نالتنى ، ولا بد أن تعرض لها أيضاً الأستاذان نبيه العظم ومحمد توفيق ، وكل منا لم يذهب إلا وقد رتب له جلالة الإمام أمر زيارته بعد أن استتب الأمن في مناطق بلاد المشرق والجوف ، وأن كلامنا نحن الثلاثة مسلم عربى — أشعر باحترام وإعجاب كبيرين لأنرو وهاليفى وجلالزر ، فلذكراهم خير التحية وأطيب التناء .

بلاد سبأ ومأرب :

اتصلت الحضارة اليمنية بغيرها من الحضارات منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، إذ ورد على آثار السوميريين منذ عام ٢٤٠٠ ق . م . إشارات إلى الصلة بينهم وبين الجزيرة العربية ، كما أن المصريين أرسلوا منذ أقدم العصور رحلات تجارية إلى بلاد « بونت » وهي شاطئ بلاد الصومال وما يقابله من شاطئ جنوبي بلاد العرب . فلهذا لم تكن بلاد اليمن بمعزل عن حضارات البلاد الأخرى .

ولم تكن الزراعة فقط هي مصدر ثروة البلاد أو العامل الأول في حضارتها وتقدمها ، بل كانت التجارة هي العامل الأساسي ، فإن تجارة حاصلات الهند وما وراءها من بلاد الشرق الأقصى كانت في أيدي التجار الهنود الذين كانوا يأتون بسفنهم إلى نهر عدن فيبيعون تجارتهم من البخور والعطور والمنسوجات والأحجار الكريمة وغير ذلك إلى اليمنيين ، فيأخذها هؤلاء بقوافلهم مخترقين الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال حتى يصلوا إلى أسواق الشام ، ومن هناك تجد طريقها شرقاً إلى بابل أو غرباً إلى مصر وشمال إفريقيا وأوربة ، وتعود تلك القوافل محملة بخيرات وتجارة تلك البلاد فيبيعون بعضها في الحجاز واليمن والبعض الآخر إلى تجار الشرق الأقصى . ولكي ندرك مدى الأرباح التي كانت تصل إلى أيدي اليمنيين أذكر أن البخور كان يباع بمائة ضعف الثمن الذي اشتري به ، وقس على ذلك الأنواع الأخرى .

وكانت هذه التجارة المصدر الأول لثروة المعينيين ، فتمكنوا من إنشاء السدود لتحسين أحوال الزراعة ، وتمكنوا من إقامة هذه المعابد الضخمة والحصون ، كما أن التجارة كانت أيضاً العامل الأول في صلة اليمن الثقافية والدينية بغيرها من البلاد ، إذ أنها مهدت السبيل أمام بعض الديانات الأجنبية ، وخاصة ما كان منها في بابل ، لينتشر في الجزيرة العربية ، وخاصة في جنوبها .

وفي أواخر أيام ازدهار المعينيين بدأت مملكة سبأ تظهر في الوجود ، وكان ذلك قبيل انتهاء الألف الثاني قبل المسيح ، ومن قصة المملكة بلقيس مع سليمان في القرن العاشر

قبل الميلاد ندرك مدى ما بلغت حضارة سبأ ، وفي أخبار الملك « تيجلات پلسر الثالث » حوالى عام ٧٣٦ ق . م . أنه أخذ من أهل سبأ جزية من الذهب والجمال والبخور . ولورجعنا إلى الآثار السبئية نفسها لوجدنا ذكراً للكثير من الملوك ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد ، ومن النقوش المحفورة على الصخور فى جبل بلق فى الفتحه اليمنى للسد نعرف أن الذى أنشأ سد مأرب وقطع الحجر لتمر منه المياه هو « سمعل بنوف » وابنه « بنع أمر بان بن سمعل بنوف » وكلاهما عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد .

سد مأرب :

أنشأ ملوك سبأ هذا السد فى القرن الثامن قبل الميلاد ، ولكن البناء الحالى المهدم يرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادى ، وهو الذى بقى بعد تصدعه فى سيل العرم ، ولم يحاول أحد ترميمه إلى الآن . ولا شك أن هذا السد تصدع مرات كثيرة خلال ال ١٤٠٠ عاما التى ظل يؤدى فيها وظيفته فى رى بلاد مأرب . وفى كل مرة كان المرممون يستعملون كل ما يجدونه صالحاً من الحجارة القديمة ويضيفون أخرى جديدة ويتركون نقوشاً فيها ذكر لما قاموا به ، وهذا هو السبب فى العثور على أسماء عدة ملوك فى هذه المنطقة ، ومجموع ما نقلته من النقوش فى منطقة السد خمسة وثلاثون منها ٨ عند البوابة اليمنى ، و ١٧ عند البوابة اليسرى ، و ٨ نقوش فى مبانى مقاسم المياه ، ثم اللوحان الكبيران على مقربة من البوابة اليسرى .

واللوحيان الأخيران يشبه كل منهما عمودا كبيرا عليه نقوش فى جوانبه الأربعة وارتفاع أحدهما ٢٤٠ سم والآخر ٢٢٦ سم وأحد اللوحين مؤرخ عام ٥٣٩ والآخر عام ٥٦٥ وسبق لجلازى دراستهما . وفى اللوح الذى أقامه أبرهة الحبشى وذكر فيه انتصاره على الثوار وخضوع البلاد له نرى ذكراً صريحاً لتهدم السد وإصلاحه : « وبيناهم فى ذلك (يشير إلى مبايعة الناس له بالطاعة) جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والخوض والمصرف فى شهر « ذو المدرج » سنة ٦٥٧ (الشهر والسنة يمينان ، والسنة اليمنية تبدأ

عام ١١٥ قبل الميلاد) فأمر بالعفو . . . وبعث إلى القبائل لإحضار الحجارة للأساس وكذلك الحجر الخام (?) والخشب ورمصاص الصب لترميم السد في مأرب . وتوجه أولا إلى مأرب وصلى في كنيستها ، ثم عمد إلى الترميم ، فنبشوا الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه .

وعلم وهم في العمل أن القبائل تضايقت من العمل ، ورأى أن قتلهم يعود بالضرر ، ففعا عنهم سواء الأبحاش أو الحميريون . »

ويستمر النص فيقول إن الملك عاد إلى مأرب وعقد تحالفاً مع بعض رؤساء القبائل ، وجاءه وفد التجاشي ووفد ملك الروم ورسول من المنذر ورسول من الحارث بن جبلة يخطبون وده ، ويذكرون بعد ذلك أنه رمم ما تصدع من السد ، وأن العمل استغرق أكثر من أحد عشر شهرا ، وفرغ من ذلك في شهر ذو معان سنة ٦٥٨ يمنية وهي ما يقابل ٥٤٣ ميلادية ، وهذا آخر ترميم في السد .

وصف السد :

سبقت الإشارة إلى فتحة الضيقة بين جبلي بلق التي لا يزيد اتساعها عن ١٨٠ متراً وأن مياه سايبة ذنة تسيل من هذا المسكان إلى وادي مأرب العظيم المتسع الأرجاء . وما زالت هذه المياه تتجمع وتأتي متدفقة إلى وادي مأرب ، ولكنها تسير على حافته وتضيع في الرمال ولا يستفيد منها الأهالي إلا دون القليل ، لأن مستوى أرض الوادي يرتفع أكثر من خمسة أمتار عن قاع السايبة .

وكان أمام المهندس الذي فكر في إقامة هذا السد غرضان : أولهما الارتفاع مدة أطول من مدة مرور السيل بهذه المياه ، وثاني الغرضين رفع المياه إلى مستوى الوادي وإيصالها إلى مختلف أرجائه الواسعة .

وقد حقق السد هذين الغرضين بإقامة حائط ضخام أمام فتحة الجليلين ، وعمل في هذا الحائط فتحتين لتصريف المياه بعد حجزها وارتفاعها إلى خمسة أمتار ، وعلى كل فتحة من الفتحتين البوابات اللازمة لتصريف المياه على حسب الحاجة .

وهاتان الفتحتان أو البوابتان إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار (واليمين هنا هو عين سير المياه وموقعه الجنوب) فالتى إلى اليمين قطعها المهندس فى الصخر الجرانيتى الذى على حافة الجبل ثم بنى الصدفين الأيمن والأيسر فوق الصخر . فأما الصدف الأيسر فسمكه ١٣ متراً وطوله ٨٠ متراً وارتفاع مبانيه لا يقل عن تسعة أمتار . وقد استعاض المهندس عن الصدف الأيمن بالصخر المرتفع ولكنه بنى بناء واحداً عند مدخل المياه لتثبيت البوابة المتحركة لتصريف المياه والتى يبلغ اتساعها ٤٥٥ سنتيمتراً . وعدا هذين الصدفين نجد أن الحائط المبنى فوق قاع السابلة لتسهيل المياه فوقه ما زال قائماً ، كما أنه توجد عدة نقوش مكتوبة على الصخر ، منها اثنان يرجع تاريخهما إلى بدء إقامة السد ، وقد سبقت الإشارة إليهما .

أما الفتحة الأخرى للسد فتقع عند نهاية الحائط الكبير الذى يبلغ طوله نحو ٦٠٠ متر ، وهذه الفتحة هى الرئيسية ، وعليها رى الجزء الأكبر من الوادى ، وفيها بوابتان كبيرتان لتصريف المياه وقد بنى المهندس فوق بناء البوابات برجاً مرتفعاً للاشراف على المنطقة كلها ، ولما كان حائط السد لا يرتكز على الجبل فى الناحية اليسرى فقد بنى المهندس حائطاً ضخماً يتجه من الغرب إلى الشرق يرتكز فى ابتدائه على الصخر وطوله الكلى ١٤٣ متراً وسمكه ١٢,٣٥ متراً . وعلى كل فتحة من هاتين الفتحتين واتساعهما ٣٣٨ و ٣١٠ سنتيمترات على التوالي بوابة متحركة ما زالت درجاتها باقية إلى الآن .

وتسير مياه هاتين الفتحتين فى قناة عريضة فى أولها ، ثم تقل فى الاتساع ، وطولها ١١٦٠ متراً ، وتنتهى ببناء مستطيل شبيه بالحوض عظيم الاتساع فيه فتحات لأربع عشرة قناة فى مختلف الاتجاهات .

فالفتحة الجنوبية أى اليمنى كانت تروى أراضى اللجنة اليمنى ، وقد دثرت حدائقها ومباني القرى التى كانت عليها ، ولكن بقاياها ما زالت قائمة إلى اليوم . وفيها مبانى محتوية بعضها على أعمدة جرانيتية ومعابد ، ولكن أكثرها أصبح مغطى بالرمال ، وأهم البلاد التى كانت فى اللجنة اليمنى مروت ومدينة النحاس ، وكذلك المنطقتان الأثريتان المعروفتان باسم العمايد وعرش بلقيس وتسع خرائب أخرى صغيرة فى الوادى .

أما البوابة الكبرى التي في الجهة الشمالية فكانت تروى أكثر أراضي وادى مأرب وعليها زراعات المدينة القديمة ، وهي مدينة سبأ التي لا تبعد عن السد أكثر من تسعة كيلو مترات . وأرض الوادى كلها طينية خصبة . . . وأينا سار الإنسان في هذا الوادى الآن يرى آثار أعمال الري القديمة وخاصة القنوات المبنية فوق القنوات الصغيرة ويسمونها « المناسح » . وقد أتيت لي أن أرى هذه المنطقة من الطائرة ، فظهرت جميع القنوات واضحة المعالم في الوادى بأكملها .

وهناك نقطتان هامتان تستحقان الذكر ، وهما التفوق العظيم الذى بلغه قدماء اليمنيين في فن العمارة ، إذ أنهم وصلوا إلى أرفع الدرجات في نحت الأحجار البركانية الصلبة ، كما أن طريقة بنائهم وربط الأحجار بعضها ببعض بواسطة أصابع أسطوانية من النحاس أو الرصاص ، وميل الجدران إلى الداخل وغير ذلك من الاحتياطات يدل على مهارة عظيمة تستحق الدراسة . وقد حسبت مقاييس بعض الأحجار فوجدت أن وزن بعضها لا يقل عن ثمانية أطنان . والنقطة الثانية هي ضرورة دراسة هذا السد ونظرية بناء أجزائه المختلفة وتوزيع مياهه بواسطة مهندس الري ليعرفوا المدى الذى بلغه المهندسون القدماء وأثر الحضارة السبئية في غيرها من البلاد . وخصوصاً أننا نعرف أن القبائل القحطانية اليمنية بدأت منذ عهود بعيدة تغادر اليمن وتستقر في شمال الجزيرة وغيرها من بقاع آسيا ، كما كان لهذه القبائل أثر محسوس في الفتح الإسلامى واستقرار بعضها في شمال إفريقيا ثم في الأندلس ، حيث قام العرب بكثير من أعمال الري العظيمة ، وخاصة إنشاء السدود .

مدينة مأرب :

ومدينة مأرب باقية إلى اليوم داخل أسوارها القديمة وأطلالها المرتفعة منتظرة يد العلم لترفع عن وجهها هذا القناع ، وإنى لا أردد لحظة واحدة في وضع هذه المدينة الكبيرة في الصف الأول بين مدن العالم القديمة . كما أننى لا أشك لحظة واحدة في أن هذا المكان عينه سيمدنا بأعظم المعلومات عن حضارة عظيمة من أهم حضارات العالم القديم لا نعرف عنها إلا القليل .

ولن أتحدث اليوم عن أطلال مأرب أو أذكر مركزها في التاريخ أو أصف بقاياها ،
ولكني أذكر باختصار ثلاث نقط لأهميتها الكبرى .

١ — وجد الأهالي في مأرب آثاراً صغيرة كثيرة ، ومن ضمنها آثار مصرية
من جدارين وتمائم ، وقد اشترت بعضها ، ويرجع تاريخها إلى القرن السادس قبل
الميلاد ، ومن المحتمل أن تكون صناعتها متأثرة بالحضارة الفينيقية وأنها وصلت إلى مأرب
عن طريق التجارة .

٢ — وصف جلازر وهاليثي وغيرها مدينة مأرب بأن أسوارها تكون دائرة
ولكنها غير ذلك ، بل إن جدرانها الأربعة موازية للجهات الأصلية ، ولكن الأركان
فقط مستديرة .

٣ — كلفت الحكومة اليمنية عامل مأرب أن يبني داراً جديدة للحكومة ، وبدأ عمله
منذ ثلاث سنوات ، وبالرغم من أن هذا الشخص يعلم تمام العلم حرص مولانا الإمام
على الآثار وتعليقاته الشديدة لعدم نقلها أو الاتجار فيها وبيعها إلى الأجانب ، فإن هذا
العامل الجاهل استباح لنفسه دون أن يبلغ أحداً ، هدم أكثر من عشرين مبنى من المباني
الحجرية القائمة ، ومن بينها بعض المعابد لاستعمال أحجارها في البناء أو استئثاراً
وراء هذا الكلام لأغراض أخرى ، وقد خرج كثير من النقوش والتماثيل والأحجار
المزخرفة من المرمر ، ولا شك أن أجمل ما خرج من الأنقاض قد ذهب إلى غير رجعة
ليظهر يوماً ما في أحد المتاحف أو المجموعات الخاصة ، وقد وجدت الكثير من الكتابات
والأحجار المنقوشة ملقى بين الحرائب أو على مقربة من البناء الجديد .

وقد قمت بواجبي في نقل جميع النقوش وأخذ صور فوتوغرافية لأهم الأحجار ،
كما أبلغت أمر هذا العدوان إلى رجال الحكومة وإلى جلالة الامام ، وناشدته باسم العلم
وباسم كل غيور على حضارة العرب أن يأمر بانقاذ ما بقي ، فأصدر أوامره في الحال
بوقف هذا العبث . وإنني أرجو ألا يتعرض نقش من النقوش التي نقلتها أخيراً في مدينة
مأرب وعددها أربعة وثمانون نقشاً للتخبط ، فإنها على درجة عظيمة من الأهمية ،

وبرغم أخذ صورها الفوتوغرافية ونقل ما عليها من الكتابات فإن الاحتفاظ بالأصل واجب على أى حال .

والآن أعرض على حضراتكم بعض صور سد مأرب وبعض النقوش والرسوم .

حضرات الزملاء :

إن حضارة اليمن من أقدم الحضارات ، ومناطقها الأثرية كثيرة ، وإذا كنا نجد الآن على سطح أطلالها نقوشاً وآثاراً يرجع تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، فإنه من المؤكد أن نصل إلى أبعد من هذا التاريخ عندما يتم حفر هذه الأطلال .

إن العالم لا يكاد يعرف شيئاً عن حضارة اليمن القديمة ، سواء منها المعينية أو السبئية أو الحميرية ، وهى كلها فروع من شجرة واحدة لحضارة سامية المولد ، وهى فى الوقت عينه لها تأثير فى غيرها من الحضارات .

لقد اتصلت اليمن بسومير وبابل وأشور ، كما اتصلت بمصر والشام والحبشة ، وكما اتصلت أيضاً بالهند والصين . إنها لم تنقل تجارات هذه البلاد فحسب ، ولكنها نقلت أيضاً عقائدها وآراءها وفنونها . وإنى أرجو أن يكون قد اقترّب اليوم الذى يمحيط فيه العلم للثام عما احتفظت به أرض اليمن من كنوز الأقدمين ، وتختل فيه دراسة الآثار اليمنية المكان الجدير بها بين الهيئات العلمية فى جميع البلاد .

تاريخ البرج الجنائزي في تدمر

خلاصة البحث الذي أعده للمؤتمر

الدكتور ارست ويل

عضو المعهد العلمي الفرنسي للآثار في بيروت

إن من أبرز المناظر في تدمر مجموعة الأبراج الجنائزية التي تحيط بالمدينة . ولا يزال البيان الوحيد للمدافن المختلفة في تلك المدينة هو الذي رسمه ويجاند Wiegand - Palmyra, Berlin 1932 ولكن تاريخ الأبراج الجنائزية لم يكتب إلى اليوم في وضوح وجلاء . وقد أتيج لي أن أقم في تدمر فترة قصيرة من الزمن استطعت فيها أن أدرس المراحل الرئيسية من هذا التاريخ . ومن حسن الحظ أن من بين تلك الأبراج نحو عشرين ، عليها كتابات تؤرخها ، وقد أمكن بفضلها أن تؤرخ سائر الأبراج ، تاريخاً نسبياً على الأقل .

١ — ترجع أقدم هذه الأبنية إلى القرن الأول قبل الميلاد ، وتقع فوق قمة التل الذي يحف بالوادي المعروف باسم وادي المقابر . وعمارة هذه الأبراج ضخمة وتعلوها طبقة متعددة الأضلاع وفي داخلها درج يلف ، وفي قاعدتها من الخارج صفوف من قبور على هيئة القرن ، وتعرف باسم loculi .

٢ — وبالنظر إلى نمو المدينة السريع دخل على بناء هذه الأبراج زيادة تتجلى في تشييد تلك القبور في داخل الأبراج (ولكن البرج رقم ٥ يمثل مرحلة الانتقال ، ففيه قبور من الخارج وأخرى من الداخل) . وتبدو في هذا الدور من تطور بناء الأبراج بعض الأساليب القديمة التي لم يدخل عليها شيء من التغير ، ومن ذلك الرصة غير المنتظمة والدرج الدائر والمدخل المستقل في الطبقة الأرضية (ويمتد التطور في هذا الدور بين سنة ٧ ق م في برج أنانان وسنة ٤٤ ميلادية في برج كيهوت) .

٣ — أما المراحل الأخيرة في تطور الأبراج فلا تختلف كثيراً عن المرحلة السابقة إلا في بعض التحسين الذي أدخل عليها . ومن أهم الأنواع في هذه المراحل الأخيرة النوع الذي ينسب إلى الربع الثالث من القرن الأول الميلادي ونرى فيه أن الدرج موضوع في ركن من أركان البرج ويتكرر فيه تخطيط التريعات من طبقة الى أخرى .

٤ — وبين عامي ٧٠ و ٨٠ ميلادية يصبح البناء أكثر انتظاماً ، ويصبح سطح التريعات عمودياً بعد أن كان مائلاً إلى الداخل ، وتعلوها زخرفة معمارية . وينصرف القوم عن تشييد المدخل المستقل في الطبقة الأرضية .

٥ — ثم فصل بعد ذلك إلى النوع النهائي المتقن من الأبراج ، كما نراه في برج جامبليك من سنة ٨٣ م وإلاهبل من سنة ١٠٣ م . حيث نرى رصة البناء منتظمة ، فضلاً عن استعمال الزخارف المعمارية في الجدران .

ولا نكاد نرى بعد ذلك أي تطور في بناء الأبراج في تدمر . وفضلاً عن ذلك فإن الاتجاه أصبح بعد ذلك نحو تشييد المعابد والبيوت الجنازية ، كما تشهد بذلك الكتابات الأثرية .

وهكذا نرى أن تطور البرج الجنازي كان مستقلاً عن تطور البيوت الجنازية ، فإن البرج الجنازي لم يكن قط بيتاً جنازياً من عدة طبقات ، وإنما كان في البداية برجاً بسيطاً . أما وضع القبور المتعددة على هيئة القرن فمن الظواهر الخاصة بمدينة تدمر ، وكانت نتيجة تطور بطيء مستمر . والحق أن أقدم أنواع هذه الأبراج يبدو كأنه بناء مشيد فوق المدافن ، ويشبه من هذه الناحية الأبراج المعروفة في مدينة دورا وفي منطقة الفرات الوسطى . ولا ريب في أننا إذا بحثنا عن أصل البرج الجنازي الذائع في شرقي سورية استطعنا أن نقسّر استعمال هذا النوع من العمارات .

مكتشفات جديدة في تدمر

خلاصة البحث الذي أعدّه للمؤتمر

الأستاذ هانز ستارك

عضو المعهد العلمي الفرنسي للآثار في بيروت

من المعروف أن مدينة تدمر كانت محوطة بقبور على هيئة أبراج وبيوت أو كمل ما وصل إلينا منها قصر الحية . وقد رُم هذا البيت أخيراً ، وكشفت أثناء الترميم نقوش بارزة يمثل أحدها شخصاً بجوار سفينة . ولا ريب في أنها من السفن التابعة لمدينة تدمر . ولندكر هنا الكتابة الأثرية التي عثر عليها أثناء حفائر أجورا سنة ١٩٤٠ ، والتي جاء فيها ذكر سفينة تجارية تابعة لتدمر قادمة من الهند (راجع مقال الأستاذ سيريج H. Seyrig في مجلة Syria سنة ١٩٤١ ص ٢٠٣) .

كما كشفت أسكفة باب مقبرة عليها كتابات . ولاحظ الأستاذ ويل Will أن نص هذه الكتابات قرأه الأستاذ سخاوس سنة ١٨٧٩ (انظر - *Gorpus des inscriptions sémitiques*, vol II, no 4209) ولكنه لم يعين مكانه تماماً . وبفضل كشف هذه الأسكفة نعرف الآن أن قصر الحية شيد سنة ٢٣٦ م على يد يوليوس أوريليوس مارونا Julius Aurelius Marona .

وقد تم في تدمر كشف جديد هذا العام أثناء تنظيف الممر الأرضي الذي كان يخرج منه مجرى الماء ليروي الواحة كلها . إذ ظهر هيكل عليه كتابة يونانية وتدمرية . أما الجزء اليوناني من هذه الكتابة فكان قد نقله سنة ١٦٩١ القس وليم هاليفاكس أول عالم جمع بعض الكتابات التاريخية في تدمر . ثم نقل هذا النص ثانية على يد العالمين

الأثرين دوكنز Dawkins وود Wood . والظاهر أن هذا الهيكل توارى تحت أحد الجدران ، وظل بعيداً عن الأنظار نحو قرنين من الزمان ، إلى أن كشف هذا العام ، وأمكتنا أن نقرأ الكتابة اليونانية . أما صمت العلماء المذكورين بشأن النص التدمري فليس من العسير تفسيره إذا تذكرنا أن الكتابة التدمرية لم تفك طلاسمها إلا سنة ١٧٥٤ على يد الأب بارتلمي J.J. Barthelemy . والعالم سوتون J. Swinton .

وفيد النص اليوناني أن بولانوس Bolanos ابن زينوبيوس Zenobios الذي اختاره الإله يرحبوا ناظراً لهذا النبع المسمى وفقاً قدم ذلك المذبح للإله زيوس العظيم سنة ١٦٢ م . وهكذا نجد في هذا النص الاسم القديم الذي كان يعرف به النبع . وقد جاء هذا الاسم أيضاً في النص التدمري . ولا ريب في أنه من الأصل الآرامي بمعنى « خرج » فضلاً عن أن معناه في اللغة الآرامية « قناة » وهذا كله يوافق النبع أو المجرى الذي يسير فيه الماء . ومما كشف حديثاً مقعد طويل لجلوس المستحمين ، وهو منحوت في الشاطئ الأيمن للنبع .

معرض الكتب

أعدت هيئة تنظيم المؤتمر معرضاً للكتب المؤلفة بالعربية في علوم الآثار ، والمجلات العلمية التي تصدر في البلاد العربية وتعنى بعلوم الآثار ، فضلاً عما ظهر من كتب الآثار والفنون باللغات الأوربية منذ قيام الحرب العالمية الأخيرة .

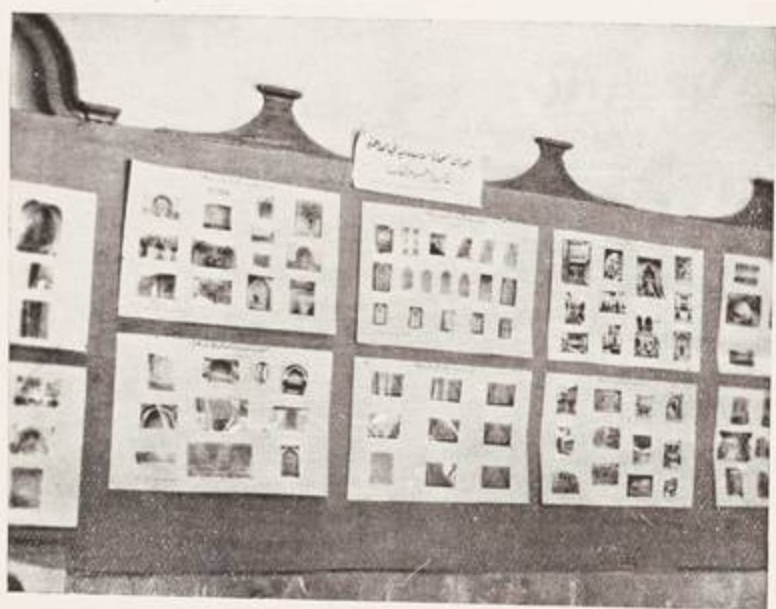
وقد جمعت الهيئة في هذه المناسبة نحو ثلاثمائة كتاب ومجلة ، عرضت في ثلاث قاعات من قاعات قصر العظم . ويسر بذلك لأعضاء المؤتمر والمعينين بشئون الآثار والفنون في البلاد العربية أن يعرفوا ما ظهر من المراجع في هذا الميدان .

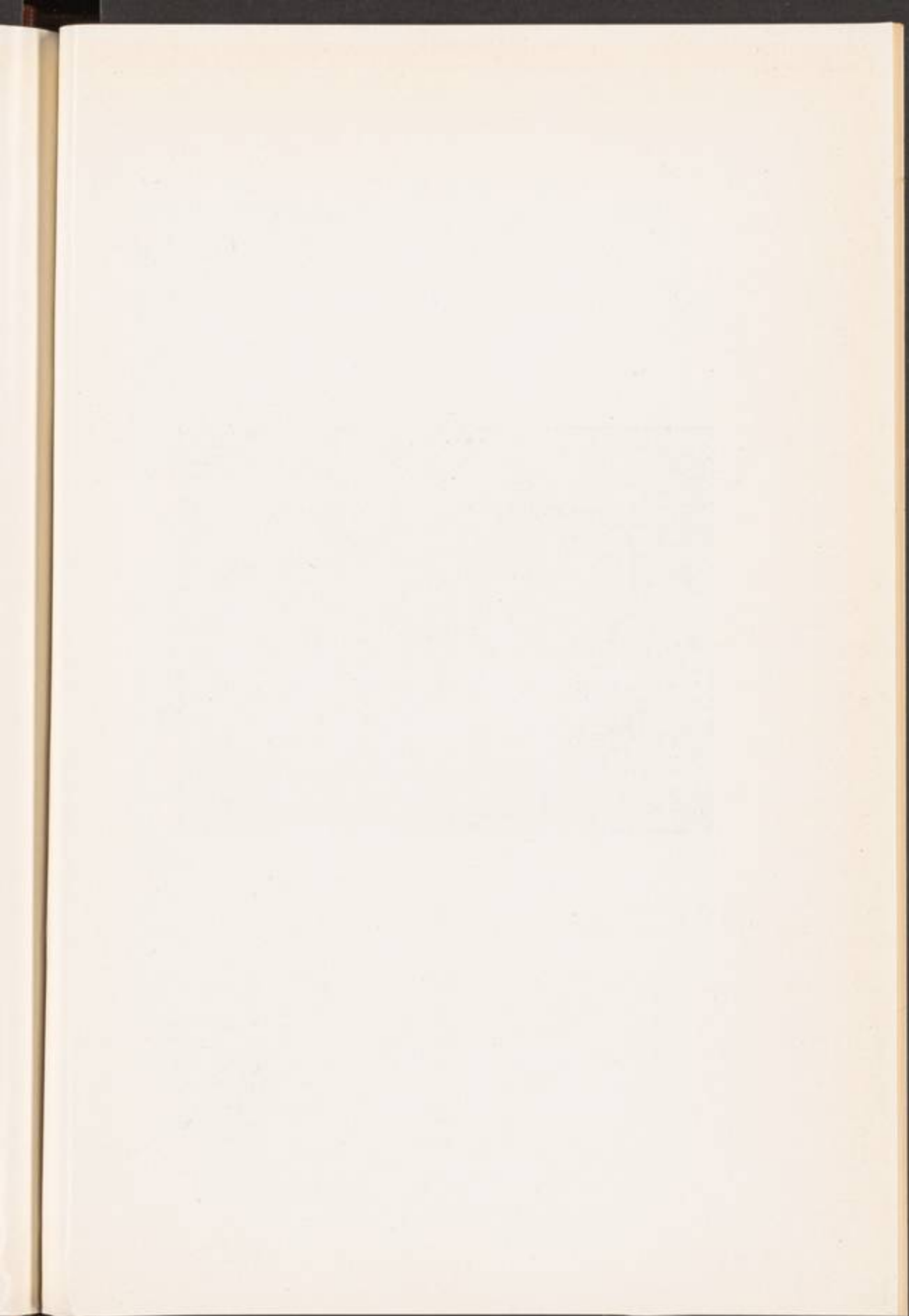
وقد ساهم في إقامة هذا المعرض مصلحة الآثار المصرية وإدارة حفظ الآثار العربية ودار الآثار العربية والمتحف القبطي وجمعية الآثار القبطية بالقاهرة وكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ودار المعارف ودار المقتطف ومطبعة شندلر ودائرة الآثار السورية ودائرة الآثار العراقية ودائرة الآثار اللبنانية ، فضلاً عن فريق من المؤلفين والكتاب .

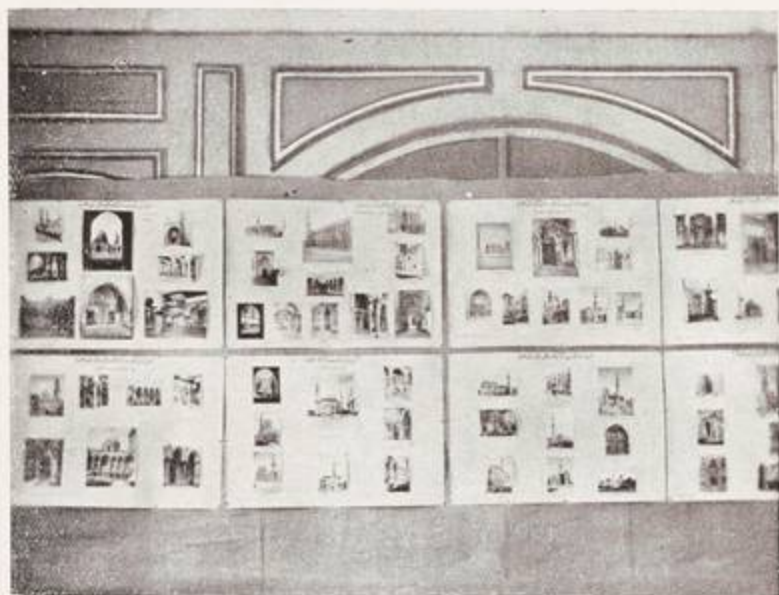
معرض الصور

أعدت هيئة تنظيم المؤتمر معرضاً للصور في موضوعات الفنون والآثار في البلاد العربية ، فقدم الأستاذ حسن عبد الوهاب عدداً كبيراً من صور العناصر المختلفة في العماير الإسلامية المصرية ، وقدم الدكتور محمد مصطفى صور مجموعة من التحف التي اقتنتها دار الآثار العربية في السنين الأخيرة ، وقدم الأستاذ عبد الهادي حماده صوراً توضح مناظر الحفائر التي يقوم بها في منطقة كوم الحصن بالدلتا .

وقد عرضت هذه الصور في قاعتين من قاعات قصر العظم ، وقام الأستاذ حسن عبد الوهاب بجهود مشكورة في تنظيمها وإعدادها للعرض .













مقررات المؤتمر

مستحققات العرب

لجنة الثقافة الأثرية

عقدت لجنة الثقافة الأثرية ثلاث جلسات ابتداء من يوم الأحد ١٤ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ وقررت في جلستها الأولى انتخاب الدكتور زكي محمد حسن رئيساً للجنة، والأستاذ طه باقر مقررًا لها. وتناقش الأعضاء وتبادلوا وجهات النظر وتوصلوا إلى وضع التوصيات الآتية إلى هيئة المؤتمر لتتقدم بها إلى جامعة الدول العربية :

١ — أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العالمية والآثرية في الدول العربية المختلفة لتقوم بأعمال التنقيب، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن جلالتي ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار في هاتين المملكتين، واقترح ما يلزم للقيام بأعمال التنقيب فيهما، نظراً لأهمية تاريخ اليمن والبلاد السعودية في تاريخ الأمة العربية.

٢ — أن يدرس فن التنقيب في المعاهد العليا في الدراسات الأثرية التابعة لدول الجامعة.

٣ — أن تبرز محاسن العمار الأثرية وأن يزال ما يشوه واجهاتها وجوانبها من الأبنية الدخيلة عليها.

٤ — أن تؤلف الكتب عن العمار الأثرية، وتدوّن البيانات التي توضحها عند مداخلها، لتعريف الشعب بها وبمميزاتها الفنية وقيمتها الأثرية.

٥ — أن توضع القوانين لحماية المواقع الأثرية، بحيث لا يستطيع أى شخص أن يعتدى على جمال تلك المواقع بتشيد العمار الحديثة أو التي لا يتناسب طرازها مع المناطق الأثرية بوجه عام. وبذلك يكون تشيد أى بناء أو شق أى طريق في المناطق الأثرية خاضعين لإدارات الآثار، ولا يصرح بذلك إلا بعد أن تدرسه السلطة المختصة في الدوائر الأثرية.

٦ — أن تعمل الجهات المختصة بالآثار في مختلف الدول العربية على ألا تستعمل المباني الأثرية الدينية في غير الأغراض التي أنشئت من أجلها .

٧ — أن يراعى في تنظيم المتاحف بقدر الإمكان أن تكون هناك أقسام خاصة تجمع فيها التحف اللازمة لتيسير دراستها على الاختصاصيين ، وبذلك يمكن أن تعرض سائر المعروضات عرضاً يجيبها للزائرين ، ويبرز قيمتها ، ويسهل الاستفادة من زيارتها .

٨ — أن تعنى السلطات بإيجاد الأماكن الفسيحة اللائقة بدور الآثار فيها .

٩ — أن تعمل الهيئات الفنية في المتاحف على وضع دليل لكل متحف ، فضلاً عن الشروح المعروفة لكل الآثار المعروضة ، لتمكين الزائر من الاستفادة من زيارته .

١٠ — أن تعمل السلطات الأثرية على إنشاء متاحف محلية في مختلف المدن ، ويراعى في ذلك أن تقلل إليها التحف المكررة في المتاحف الرئيسية ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بتاريخ المنطقة التي يقوم فيها البلد أو مستخرجاته أو ما يوجد في عمارته الأثرية .

١١ — أن تعنى إدارات الآثار والمتحف بنشر المؤلفات السهلة المختصرة باللغة العربية لتثقيف الشعب ، وذلك إلى جانب المؤلفات العلمية الدقيقة الوافية التي تقوم بإصدارها .

١٢ — أن تتبادل المطبوعات في الآثار والصور ونماذج التحف والخرائط وغير ذلك بين البلاد العربية .

١٣ — أن يتبادل الاختصاصيون في الآثار بين دول الجامعة العربية في فترات مختلفة ، وأن يزور الاختصاصيون في كل دولة من هذه الدول حقول الحفر والتقيب عند الدول الأخرى .

١٤ — أن تعمل سلطات الآثار في بلاد الجامعة العربية على تبادل التحف التي يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لإمكان تمثيل مختلف الطرز الفنية في متاحف تلك الدول .

١٥ — أن تعمل دول الجامعة العربية على إنشاء متحف في إحداها أو في كل منها خاص بأزياء الدول العربية ومظاهرها حضارتها في العصور الحديثة .

١٦ — أن تتقدم الجامعة العربية إلى الدول العربية راجية أن تتخذ الوسائل اللازمة لعلاج الخطر الذي يهدد ترميم الآثار بانقراض العمال الاختصاصيين وأن تعمل كل دولة على الاستفادة ممن يوجد منهم في سائر الدول الأخرى . وجبذا لو أمكن أن تقدم كل دولة بياناً بأسماء المهرة الاختصاصيين ونوع اختصاصهم .

١٧ — أن تعنى حكومات الدول العربية بنمو متاحفها بمختلف الطرق ، كتوفير المال اللازم للتنقيب عن الآثار ، واقتناء التحف التي تظهر في الأسواق ، ولا سيما ما كان متصلاً بتاريخنا القومي وراثتنا الفنية ، ثم العناية بتدريس الآثار ، وربط دراسة التاريخ بدراسة الفنون والآثار .

لجنة القوانين الأثرية

في البلاد العربية

اجتمعت اللجنة في يوم الأحد ١٤ سبتمبر ١٩٤٧ في الساعة الحادية عشرة صباحاً بحضور جميع أعضائها وبإدارة عطوفة الأمير جعفر الحسني، وقررت انتخاب الأستاذ عبد الهادي حمادة مقررًا لها، وقد تبادل الأعضاء الآراء، وقارنوا بين القوانين المصرية والعراقية والسورية والفلسطينية. وقد انتهت الجلسة بعد مناقشات بينهم في مواد بعض القوانين.

ثم اجتمعت اللجنة يوم الاثنين الموافق ١٥ سبتمبر ١٩٤٧ في الساعة الحادية عشرة صباحاً واستمروا في دراسة القوانين وبحث المواد، وقد لاحظوا أن دراسة مواد القوانين ومحاولة توحيد بعضها هي من الصعوبة بمكان، نظراً إلى بعض الاختلافات الموجودة في تلك القوانين والتي ترجع إلى تباين النظم في كل دولة من دول الجامعة، كما لاحظوا أن معظم القوانين حريصة على المحافظة على الآثار، ولذلك تقدم مقرر اللجنة باقتراح أن يكون هناك توصيات تقدم من اللجنة إلى مؤتمر الآثار لترفع إلى الجامعة العربية، كي ترسلها بدورها إلى الدولة المشتركة في الجامعة حتى إذا كان قانون إحداها خلوًا من بعض هذه التوصيات كان من المستطاع تلافى ذلك. وقد أقره حضرات الأعضاء على وجهه نظره، وطلب إلى حضراتهم أن يتقدم كل من يريد منهم باقتراحاته في الجلسة التالية.

ثم اجتمعت اللجنة يوم الثلاثاء الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٤٧ في الساعة الحادية عشرة صباحاً وجعلت تدرس الاقتراحات التي تقدم بها حضرات الأعضاء، وانقضت الجلسة قبل الانتهاء منها.

ثم اجتمعت اللجنة يوم الأربعاء الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ في الساعة الحادية عشرة صباحاً وأتمت دراسة الاقتراحات وانتهت إلى إقرار التوصيات الآتية :

- ١ — أن تعمل حكومات دول الجامعة على المحافظة على الآثار العقارية والمنقولة محافظة تامة ، وعلى الأخص ما يوجد من الآثار المنقولة الثمينة في مؤسسات الوقف الدينية ، وذلك بنقلها إلى المتاحف الأثرية أو إنشاء متاحف خاصة بها إذا اقتضى الأمر ذلك .
- ٢ — أن يكون لكل حكومة الحق في أن تستملك (تزرع ملكية) جميع الآثار المنقولة وغير المنقولة ، سواء منها ما كان ملكاً للأفراد وما كان ملكاً لمؤسسات الوقف وغيرها .
- ٣ — تتعاون دول الجامعة فيما بينها على أن تسترد كل دولة منها ما قد يتسرب بصورة غير مشروعة من آثارها إلى دولة أخرى من دول الجامعة . وتوصي اللجنة بأن يتم الاتفاق على مثل ذلك مع سائر الدول ، حفظاً للتراث القومي لدول الجامعة .
- ٤ — تعطى كل دولة من دول الجامعة حق الأولوية في التنقيب للدولة التي تتفق معها على تبادل هذا الحق ، وتفضل دول الجامعة .
- ٥ — تضع كل دولة القيود اللازمة للحد من تجارة الآثار ، وقصرها على ما يوجد منها في الأسواق الآن أو في المجموعات الخاصة المسجلة . ويستثنى من ذلك الآثار التي يثبت الحصول عليها بطريقة مشروعة .
- ٦ — تعمل كل دولة على منع تزيف الآثار المنقولة أو تزويرها ، ولا يعد تزيفاً تقليد الآثار لأغراض علمية أو فنية .
- ٧ — يوضع في قانون كل دولة ما يسمح بتبادل بعض الآثار المكررة أو إهداءها ، تسهيلاً لتبادل الآثار بين المتاحف .
- ٨ — تعمل دول الجامعة على توحيد الشروط التي يجب أن تمنح بموجبها رخص التنقيب إلى الهيئات والمؤسسات العلمية ، وعلى تنفيذها كلها ، وعلى ندب الدائرة المختصة في كل دولة من يمثلها من موظفيها أو مواطن دول الجامعة ، ومن يرافق البعثة التنقيبية في مواضع التنقيب تعيين مهمته في قانون الدولة .
- ٩ — تعمل كل دولة من دول الجامعة على تشديد العقوبات على كل خارج عن قانون الآثار المعمول به فيها . وترفع اللجنة هذه التوصيات إلى هيئة المؤتمر الموقرة لكي ترفع إلى هيئة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

لجنة المصطلحات

اجتمعت لجنة المصطلحات في صباح يوم ١٦ من سبتمبر ١٩٤٧ وقررت انتخاب الأستاذ طه باقر المندوب الأول في وفد العراق رئيساً للجنة والدكتور زكي محمد حسن مقررًا لها. وتناقش الأعضاء فيما يلاقون من صعوبة عند الكتابة في علوم الآثار باللغة العربية ، وسمعا بما سبق أن شرع فيه فريق من المشتغلين بالآثار في القاهرة من إعداد معجم للفنون والآثار باللغة العربية . ورأت اللجنة :

(أولا) إقرار ماتم في هذا المشروع ، وأن يؤلف في القاهرة مكتب لنشر معجم للمصطلحات الفنية من حضرات :

١ — الدكتور زكي محمد حسن

٢ — الأستاذ عباس بدر

٣ — الأستاذ حسن عبد الوهاب

(ثانياً) أن يعلن هذا الحضرات المشتغلين بالآثار والفنون في البلاد العربية ، وأن يرجي من حضراتهم المساهمة في هذا المشروع بجميع ما اهتموا إليه من مصطلحات ونشرها في إحدى المجالات العلمية ، ثم إرسال فصله من هذه الأبحاث إلى مكتب المعجم بالقاهرة لبحثها ، وإذا أقر المكتب أى اصطلاح من هذه المصطلحات المنشورة فإنه يدخلها في المعجم مذيلة باسم صاحبها ، وبذلك النشر الجزئي السابق للمصطلحات قبل إرسالها إلى مكتب المؤتمر يتحقق غرضان :

أولها : حفظ حق التأليف لأصحابها .

ثانيها : عرض المصطلحات على جمهور الاختصاصيين لدراستها .

ويجوز لمن يريد من حضرات الباحثين أن يرسل ما يهتدى إليه من مصطلحات إلى مكتب المعجم ، دون سبق نشره ، وطبعي أن يذيل باسمه ما يختار منها للنشر .
ويرسل مكتب المعجم إلى إدارات الآثار في الدول العربية المختلفة بياناً بالمصطلحات التي يستقر رأيه على طبعا في كل ملزمة تظهر من المعجم لسماع ملاحظاتها في هذه المصطلحات . وترجو اللجنة بهذه المناسبة أن تكون الاصطلاحات المنشورة أو المرسلة إلى مكتب المعجم مصحوبة بالشروح والرسوم والمراجع اللازمة .
(ثالثاً) يرجو المؤتمر أن تشمل اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية هذا المشروع برعايتها ، وأن تقوم على نشر هذا المعجم في كراسات متسلسلة ، على غرار ما تم في نشر سجل المكتابات العربية الذي يصدره الأساتذة كومب وسوثاجيه وفيت بمعونة سائر الاختصاصيين في الآثار الإسلامية ، وهو النظام الذي اهتمت به لجنة المصطلحات في وصولها إلى هذه القرارات .

١٥٥

من الحفلة الختامية

الحفلة الختامية

تاریخ اقلید

كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

عن الجامعة العربية

بالأمس اجتمع مؤتمر الثقافة في لبنان فبحث فيه مفكرو العرب الخطة المثلى التي يجب أن نسير عليها في تربية الناشئة بغية تشييد المستقبل ، واليوم نختم مؤتمر الآثار ، هذا المؤتمر الذي عقد للنظر في آثار بلاد العرب ، وليست الآثار إلا تاريخاً يمثل لنا حضارتنا القديمة ، وهو الحجة الدامغة لمن يبخسنا حقنا . وما المؤتمر الأول للآثار إلا دليل على أننا حين نعمل لحاضرنا وننظر لمستقبلنا نلتفت إلى الماضي ، ومن لا ماضى له فلا مستقبل له .

لقد حمل آباؤنا في الأحقاب الطويلة مشعل الحضارة ، ونادوا بالأخوة والسلام ، فكان من واجبننا أن نقف على أترامهم ونسير على منوالهم ، كي لا نكون في حاضرنا طالة على التاريخ ، وعلينا أن نسجل بأيدينا صفحة قليق بماضينا وتعيد مكانتنا .

إن تاريخنا يشهد بما قدمنا من ثقافة وحضارة للعالم القديم ، فعلينا الآن أن نبني حاضرنا على ثقافة واسعة وتهذيب شامل وخلق متين ، ومن أجل هذه الغاية رأت الجامعة العربية أن تشيد تاريخ العرب الحديث على أساس راسخ من المدنية والحضارة ، فدعت لعقد المؤتمرات العربية المختلفة ، وما مؤتمر الآثار إلا خطوة كبرى لهذا العهد الجديد ، حيث اجتمع علماء أثريون من العرب في موطن عربي كريم ، وجو ملؤه الحرية ، وتباحثوا فيما يجب عمله لحفظ الآثار وتوحيد المصطلحات ورفع مستوى الثقافة الأثرية .

كلمة السيد طه باقر المندوب الأول في وفد العراق

سيدي صاحب المعالي :

سيداتي ، سادتي :

إنه ليعسر بموقفي هذا أن أعبر بالآفاظ والجلل عن الشهور والأحاسيس الطيبة العميقة التي تفلقت في قلوب الوفد العراقي ، لما أولينا به من عظيم الكرم والفضل والحفاوة ، مما جعلنا ألسنة تردد آيات الشكر والثناء ، وتمنى لسورية الشقيقة ، ودمشق الخالدة ، أن تسير قدماً الى أهدافها العليا في الحجة الرشيدة ، وأن تمضي في خطواتها الحيارية تبني على أسس نهضتها الحديثة المباركة ، فتستكمل أمجادها العتيقة ، فتكون كما هي الآن ، مفخرة العروبة ومعقل الحرية والأحرار .

سيداتي :

انتهى مؤتمرنا الأول ، فأود أن أسجل لجامعة الدول العربية ، ولما يمس على ولادتها زمن طويل ، هذا النجاح العظيم فيما تهدف إليه من توحيد الأمة العربية ، والعمل على إرجاع وحدتها السياسية والحضارية ، وهي وحدة لم تقسم عراها في معظم أدوارها التاريخية إلا في هذه الفترة الأخيرة من حياتها ، بما اثبت في جسم البلدان العربية من سموم الاستعمار الغربي . والله نسأل أن تضافر جهود قادة الرأي فينا على نحو آثار تلك السموم . والعلم وخلوص النية والجِد كفيلة بأن تبوي " الأمة العربية مكاناً رفيعاً في ركب الإنسانية إلى شاطئ " السلامة ، وتقوى على حمل مشعل الحضارة ، فتقود قافلة الأمم كما كانت في الماضي .

سادتى :

إنه لما يثلج الصدر ويبشر بالخير أن ينتهى المؤتمر باتفاق وفود البلاد العربية على جميع القضايا التى عالجناها ، والوصول إلى حلول أجمعنا عليها ، وهذا مظهر آخر من مظاهر التشابه فى الاتجاه والتفكير عند جيل المفكرين فى الأمة العربية . ولعل أحسن ما هدف إليه المؤتمر فى توصياته العامة إلى جامعة الدول العربية : العمل على إحياء تراث الشرق العربى وأبجاده ونشرها بين الشعوب العربية وشعوب العالم ، حتى تؤدى رسالتها الجليلة ، فى تربية الذوق الفنى وتوسيع آفاق الفكر والعقل البشرى ، وذلك بقراءة قصة الإنسان العجيبة ، وهى مدونة فى آثار الشرق الأدنى منذ وجد على هذه الأرض وتدرج فى تطوره حتى إنشاء الحضارات الأولى فى هذه الربوع .

وثمة وجه آخر ينظر منه إلى نجاح هذا المؤتمر ، وهو أن وفوداً من مختلف الدول العربية اجتمعت فى مكان واحد ، وتباحث أعضاؤها ، وكانهم أبناء بلد واحد ، وأفادوا فائدة متبادلة ، وتقاربوا فى الرأى والاتجاه . وعندى أن المؤتمر أصاب حظاً وافراً من النجاح إن لم يكن فى شىء آخر إلا فى هذا الاجتماع السعيد بين أبناء البلاد العربية . وبالختام اسمحوا أن أكرر باسم العراق ونيابة عن إخوانى أعضاء الوفد العراقى أجزل الشكر وأطيب التناء لسورية الشقيقة ودمشق الخالدة الجميلة ، سائلاً المولى جل شأنه أن يسد خطاها فى نهضتها وظفرها ، وعلى رأسها ابنها البطل المجاهد نخامة السورى الأول ، شكرى القوتلى .

والسلام عليكم .

كلمة السيد محمد شطا

مندوب المملكة العربية السعودية

صاحب المعالي :

إذا استطاع هذا المؤتمر أن يخلق بنا في أجواء مشرقة من أنجاد التاريخ الماضي وحضارته ، فقد استطاع هذا الشعب الكريم أن يرسم لنا صورة فاقته عن نهوضه وتقدمه وعن حضارته ومدنيته .

لقد استمتعنا بحفاوة الأمة السورية شعبها وحكومتها فترة من الزمن كان لها أجل الأثر في نفوسنا . إنه لم يستول على مشاعرنا ذلك الجمال المادي الذي ترتفع مقاييسه في شتى مظاهر الحياة في هذا البلد العربي فحسب ، بل ملك نفوسنا إعجاب أسمي من ذلك وأبعد أثراً من هذا ، إنه تلك الروح العربية تفيض بشراً في الوجوه وإيماناً في العقيدة وإخلاصاً في الجهاد . لقد وجدنا في هذا البلد العزيز من جميل الحفاوة وكرم الضيافة وحسن الوفادة ما يتضاءل دونه الشكر والثناء ، ولكن شكرى رمز إخلاص وغوان وفاء ، إنه يمثل شعور أمة تعرف الفضل لذويه والكرامة لمستحقها .

يا صاحب المعالي :

لقد أدى المؤتمر واجباته بنجاح ، فأضاف بمجهوداته المباركة إلى الآثار حلقة جديدة من أثر خالد وعمل مجيد . إنه يستحق الشكر والثناء ويستحق التهئة والإطراء . ونحن إذ نشير إلى الاعتراف بهذه الجهود والتقدير لهذا النجاح ، فأتنا لن ننسى تلك المؤسسة الحيارية التي تبذل كل ما في وسعها لخير العرب وإعزازهم ، حتى يقول العرب كلهم فتدوى لها الدنيا ويصنى لها العالم ، تلك هي الجامعة العربية أهم حدث سياسى واجتماعى في التاريخ العربى الحديث .

لقد كان لها الفضل العظيم في إعداد هذه المؤتمرات المتتالية ونجاحها ، وكان لها الفضل في أداء هذه الرسالة العامية وفلاحها . فحيا الله الجامعة العربية ، وحيا الله الأمة السورية .

كلمة واصف البارودي بك

مندوب لبنان

تمتع من شميم عرار نجد فبا بعد العشية من عرار

سيداتي ، سادتي :

نعم ، هذه عشية تحتّم بها أيام نعمنا فيها بالاجتماع إلى إخوان كرام أعزاء ، وأنسنا كل الأنس بنخبة ممتازة من أهل العلم والفضل ، مثلت ، خير تمثيل ، ثقافة بلدان عربية شقيقة في مؤتمرين عربيين انبثقا عن اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية ، وعقدا في لبنان وفي سورية ، حيث نجحنا ، ولله الحمد ، كل النجاح .

وقد كنت سعيداً جداً ، إذ منحتني حكومتى الجليلة شرف تمثيلها مرة ثانية ، فتسنى لي الاشتراك في مؤتمر الآثار في هذا البلد الطيب ، عاصمة الجمهورية السورية الشقيقة ، فكان لي بذلك الحظ الأكبر ، إذ أتيحت لي ظرف جديد لا أستمّر متمتعاً بغير جو الأخوة والتآلف والتحاب .

وليس مؤتمر الآثار ، في نظري ، سوى استمرار للمؤتمر الثقافي الذي عقد في لبنان ، ما دامت الآثار ، في حقيقتها ، تعبيراً صادقاً عن الحضارة في العصور . وهل تكون الثقافة صحيحة تامة ، إذا لم تتصل جذورها بتلك الحضارات الغابرة ، مستمدة منها القوة والغذاء ؟.. وهل من صلة بتلك الحضارات أقوى من صلة الآثار ، تلك الكائنات الجامدة المتحركة ، الصامتة الناطقة ، والميتة الحية ؟

فشكراً لكم ، أيها السادة العلماء العاملون في استخراج هذه الآثار من مدافنها ، وفي تنسيقها وعرضها ، مهلين بأبحاثكم عن كنهها على طالب الحقيقة أن يحل ما عليها

من طلاس ، ويدرك ما تنطوى عليه من أسرار ، فيفهم نشأة الفكر وتطوره ، ويرى نفسه في تلك الآثار ، كما يراها في نفسه ، وهنيئاً للبلاد العربية بكم ، وبأمثالكم من الرجال العاملين .

إنني أهنيئكم وأشكركم جميعاً باسم الحكومة اللبنانية التي أتشرف بتمثيلها ، وأحيي نخامة رئيس هذه البلاد المحبوب وحكومته وشعبه ، كما أحيي جميع ملوك البلاد العربية وحكوماتهم وشعوبهم ، منياً على هذا البلد المضيف الكريم ، شاكرآ له حسن حفاوته ، وتسهيله لأعمال هذا المؤتمر الذي نأمل لأبحاثه القيمة أروع النتائج وأنعمق الأثر .

كلمة الدكتور زكي محمد حسن

المندوب الأول في وفد مصر

نحج هذا المؤتمر نجاحاً باهراً ، واستطاع أعضاؤه الوصول إلى قرارات عظيمة الشأن . وإذا كنا قد أصبنا هذا النجاح الذي نعبط عليه ، فالفضل الكبير للحكومة السورية ، إذ رحبت بعقد المؤتمر في دمشق ، وتفضل نخامة رئيسها الأول ، فشمله برعايته السامية ، وكان لوزارة المعارف ومصلحة الآثار القسط الأكبر في هذا السبيل ، فحن مندوبين المصريين تقدم بواجب الإجلال إلى نخامة رئيس الجمهورية السورية ، وبالشكر إلى رجال حكومته على حسن حفاظهم بنا وجهودهم في تيسير مهمة أعضاء المؤتمر وجعل إقامتهم في هذا القطر الشقيق إقامة سعيدة يحفظون لها أكل الذكرى .

وإننا نشكر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية التي فكرت في عقد هذا المؤتمر ، فأناحت لنا معشر الأثريين أن نجتمع شملنا ، ويتم التعارف يننا ، ونساهم في النهضة الثقافية في بلادنا .

وسوف تقدم قراراتنا إلى جامعة الدول العربية لتقرها وتبلغها إلى الدول العربية المشتركة فيها ، ولأرب في أن هذه المقررات ستظفر بترحيب الحكومات العربية ، وستلقى من رعاية جلالة ملكنا فاروق الأول حفظه الله ما ستلقاه من رعاية أصحاب الجلالة والفتخامة ملوك العرب ورؤسائهم ، رعاهم الله وسدد خطاهم في خدمة الشعوب العربية ، والعمل على ما فيه خيرها ورفاهيتها .

كلمة الأستاذ أحمد نخري

مندوب اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف السورية ، سادتي :

وقفت بالأمس عند افتتاح هذا المؤتمر أحمل إلى حكومة سورية وشعبها تحية اليمن ،
وهأنذا أقف مرة أخرى بعد أيام ثمانية مرت كمر السحاب لأعبر عما تسكنه نفسي
— بل نفوس جميع الزملاء الذين اشتركوا في المؤتمر — من الشكر والاعتراف بالجميل .
لقد سعدنا برؤية بلادكم الجميلة الساحرة عن قرب ، وغمرنا كرم نخامة رئيس الجمهورية وكرم
دولة رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وشملتونا بعطفكم وعنايتكم ، كما أبى أصحاب السعادة
محافظو دمشق وحلب وحمص إلا أن يسيروا على سنة الكرم والحفاوة . وكان لنا شرف
تلبية دعوة النادي العربي حيث التقينا بأعضائه الممتازين ذوى التاريخ المجيد في خدمة البلاد ،
كما تشرفنا أيضاً بتلبية دعوة الجمع العلمي ، وهو الجمع الغني بعلامته وأبحاثه ، وعلى رأسه
أستاذنا العظيم الممتاز الذي يعتز به جميع أبناء العروبة .

فلكم يا صاحب المعالي ولرجال بلادكم العظماء ، بل لجميع أفراد هذا الشعب الكريم ،
أخلص الشكر وأسمى .

يا صاحب المعالي :

لقد اجتمعنا في دمشق لعقد المؤتمر الأول للآثار ، وإني أؤكد لمعاليتكم أن هذا المؤتمر
قد حقق الغرض منه ، وساعد جمال مدينتكم الخالدة على توثيق عرى المودة والتآلف
بين رجال الآثار في الدول العربية ، فوضعنا بذلك الأساس لتشييد صرح علمي مشترك .

إن من لا ماضى له لا حاضر له ، ومن لا حاضر له لا مستقبل له . لقد ظهرت أول
بشار المدينة في بلاد الدول العربية ، فكنا حملة لواء العلوم ، وماضينا مملوء بالمجد وحاضرنا
يبشر بالخير ، أما المستقبل فعلمه عند ربى ، ولكتنا معشر أبناء الشعوب العربية عقدنا العزم
على السعى إلى المجد وسنناله وستعود لبلادنا سيرتها الأولى إن شاء الله . ولكم على
رجال الآثار عهد لن يحنثوا به ، هو أن يحافظوا على تراث أجدادهم ، وينشروا
لشعوبهم مفاخرها .

وقبل أن أغادر مكاني أرى من واجبي أن أذكر بالشكر مجهودات رجال إدارة
الثقافة بجامعة الدول العربية لما بذلوه من وقت وجهد أثناء انعقاد هذا المؤتمر ،
وليسمح لى الأستاذان الجليلان سعادة الدكتور عبد الوهاب بك عزام وسعادة سعيد بك فهم
بأن أذكر هذه الحقيقة ، فقد كانا طوال أيام هذا المؤتمر خير مرشد وخير صديق .

كما أقدم الحب والتحية إلى الزملاء الأعزاء رجال الآثار السوريين ومعاونيهم ،
فانهم لم يدخروا جهداً إلا بذلوه لراحتنا ولنجاح هذا المؤتمر . إنهم يا صاحب المعالي نخبة
ممتازة من الشباب المذهب الطموح الذى يحرص نخامة رئيس الجمهورية ويحرص حكومته
الرشيده على إعداده ، شباب يعرف واجبه الوطنى فيؤدى حق بلاده . وقد سلح نفسه
لمواجهة الحياة بالعلم ومكارم الأخلاق .

فلكم أيها الزملاء الكرام الشكر أتم الشكر ، أشكركم من أعماق القلب ، وأسأل الله
أن يجزيكم أحسن الجزاء ، وأن يهيئ لنا فى يوم قريب رد بعض هذا الجليل .
وكما أحسست بالسعادة عند ما حملت تحية اليمن إلى سورية ، فإن سعادتى تتضاعف
وأنا أحمل إلى اليمن رد هذه التحية .

وإنى أتوجه إلى الله جل شأنه أن يرعى سورية الأبية المتطلعة إلى المجد ، وأن يبق
نخامة رئيس جمهوريتها مناراً تهتدى بوطنيته بلاده وجميع البلاد العربية ، وأن يحقق آماله
وآمال حكومته فى إعلاء شأن العرب واتحادهم .

وأخيراً أتوجه إليكم أيها الأصدقاء والزملاء فى حفلة اختتام المؤتمر بالشكر والتحية ،
وإن أقول لكم : الوداع ، بل أقول : إلى اللقاء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الأمير جعفر الحسني

المندوب الأول في وفد سورية

سيدي معالي الوزير ، سادتي :

يسرنا أن يحتم مؤتمر الآثار الأول لدول الجامعة العربية أعماله بالشكل المرضي الذي انقض عنه ، وما انتهى إليه من نتائج طيبة ومقررات موفقة . ولا ندعي بأننا أتينا بالمعجزات ، غير أننا توصلنا لتحليل ما تشكو منه البلاد العربية من نظلمها الأثرية ، فعالجنا الأسس القويمة التي تكفل تقوم المعوج في قوانيننا . وتضمن لنا صيانة تراثنا ، والعناية بآثارنا وحمايتها من العابثين بها ، والعمل على نشر الثقافة الأثرية والفنية بين مختلف طبقات الأمة ، وإيجاد سبل التعاون بين المؤسسات الأثرية في سائر البلاد العربية . كما حددنا موقفنا من البعثات الأثرية الأجنبية ، على أن نعمل معها على أساس المعاملة بالمثل وتبادل هذا الحق .

ومن أجل ما تحلى به هذا المؤتمر روح الإخاء التي سادت أعضاء هذا المؤتمر ، وحرصهم الشديد على المصلحة المشتركة ، حتى خلنا أنفسنا في اجتماع عائلي لا في مؤتمر دولي . وما هذه الروح الطيبة التي حملها المؤتمر والتي تجلت في أبحاثهم ومناقشاتهم إلا صورة مصغرة للرسالة التي يحملها كل بلد من البلاد العربية ، بل هي صدى الرسالة الخالدة التي تدين بها دول الشرق العربي وترددها بقولها : « إن دنيا العرب هي أمة واحدة ، ولا يعمل الفرد إلا للمصلحة المشتركة » وكانت نتائج هذا المؤتمر الموفقة كغيره من المؤتمرات التي عقدها العرب في عهد استقلالهم ، هي أبلغ جواب للعشائمين من الشعوبيين الذين طالما اتهموا العرب بأنهم اتفقوا على ألا يتفقوا ، فهذا والله قول هراء واقتراف على العرب .

وقبل أن أختتم كلمتي هذه أرى من الواجب علينا أن نتقدم بالشكر الجزيل إلى اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية التي هيأت لنا هذا المؤتمر ، وأوجدت لنا فرصة ثمينة للتعارف بين العاملين في الحقل الأثري . ونرجو من ضيوفنا الكرام وإخواننا الأعزاء الأساتذة أعضاء هذا المؤتمر أن يصفحوا عما قد يكون قد بدر منا من تقصير في الواجبات نحوهم .

وبالحتام نرفع عظيم شكرنا إلى نخامة الرئيس الأول وحكومته الموقرة الذين شملوا بهذا المؤتمر بعظيم عطفهم ورعايتهم السامية . كما نشكر محافظة مدينة دمشق الممتازة ومحافظة حلب وحصص على حمايتها البالغة بأعضاء هذا المؤتمر ، والسلام عليكم .

كلمة معالي وزير المعارف السورية

[كانت الكلمة الأخيرة في الحفلة لمعالي وزير المعارف
بالوكالة، الأستاذ سعيد بك العزى، فارتجل الخطبة التالية]:

اسمحوا لي أيها السادة أن أتجرد قليلا من صفتي الرسمية، فأحدثكم كمحام،
لأتمكن من الدفاع عن نفسي لقاء ما سمعته من شكر للحكومة السورية ولبلادي.

إني لا أريد أن أوجه الشكر لكم، لأنني أعتقد أننا جميعاً نقوم بما يترتب علينا
من الواجبات إزاء شعبنا العربي، وليس في هذا فضل لأحد منا.

لقد مضى زمن كنا نعتقد فيه أنه من صنوف الخيال والخرافة التفكير في استقلال
البلاد العربية، وإيجاد تكتل عربي وتحقيق وحدة تضم الشرق العربي كله، ويسعدنا
اليوم أن نرى خيالنا حقيقة واضحة برزت في الجامعة العربية، واستقلال بعض الدول
العربية، وسير الدول الأخرى في طريق الحرية.

لقد وحدت بيننا الجامعة العربية في الأهداف والمبادئ، ومن واجبها الآن
أن تسعى لتوحيد شمل العرب في شتى النواحي، وإني لأرجو أن تسلك الجامعة
هذا السبيل، فتوحد العرب وتربطهم بروابط العلم والثقافة والإيمان، وكل اتحاد عربي
لا يبنى على هذه الأسس لا يتكامل بالنجاح.

إن بلادنا بلاد العجائب والمعجزات والآثار، ومصدر الأديان السماوية، ومبعث
الثقافات، وهي التي نقلت إلى الغرب الثقافة والحضارة، كما نقلت إليه الأديان، وجميع
هذه المحامد آثار تفاخر بها، فهي دليل قوة أمنا وعظمتها.

أيها السادة :

تفضلتم وذكرتم الكثير عن الحفاوة التي قوبلتم بها في ربوعنا ، ولكنكم نسيتم أن سورية ما هي إلا جزء من بلاد الجامعة العربية ، فإذا ما قامت بواجبها نحوكم فأنتم تقوم بواجب الأخ نحو أخيه ، وليس لها فضل في ذلك ، فبالأمس عقدت اللجنة الثقافية مؤتمرها في لبنان ، واليوم عقدت مؤتمر الآتار بدمشق ، وفي كلتا الحالتين رأى المؤتمرون العرب أنفسهم في بلد عربي كريم ، لأن لبنان وسورية هما بمثابة شقيقين تتوحد مصالحهما مع مصالح العرب طرأ ، وليس من يفرق بين الأقطار العربية بعد الآن ما دامت هناك جامعة عربية .

تقرير

الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن

السكرتير العام للمؤتمر

یہ

میں نے یہ سب لکھا ہے

میں نے یہ سب لکھا ہے

المؤتمر الأول للآثار

في البلاد العربية

للكنتور زكي محمد حسن

أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول ، وسكرتير المؤتمر العام

فكرت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية في العمل على عقد مؤتمرين في صيف هذا العام ، وقد تم لها ما أرادت ، فعقد المؤتمر الثقافي في لبنان ، ومؤتمر الآثار في البلاد العربية بدمشق . وهما حلقتان في الجهود العظيمة التي تبذلها جامعة الدول العربية في دراسة شؤون العرب الثقافية ، والتأليف بينها ، ليكون ذلك كله أكبر عون على حفظ تراث العرب وتوحيد كلمتهم ، حتى ينالوا المنزلة التي يستحقونها بين الأمم الحديثة .

وقد عقد مؤتمر الآثار في مدينة دمشق ، وتفضل حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية فشمله برعايته ، وأعدت حكومته الرشيدة « قصر العظم » لأعمال المؤتمر وجلساته ، وهو بناء أثرى جميل ، يرجع إلى بداية القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) .

وافتح المؤتمر في ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ في حفل عظيم رأسه نخامة رئيس الجمهورية السورية ، يحف به الوزراء ، وتحدث نخامته عن وحدة العرب ، وجهود جامعة الدول العربية وأهدافها ، وعن آثار البلاد العربية ، ووجوب العمل على حفظها ودراستها . ثم ألقى كلمة وزير المعارف السورية ، معالي الأمير عادل أرسلان ، بالنظر إلى تغييه في اجتماع هيئة الأمم المتحدة . وألقى الأستاذ أحمد أمين بك كلمة للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، فتحدث عن حضارة العرب ، ووازن بين غابريهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وأشار إلى نهضة البلاد العربية والوعى القومى فيها ، وعرض الوسائل

اللازمة لتوحيد كلمة العرب ، ولا سيما الوسائل الثقافية ، ومن أهمها التعاون في حفظ الآثار وإخراجها ودراساتها على أيدي أبناء البلاد العربية ، حتى لا يظلوأ عالة على العلماء الأجانب الذين كان لهم فضل لا يحجد في هذا الميدان .

وألقى بعد ذلك المندوبون الأول في وفود الدول العربية كلمات تناسب المقام، فتكلم الأمير جعفر الحسنى عن سورية ، والسيد طه باقر عن العراق ، والسيد محمد شطا عن المملكة العربية السعودية ، والأمير موريث شهاب عن لبنان ، والدكتور زكى محمد حسن عن مصر ، والأستاذ أحمد نجرى عن اليمن . ثم انتهت حفلة الافتتاح ، وانصرف الأعضاء إلى أعمال المؤتمر ، فبدأوا بانتخاب أعضاء اللجان الثلاث ، وهى لجنة القوانين الأثرية ، ولجنة الثقافة الفنية ، ولجنة المصطلحات الفنية ، وانتخب لرياسة اللجنة الأولى الأمير جعفر الحسنى المندوب الأول في وفد سورية ، ولرياسة اللجنة الثانية الدكتور زكى محمد حسن المندوب الأول في وفد مصر ، ولرياسة اللجنة الثالثة السيد طه باقر المندوب الأول في وفد العراق .

ومما يستحق الذكر ما أشار إليه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك في كلمته في حفلة احتتام المؤتمر عن اجتماع مثل هذا العدد من رجال الآثار العرب ، وأنه يؤذن بانقضاء العهد الذى كانت علوم الآثار فيه وفقاً على الأجانب ، فقد كانت الوفود الرسمية لدول الجامعة تضم زهاء خمسة عشر عضواً من العرب الاختصاصيين فى علوم الآثار ، يعملون فى تدريس الآثار فى الجامعات المصريتين ، أو يضطلعون بالأعمال الفنية فى المتاحف ودوائر الآثار فى دول الجامعة العربية . أما سائر أعضاء المؤتمر فمن الاختصاصيين فى الآثار ، أو المعنيين بها من رجال التعليم ، أو أصحاب المجموعات الفنية .

وكانت أعمال المؤتمر تنسحب إلى ثلاثة وجوه : أولها أعمال اللجان ، والثانى البحوث والمحاضرات الأثرية التى ألقاها الأعضاء ، والثالث زيارة بعض المتاحف والمناطق الأثرية فى سورية .

أما لجان المؤتمر الثلاث التى أشرنا إليها فقد عقدت عدة اجتماعات عرضت فيها للموضوعات الفنية التى تعنى بها ، وانهى كل منها إلى قرارات وتوصيات وافق عليها

أعضاء المؤتمر مجتمعين في جلسته الختامية يوم السبت ٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، وهذه هي التوصيات مع بعض التقيب عليها :

١ — أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العلمية الأثرية في الدول العربية لتقوم بأعمال التقيب ، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن جلالتي ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار في هاتين المملكتين ، واقترح ما يلزم للقيام بأعمال التقيب فهما نظراً لأهمية تاريخ اليمن والبلاد السعودية في تاريخ الأمة العربية .

والحق أن تأليف هذه الهيئة هو الوسيلة المثلى لتعاون العرب في كشف آثار شبه الجزيرة العربية تعاوناً يحقق النفع العالمي ، وبهيء للعرب أن يسهموا في علم الآثار بكشوف حديثة تنسب إليهم ، قد تغير كثيراً من النظريات القائمة الآن ، أو تميظ اللثام عن حقائق علمية جديدة ، فضلاً عن أنه يحد من أطماع الهيئات العلمية الأجنبية في القيام بأعمال التقيب عن الآثار في هاتين المملكتين العربيتين .

وإذا وافقت الدول العربية — وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن — على هذا الاقتراح ، فطبعي أن يترك تأليف هذه الهيئة إلى جامعة الدول العربية ودوائر الآثار في البلاد العربية ، حتى تمثل في أعضائها أنواع الاختصاص والأعمال الفنية الواجب تعاونها في أعمال التقيب الدقيق ، من اختصاصيين في فروع علم الآثار وفي الحيولوجيا ، فضلاً عن المصورين والمهندسين وغيرهم .

٢ — أن يدرس فن التقيب في المعاهد العليا للدراسات الأثرية في دول الجامعة العربية . ولا ريب في أن الباعث على هذا الاقتراح رغبة أعضاء المؤتمر في أن تهيب الدول العربية جيلاً من شباب العرب الاختصاصيين في التقيب عن الآثار ، بعد أن كان هذا العمل وفقاً على رجال البعثات الأجنبية ، وطبعي أننا لا نريد أن تنصرف عن التعاون مع الهيئات العلمية أياً كانت ، ولكننا نريد تعاون التدللند ، ونريد أن يكون كشف الآثار في البلاد العربية على يد اختصاصيين من العرب كلما استطعنا الى ذلك سبيلاً . وقد

أصبح التنقيب علماً وفناً يجب أن يتلقاه علماء وعملياً كل الذين يريدون أن يقوموا بحفائر تظمن لنتائجها الدوائر العلمية المختلفة ، فلا بد من إضافته إلى المواد التي يتلقاها الطلبة في معهد الآثار بجامعة فؤاد الأول ، وفي المدرسة العليا للثقافة الأثرية .

٣ — أن تبرز محاسن المآثر الأثرية ، وبزوال ما يشوه وجهاتها من الأبنية الدخيلة عليها . وقد دفع إلى هذا الاقتراح ما نراه في كثير من المآثر الإسلامية التي قامت في مداخلها ، أو إلى جانبها ، أبنية حديثة معظمها ضئيل الشأن ، شوه معالم الآثار . أو جعل الحراب يمتد إليها ، بل إتنازى أحياناً أن بعض الأفراد يتخذ المآثر الأثرية سكناً له . ولعل أحدث مثال لنتائج الطيبة التي يمكن الحصول عليها من إزالة الأبنية الدخيلة ما قامت به السلطات المصرية المختلفة لإزالة ما كان يحجب أو يشوه السور الفاطمي بمدينة القاهرة ، بين باب النصر وباب الفتوح .

٤ — أن تؤلف السكتيات عن المآثر الأثرية ، وتدوّن البيانات التي توخىها عند مداخلها لتعريف الشعب بها وبميزاتها الفنية وقيمتها الأثرية .

٥ — أن توضع القوانين لحماية المواقع الأثرية ، بحيث لا يستطيع أى شخص أن يعتدى على جمال تلك المواقع بتشييد المآثر الحديثة ، أو التي لا يتناسب طرازها مع المناطق الأثرية بوجه عام ، وبذلك يكون تشييد أى بناء ، أو شق أى طريق في المناطق الأثرية ، خاضعاً لإدارات الآثار ، ولا يصرح به إلا بعد أن تدرسه وتأذن به السلطة المختصة في الدوائر الأثرية .

ولا ريب أننا في حاجة ماسة إلى مثل هذه القوانين ، لأن الاعتداء على المنظر العام أو على مجموعة الآثار في أى منطقة أثرية ، أمر يجب ألا يسمح بحدوثه .

وحسبنا ما حدث في القاهرة بعد شق شارع الأزهر الجديد ، وقيام طائفة من المآثر الجديدة المختلفة الطراز على مقربة من الجامع الأزهر .

٦ — أن تعمل الجهات المختصة بالآثار ، في مختلف الدول العربية ، على ألا تستعمل المباني الأثرية الدينية في غير الأغراض التي أنشئت من أجلها .

٧ — أن يراعى في تنظيم المتاحف — بقدر الإمكان — أن تكون هناك أقسام خاصة تجمع فيها التحف اللازمة لدراسة الاختصاصيين ، وبذلك يفسح المجال لعرض سائر المعروضات عرضاً يجلبها للزائرين ، ويبرز قيمتها ، ويسهل الاستفادة من زيارتها .

والواقع أن الشعب معذور في عدم الإقبال على معظم متاحفنا ، لأن فائدته من زيارتها ضئيلة ، وذلك لأن السياسة التي تتبعها هذه المتاحف في عرض محتوياتها سياسة غير منظمة ، حتى أصبحت المتاحف مخازن تنكدس فيها الآثار ، فتعب الزائر وتدفعه إلى أن يمر بها مسرعاً ، ولا تشجعه على أن يكرر زيارته . ولا عجب فائداً يجب أن نقتن إلى الفائدة العظمى التي تجنيها دور الآثار من اختيار طائفة من التحف تجمع بين الجمال والقيمة الأثرية ، ثم العمل على إبرازها بعرضها عرضاً فنياً يجذب النظر وترتاح إليه النفس ، بدلاً من تركها بين عشرات التحف الأخرى يزدهم بها المسكان و « تقتل » كل منها التحف الأخرى — كما يقولون في اللغات الأوربية — أما سائر التحف التي تضمها دور الآثار ، والتي لا شك في قيمتها العلمية بوصفها وثائق طيبة للمستفيدين بالفنون والآثار ، فمن الخير أن توضع في قسم مستقل بالمتحف ينصرف فيه الاختصاصيون إلى الدرس ، حتى لا يتحمل الزائر العادي عناء النظر إلى تمائيل مكسورة أو مشوهة ، أو إلى قطع من نسيج أو أجزاء من آنية لا يستطيع أن يدرك موطن الجمال فيها ولا الحكمة في المحافظة عليها والاعتزاز بها ، وإذا عرضت مثل هذه التحف التي لا يبدو عظم شأنها أول وهلة فلا بد من أن يصحبها شرح واف يبين مواطن الجمال وعظم الشأن فيها .

٨ — أن تعنى السلطات بإيجاد الأمكنة الفسيحة اللائقة بدور الآثار فيها . ولا ريب في أن المتاحف لا تستطيع أن تؤدي رسالتها ، وأن تقوم بنصيبها في تربية الشعب ، إلا إذا أتيح لها المكان اللازم لعرض كنوزها الفنية عرضاً يحقق الفائدة . وحسبنا أن دار الآثار العربية في القاهرة تضم من التحف ما يلزم لعرضه مكان لا تقل قاعاته عن ثلاثة أضعاف القاعات الموجودة في مكانها الحالي . وهو الطبقة الأرضية من البناء الذي تشغله دار الكتب المصرية . فلا عجب إذا ظلت دار الآثار العربية مخزناً ، وليس

هذا يستعرب في شيء ، فإن قاعاتها ظلت هي زهاء أربعين عاماً ، على حين أن معروضاتها زادت الى أكثر من عشرة أضعاف .

ومما يجدر تسجيله أن بعض المتاحف في البلاد العربية — مثل لبنان وسورية — تتم بدور تلامها ، وتسمح بعرض محتوياتها عرضاً فنياً حديثاً .

٩ — أن تعمل الهيئات الفنية في المتاحف على وضع دليل لسلك متحف ، فضلاً عن الشروح المعروفة بكل الآثار المعروضة لتمكين الزائرين من الإفادة من زيارتهم .

وطبيعي أن من خير الوسائل للتعريف بالمتحف المعروضة أن ينشر كل متحف «دليلاً» للزائرين تشرح فيه المعروضات . وهذا لو اتبع في تأليفه ترتيب الأرقام المسلسلة . فيجد الزائر وصف التحفة في الرقم الموافق لرقمها في الدليل . وذلك حتى لا تقل فائدة الدليل إذا أعيد تنظيم قاعات المتحف أو حدث أي تغيير في نظام عرض التحف ، ولكن تأليف الدليل لا يعنى المتاحف من وضع لافتات صغيرة لشرح أكبر عدد من المعروضات .

١٠ — أن تعمل السلطات الأثرية على إنشاء متاحف محلية في مختلف المدن . ويراعى في ذلك أن تنقل إليها التحف المكورة في المتاحف الرئيسية ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بتاريخ المنطقة التي يقوم فيها البلد ، أو ما كان مستخرجاً منه ، أو ما وجد في عمارته الأثرية .

وإنشاء هذه المتاحف الإقليمية فيه تعميم لفائدة المتاحف ، وتربية للذوق الفني ، وتنقيف للشعب في الأقاليم ، فضلاً عما يثبه من المنافسة المشكورة بين المدن المختلفة في العناية بآثارها والفخر بماضيها .

١١ — أن تعنى دوائر الآثار والمتاحف بنشر المؤلفات السهلة المختصرة باللغة العربية لتنقيف الشعب ، وذلك إلى جانب المؤلفات العلمية الدقيقة الواقية التي تقوم بإصدارها . والواقع أن معظم ما كانت تخرجه دوائر الآثار في الشرق العربي — ولا سيما مصر — حتى السنين الأخيرة إنما كان من المطبوعات العلمية التي أقبل الأجانب على تأليفها للاختصاصيين ، ولأننا واجبنا الآن أن نعنى بتنقيف مواطنينا ، وأن نقبل على إخراج

المطبوعات السهلة باللغة العربية لنيسط فيها مسائل الفنون والآثار ونحبها إلى طبقات الشعب ، حتى لا تظل وفقاً على نقر من الاختصاصيين . وقد سبقنا الدول الغربية في هذا الميدان . وحسبنا أن نذكر المطبوعات المختصرة التي يصدرها المتحف البريطاني ، ومتحف فكتوريا وألبرت ، ومتحف اللوفر ، ومتاحف الدولة في برلين ، ومتحف المتروبوليتان في نيويورك .

١٢ — أن يتبادل المطبوعات في الآثار والصور ونماذج المتحف والخرايط وغير ذلك من الأسانيد بين البلاد العربية .

١٣ — أن يتبادل الاختصاصيون في الآثار بين دول الجامعة العربية في فترات مختلفة ، وأن يزور الاختصاصيون في كل دولة من هذه الدول مناطق الحفر والتنقيب عند الدول العربية الأخرى .

وطبيعي أن ذلك يشمل تبادل الأساتذة الزائرين لإلقاء محاضرات في موضوعات اختصاصهم ، كما يشمل تبادل أمناء المتاحف ، يقيمون في المتاحف الأخرى للاطلاع على الأساليب الفنية المتبعة فيها .

١٤ — أن تعمل سلطات الآثار في بلاد الجامعة العربية على تبادل المتحف التي يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لإمكان تمثيل مختلف الطرز الفنية في متاحف تلك الدول .

والحق أن هذه مسألة جذيرة بالعباية ، لأن بعض متاحفنا غني جداً بمتحف مكررة تمثل طرازاً واحداً ، على حين أننا نراها فقيرة في المتحف التي تمثل بعض الطرز الفنية الأخرى . وكذلك تقوم بعض دوائر الآثار بحفائر ، فتزدهم مخازنها بالمستخرج من هذه الحفائر ، وتصبح غنية جداً بما يمثل حقبة من حقب الحضارة الإسلامية ، على حين تخلو متاحف الدول الأخرى من منتجات تلك الحفائر .

١٥ — أن تعمل دول الجامعة العربية على إنشاء متحف في إحداها أو في كل منها خاص بأزياء الدول العربية ومظاهر حضارتها في العصور الحديثة .

ولا ريب في أن لهذا فائدة جلية في تعريف الدول العربية بعضها ببعض .

١٦ — أن تتقدم الجامعة العربية إلى الدول العربية راجية أن تتخذ الوسائل اللازمة لعلاج الخطر الذي يهدد ترميم الآثار بانقراض العمال الاختصاصيين ، وأن تعمل كل دولة على الاستفادة من يوجد منهم في سائر الدول الأخرى . وجبذالو أمكن أن تقدم كل دولة يائناً بأسماء المهرة من الاختصاصيين ونوع اختصاصهم .

١٧ — أن تعنى حكومات الدول العربية بنمو متاحفنا بمختلف الطرق ، كتوفير المال اللازم للتنقيب عن الآثار ، واقتناء التحف التي تظهر في الأسواق ، ولا سيما ما كان منها متصلاً بتاريخنا القومي وراثتنا الفني .

ويجب أن نذكر في هذه المناسبة أن العبء في مد متاحفنا بالكنوز الفنية يقع كله على عاتق حكوماتنا العربية ، لندرة محبي الآثار الذين يقبلون على شراء التحف الثمينة لتقديمها لمتاحف بلادنا ، أو لتؤول إلى تلك المتاحف بعد وفاتهم ، على نحو ما يحدث كثيراً في البلاد الغربية .

١٨ — أن تعنى حكومات الدول العربية بتدريس الآثار وربط دراسة التاريخ بدراسة الفنون والآثار .

ومما يجدر تسجيله في هذا الشأن أن اللجنة التحضيرية للتاريخ في المؤتمر الثقافي الأول (لبنان في سبتمبر سنة ١٩٤٧) أشارت إلى أهمية الآثار في دراسة التاريخ ، فنهت إلى توجيه العناية إلى الحفائر الأثرية ، وإنشاء المتاحف الفنية والإقليمية ، والاستعانة بالفنون الجميلة لتوضيح التاريخ العربي (ص ٧٠ من تقرير المواد الاجتماعية) .

١٩ — أن تعمل حكومات دول الجامعة على المحافظة على الآثار العقارية والمنقولة محافظة تامة ، وعلى الأخص ما يوجد من الآثار المنقولة الثمينة في مؤسسات الوقف الدينية ، وذلك بنقلها إلى المتاحف الأثرية ، أو إنشاء متاحف خاصة بها إذا اقتضى الأمر . ولا ريب أن من السداد الإشارة إلى إنشاء المتاحف الخاصة ، فالمعروف أن كثيراً من الكنائس الأوروبية تضم تحفاً ثمينة من العصور الوسطى ، ولم تفلح الحكومات دائماً في نقل هذه الكنوز الفنية ، إلى المتاحف الحكومية ، ولكنها نجحت في تسجيلها وحفظها في معارض خاصة في الكنائس نفسها .

٢٠ — أن يكون لكل حكومة الحق في أن تستملك (تنزع ملكية) جميع الآثار المنقولة وغير المنقولة ، سواء منها ما كان ملكاً للأفراد أو ما كان ملكاً لمؤسسات الوقف وغيرها .

ولعل بعض المشرعين يذهب إلى أن ما تشير إليه هذه المادة — ولا سيما بشأن الآثار المنقولة — فيه اعتداء على حق الملكية الذي تكفله الدساتير . والحق إنها مسألة لا تزال تحتاج إلى درس وتمحيص ، فالتأري في قانون الآثار القديمة في العراق (رقم ٥٩ لسنة ١٩٣٦) أن كل ما يوجد في العراق من الآثار القديمة المنقولة وغير المنقولة ، سواء ما كان منها على سطح الأرض أو في باطنها ، يعتبر من ثروة الدولة العامة ، فلا يجوز للأفراد أو الجماعات أن يتصرفوا بها ، أو يدعوا ملكيتها ، إلا ضمن القيود الموضوعة في هذا القانون (مادة ٣) . وأن الآثار المنقولة التي تكون في حيازة الأشخاص الحقيقية أو الحسكية عند صدور هذا القانون تبقى تحت حيازتهم على شرط أن يسجلوها لدى دائرة الآثار خلال ستة أشهر اعتباراً من تاريخ تنفيذ هذا القانون (مادة ١٦) ، وأن لدائرة الآثار أن تمتلك أيا كان من الآثار المنقولة المسجلة التي تكون تحت حيازة الأشخاص بالثمن الذي يتفق عليه الطرفان ، وإذا لم يتم التراضي بالثمن الذي تقررته لجنة تحكيم . . . الخ (مادة ٢٠) . نقول بينما نرى ذلك في قانون العراق نجد أن بعض الدول الأخرى لا تعطى الحكومة أي حق في استملاك الآثار المنقولة ، وإنما تعلق إصدار تلك التحف إلى الخارج على موافقة مصلحة الآثار ، فيكون هدف الحكومة حفظ التحف في الوطن ومنع تسريبها إلى الخارج . فخذوا لو عني المستشارون القانونيون لجامعة الدول العربية يبحث هذه المسألة .

٢١ — أن تتعاون دول الجامعة فيما بينها على أن تسترد كل دولة منها ما قد يتسرب من آثارها بصورة غير مشروعة إلى دولة أخرى من دول الجامعة . ويحسن أن يتم الاتفاق على مثل ذلك مع سائر الدول حفظاً للتراث القومي لدول الجامعة .

٢٢ — أن تعطى كل دولة من دول الجامعة حق الأولوية بالتعقيب للدولة التي تنفق معها على تبادل هذا الحق ، وتفضل دول الجامعة .

٢٣ — أن تضع كل دولة القيود اللازمة للحد من تجارة الآثار وقصرها على ما يوجد منها في الأسواق الآن أو في المجموعات الخاصة المسجلة . ويستثنى من ذلك الآثار التي ثبت الحصول عليها بطريقة مشروعة .

٢٤ — أن تعمل كل دولة على منع تزيف الآثار المنقولة أو تزويرها . ولا يعد تزيفاً تقليد الآثار لأغراض علمية أو فنية .

٢٥ — أن يوضع في قانون كل دولة ما يسمح بتبادل بعض الآثار المسكورة أو إهدائها تسهلاً لتبادل الآثار بين المتاحف .

٢٦ — أن تعمل دول الجامعة على توحيد الشروط التي يجب أن تمنح بموجبها رخص التفتيش إلى الهيئات والمؤسسات العلمية ، وعلى تنفيذها كلها ، وعلى أن تدب الدائرة المختصة في كل دولة من يمثلها من مواطنيها أو مواطني دول الجامعة ليرافق البعثة التنفيذية .

٢٧ — أن تعمل كل دولة من دول الجامعة على تشديد العقوبات على كل مخالف لقانون الآثار فيها .

٢٨ — إقرار ماتم في مشروع معجم الفنون والآثار الذي يعده فريق من المشتغلين بالآثار في القاهرة ، وتأليف مكتب لنشر هذا المعجم من الدكتور زكي محمد حسن والأستاذ عباس بدر والأستاذ حسن عبد الوهاب ، وأن يعلن هذا لخصرات المشتغلين بالآثار والفنون في البلاد العربية ، وأن رجى من حضراتهم المساعدة في هذا المشروع بجمع ما اهتموا إليه من مصطلحات ، ونشرها في إحدى المجلات العلمية ، ثم إرسال نسخة من هذه الأبحاث إلى مكتب المعجم بالقاهرة لبحثها . وإذا أقر المكتب أى اصطلاح من هذه المصطلحات المنشورة فإنه يدخلها في المعجم مذيلة باسم صاحبها ، وبذلك النشر الجزئى للمصطلحات قبل إرسالها إلى مكتب المعجم يتحقق غرضان : أولهما حفظ حق التأليف لأصحابها ، وثانيهما عرض المصطلحات على جمهور الاختصاصيين لدراستها . ويجوز أن يرسل من يريد من حضرات الباحثين ما يهتدى إليه من مصطلحات رأساً إلى مكتب المعجم بدون سبق نشره . وطبيعى أن يذيل باسمه ما يختار منها للنشر . ويرسل

مكتب المعجم إلى دوائر الآثار في الدول العربية المختلفة بياناً بالمصطلحات التي يستقر رأيه على طبعها في كل ملزمة تعد من المعجم للحصول على ملاحظاتها عن هذه المصطلحات قبل طبعها . ويرجى أن تكون الاصطلاحات المنشورة أو المرسلة إلى مكتب المعجم مصحوبة بالشروح والرسوم والمراجع اللازمة .

٢٩ — أرجو المؤتمر أن تشمل اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية مشروع هذا المعجم برعايتها ، وأن تقوم على نشر هذا المعجم في كراسات مستسلسلة على غرار ماتم في نشر سجل الكتابات العربية الذي يصدره الأساتذة كومب وسولاجيه وفيت بمعونة سائر الاختصاصيين في الآثار الإسلامية .

٣٠ — أرجو المؤتمر أن تعمل جامعة الدول العربية على عقد مؤتمرات أخرى للآثار ، وأن يعقد المؤتمر الثاني بالقاهرة في شتاء سنة ١٩٤٨ .

وتشمل الناحية الأخرى من أعمال المؤتمر : المحاضرات والبحوث التي أقيمت فيه .
وفي اليوم الأول تحدث الأستاذ عبد الهادي حمادة عن « القوانين الأثرية في الشرق العربي » . والدكتور زكي محمد حسن عن « مستقبل الآثار والفنون في الشرق العربي » .
وفي اليوم الثاني تحدث الدكتور عبد المنعم أبو بكر عن « علاقة مصر بأهم الشرق الأدنى في عصور فجر التاريخ » . والسيد طه باقر عن « العلاقات بين العراق القديم وبلاد الشرق الأدنى » ، والأستاذ أحمد فخري عن « رحلة إلى مأرب » . والسيد فؤاد سفر عن « التنقيبات الأثرية في العراق وأساليبها » . والدكتور محمد مصطفى عن « شرف الأبوانى صانع الفخار المطلى في القرن الثامن الهجري » . والأمير موريث شهاب عن « أثر الفينيقيين في حضارة الشرق » . وفي اليوم الثالث تحدث السيد بشير يوسف فرنسيس عن « مظاهر الفن في عواصم العراق الإسلامية القديمة على ضوء الاستكشافات الحديثة » . والأستاذ حسن عبد الوهاب عن « مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة » .
وفي اليوم الرابع تحدث الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق عن « طراز الإسكندرية » .
وفي اليوم الخامس تحدث الدكتور سليم عادل عن « العلاقات بين الشرق الأدنى وبلاد

اليونان » ، وفي اليوم السادس تحدث السيد عبد العزيز عثمان عن « حفريات تل الحريري أو ماري » .

وقدمت إلى سكرتيرية المؤتمر بحوث لنشر في الكتاب الذي سيطلع عن أعمال المؤتمر وأبحاثه بعد أن ضاق الوقت عن إلغائها ، وهي للأثير جعفر الحسني والدكتور مأمون أبو النجا والأستاذ عبد السلام محمد والدكتور زكي محمد حسن .

وأعدت سكرتيرية المؤتمر معرضاً كبيراً للمؤلفات العربية التي ظهرت عن الآثار في البلاد العربية والمؤلفات الأوربية التي ظهرت عنها في سنوات الحرب الأخيرة .

كما أعد معرض آخر للوحات الفنية التي تمثل تطور العمارة الإسلامية في مصر ، ولصور أحدث المكتبات في دار الآثار العربية ، ولصور الحفائر التي قامت بها مصلحة الآثار المصرية في كوم الحصن بدلتا مصر . وأخرج الدكتور سليم عادل محافظ متحف دمشق مؤلفاً طيباً عن آثار سورية طبع في مناسبة انعقاد مؤتمر الآثار وقدم إلى أعضائه .

وقام أعضاء المؤتمر بعدة رحلات لزيارة المتاحف والمعالم الأثرية ، فزاروا متحف دمشق ومتحف حلب وقلمتها وبعض مساجدها وعماثرها الأثرية ، كما زاروا المعرة وحماة وحمص وبعلبك .

وبعد اختتام أعمال المؤتمر قام فريق من أعضائه برحلة إلى فلسطين لدية لدعوة دائرة الآثار فيها ، وأعدت لهم هذه الدائرة برنامجاً لزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وأقامت لهم في المتحف حفلة استقبال شهدها أعضاء المجلس الإسلامي وقناصل الدول ورجال الآثار وأعضاء البعثات العلمية . وألقى مدير الآثار بحثاً عن نتائج حفائره الأخيرة في المسجد الأقصى وخارجه ، كما تحدث الأستاذ براهيم عن حفائره في « خربة المفجر » ، وزاروا هذه الحفائر في اليوم التالي . ولبوا دعوة المجلس الإسلامي لحفلة شاي ، ودنى الأستاذ أحمد فخرى للتحدث عن رحلته في اليمن ، فألقى محاضرة في هذا الموضوع .

ولاريب في أن هذا المؤتمر نجح نجاحاً باهراً ، وتعارف بفضل صفوة المشتغلين بالآثار في الشرق العربي ، وتعاونوا في الوصول إلى مقترحات سوف يكون لها أثر كبير في حفظ التراث الفني العربي ، وفي تحقيق التعاون الذي تهدف إليه جامعة الدول العربية .

تقرير

حضرة صاحب الغزة محمد شفيق غربال بك

مقرر مؤتمر الآثار في اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية

اليونان ، وفي اليوم الثاني قدمت السيد عبد العزيز عثمان بن عبد العزيز
 بن الحري أو مرقدة بن السيد عبد العزيز بن السيد عبد العزيز بن السيد عبد العزيز
 و قدمت إلى سكرتيرة المؤتمر بحوث قنصل في الكنتا إلى سكرتيرة عن أعمال
 المؤتمر وأعماله بعد أن طاق الوقت من إقامتها ، وهذا المؤتمر جليل الجلس والمكتوب
 مأمون أبو النجا والأساذ عبد السلام عبد والكرنوك عبد حسن
 وأضحت سكرتيرة المؤتمر مرسماً كبيراً لمؤتمرات العربية إلى طهرت عن الآثار
 في البلاد العربية والمؤلفات الأوروبية التي طهرت في سنوات الحرب الأخيرة
 كما أعد مرسماً آخر أو مرسماً آخر في شأن تطور الحياة الإسلامية في مصر وتطور
 أحدث المنشآت في دار الآثار العربية ، وأصدر الحفائر التي قامت بها مصلحة الآثار
 المصرية في دار الآثار العربية ، وأخرج المؤتمر مرسماً آخر في شأن تطور الحياة الإسلامية في مصر
 مؤلفاً طبعاً من آثار مصرية طبع في مناسبة انعقاد المؤتمر في دار الآثار وقدم إلى أعضائه
 تقيماً عاماً لدار الآثار العربية لقيتها في سنة ١٩٢٤م في دار الآثار وقدم إلى أعضائه
 مرسماً في شأن تطور الحياة الإسلامية في مصر ، وأخرج المؤتمر مرسماً آخر في شأن تطور الحياة الإسلامية في مصر
 ودار الآثار وقدم إلى أعضائه تقيماً عاماً لدار الآثار العربية لقيتها في سنة ١٩٢٤م في دار الآثار وقدم إلى أعضائه
 وبعد استماع أمانة المؤتمر قام فريق من أعضائه بمرحلة إلى فلسطين لزيارة
 دائرة الآثار فيها ، وأضحت لم هذه الزيارة ، وأضحت لزيارة المسجد الأقصى وقبة
 الصخرة ، وأضحت لم في الحفائر ، خطة استعمال ترميم أعضائه الجليل الإسلاميين وقاسم
 الدول ورجال الآثار وأعضاء البعثات العلمية ، وأضحت لم في الحفائر ، خطة استعمال ترميم أعضائه الجليل الإسلاميين وقاسم
 الأخيرة في المسجد الأقصى وخارجها ، كما تحدث الأستاذ بامكي عن حفائره في جزيرة
 الفجر ، وداروا أحد الحفائر في اليوم التالي ، وأضحت لم في الحفائر ، خطة استعمال ترميم أعضائه الجليل الإسلاميين وقاسم
 وهو الأستاذ أحمد عري يتحدث عن زيارته في اليمن ، وأضحت لم في الحفائر ، خطة استعمال ترميم أعضائه الجليل الإسلاميين وقاسم
 والأستاذ في أن هذا المؤتمر جميع تهيؤة بحراً ، وأضحت لم في الحفائر ، خطة استعمال ترميم أعضائه الجليل الإسلاميين وقاسم
 الآثار في الشرق العربي ، وأضحت لم في الحفائر ، خطة استعمال ترميم أعضائه الجليل الإسلاميين وقاسم
 في حقل الزاوات التي الشرق ، وفي تحقيق التباين الذي تهدف إليه جامعة الدول العربية .

تقرير عن أعمال مؤتمر الآثار بدمشق

حضرة صاحب المعالي رئيس اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية

تفصيلاً لقرار اللجنة في جلسة الأربعاء أول أكتوبر ١٩٤٧ أثنى بأن أرفع
لعماليكم تقريراً عن أعمال المؤتمر الأول العربي للآثار الذي عقد في دمشق من ١٣
إلى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ راجياً الأمر بعرضه على اللجنة .

والقرارات التي اتخذها المؤتمر كانت نتيجة دراسة ثلاث لجان هي :

- ١ - لجنة القوانين الأثرية في البلاد العربية .
- ٢ - لجنة المصطلحات (أي المصطلحات التي يستعملها الأثريون) .
- ٣ - لجنة الثقافة الأثرية .

١ - القرارات المتعلقة بالقوانين الأثرية

عدد هذه القرارات تسعة . وهي عبارة في الواقع عن مبادئ يوصي المؤتمر الدول
العربية باتخاذها أساساً للتشريع المتعلق بالآثار لتقوية حماية الآثار ولتنظيم أعمال الحفر
والتنقيب ، ويتصل بهذه القرارات قرارات أخرى اتخذها المؤتمر في موضع آخر
في موضوع نشر الثقافة الأثرية ، كحماية المآثر الأثرية والمواقع القديمة من التشويه أو مما
يخفي محاسنها أو من نتائج استخدامها في أغراض تسبب لها أضراراً .

ولست بحاجة إلى بيان فوائده وضع قانون عام عربي للآثار ، إذ أن التراث
الأثري في البلاد العربية واحد متشابه ، والمشكلات والمسائل التي تواجهها البلاد العربية
واحدة . ومما يسر عمل اللجنة أن بعض البلاد العربية قد قطع مرحلة لا بأس بها

في تعديل قوانين الآثار طبقاً للتقدم العلمى الحديث واستجابة لانبثاق الروح القومى .
فقد نص في القوانين العراقية على ما علمت على وجوب تسجيل ما بأيدي الأفراد مما
يدخل في تعريف الأثر ، وفي مصر يعمل المختصون من رجال القانون في مراجعة
قوانين الآثار وتعديلها . وهذا كله مما يمكن أن تستفيد منه اللجنة القانونية . وبطبيعة
الحال ستستعين اللجنة بالمختصين من رجال الآثار .

٢ — القرارات المتعلقة بالمصطلحات

أحبط المؤتمر علماً بأن جماعة من الأثريين المصريين بدأت من زمن بوضع
معجم عربى للمصطلحات التى يستعملها الأثريون . وقد أقر المؤتمر الجماعة على ما عملته ،
وقرر تأليف مكتب فى القاهرة من الدكتور زكى محمد حسن والأستاذ عباس بدر والأستاذ
حسن عبد الوهاب يكون على اتصال مستمر بالأثريين العرب لتأليف هذا المعجم
على النحو العلمى .

ويرجو المؤتمر أن تشمل اللجنة الثقافية هذا المشروع برعايتها ، وأن تقوم على نشر
المعجم فى كراسات متسلسلة .

وقد ناقشت الدكتور زكى محمد حسن فى المشروع ، واقترح على الهيئة إقراره
والموافقة على وضع مبلغ ٤٠٠ جنيه فى ميزانية الإدارة الثقافية للسنة المقبلة لمواجهة
تكاليف تلك السنة . وهذا المبلغ هو الذى يقترحه الدكتور زكى محمد حسن ، ولم يرد
ذكره فى القرار .

٣ — القرارات المتعلقة بالثقافة الأثرية

هذه القرارات متنوعة :

منها (أولاً) ما يدخل فى نطاق تعديل أو تقوية القوانين ، وقد أشرت إلى ذلك .
ومنها (ثانياً) ما هو ترديد أو تفصيل للوارد فى مشروع المعاهدة الثقافية بين الدول
العربية (تبادل المطبوعات والنماذج والتحف والأثرين وهكذا) .

و (ثالثاً) ما ينبغي على كل بلد عربي أن يتخذه لنشر الثقافة الأثرية ، كتأليف الرسائل المبسطة وتعديل عرض التحف بالمتاحف وإنشاء المتاحف الصغيرة في غير العواصم الكبرى وهكذا .

و (رابعاً) التنبيه إلى زيادة الاعتمادات المخصصة لأعمال الحفر والصيانة وتوسيع المتاحف القائمة ، وإلى ضرورة المحافظة على العمال المهرة من التجارين ومن إليهم .

و (خامساً) دراسة فن التنقيب وما يتصل به في معاهد الآثار .

وتوصيات المؤتمر في هذا الشأن أقترح إحالتها على السلطات الحكومية المختلفة ، فهي من شأنها ، مع التوصية اللازمة .

وأود أن أوجه اللجنة لقرار اتخذ المؤتمر في موضوع الثقافة الأثرية وذلك لأهميته ونص القرار :

« أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العلمية الأثرية في الدول العربية المختلفة لتقوم بأعمال التنقيب ، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن حكومتى صاحبي الجلالة ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار في هاتين المملكتين واقترح ما يلزم للقيام بأعمال التنقيب فيهما نظراً لمكانة تاريخ اليمن والبلاد السعودية في تاريخ الأمة العربية » .

وهو اقترح يعود على العلم وعلى الأمة العربية بفوائد محققة ، وأرى أن يبدأ أولاً بالحصول على إذن الحكومتين المذكورتين ، فإذا تم هذا قام المكتب بدراسة تفصيلية لإنشاء الهيئة المشار إليها .

توصية مجلس الجامعة العربية

في الجلسة العاشرة المنعقدة بتاريخ ٢٢ من أغسطس ١٩٤٨

من دورته العادية السابعة

حول قرارات مؤتمر آثار البلاد العربية

”توصى الحكومات العربية بأن تضع قرارات المؤتمر الأول للآثار موضع العناية والاعتبار ، وأن تتخذ الوسائل الممكنة لتنفيذها“ .

الفهرس

١	تصدير بقلم حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك
٢	رياسة الجلسات ، المكتب الفني للمؤتمر اللجنة الإدارية ، السورية
٣	مندوبو الدول
٥	مندوبو الهيئات العلمية ، الأعضاء
٧	التمهيد لعقد المؤتمر
٩	مؤتمر الاثاري في البلاد العربية ، غاية ووسائله
١١	تقرير اللجنة الثقافية بالجامعة العربية في توثيق الروابط بين الدول العربية
٢١	من الناحية الأثرية
٢٨	برنامج المؤتمر
٣١	برنامج زيارة أعضاء المؤتمر لمدينة القدس
٣٣	حفلة الافتتاح
٣٥	خطبة نخامة رئيس الجمهورية السورية
٣٧	كلمة صاحب المعالي وزير المعارف السورية
٤٢	كلمة الأمير جعفر الحسني المندوب الأول في وفد سورية
٤٤	كلمة السيد طه باقر المندوب الأول في وفد العراق
٤٦	كلمة السيد محمد احمد شطا باسم وفد المملكة العربية السعودية
٤٨	كلمة الأمير مورييس شهاب مندوب لبنان
٥٠	كلمة الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن المندوب الأول في وفد مصر
	كلمة الدكتور أحمد غنري مندوب اليمن

صحيفة

٥١	لجان المؤتمر
٥٣	لجنة النقاغة الأثرية
٥٣	لجنة القوانين الأثرية
٥٤	لجنة المصطلحات الفنية
٥٥	البحوث والمحاضرات
٥٧	مظاهر الحضارة الإسلامية في دمشق وحلب للأمر جعفر الحسني
	العلاقات بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان منذ فجر التاريخ حتى العهد الهلنستي للدكتور
٦٨	سليم عادل عبد الحق
٧٩	حفريات تل حريوى (مابوى) للأستاذ عبد العزيز عثمان
٩٦	العلاقات بين العراق القديم وبلاد الشرق الأدنى للأستاذ طه باقر
	المظاهر الفنية في عواصم العراق الإسلامية على ضوء الاستكتشافات الحديثة للسيد
١١٦	بشير يوسف فرنسيس
١٢٩	التنقيبات الأثرية في العراق للسيد فؤاد سفر
١٤٠	القوانين الأثرية في بلاد الشرق العربي للأستاذ عبد الهادي حمادة
	علاقة مصر بشعوب الشرق القديم في عصور فجر التاريخ للدكتور عبد المنعم يوسف
١٥٠	أبو بكر
١٥٩	شرف الابوانى صانع الفخار المظلى في القرن الثامن الهجري للدكتور محمد مصطفى
١٦٥	طراز الاسكندرية للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
١٧٦	مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة للأستاذ حسن عبد الوهاب
١٩٢	رحلة الى مأرب للدكتور احمد غزوى
٢٠٥	تاريخ البرج الجنائزى في تدمر للأستاذ ارنست ويل
٢٠٧	مكتشفات جديدة في تدمر للأستاذ جان ستاركى
٢٠٩	معرض الكتب ، معرض الصور
٢١١	مقررات المؤتمر
٢١٣	لجنة النقاغة الأثرية
٢١٦	لجنة القوانين الأثرية في البلاد العربية
٢١٧	لجنة المصطلحات

صحيفة

- الحفلة الختامية ٢٢١
- كلمة حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك عن الجامعة العربية . ٢٢٣
- كلمة السيد طه باقر المندوب الأول في وفد العراق ٢٢٤
- كلمة السيد محمد شطا مندوب المملكة العربية السعودية ٢٢٦
- كلمة واصف البارودي بك مندوب لبنان ٢٢٧
- كلمة الاستاذ الدكتور زكي محمد حسن المندوب الأول في وفد مصر ٢٢٩
- كلمة الاستاذ أحمد غفرى مندوب اليمن ٢٣٠
- كلمة الأمير جعفر الحسينى المندوب الاول في وفد سورية ٢٣٢
- كلمة معالي وزير المعارف السورية ٢٣٤
- تقرير الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن السكرتير العام للمؤتمر ٢٣٧
- تقرير حضرة صاحب العزة محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف المصرية ومقرر مؤتمر الآثار في اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ٢٥١
- قرار مجلس جامعة الدول العربية ٢٥٦

تم طبع هذا المؤتمر في عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك "فاروق الأول" بمطبعة جامعة فؤاد الأول

في ٢٠ صفر سنة ١٣٦٨

محمد زكي خليل

مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول



121



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 00798 8614

DS56 .M86 1947

Mu'tamar al-athar fi